Digitized by Birzeit University Library

SPC
PJ
7510
.I238
1924
RBK
c. 2

المختصر
في
تاريخ آداب اللغة العربية

يشتمل على تاريخ اللغة العربية وعلومها وآدابها على
اختلاف مواضيعها وتراجم العلماء والادباء والشعراء
وسائر أرباب القرائح من أقدم الازمنة الى هذا العصر

كلية برزيت
٨٢١
BIRZEIT COLLEGE

تأليف
جرجي زيدان
منشىء الهلال

مطبعة الهلال
مصر سنة ١٩٢٤

Digitized by Birzeit University Library

مقدمة

بعد ان انجز المرحوم مؤسس الهلال كتابه المطول في « تاريخ آداب اللغة العربية » في اربعة اجزاء فكر في وضع مؤلف مختصر في هذا الموضوع تسهل مطالعته ويقرب تناوله من جمهور القراء ولا سيما طلاب العلم والادب من الناطقين بالضاد. فرسم خطة لهذا « المختصر » تختلف عن خطة الكتاب المطول وأهم أوجه الاختلاف بينهما انه جرى في هذا المختصر على تقسيم البحث حسب الموضوعات لا حسب الاعصر التاريخية أي انه تناول كل باب من أبواب الادب فتكلم عن نشأته وتطوره وذكر من نبغوا فيه بأسلوب سلس قريب المنال

فنحن نقدم اليوم هذا « المختصر » الى الناطقين بالضاد واثقين بانه يسد فراغاً كبيراً في عالم المطبوعات العربية

ولا بد لنا في هذا المقام من تقديم واجب الشكر للاستاذ أنيس الخوري المقدسي أستاذ الآداب العربية في الجامعة الاميركية ببيروت لما قام به من مراجعة أصول الكتاب وترتيبها بدقة وعناية

ادارة الهلال

[تصحيح خطأ] وقعت أغلاط قليلة في هذه الطبعة لا تخفى على فطنة القارىء وانما نشير من ذلك الى ما يأتي

الرقم ٥ السابق لعنوان « المدارس والموسوعات » في صفحة ٢٥ ، والرقم ٦ السابق لعنوان « تحويل العلوم » في صفحة ٢٦ يحذفان

كذلك تحذف جملة « فلنبحث في علوم هذا العصر . . . . » الواردة قبل عنوان « العصر العثماني » في صفحة ٢٦

Digitized by Birzeit University Library

محتويات الكتاب

	صفحة
مقدمة	
قذلكة تاريخية	٤
الرواية والرواة	٣٠
اللغة العربية	٣٦
الشعر	٤٤
أشهر الشعراء	٨١
الخطابة	١٢٧
الادب والانشاء	١٣٣
أشهر المنشئين والادباء	١٥٩
التاريخ	١٧٤
الجغرافيا	١٩٧
العلوم الدخيلة	٢٠٥
العلوم الاسلامية	٢٣٦
الموسوعات والمجاميع	٢٥١
النحو واللغة	٢٥٥
النهضة الاخيرة	٢٦٧
آداب اللغة العربية	٢٧٤

Digitized by Birzeit University Library

تمهيد

ما هو المراد بآداب اللغة

آداب اللغة علومها . والمراد بتاريخ آداب اللغة تاريخ علومها أو تاريخ ثمار عقول أبنائها ونتاج قرائحهم . فهو تاريخ الامة من الوجهة الادبية والعلمية . ولكل أمة تاريخ عام يشمل النظر في كل أحوالها ويتفرع الى تاريخ سياسي وتاريخ اجتماعي وتاريخ اقتصادي وآخر أدبي أو علمي . فالتاريخ السياسي يبحث فيما مرّ على الامة من الفتوح والحروب وما توالى عليها من الدول وأنواع الحكومات ونحو ذلك . والتاريخ الاجتماعي يبين الادوار التي تقلبت بها تلك الامة من حيث عاداتها وأخلاقها . والاقتصادي يتناول النظر في تاريخ مالية تلك الامة وثروتها وأحوالها الزراعية والصناعية وغيرها . وقس على ذلك سائر ضروب التاريخ . ومنها التاريخ الادبي أو العلمي وهو يبحث في تاريخ الامة من حيث الادب والعلم فيدخل فيه النظر فيما ظهر فيها من الشعراء والادباء والعلماء والحكماء وما دوّنوه من ثمار قرائحهم أو نتاج عقولهم في الكتب وكيف نشأ كل علم وارتقى وتفرع عملاً بسنة النشوء والارتقاء

والتاريخ العام ان لم يشمل تاريخ آداب اللغة كان تاريخ حرب وفتح وسفك وتغلب واستبداد . إذ لا يستطاع الوصول الى فهم حقيقة الامة أو كنه تمدنها أو سياستها الا بالاطلاع على تاريخ العلم والادب فيها . فهو شارح للتاريخ يعلل الاسباب والحوادث بعللها الحقيقية . فاذا قرأنا تاريخ أمة وعرفنا ما توالى عليها من الاحوال السياسية والادارية والاقتصادية والاجتماعية واستخرجنا أسباب تمدنها ورقيها أو تقهقرها وسقوطها ـ مهما علمنا من ذلك كله فان الاسباب لا تزال غامضة حتى نعلم تاريخ علوم تلك الامة وهو تاريخ عقولها وقرائحها فتتجلى لنا العوامل الاصلية في أسباب رقيها أو سقوطها . فان ما تخلفه من الآثار الادبية ينم على ما كانت عليه من الارتقاء العقلي أو الميل القلبي وسائر أحوالها من الاعتدال أو العفة أو التهتك من الهمة أو الخمول إلى غير ذلك من الآداب والاطوار ـ وانما الامة الاخلاق

Digitized by Birzeit University Library

ما بقيت – على أن تاريخ آداب اللغة لا يكون وافياً ان لم يوضح بالتاريخ السياسي

وأهل التمدن الحديث يجعلون البحث في آداب اللغة من أهم الوسائل لتفهم تاريخها السياسي ويقسمون ذلك التاريخ الى أطوار على مقتضى ما تقلب عليها من الاحوال الادبية ويقيسون ما تبينوه من الاطوار الماضية على ما سيكون . فيتنبأون عن مستقبل الامة متى عرفوا الطور الذي بلغت اليه في أيامهم . وبالقياس على الماضي يقولون ان هذه الامة هي الآن في دور الحماسة الشعرية مثلا ولا تلبث أن تنتقل الى العصر الادبي ثم العلمي فالفلسفي الخ

فتاريخ آداب اللغة هو تاريخ عقول أبنائها وما كان من تأثير ذلك في نفوسهم وفي أخلاقهم . ويدخل فيه تعيين ما بلغت اليه الامة من الرقي العلمي وامتازت به على سواها . وبيان تاريخ كل علم وما تقلب عليه من الاحوال . ووصف ما خلفوه من الآثار المكتوبة من حيث فوائدها وكيفية تفرعها أو تخالفها بعضها عن بعض

آداب اللغة العربية

وإذا نظرنا الى آداب اللغة العربية وأخواتها الساميات رأيناها تنطبق على ما تقدم بوجه إجمالي . أما عند التفصيل فاننا نجد بين آداب هذه اللغات وغيرها فرقاً كالفرق بين طبائع الساميين وغيرهم . فالشعر عند الساميين أقدم آدابهم لكن أكثره غنائي وليس فيه من الشعر القصصي إلا نتف قليلة . أما التمثيل (درام) فيظهر لأول وهلة أنه بعيد عن آداب العرب وسترى أنه موجود فيها – ولا غرو إذا امتازت اللغات الاوربية بالشعر القصصي والتمثيلي فان اللغة العربية وأخواتها يمتزن بنوع من الآداب كبير الاهمية ليس في لغات الافرنج منه الا نتف نعني «الامثال» فانها جزء مهم من آداب اللغات السامية ولا سيما العربية والعبرانية وتندر في سواها

وآداب اللغة العربية التي هي موضوع هذا الكتاب أغنى سائر الآداب السامية بل هي على الاجمال أغنى آداب سائر لغات العالم . لان الذين وضعوا آدابها في أثناء التمدن الاسلامي أخلاط من أمم شتى جمعهم الاسلام أو الدولة الاسلامية وفيهم العربي والفارسي والتركي والهندي والسوري والعراقي والمصري والرومي والارمني

Digitized by Birzeit University Library

والبربري والزنجبي والصقلبي وغيرهم . وكلهم تعربوا ونظموا الشعر العربي وألفوا الكتب العربية في الادب والنحو والتاريخ والطب والعلم والفلسفة . فاحتوت آداب اللغة العربية بسبب ذلك على أحاسن القرائح وشتات الاخلاق والآداب والطبائع وأدخلوا فيها كثيراً من أساليب ألسنتهم الاصلية بدون قصد أو تعمل

أقسام تاريخ آداب اللغة العربية

ويجوز قسمة تاريخ آداب اللغة العربية إما حسب علومها وآدابها أو حسب الاعصر التي توالت عليها . ونريد بقسمتها حسب العلوم أن نستوفي الكلام في كل علم على حدة من نشأته الى الآن — وهو الذي اخترناه في هذا المختصر فبدأنا بأقدمها وتدرجنا الى أحدثها ، بدأنا بآداب الجاهلية فذكرنا تاريخ الشعر مثلاً وتراجم الشعراء من نشأته وما تقلب عليه من الادوار في الجاهلية والاسلام في دولة الراشدين فالامويين فالعباسيين فغيرهم الى اليوم . وفعلنا مثل ذلك في الخطابة وغيرها من آداب الجاهلية . وبالفقه والتفسير والادب والنحو واللغة وغيرها من الآداب الاسلامية وهكذا بالعلوم الدخيلة منذ دخولها وما تقلب عليها الى الآن

Digitized by Birzeit University Library

فذلكة تاريخية

ظهر الاسلام في جزيرة العرب فشغل أهلها في أثناء حياة النبي ومعظم أيام الراشدين بالفتوح والجهاد والاسفار . وجاء الاسلام بالقرآن والحديث فأخذا بمجامع قلوبهم واستقرا في المكان الاول من أذهانهم وغيرا من عاداتهم وأخلاقهم وسائر أحوالهم فظهر أثر ذلك في علومهم وآدابهم

التغيير الذي أحدثه الاسلام في العرب

١ ــ اجتماع كلمة القبائل

كان العرب في الجاهلية يتفاضلون بالعصبية ويتفاخرون بالانساب فلما جاء الاسلام كان في جملة ما بدله من أحوالهم أنه جمع كلمتهم وصاروا يداً واحدة على اختلاف أنسابهم ومواطنهم . وبعد أن كان اليمني يفاخر الحجازي والمضري يفاخر الحميري ونحو ذلك من مفاخرات القبائل والبطون والافخاذ ، جاء الاسلام فجمعهم تحت راية واحدة باسم واحد هو « الاسلام » فقال النبي « المسلمون اخوة » وقال من خطبة ألقاها يوم فتح مكة « يا معشر قريش ان الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء ، الناس من آدم وآدم من تراب » وقال من خطبة في حجة الوداع « أيها الناس ان ربكم واحد وان أباكم واحد كلكم لآدم وآدم من تراب وأكرمكم عند الله أتقاكم ليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى »

واقتدى بالنبي خلفاؤه الاولون لا سيما عمر بن الخطاب فان جبلة بن الايهم ملك غسان بعد ان أسلم اتفق وهو يطوف في الكعبة ان فزارياً وطىء ازاره فانحل فرفع جبلة يده وهشم الفزاري فشكاه إلى عمر فأراد عمر أن يهشم أنف جبلة فقال « وكيف ذلك يا أمير المؤمنين وهو سوقة وأنا ملك » فأجابه عمر « ان الاسلام جمعك واياه فلست تفضله في شيء إلا بالتقى والعافية » فلم يحتمل جبلة ذلك فعمد إلى الفرار

٢ ــ انتشار العرب في الارض

كان العرب محصورين في جزيرتهم القاحلة وهم أهل بادية وخشونة وشظف

Digitized by Birzeit University Library

من العيش يسمعون بالرومي أو الفارسي فيعظمون قدره ويتمثلون بسطوة قيصر وكسرى ولم يتجاوزوا جزيرة العرب الا قليلاً . فلما ظهر الاسلام واجتمعت كلمة العرب نهضوا للفتح وأوغلوا في البلاد وفتحوا الامصار . ولم يكن زجر عمر ليوقف تيارهم فانساحوا في الارض حتى نصبوا أعلامهم على ضفاف الكنج شرقاً وشواطىء البحر الاتلانتيكي غرباً وضفاف نهر لوار شمالاً وأواسط أفريقيا جنوباً وملأوا الارض فتحاً ونصراً واحتلوا مدائن كسرى وقيصر وأقاموا في المدن وأركنوا الى الحضارة وتعودوا الترف واختلطت أنسابهم بتوالي الاجيال . والقبائل التي قامت بنصرة الاسلام ونشره قبائل مضر وأنصارها من العدنانية والقحطانية

ولم ينتشر العرب بالفتح فقط ولكنهم هاجروا أيضاً بأهلهم وخيامهم وأنعامهم التماساً لسعة العيش في البلاد العامرة من مملكتهم الجديدة . فقد جاءت بطون من خزاعة الى مصر والشام في صدر الاسلام لان أرضهم أجدبت فمشوا يطلبون الغيث والمرعى ، وكذلك كانت تفعل العرب كلما أصابها جدب حتى كانت لهم أعوام خاصة يجلون بها الى مصر والشام يسمونها أعوام الجلاء . وكانوا يفعلون ذلك قبل الاسلام اذا أجدبت أرضهم يممو العراق وفارس فيعطيهم الفرس التمر والشعير ولكنهم كانوا لا يقيمون هناك بل يرجعون الى بلادهم خوفاً من الذل في سلطان دولة أعجمية . أما بعد الاسلام فكان المقام يطيب لهم في بلاد فتحها آباؤهم وأعمامهم أو أخوالهم وغرسوا فيها أعلامهم وجعلوها فيئاً لهم

ولا يخفى ما يترتب على مثل هذا الاختلاط من الانقلاب في اللغة والآداب ولكنه لم ينضج ويظهر إلا في عصر الأمويين فما بعده

٣ ــ انتشار القرآن

بعد ان كان هم العرب الجاهلية اذا اجتمعوا في ناد أو سوق مناشدة الاشعار والتفاخر أو التفاضل أصبح همهم القرآن وحفظه وتلاوته صباح مساء . واذا بعث الخليفة عاملاً الى بلدة أمره أن يحكم بالعدل وأن يعلم المسلمين القرآن وكانوا يعلمونهم الحديث أيضاً

Digitized by Birzeit University Library

العصر الاموي

(من سنة ٤١ ـ ١٣٢ هـ)

التفريق بين القبائل واحياء العصبيات

قد علمت مما تقدم ان العصبية العربية كانت في الجاهلية بين القبائل بسبب الانساب فلما جاء الاسلام تنوسيت تلك العصبية واجتمع العرب كافة باسم الاسلام أو الجامعة الاسلامية . وما زالت الجامعة الاسلامية تشمل العرب على اختلاف قبائلهم وبطونهم طول أيام الخلفاء الراشدين حتى اذا طمع بنو أمية بالملك وقبضوا على ازمة الخلافة استبدوا وتعصبوا للعرب وحافظوا على مقتضيات البداوة وتمسكوا بعاداتها فظلت خشونة البادية غالبة على حكومتهم وظاهرة في سياستهم مع ذهاب أكثر مناقب البدو الاخرى . وانما حفظوا من مناقب جاهليتهم تعصبهم لقبيلتهم قريش وإيثار اهلهم على سواهم . فجاشت عوامل الحسد في نفوس القبائل التي كان لها شأن في الجاهلية وضاع فضلها في الاسلام وخصوصاً اهل البصرة والكوفة والشام لان اكثر العرب الذين نزلوا هذه الامصار جفاة لم يستكثروا من صحبة النبي ولا هذبتهم سيرته ولا ارتاضوا بخلقه مع ما كان فيهم من جفاء الجاهلية وعصبيتها . فلما استفحلت الدولة اذا هم في قبضة المهاجرين والانصار من قريش وكنانة وثقيف وهذيل واهل الحجاز ويثرب . فاستنكفوا من ذلك وغصوا به لما يرون لانفسهم من التقدم بأنسابهم وكثرتهم ومصادمة فارس والروم مثل قبائل بكر بن وائل وعبد القيس من ربيعة وكندة والازد من اليمن وتميم وقيس من مضر . فصاروا الى الغض من قريش والانفة عليهم فعادت العصبية الى نحو ما كانت عليه في الجاهلية

أسباب التفريق

كان التفريق أولا بين قريش وسائر العرب فتعصب العرب كافة على قريش حسداً لاستبدادهم في السلطة دون سائر الصحابة او التابعين ـ الا الذين تألفهم معاوية من القبائل اليمنية والعدنانية . بدأ هذا الخلاف من ايام عثمان على يد سعيد ابن العاص وتزايدت الوحشة بين قريش وسائر القبائل من ذلك الحين وخصوصاً بينهم وبين اليمنية وفيهم الانصار . وثبت الانصار في نصرة اهل البيت ضد اهلهم من قريش مثلما فعلوا في اول الاسلام إذ جاءهم النبي مهاجراً فراراً من اهله . ولما جرت وقعة صفين سنة ٣٧ هـ بين علي ومعاوية عدوها بين اليمنية الانصار وقريش . فلما احتدم القتال في تلك الوقعة قال رجل يمني من انصار علي « ايها الناس هل من زائح

Digitized by Birzeit University Library

الى الله تحت العوالي والذي نفسي بيده لنقاتلنكم على تأويله (القرآن) كما قاتلناكم على تنزيله »

وامتد النزاع من هذا النحو حتى صار أكثر اليمنية شيعة علي وأنصاره . فعمد معاوية الى اجتذاب قلوبهم لعلمه أن اكتفاءه بقريش ونحوهم لا يجديه نفعاً فتقرب منه قبيلة كلب وتزوج منها بحدل أم يزيد ابنه واستنصرهم على قتلة عثمان لان امرأة عثمان كانت كلبية واستغواهم بالمال فحاربوا معه . ولما فاز في حروبه ورسخت قدمه في الخلافة تقربت منه قبائل كثيرة من مضر واليمن وظلت كلب على نصرة يزيد ابنه بعده لانهم اخواله

فلما مات يزيد وكان ابن الزبير في مكة يطالب بالخلافة واختلف بنو أمية على اختيار خالد بن يزيد أو مروان بن الحكم (وكلاهما من أمية) وقع الخصام بين دعاة ابن الزبير ودعاة بني أمية وكان أنصار ابن الزبير من قيس (مضرية) يدعون لابن الزبير وأنصار بني أمية من كلب (يمنية) يدعون لخالد بن يزيد لانه ابن اختهم . ونهض أناس من بني أمية فاعترضوا على صغر سن خالد وأجمعوا على بيعة مروان لشيخوخته على ان تكون الخلافة بعده لخالد . ثم جرت واقعة مرج راهط بين أصحاب مروان وأصحاب ابن الزبير أي بين كلب وقيس وفاز مروان وثبتت قدمه في الخلافة . ثم توفي مروان ولم يف لخالد فخافه ابنه عبد الملك بن مروان الشديد الوطأة وظلت كلب معه وقيس مضطغنة عليه . وانقسم العرب في سائر أنحاء المملكة الاسلامية بين هذين الحزبين قيسية وكلبية أو مضرية ويمنية أو نزارية وقحطانية . وقامت المنازعات بينهما في الشام والعراق ومصر وفارس وخراسان وأفريقيا والاندلس . وفي كل بلد من هذه البلاد وغيرها حزبان مضري ويمني تختلف قوة أحدهما أو الآخر باختلاف الخلفاء أو الامراء أو العمال . فالعامل المضري يقدم المضرية والعامل اليمني يقدم اليمنية ويختلف ذلك باختلاف الأحوال وله تأثير في كل شيء من تصاريف احوالهم حتى في تولية الخلفاء والامراء وعزلهم وكثيراً ما كانت الولاية والعزل موقوفين على نصرة احد هذين الحزبين

غير الانقسام الذي وقع بين بطون قريش وأهم أحزابهم بنو أمية وبنو هاشم فكان الناس يتعصبون لاحداهما على الآخر . وناهيك بالتخاصم بين العرب وغير العرب . وكما كان القرشيون مقدمين في العصر الاموي على سائر العرب فالعرب على الاجمال كانوا مقدمين على سائر الامم التي دانت للمسلمين . ولم يكن هؤلاء يستنكفون

Digitized by Birzeit University Library

من ذلك بل كانوا يعتقدون فضل العرب في إقامة هذا الدين وإنهم مادته وأصله ولا كانوا يأنفون من ان يسموا العرب اسيادهم ويعدون انفسهم من مواليهم بل كانوا يعدون طاعتهم وحبهم فرضاً واجباً عليهم

فكان العرب في اثناء هذه الدولة يترفعون عن سائر الامم من الموالي واهل الذمة وكان العربي يعدّ نفسه سيداً على سواه ويعتقد انه خلق للسيادة وذاك للخدمة فاقتصر العرب على الاشتغال بالسياسة ولم يكونوا يعتنون بشيء من العلم غير الشعر والتاريخ لانه لازم للسياسة . وأما الحساب والكتابة فقد كانا من صنائع الموالي — حتى الشعر فان الموالي نالوا منه حظاً في اثناء العصر الاموي

وبالجملة ان انتقال الدولة الى الامويين انقلابٌ سياسيّ عظيم هو طبيعي في نواميس العمران لان القواعد التي وضعها الامام عمر للدولة تنافي سياسة الملك ولم يكن يرجى بقاؤها لان من شروطها ألا تختزن الاموال في بيت المال وألا يشتغل المسلمون بالزرع ولا يقتنوا الارضين ونحو ذلك مما يلائم الدين والتقوى ويخالف السياسة والملك . فانتقالها الى الملك في ايام بني امية وانتقال كرسي الخلافة الى الشام أوجبا احتكاكها بالدول الاخرى فاقيمت على دعائم سياسته واقتبس أهلها تمدن الامم المجاورة وعلومهم وأنشأوا تمدناً من عند أنفسهم ووضعوا العلوم والآداب التي اقتضاها ذلك التمدن

العصر العباسي الاول

(أي في المائة الاولى من الدولة العباسية من سنة ١٣٢ ــ ٢٣٢ هـ)

كانت عاصمة الدولة الاموية في دمشق على حدود بادية العرب وكان خلفاء تلك الدولة عرباً وجندها عرب وقوادها وعمالها من العرب . وكذلك كتابها وقضاتها وسائر رجال حكومتها . أما الدولة العباسية فقد نصرها الفرس فجعلت قصبتها (بغداد) على حدود بلادهم واتخذت وزراءها وأكثر امرائها وقوادها منهم . ولما عمرت بغداد تقاطر اليها الناس للارتزاق بالتجارة او الصناعة او الأدب او الشعر او باسباب الملاهي فالتقى فيها العربي والفارسي والرومي والنبطي والتركي والصقلبي والهندي والبربري والزنجي . وفيهم المسلم والنصراني واليهودي والصابي والسامري والمجوسي والبوذي وغيرهم

واعتبر ذلك في البصرة والكوفة من مدائن العراق الاسلامية فقد كانتا

Digitized by Birzeit University Library

آهلتين بالناس على اختلاف نحلهم وأجناسهم وعناصرهم وتختلفان عن بغداد بمن أقام في ضواحيها من جالية العرب اهل البادية من القبائل التي نزحت الى هناك بعد الاسلام كما تقدم . وما زالت البصرة والكوفة مجتمع اهل الادب والعلم والشعر حتى عمرت بغداد فأصبحت بما استبحر من عمرانها هي وحدها أم المدائن الاسلامية وبؤرة العلم ومجتمع العلماء . ثم شاركتها في ذلك القاهرة وقرطبة ودمشق والقيروان وغيرها

وناهيك بثروة بغداد وحضارتها وتبسط اهلها في العيش واركانهم الى الرخاء وتدفق الاموال من بيت المال على اهل الدولة ومن يلتف حولهم من الاعوان او اهل المهن او الادب او الطرب

الخلفاء والعلم والادب

ويمتاز العصر العباسي الاول بمن تولى فيه عرش بغداد من الخلفاء والعلماء لرغبتهم في العلم واجلال العلماء والادباء فسهلوا نزوحهم اليهم وأجروا الارزاق عليهم وبالغوا في اكرامهم وقربوهم وجالسوهم وآكلوهم وحادثوهم وعولوا على آرائهم فلم يبق ذو قريحة أو علم أو أدب الا يمم دار السلام ونال جائزة أو هدية أو راتباً

ولا يزهو العلم الا في ظل أمير يتعهده ويأخذ بأيدي أهله ـ والناس كما يكون ملوكهم ـ وخلفاء العصر العباسي الاول من اكثر الملوك رغبة في العلم : يروي ان المنصور لما مات ابنه جعفر وانصرف الى قصره بعد دفنه قال للربيع وزيره « انظر من في أهلي ينشدني (أمن المنون وريبها تتوجع) حتى اتسلى بها عن مصيبتي » فطلب الربيع ذلك من بني هاشم فلم يجد من يستطيعه . فقال المنصور « والله لمصيبتي باهل بيتي ألا يكون فيهم واحد يحفظ هذا لقلة رغبتهم في الادب أعظم وأشد عليّ من مصيبتي بابني »

وكان للمنصور دفاتر علم هو شديد الحرص عليها حتى أوصى ابنه المهدي بها عند وفاته . وكان المنصور من احسن رواة الحديث وله ذوق في الشعر ينتقد الشعراء ويعرف المنحول والمسروق وكذلك ابنه المهدي فقد كان ينتقد الشعراء لكثرة تشبيبهم قبل المدح وكان يكره الغزل . اما الرشيد فكان اكثرهم رغبة في العلم والعلماء حافظاً للشعر نقاداً للشعراء وكان يحفظ شعر ذي الرمة حفظ

Digitized by Birzeit University Library

الصبا وهو مشهور بتقديم الشعراء والادباء . وابنه المأمون اشهر من ان يذكر بعلمه وفضله وذكروا له مؤلفات حسنة قد ضاعت

وناهيك بأبناء الخلفاء والامراء فقد اشتغل كثيرون منهم بالادب كابراهيم بن المهدى فانه اول نابغ من بني العباس في الترسل والشعر والموسيقى وله كتاب في الأدب اسمه « أدب ابراهيم » وكتاب الطبخ والطب وكتاب الغناء ضاعت كلها . واعتبر ذلك ايضاً في الامراء والوزراء كأبي دلف العجلي سيد قومه فقد كان أديباً وألف في سياسة الملوك والسلاح والصيد . والفتح بن خاقان وزير المتوكل كانت له خزانة علم لم ير اعظم منها كثرة وحسناً . وكان يحضر داره فصحاء الاعراب وعلماء الكوفة والبصرة . واشتغل بالأدب لنفسه فألف كتاب اختلاف الملوك وكتاب الصيد والجارح وكتاب الروضة والزهر . وكان عبد الله بن طاهر شاعراً مترسلاً بليغاً وكذلك ابنه طاهر ولكل منهما مجموع رسائل

فالدولة التي يكون ملوكها وامراؤها على هذه الصورة يجدر بها ان تزهو بالعلم والعلماء . واعتبر هذه القاعدة بسائر عصور آداب اللغة من اول الاسلام فانك لاتجد نهضة الا كان للملك او الامير او الرئيس تأثير كبير فيها ـ ذلك شأن الامم في الحكم المطلق وإرادة الملك شريعة المملكة

حرية الدين

ومن مميزات هذا العصر اطلاق الفكر من قيود التقليد إلا ما يمس الدولة أو الخلافة . ولذلك فقد تعددت البدع الدينية في أيامهم من المجوس وغيرهم . غير الفرق الاسلامية وتعدادها . وكان اكثر الخلفاء تسامحاً في الدين المأمون فكان هو نفسه شيعياً وكان وزيره يحيى بن اكثم سنياً ووزيره احمد بن ابي دؤاد معتزلياً . يكفيك من تسامحه في الدين انتصاره للمعتزلة في القول بخلق القرآن

فكانت الافكار من حيث الدين مطلقة الحرية في ذلك العصر لا يكره الرجل على معتقده او مذهبه فربما اجتمع عدة اخوة في بيت واحد وكل منهم على مذهب . فأولاد أبي الجعد ستة منهم اثنان يتشيعان واثنان مرجئان واثنان خارجيان

الوزراء الفرس والموالي

وكان للوزراء الفرس تأثير كبير في تلك النهضة . والفرس اهل مدنية قديمة وكانوا يومئذ في نهضة علمية بدأت من زمن كسرى انو شروان وكان البرامكة على الخصوص يحبون العلم والعلماء ويبذلون المال في تقريبهم واستحثاث قرائحهم

Digitized by Birzeit University Library

فوقف الادباء والشعراء على ابوابهم كما وقفوا بباب الرشيد وكانت لهم اياد بيضاء في ترجمة العلم القديم الى العربية

ومن ثمار ذلك الانقلاب ان الموالي (المسلمين غير العرب) الذين كان الامويون يحتقرونهم قربهم العباسيون وفيهم الخراسانيون الذين نصروهم في تأييد دولتهم وقد قدموا سائر الموالي واستخدموهم في أمور الدولة . فارتفع شأن الموالي من ذلك الحين وأكثرهم من الفرس . أشهرهم في العصر العباسي الاول آل برمك وآل الفضل . وكان الخلفاء العباسيون يتواصون بالموالي وحسن معاملتهم والاحسان اليهم فنبغ فيهم طائفة كبيرة من العلماء والادباء والشعراء ورجال العلم والعمل

ومن ثمار الحضارة في ذلك العصر تكاثر الجواري مما لم يسمع به قبله حتى كان منهن في بعض المنازل عشرات وفي البعض الآخر مئات . وبلغ عددهن عند الرشيد ٢٠٠٠ جارية وصاروا يتهادونهن كما يتهادون الحلي والجواهر . وتكاثر الغلمان فيه وتفننوا في تزيينهم واستخدامهم وشاع تسريهم كما يتسرون الجواري ويتهادونهم كما يتهادونهن وصاروا يحجبونهم كما يحجبون النساء

فالانقلاب السياسي والاجتماعي المشار اليه أحدث انقلاباً في الافكار والعقول . وظهر أثر ذلك طبعاً في آداب اللغة كما سيجيء

العصر العباسي الثاني

(أو المائة الثانية من الدولة العباسية من سنة ٢٣٢ — ٣٣٤ هـ)

يبدأ هذا العصر بخلافة المتوكل على الله العباسي سنة ٢٣٢ هـ وينتهي بظهور الدولة البويهية سنة ٣٣٤ هـ وقد يسمى العصر التركي لتسلط الاتراك فيه على أمور الدولة تمييزاً له عن العصر الماضي وهو فارسي لتغلب العنصر الفارسي فيه . وأما الاتراك فاول من استكثر منهم وقدمهم في الدولة المعتصم وبدأ استبدادهم في أيام المتوكل على الله لانه كان يكره الشيعة العلوية وهم من الفرس فاستبد فيهم وزاد في رعاية الاتراك لينصروه عليهم فزاد طمعهم في الدولة . ثم أغرامم ابنه المنتصر (أو هم أغروه) على قتله فقتلوه وكان ذلك أول جرأتهم على الخلفاء وولوا المنتصر بعده ولم تطل مدة حكمه أكثر من بضعة أشهر فمات وضميره يخزه . وتولى بعده

Digitized by Birzeit University Library

المستعين بالله سنة ٢٤٨ هـ ثم المعتز بالله سنة ٢٥١ وقد استفحل أمر الاتراك استفحالاً عظيماً ـ ومما يحكى عن استبدادهم في الخلفاء انه لما تولى المعتز قعد خواصه واحضروا المنجمين وقالوا لهم : « انظروا كم يعيش الخليفة وكم يبقى في الخلافة » وكان في المجلس بعض الظرفاء فقال : « أنا اعرف من هؤلاء بمقدار عمره وخلافته » فقالوا له : « فكم تقول انه يعيش وكم يملك » قال : «مهما اراد الاتراك » فلم يبق في المجلس الا من ضحك

وقد قتلوا المعتز هذا شر قتلة فانهم جروه برجله الى باب الحجرة وضربوه بالدبابيس وخرقوا قميصه واقاموه في الشمس بالدار فكان يرفع رجلا ويضع اخرى لشدة الحر وبعضهم يلطمه بيده . والمستكفي سملوا عينيه ثم حبسوه حتى مات في الحبس . وبلغ من فقر القاهر بالله انهم حبسوه وهو ملتف بقطن جبة وفي رجله قبقاب من خشب ـ فلا غرو اذا اصبح الخلفاء في ايدي الاتراك . واذا تنازع هؤلاء على السلطة كان الخليفة مع الغالب . وبعد ان كان القواد يحلفون للخليفة بالطاعة صار الخليفة يحلف لهم

نفوذ الخدم في هذا العصر

وفي هذا العصر عظم نفوذ الخدم في الدولة ولم يكن لهم شأن قبله . وسبب ذلك ان الاتراك لما استبدوا وصاروا يولون الخلفاء ويعزلونهم كان في جملة ما استعانوا به على الاستبداد بهم ان يحجروا عليهم قبل الخلافة ويحبسوهم في القصور ليزيدوهم ضعفاً . وكان الخلفاء من الجهة الاخرى يميلون الى حبس اولادهم واقاربهم خوفاً من تواطئهم مع بعض الاتراك على خلعهم او قتلهم . ولا عشير لهم في اثناء الحجر الا الخدم والخصيان . فألفوا اخلاقهم . وتحققوا بالاختبار ان حياتهم تتوقف بالا كثر على امانة اولئك الخدم لما آنسوه من غيرتهم عليهم وخصوصاً الخصيان إذ لا عصبية فيهم تمنعهم من التفاني في خدمة اسيادهم ولا مطمع لهم بالملك لأولادهم وأهلهم فأصبح ولاة العهد اذا افضت الخلافة اليهم بالفوا في تقريب الخدم بالعطايا والا كرام التماساً لحمايتهم اذا اراد الاتراك الفتك بهم . فعمدوا الى الاستكثار من الخدم وكانوا يقدمونهم ويكرمونهم ويستشيرونهم في أمورهم

واستكثروا منهم حتى الفوا منهم الفرق . وأول من استكثر منهم ورفع

Digitized by Birzeit University Library

منزلتهم المقتدر بالله فقد تولى سنة ٢٩٥ هـ وعنده من الخدم والخصيان ١١٠٠٠ خادم من الروم والسودان وكثير من المال والجوهر فتمكن من الحكم ٢٥ سنة . وكان يقدم الخدم ويستعين بهم وقد ولاهم قيادة الجند وغيرها . وفي أيامه نبغ مؤنس الخادم فقدمه وكان يستشيره في أموره فتصرف مؤنس في مصالح الدولة كما يشاء وتولى رئاسة الجيش وامارة الامراء وبيوت الاموال واستبد في كل شيء ولكنه على الاجمال خدم الخليفة المقتدر خدماً ذات بال . ثم كانت بينهما وحشة تكررت حتى أدت الى حروب انتهت بقتل المقتدر

فتكاثر الفساد بسبب ذلك وعمت الرشوة والمصادرة والفتك فاصبح الناس يخافون على أموالهم وارواحهم لانها طوع ارادة الخليفة أو الوزير أو القائد أو تابعة لمزاجهم ومطامعهم . وكانت المصادرة متبادلة بين الخليفة ووزرائه وقواده وناهيك بالجاسوسية وسوء الاحكام . فآل ذلك الى طمع العمال والولاة بأعمالهم فأخذوا يستقلون فتشعبت المملكة العباسية الى امارات وممالك . وانقضى العصر الذي نحن في صدده بدخول الديلم بغداد في ايام المستكفي سنة ٣٣٤ هـ وانشأوا هناك دولة عرفت بدولة آل بويه وبها يبدأ العصر العباسي الثالث

فالفساد الذي تقدم ذكره اثر في آداب اللغة ولا سيما في الآداب التي هي من آثار النفس او اعمالها كالشعر والخطابة والانشاء . وقد قيدت الافكار بمطاردة المتوكل للمعتزلة والشيعة فضعفت الحرية وعمد الناس الى التستر بأفكارهم خوفاً على حياتهم خلافاً لما كانوا عليه في اواخر العصر الماضي

ويمتاز العصر العباسي الثاني بالنظر الى آداب اللغة بأمور تمت فيه وهي :

١ ـ استقرار الخط العربي على القاعدة التي وصلت الينا وقد وضعها او ضبطها ابن مقلة المتوفي سنة ٣٢٨ هـ

٢ ـ ظهور اثر الانقلاب الادبي في الفاظ اللغة العربية فتنوعت معاني بعضها حتى خرجت عما وضعت له في المعاجم وشق ذلك على ادباء اللغة فوضعوا المقالات او الكتب في انتقاد ذلك واصلاحه . ولكنه قلما افاد لان ذلك التنوع حدث بطبيعة العمران

العصر العباسي الثالث

(أو المائة الثالثة من الدولة العباسية من سنة ٣٣٤ ـ ٤٤٧ هـ)

يبدأ هذا العصر باستقرار الدولة البويهية سنة ٣٣٤ هـ وينتهي بدخول السلاجقة بغداد سنة ٤٤٧ وقد وصفنا العصر العباسي الاول بأنه عصر الاسلام الذهبي ونعني انه عصره الذهبي من حيث منعة الدولة واتساع السلطان وفيه نقلت العلوم القديمة الى العربية . وأما عصر الاسلام الذهبي للعلم خاصة فهو العصر الذي نحن في صدده أو المائة الثالثة للدولة العباسية . لان فيه نضجت العلوم على اختلاف مواضيعها وتم نموها وظهرت الكتب الوافية في أكثرها . ولا سيما في اللغة وعلومها وفي التاريخ والجغرافية والادب والطب والفلسفة ولذلك أسباب اجتماعية طبيعية سيأتي بيانها . ونقدم الكلام في مدائن العلم الاسلامية

تنقل العلم في المدائن الاسلامية

رأيت فيما تقدم ان العلوم الاسلامية نشأ معظمها في البصرة والكوفة ثم تحولت الى بغداد بعد استبحار عمرانها في العصر العباسي الثاني . فأصبحت بغداد في ذلك العصر كعبة العلم وحج العلماء كما كانت رومية في ابان التمدن الروماني . حتى اذا تولى المعتصم واستكثر من الاتراك وظهرت منهم الاساءة لاهل بغداد نفر الناس وتباعدت القلوب . ولكن المعتصم كان على مذهب أخيه المأمون في الاعتزال واكرام الشيعة فظلت بغداد على نحو ما كانت عليه في أيام المأمون . وكان الواثق يتشبه بالمأمون في حركاته وسكناته . وكان يعقد المجالس مثله للمباحثة بين الفقهاء والمتكلمين في انواع العلوم العقلية والسمعية في جميع الفروع

فلما توفي الواثق سنة ٢٣٣ هـ خلفه اخوه جعفر المتوكل وكان شديد الانحراف عن الشيعة والمعتزلة حتى امر بهدم قبر الحسين بن علي وما حوله من المنازل ومنع الناس من اتيانه . وكان كثير الاستهزاء بعلي يجالس من اشتهر ببغضه . وخالف ما كان عليه المأمون والمعتصم والواثق من الاعتقاد . فأبطل القول بخلق القرآن ونهى عن الجدل والمناظرة في الآراء وعاقب عليه . وامر بالرجوع الى التقليد ونصر السنة والجماعة وامر الشيوخ والمحدثين بالتحديث . فانحط علم

Digitized by Birzeit University Library

الكلام بعد ان بلغ رونقه في أيام الرشيد وخلفائه فأخذ في التقهقر في أيام المتوكل لانه كان شديد الوطأة على أصحاب الرأي وأصحاب الفلسفة وسائر العلوم الدخيلة . وأخذ منذ تولى الخلافة في مناوأتهم فأهلك جماعة من العلماء وحط مراتبهم وعادى العلم وأهله . ولاقى أهل الذمة منه الشدائد بتغيير زيهم وتذليلهم واهانتهم . ومن أشهر حوادث نقمته على خدمة العلم انه غضب على بختيشوع الطبيب وقبض ماله ونفاه الى البحرين وقتل ابن السكيت النحوي وسخط على عمر بن مصرح الراجحي وكان من عاية الكتاب وأخذ منه مالاً وجواهر وأمر أن يصفع في كل يوم

ومات المتوكل مقتولا سنة ٢٤٧ هـ قتله رجاله فاضطربت أحوال الخلافة واستفحل شأن الاتراك . فنفرت قلوب طلبة العلم وأكثرهم من الفرس والعرب فتفرقوا من بغداد رويداً رويداً الى أنحاء المملكة الاسلامية شرقاً وغرباً ولذلك كان أكثر من ظهر من العلماء بعد نضج العلم في القرن الرابع للهجرة فما بعده نبغوا خارج بغداد وفيهم الاطباء والفلاسفة والمنجمون والمهندسون والمتكلمون وأصحاب المنطق والفقهاء واللغويون والمحدثون والمؤرخون وغيرهم

فكان مركز الطب والطبيعيات والفلسفة عند ظهور الاسلام في الاسكندرية ثم انتقل في أيام عمر بن عبد العزيز في آخر القرن الاول للهجرة الى انطاكية . والعلوم الاسلامية انتقلت من البصرة والكوفة الى بغداد . وانضمت اليها العلوم الدخيلة فأصبحت بغداد أم المدائن في العلم والادب والفلسفة والطب وسائر العلوم العقلية . فلما اضطربت أحوال الخلافة في أيام المتوكل ثم نشأت الدول الجديدة في أنحاء المملكة الاسلامية بالتفرع والتشعب على مقتضى ناموس الارتقاء تفرق العلماء وأصبح للعلم مراكز كثيرة قد يتفاضل بعضها على بعض . وتدرج الانتقال من بغداد شرقاً الى العراق العجمي فخراسان فما وراء النهر . وغرباً الى الشام ومصر فالمغرب فالاندلس

فأقبل العصر العباسي الثالث وقد نبغ المفكرون والمشتغلون في العلم والادب من الشعراء والادباء والمنشئين والمؤرخين والجغرافيين واللغويين والفلاسفة في مدائن كثيرة من المملكة الاسلامية من أقصى تركستان في الشرق الى أقصى الاندلس في الغرب . ويدخل في ذلك ما وراء النهر وأفغانستان وطبرستان وخوارزم وفارس وما بين النهرين والمغرب والاندلس ومصر والشام وغيرها

Digitized by Birzeit University Library

وزاد انتساب العلماء الى مواطنهم فكثرت أسماء البخاري والنيسابوري والرازي والبغدادي والاندلسي . بعد ان كان أكثر انتسابهم الى أصولهم كالحيري والمازني والقرشي والفارسي ونحوها . أو الى صنائعهم كالنحاس والزجاج

أسباب النهضة في هذا العصر

حدث في العصر العباسي الاول نهضة علمية عقبها في العصر العباسي الثاني فتور على أثر البحران السياسي الذي أخذ من نفوس رجال الدولة حتى اشتغلوا بأنفسهم عن تنشيط العلم . فكانت المائة الثانية من الدولة العباسية فترة تم فيها تكوّن أغراس العلم فأقبلت المائة الثالثة وقد ظهرت ثماره ناضجة وهي النهضة الثانية في الدولة العباسية . والفاعل الرئيسي في هذه النهضة ناموس النشوء الطبيعي ونصرة رجال الدولة

ناموس النشوء والارتقاء

يقضي ناموس النشوء والارتقاء على الاحياء وما يتعلق بهم بالنمو والتفرع في آجال معينة ـ فالعلوم الاسلامية ولد أكثرها في البصرة والكوفة ونمت في بغداد فلما تم نموها وأدركت رشدها كانت الدولة قد بلغت دور التفرع فظهرت ثمار ذلك النمو في فروع تلك الدولة أو من تغلب عليها من الدول الخارجية . وتعددت الدول التي اقتسمت السلطة على المملكة العباسية مع بقاء الخلفاء العباسيين في العراق ونكتفي هنا بذكر الدول التي تعاونت على النهضة العلمية في ذلك العصر وهي :

اسم الدولة	مقرها	مدة حكمها	جنس مؤسسها
المروانية	الاندلس	من سنة ١٣٨ — ٤٢٢	عربي
السامانية	وراء النهر	« ٢٦١ — ٣٨٩	فارسي
الزيارية	جرجان	« ٣١٦ — ٤٣٤	«
الحمدانية	بين النهرين وحلب	« ٣١٧ — ٣٩٤	عربي
البويهية	العراق وفارس وغيرها	« ٣٢٠ — ٥٤٧	فارسي
الغزنوية	أفغانستان والهند	« ٣٥١ — ٥٨٢	تركي
الفاطمية	مصر	« ٣٥٧ — ٥٦٧	عربي

Digitized by Birzeit University Library

العصر العباسي الرابع

(أو القرنان الاخيران من الدولة العباسية من سنة ٤٤٧ ـ ٦٥٦ هـ)

هو آخر الاعصر العباسية يبدأ بدخول السلاجقة بغداد سنة ٤٤٧ هـ وينتهي بدخول بغداد في حوزة المغول سنة ٦٥٦ هـ على يد هولاكو وانتقال الخلافة العباسية الى مصر . وقد جرت فيه انقلابات سياسية كان لها تأثير كبير في المملكة الاسلامية والامم الاسلامية

الانقلابات السياسية

١ ـ الدولة السلجوقية

أهم تلك الانقلابات ظهور دولة السلاجقة وهي تختلف عما تقدمها من الدول التركية بأنها لم تنشأ فرعاً للدولة العباسية وانما قامت بها أمة ذات بطش وسلطان حملت على المملكة الاسلامية وفتحتها بالسيف . كما تمتاز الدولة البويهية عن سائر الدول الفارسية الصغرى . جدها سلجوق بن بكباك أمير تركي كان في خدمة بعض خانات تركستان . ظهرت والمملكة العباسية قد تضعضعت بالانقسامات المتوالية وضعف شأن البويهيين الفرس في العراق وفارس والفاطميين العرب بمصر . وهما دولتان شيعيتان كانتا قد تغلبتا على أهل السنة وأكثرهم من الاتراك والاكراد والعرب . فطمع سلجوق باكتساح تلك المملكة . وعلم انه لا يستطيع ذلك الا اذا أسلم فأسلم هو ورجاله ونهض بهم من تركستان غرباً فقطعوا نهر جيحون وهم يفتحون ويكتسحون حتى امتد سلطانهم من أفغانستان الى البحر الابيض . وتفرعوا الى دول يمتاز بعضها عن بعض بأماكن حكمها ومدتها . فالسلاجقة العظام حكموا من سنة ٤٢٩ ـ ٥٥٢ هـ وسلاجقة كرمان من ٤٣٣ ـ ٥٨٣ هـ وسلاجقة الشام من ٤٨٧ ـ ٥١١ هـ وسلاجقة العراق وكردستان من ٥١١ ـ ٥٩٠ هـ وسلاجقة بلاد الروم من ٤٧٠ ـ ٧٠٠ هـ فمدة الدولة السلجوقية على الاجمال نحو ثلاثة قرون . وبلغ اتساع مملكتها من حدود الصين الى آخر حدود الشام . ودخلوا بغداد سنة ٤٤٧ هـ وهي السنة التي اخترناها فاتحة للعصر العباسي الرابع

Digitized by Birzeit University Library

٢ ـ الصليبيون

وفي أثناء هذه المدة حمل الافرنج على سورية وفلسطين تحت راية الصليب ففتحوها وتسلطوا عليهما من سنة ٤٩٢ ـ ٥٨٢ هـ واختلطوا بالاهلين ولا سيما المسيحيين بالزواج وغيره ـ والافرنج يختلفون بأصولهم ولغاتهم وآدابهم وعاداتهم عن العرب أكثر من اختلاف الاتراك والفرس عنهم . فاختلاطهم بأهل الشام وفلسطين تسعين سنة خلف في نفوس أهليهما آثاراً اجتماعية وأخلاقية كان لها تأثير في آداب اللغة

٣ ـ المغول

وفي أواخر هذا العصر ظهر جنكيز خان القائد المغولي وحمل على المملكة الاسلامية في أول القرن السابع فاكتسحها وأخرب مدنها وأحرق مكاتبها وقتل أهلها مما لم يسبق له مثيل . ومن نسله ظهر هولاكو وفتح بغداد وأخربها وقتل خليفتها المستعصم سنة ٦٥٦ هـ وفرّ من نجا من العباسيين الى مصر فانتقلت الخلافة العباسية الى هناك . ولهؤلاء المغول تأثير في تاريخ آداب اللغة لكثرة ما أحرقوه من الكتب . وقد ظهرت نتائج ذلك في العصور التالية

٤ ـ الاندلس

وفي هذا العصر أيضاً انحلت دولة الاندلس وذهبت وحدتها وانقسمت الى أمارات كما انقسمت الدولة العباسية قبلها . وكما تولى أمراء الفرس والاتراك والاكراد والعرب على فروع المملكة العباسية ففروع مملكة الامويين في الاندلس آلت السيادة فيها بعد بني مروان الى أمراء أكثرهم من البربر والموالي ـ تغلب كل منهم على ما في يده من أوائل القرن الخامس للهجرة . فصاروا دولاً صغيرة عرفت بملوك الطوائف . وتوالى الانقسام بين تلك الدول والافرنج يغتنمون ضعفهم ويسترجعون بلادهم أمارة أمارة وبلداً بلداً . حتى أخرجوا المسلمين كافة من أسبانيا وآخر مدينة فتحها الافرنج غرناطة كانت في حوزة آل نصر وفرّ ملكها أبو عبد الله ابن علي سنة ٨٩٧ هـ وهو آخر أمراء المسلمين في الاندلس

فالانقلابات السياسية المشار اليها أثرت في الاحوال الاجتماعية لاشتغال الناس بالفتن والحروب وفساد الاحكام . لكن تأثيرها في آداب اللغة لم تظهر ثماره إلا في العصر المغولي وما بعده كما سيجيء . أما العصر العباسي الرابع الذي نحن في

Digitized by Birzeit University Library

صدده فظهرت فيه ثمار آداب اللغة الطبيعية التي نمت وأورقت وأزهرت في العصر العباسي الثالث اذ تسابق الناس الى الاشتغال بالعلم والادب

وتكاثر الامراء المسلمون في هذا العصر واختلفت لغاتهم وعناصرهم لكنهم كانوا يتنافسون في تنشيط اللغة العربية لانها لغة الدين والعلم والسياسة . فازدهت وكثرت فيها المؤلفات الكبرى على أسلوب يخالف أساليب الاعصر الماضية . وساعد على ذلك رغبة السلاطين الايوبيين في العلم وأهله فان دولتهم انقسمت الى فروع حكمت مصر ودمشق وحلب وما بين النهرين وحماه وحمص واليمن وهي أهم الاصقاع العربية

٥ ـ الايوبيون والفاطميون

وكان الايوبيون يقربون الادباء ويخلعون عليهم ـ والايوبيون أكراد لكنهم تعربوا وأحبوا لغة العرب وآدابها ونبغ منهم جماعة من أهل الادب والشعر والعلم . أشهرهم أبو الفداء المؤرخ الشهير . وبهرام شاه بن فرخشاه صاحب بعلبك المتوفي سنة ٦٢٨ كان شاعراً أديباً . والملك الناصر بن الملك المعظم عيسى المتوفي سنة ٦٥٦ هـ كان مشتغلاً بتحصيل الكتب النفيسة ويجيز الادباء . والملك المؤيد صاحب اليمن المتوفي سنة ٧٢١ كان من أهل العلم اشتملت خزانته على مائة الف مجلد . والملك المعظم عيسى بن الملك العادل صاحب دمشق المتوفي سنة ٦٢٤ كان رغباً في الادب وأهله حتى شرط لكل من يحفظ المفصل للزمخشري مائة دينار وخلعة

غير ما كان للفاطميين قبلهم من العناية باللغة العربية وآدابها . وقد وجهوا التفاتاً خاصاً الى لغة الدواوين فعينوا عالماً بالنحو يراقب لغة الانشاء فيصلح ما قد يقع من الخطأ النحوي أو اللغوي . تولى هذا المنصب عندهم طاهر بن بابشاذ المتوفي سنة ٤٦٩ هـ وابن البري المتوفي سنة ٥٨٢ هـ

وزد على ذلك ان اتساع دائرة الحروب والفتوح في هذا العصر بعث على اختلاط الامم من الاتراك والمغول والافرنج والجركس والكرج وتعددت الدول الاسلامية المستقلة حتى صارت تعد بالعشرات ـ واختلاط الامم يفتق القرائح ، والتزاوج بين الاباعد يقوي الابدان والعقول

Digitized by Birzeit University Library

مميزات هذا العصر

١ ـ المدارس

يمتاز هذا العصر عما تقدمه بانتشار المدارس في العالم الاسلامي وتغيير طرق التدريس عما كانت عليه قبلاً . لان العلم نضج في الدول الاسلامية ونبغ العلماء والفقهاء والادباء في القرون الاولى للهجرة وليس في الاسلام مدرسة مثل مدارس هذه الايام الى القرن الخامس للهجرة . وأول من بناها الاعاجم لاسباب سياسية ذكرناها في تاريخ التمدن الاسلامي (ج ٣) واشتهر بانشاء المدارس في الاسلام نظام الملك الفارسي وزير ملك شاه السلجوقي التركي . وأشهر مدارس ذلك العصر المدرسة النظامية في بغداد نسبة اليه . كان لها شأن كبير في العالم الاسلامي ونبغ منها طائفة كبيرة من العلماء وغيرهم . وبالجملة فالعناية كانت متجهة في هذا العصر الى انشاء المدارس كما كانت متجهة في العصر الماضي الى انشاء المكاتب

٢ ـ المعاجم التاريخية

رأى الادباء والعلماء ما توالى على المملكة الاسلامية من الفتوح وما لحقها من التخريب وشاهدوا أو سمعوا بضياع الكتب بمصر والشام وخراسان والاندلس بالفتن ونحوها فعمدوا الى الاحتفاظ بتلك الآثار واكتنازها بالتلخيص والجمع مع حذف الاسانيد بحيث تجتمع الحقائق الكثيرة في الحجم الصغير ويكون الكتاب الواحد زبدة عشرات من الكتب . كما فعل ياقوت بمعجمه وابن خلكان بوفياته وابن أبي أصيبعة بطبقاته . فاكتفوا تقريباً بجمع ما لديهم وتبويبه وتسهيل الانتفاع به بترتيبه على السنين أو على حروف المعجم . فجاءت مؤلفاتهم ضخمة وافية بينها طائفة من المعاجم التاريخية والجغرافية بحيث يصح أن يسمى هذا العصر عصر المعاجم . وهي من أهم ما بين أيدينا من كتب العلم العربية وبينها أهم مآخذنا في التاريخ والجغرافية ـ وان كان بعضها صدر بعد انقضاء هذا العصر بسنين قليلة لكنه يعد من ثماره . ولذلك رأيت في بعض كتابه اعجاباً بأنفسهم لما استطاعوا جمعه من الحقائق ـ يظهر ذلك في مقدمات كتبهم كما فعل ياقوت في مقدمة معجم الادباء وابن الاثير الاديب في مقدمة المثل السائر

٣ ـ الصناعة اللفظية

ورغبتهم في اتقان التأليف بعثتهم على اتقان الصناعة اللفظية والتفنن في البديع

Digitized by Birzeit University Library

والجناس فوضعوا علم البيان أو دونوه وضبطوه حتى صار علماً قائماً بنفسه . واتقنوا المقامات أيضاً وهي من قبيل الصنائع اللفظية . ويقال على الاجمال ان الانشاء او الترسل مال في هذا العصر الى التأنق في اللفظ فوق ما كان في العصر السابق . واصبح عندهم لكل فن من فنون الادب أساليب معينة يختص به عند اهله — كالنسيب المختص بالشعر والحمد المختص بالخطب والدعاء المختص بالمراسلات . وقد كان شيء من ذلك قبلا ولكنه أصبح في هذا العصر فناً بقواعد . وهذا التقييد في الانشاء هو ما يسميه الافرنج بالطريقة المدرسية

ويمتاز هذا العصر بقلة ما ضاع من مؤلفاتنا بالنسبة الى الاعصر الماضية فقد رأيت في كلامنا عن العصر العباسي الاول وما بعده أن بعضهم قد يخلف مائة كتاب أو بضع مئات فلا يبقى منها الا بضعة كتب أو لا يبقى منها شيء . أما مؤلفات هذا العصر فبقي كثير منها

العصر المغولي

(من سنة ٦٥٦ — ٩٢٣ هـ)

يبدأ هذا العصر بسقوط بغداد في قبضة المغول على يد هولاكو سنة ٦٥٦ هـ وينتهي بدخول العثمانيين مصر على يد السلطان سليم الفاتح سنة ٩٢٣ هـ وكان العالم الاسلامي في أثنائه أكثره في سيادة المغول سلالة جنكيز خان . أو هو انقسم الى ثلاثة أقسام بين المغول والاتراك والعرب : امتدت سلطة المغول فيه من حدود الهند شرقاً الى حدود سورية غرباً تتخللها سيادة الفرس والترك فترة قصيرة في فارس والعراق . حكم الترك من حدود سوريا شرقاً الى آخر حدود مصر غرباً . وساد العرب أو البربر فيما وراء ذلك غرباً الى شواطيء الاتلانتيكي وفي اليمن

كانت مصر والشام في حوزة السلاطين المماليك من سنة ٦٤٨ هـ الى ٩٢٣ هـ وهم أتراك وشراكسة . وكانت آسيا الصغرى في حوزة السلاجقة ثم اخذها العثمانيون وكلاهما من الترك . وكانت العراق وفارس في سلطة الدولة الالخانية وهي مغولية . ثم صارت فارس الى الدولة التيمورية وهي مغولية أيضاً . وانما تخلل ذلك فترات صارت الامور فيها الى دولتين فارسيتين (الجلايرية والمظفرية) وأخريين تركيتين (القراقيونلية والاقاقيونلية) . وكانت تركستان وافغانستان في قبضة الشغطائية ثم صارتا الى التيمورية وكلتاها مغولية

Digitized by Birzeit University Library

تلك هي معظم الممالك الاسلامية في ذلك العصر، ليس فيها دولة عربية وانما انحصرت سيادة العرب في اليمن والمغرب . أما اليمن فكانت إمارات صغيرة في زبيد وصنعاء وعدن . أما المغرب فتوالته دول صغرى في تونس والجزائر ومراكش وغرناطة بعضها عرب وبعضها بربر . وأما الهند فلم يفتحها المغول الا بعد ذهاب هذا العصر

وفي أواخر هذا العصر خرج المسلمون من اسبانيا بفرار أبي عبد الله محمد ابن علي صاحب غرناطة سنة ٨٩٧ هـ آخر ملوك المسلمين في الاندلس

فاكتساح المغول للمملكة الاسلامية ذهب ببقية العنصر العربي وهدد آداب اللغة العربية بما أتاه أولئك الاقوام في أثناء حروبهم من التخريب والتحريق . لانهم كانوا اذا فتحوا بلداً قتلوا أهله ونهبوا ما فيه وأحرقوا ما لا يستطيعون حمله وهدموا المنازل . فكم أحرقوا من المكاتب وقتلوا من العلماء — كما فعلوا في بخارى على عهد جنكيز خان وبغداد على يد هولاكو . وقس عليه سائر فتوحهم على يد تيمورلنك وغيره

ويقال بالاجمال ان العالم الاسلامي مرت عليه ثلاثة قرون ليس فيه دولة تستحق الذكر ولم يحكم العرب منه عشر معشاره . فلو ذهبت اللغة العربية في أثنائها وأمحت آدابها لم يكن ذلك غريباً . لكنها ظلت حية ونبغ فيها الشعراء والادباء والمؤلفون في كل فن . والسبب في ذلك أنها كانت لغة السياسة في معظم تلك الدول . ولغة الدين والعلم فيها كلها تقريباً — حتى المغول الذين قاموا للاجهاز على العرب فان سعيهم في سبيل العلم كان أكثره عربياً وأكثر ما ألفه علماؤهم ألفوه في اللغة العربية

على أن الفضل الاكبر في بقاء آداب اللغة العربية في ذلك العصر يرجع الى مصر والشام وهما في حوزة السلاطين المماليك ومن بقي من الملوك الايوبيين فقد كانتا الملجأ الوحيد لابناء هذا اللسان في فرارهم من وجه المغول عند اكتساحهم خراسان وفارس والعراق . وكانتا مملكة واحدة عاصمتها مصر القاهرة ولغة حكومتها عربية فنبغ فيهما معظم شعراء العصر المغولي وأدبائه وأطبائه وسائر رجال العلم فيه كما ستراه في مكانه

Digitized by Birzeit University Library

مميزات هذا العصر

مراكز العلم

أولاً انتقلت مراكز العلم والادب فيه من بغداد وبخارى ونيسابور والري وقرطبة واشبيلية وغيرها من مدائن العلم في العصور العباسية الى القاهرة والاسكندرية وأسيوط والفيوم ودمشق وحمص وحلب وحماه وغيرها من مدائن مصر والشام . واشتهرت مدن اخرى بمن نبغ فيها من الادباء في الهند بظل سلاطين دهلي وفي آسيا الصغرى في عهد السلاجقة والعثمانيين وفي افريقيا تحت سيادة البربر . فكثر في اسماء الشعراء والادباء والعلماء في هذا العصر القاب الدمشقي والحلبي والقاهري والفيومي والاسكندري والمقدسي والحموي والسيوطي والحمصي والتونسي والغبريني واللواتي والكليكوتي والباكوي والبروسوي وغيرهم . على ان القاهرة كانت ملجأ أدباء اللغة العربية وعلمائها يفدون عليها من الشرق والغرب — كانت عاصمة العالم العربي ولا تزال

نصراء الادب

ثانياً : ذهب عشاق الادب والشعر من الامراء والوزراء والخلفاء وغيرهم من رجال السلطة الذين كانوا يطلبون العلم ويشتغلون به ويلتذون بسماع الشعر وينظمونه . وأصبح الملك انما يراد به القهر والتغلب . وبعد ان كان الشاعر أو الاديب تعلو منزلته عند الامير او الخليفة او السلطان بالبيت الواحد او الحكاية الواحدة انصرف همّ الملوك المغول الى تدوين حسابات المملكة وضبط الخرج والدخل وتدريب الجند . وانما اهتموا من العلوم بالطب لحفظ الابدان والامزجة والنجوم لاختيار الاوقات . اما السلاطين الاتراك بمصر فمع رغبتهم في تلك العلوم اشتهر غير واحد منهم بحب العلم وتنشيط اهله فألفوا لهم الكتب في التاريخ والادب . وسترى في مؤلفات هذا العصر طائفة من أهم الكتب التاريخية والموسوعات الكبرى — ألفت لبعض اولئك السلاطين او وزرائهم أو امرائهم أو اولادهم أو بتنشيطهم . وهذا كان شأن الملوك الايوبيين في الشام وما بين النهرين

علوم جديدة والقاب التفخيم

ثالثاً : نضج علم العمران وفلسفة التاريخ بمقدمة ابن خلدون وهي أول كتاب في هذا الموضوع . وقد صرح ابن خلدون في آخر مقدمته انه مستنبط هذا البحث وسماه « طبيعة العمران وما يعرض فيه » وهذا قوله :

Digitized by Birzeit University Library

« وقد كدنا ان نخرج عن الغرض وعزمنا أن نقبض العنان عن القول في هذا الكتاب الاول الذي سميناه طبيعة العمران وما يعرض فيه . وقد استوفينا من مسائله ما حسبناه كفاية ولعل من يأتي بعدنا ممن يؤيده الله بفكر صحيح وعلم مبين يغوص من مسائله على اكثر مما كتبنا . فليس على مستنبط الفن احصاء مسائله وانما عليه تعيين موضع العلم وتنويع فصوله وما يتكلم فيه . والمتأخرون يلحقون المسائل من بعده شيئاً فشيئاً الى ان يكمل والله يعلم وانتم لا تعلمون »

رابعاً : اتقنت في هذا العصر العلوم السياسية والادارية والحربية ووضعت فيها الكتب وضبطت قوانينها ونظاماتها تحت سلطة المماليك

خامساً : ظهر الانتقاد التاريخي

سادساً : كثرت القاب التفخيم في المخاطبات وفي تراجم العلماء والوجهاء وزاد التسجيع والتطويل في الترسل والتنميق في العبارة وشاع التسجيع في أسماء المؤلفات وكان قد ظهر شيء من ذلك في العصر الماضي فتكاثر الآن ـ وزاد في العصر الآتي

المكاتب والكتب

سابعاً : قلت المكاتب الكبرى لذهاب اكثرها حرقاً وغرقاً في اثناء الفتن أو في الفتوح على أيدي المغول في الشرق والاسبان في الغرب . وكان احراق الكتب قد بدأ في المملكة الاسلامية قبل ذلك بسبب التنازع بين الفرق الاسلامية فكل فرقة تحاول احراق كتب الاخرى كاحراق السلطان محمود الغزنوي لكتب المعتزلة . وناهيك بما احرق من كتب العلماء المتهمين بالزندقة والفلسفة وهي كثيرة . ولعل بينها ما ليس مثله بين ما بقي . اما التتر فبالغوا في الاحراق والتخريب فاحرق جنكيز خان من المكاتب في بخارى ونيسابور وغيرها من مدائن العلم في فارس ما لا يدرك احصاؤه ولم يرد ذكره مفصلا لانه جاء تابعاً لما أتاه ذلك الطاغية من الهدم والتخريب . أما هولاكو فقد ذكر التاريخ اتلافه كتب العلم في بغداد وان لم يعين مقدارها تماماً

وكذلك في الاندلس فان الاسبانيين كانوا كلما فتحوا بلداً اخرجوا العرب منه واحرقوا كتبهم على جاري عادة رجال الفتح في تلك الايام . وآخر مكتبة احراقها الافرنج من كتب العرب مكتبة غرناطة على يد الكردينال زيمنس في آخر القرن التاسع للهجرة كان فيها ٨٠ ٠٠٠ مجلد على اقل تقدير . فامر باحراقها

Digitized by Birzeit University Library

لانها تحتوي على كتب تخالف الاناجيل . وطافوا في المدينة فأخذوا ما كان في أيدى المسلمين من الكتب وأحرقوها وأصدروا أمراً بتحريم اللغة العربية على غير الكهنة فلم يبق من كتبها الا القليل . أما الكتب العربية في مكتبة الاسكوريال فأصلها ان سفينتين أسبانيتين غزتا في البحر المتوسط ثلاث سفن تحمل كتباً عربية لمولاي زيدان صاحب مراكش في أوائل القرن الحادي عشر للهجرة فقبضوا عليها وغنموا ما فيها وحملوا تلك الكتب الى أسبانيا ووضعوها في الاسكوريال وذهب جانب منها بحريق أصاب تلك المكتبة

وقد شعر علماء العصر المغولي بنقص الكتب في أيامهم فقال السيوطي — بعد ذكر حكاية الصاحب ابن عباد لما دعي للذهاب الى بعض الملوك فاعتذر بمشقة الانتقال لانه يحتاج الى ستين جملاً ينقل عليها كتب اللغة التي كانت عنده — « وقد ذهب جل الكتب في الفتن الكائنة بين التر وغيرهم بحيث ان الكتب الموجودة الآن في اللغة من تصانيف المتقدمين والمتأخرين لا تجيء حمل جمل واحد » وهذا غلو من السيوطي لكنه يدل على مقدار شعور العلماء بضياع الكتب بالفتن

على أن لضياع الكتب أسباباً غير الفتن والحروب اذ تبلى أوراقها من نفسها أو يمحى حبرها ويعجز صاحبها عن استنساخها لغلاء النفقة . وتحولت العناية في جمع الكتب الى الافراد من العلماء أو عشاق الكتب مثل ناصر الدين العسقلاني صاحب الانشاء بمصر توفي سنة ٧٣٣ فانه خلف ثماني عشرة خزانة مملوءة كتباً نفيسة . ومكتبة القفطي التي تقدم ذكرها . وصارت المكاتب أكثرها في المساجد والمدارس

المدارس والموسوعات

ثامناً : تكاثرت المدارس في مصر والشام على الخصوص حتى صارت تعد بالمئات وأهمها في القاهرة ودمشق . وأول من أنشأ المدارس في الشام السلطان نور الدين زنكي واقتدى به من جاء بعده من الملوك والسلاطين . واختلفت المدارس عندهم حسب مذاهبها وأغراضها للتفسير أو الحديث أو الفقه للشافعية أو الحنفية أو المالكية أو الحنبلية أو الطب أو الفلسفة أو الرياضيات . وتخرج في هذه المدارس طائفة كبيرة من العلماء وقس على ذلك مدارس حلب وحمص والقدس وغيرها . أما مصر فتعددت فيها المدارس على اختلاف أغراضها كما فصل ذلك المقريزي

Digitized by Birzeit University Library

والسيوطي . وأشهرها بل أشهر المدارس الاسلامية في العالم كله مدرسة الازهر بالقاهرة وهي أقدمها يرجع تاريخها الى أواسط القرن الرابع للهجرة

تاسعا : تكاثرت في هذا العصر الموسوعات والمجاميع وتعدد المكثرون من درس الموضوعات المختلفة . واستكثروا من المعاجم في أكثر مؤلفاتهم حتى يصح أن يسمى عصر الموسوعات أو المجاميع

تحويل العلوم

عاشراً : انصرف أصحاب القرائح عن الاشتغال في الفلسفة والفلك والرياضيات الى الابحاث الدينية ولعل السبب في ذلك كثرة ما تولى الناس من الاحن فالتجأوا الى الدين أعظم تعزية لهم وأسهلها . فحولوا أكثر تلك العلوم إما الى خدمة الدين أو الى الخرافات . فعلم الفلك صار الى التوقيت في المساجد . واستغرق أصحاب الكيمياء في تحويل المعادن الى ذهب . وصار علم النجوم الى النجامة وضرب الرمل وأمثاله من الشعوذات وكثرة المؤلفات في هذه المواضيع

على أن الهمم انصرفت الى حل العويص من المسائل الرياضية مما يفتقر الى استغراق في التفكير كقسمة الدائرة الى سبعة أقسام أو رسم المسبع في دائرة . وقد تكاثر هذا على الخصوص في العصر التالي

العصر العثماني

(من فتح العثمانيين مصر سنة ٩٢٣ الى مجيء نابوليون اليها سنة ١٢١٣ هـ)

نشأت الدولة العثمانية بآسيا الصغرى في العصر المغولي . وبعد أن رسخت قدم العثمانيين فيها قطعوا البحر الى أوربا ففتحوا القسطنطينية سنة ٨٥٧ هـ وأوغلوا في ممالكها وأماراتها حتى حاصروا فينا . ونشروا لواء الاسلام على شبه جزيرة البلقان في شرقي أوربا . لكنه تقلص نحو ذلك الزمن عن غربيها (الاندلس) . لان الاسبانيين ما زالوا يطاردون المسلمين العرب فيها ويفتحون البلد بعد البلد حتى أخرجوهم منها كلها سنة ٨٩٧ هـ فكان شبه جزيرة البلقان قامت تحت رايتهم مقام شبه جزيرة الاسبان

وبعد أن فتح العثمانيون القسطنطينية حولوا أعنة خيولهم نحو المشرق في المملكة الاسلامية على أثر ظهور الدولة الصفوية الشيعية التي أسسها اسماعيل شاه

Digitized by Birzeit University Library

سنة ٩٠٧ هـ في بلاد فارس وجعل تبريز عاصمة ملكه ثم استولى على العراق وخراسان من ايدي التيموريين . فامتدت سلطته من نهر جيحون (اكسوس) شرقاً الى خليج فارس ونهر الفرات غرباً . فخافه العثمانيون وهم سنيون وزعيمهم يومئذ السلطان سليم الثاني الفاتح العظيم فتنبهت الضغائن بينهما والعثمانيون حماة السنة والصفويون حماة الشيعة . أو هي حجة يتحاها الفاتحون وسبب الحرب انما هو الطمع بالاستيلاء ـ والدين براء من ذلك

كان اسماعيل شاه قد أغضب السلطان سليماً في أثناء عصيان أخيه احمد لانه حماه منه فخاف اسماعيل عاقبة ذلك فبعث الى مصر يطلب محالفتها على العثمانيين وهي في سيطرة المماليك الاتراك . فغضب السلطان سليم وعزم على فتح البلدين جميعاً . فحمل على ايران حتى فتح تبريز واستولى على عرش صاحبها وهرب اسماعيل شاه . ثم اضطر السلطان سليم الى اخلاء تبريز لقلة المؤن اللازمة لجنده . وطارد عدوه حيناً فتعب جنده من الاسفار فتوقف ريثما استراح . وعمد الى فتح مصر والشام انتقاماً من سلطانها الغوري لانه حالف عدوه عليه . وكانت مصر في غاية الاضطراب والفساد وقد شاخت دولتها وأذنت شمسها بالزوال لتقوم تلك الدولة الشابة مقامها . ففتح السلطان سليم الشام ومصر فأصبحتا ولاية عثمانية سنة ٩٢٣ وبها يبدأ العصر العثماني الذي نحن في صدده

لما فتح العثمانيون مصر أصبح الشرق الاسلامي يتنازعه ثلاث أمم : الفرس والمغول والاتراك . فالفرس استولوا على أواسط العالم الاسلامي نعني ايران وخراسان بين نهري جيحون ودجلة تحت راية الدولة الصفوية وهم فرس ـ وان ادعوا النسب القرشي . وامتد سلطان المغول شرقاً من افغانستان الى أقصى الهند . أما الاتراك وهم العثمانيون فنشروا اعلامهم وراء آسيا الصغرى على مصر والشام والعراق وتونس والجزائر . وكانت هذه البلاد قبل ذلك يحكمها المماليك بمصر والشام والفرس في العراق والحفصية في تونس وطرابلس الغرب والمرينية والوطاسية في الجزائر . فاذا أضفت اليها مراكش في أقصى الغرب وجزيرة العرب وسائر العراق وما يلي مصر جنوباً في أواسط أفريقية وغربيها تألف من ذلك كله بقعة اهلها يتكلمون العربية . يحدها دجلة وخليج العجم من الشرق والمحيط الاتلانتيكي من الغرب وآسيا الصغرى والبحر المتوسط من الشمال وخط الاستواء

Digitized by Birzeit University Library

والبحر العربي من الجنوب ـ وهو العالم العربي . ومعظمه في سيادة الدولة العثمانية.

فالعثمانيون أتراك خلفوا السلاطين المماليك في مصر والشام وهم أتراك أو شراكسة . وكلاهما سنيون . لكن العالم العربي كان أعز جانباً والآداب العربية أرسخ قدماً في عهد المماليك لاسباب كثيرة أهمها :

١ ـ أن السلاطين المماليك كانت عاصمتهم مصر وهي قلب العالم العربي

٢ ـ ان المماليك جعلوا اللغة العربية لغة الحكومة وبها كانوا يتكاتبون ويتخاطبون ويصدرون المناشير والاوامر . كما فعل سائر من تولى هذه البلاد من الدول الاسلامية غير العربية . وكان المماليك يأخذون بناصر العلماء والادباء يستقدمون القراء والمحدثين من الاطراف . ويقترحون تأليف الكتب التاريخية والاجتماعية والحربية والسياسية كما رأيت . أما العثمانيون فكانوا يقربون العلماء وينشطونهم أحياناً لكنهم احتفظوا بلسانهم التركي للمخاطبات والمخابرات وسائر المعاملات

٣ ـ ان بعد العاصمة (الاستانة) عن هذه البلاد وضعف وسائل النقل في تلك الايام أخاف السلاطين على ولاياتهم العربية فجعلوا أساس الادارة فيها التفريق بين رجال الحكومة بحيث لا يخشى اجتماعهم على خلع الطاعة والاستقلال . فآل ذلك طبعاً إلى فساد الاحكام وزيادة المظالم . وأصبح همّ الحكام سلب الاموال والتنازع في الاستبداد في الرعية المسكينة . وبات الرجل من هؤلاء إذا نهض من فراشه وخرج من بيته لا يدري ما يلقاه من أنواع المظالم أو ضروب الاهانة . إذا كان في يده مال لا يأمن بقاءه الى المساء وإذا كانت له دابة فهي عرضة للسخرة ـ فضلاً عن تحول التجارة من مصر إلى سواها في ذاك العهد . وناهيك بالضرائب المتوالية التي لا يسأل ضاربها ولا ينجو أحد من دفعها راضياً أو غاضباً . وما زال ذلك حالها حتى طمع بها الفرنسيون وفتحوها سنة ١٢١٣ هـ (١٧٩٨ م) وبها ينقضي العصر العثماني من تاريخ آداب اللغة الذي نحن في صدده . ثم صارت مصر إلى محمد علي مؤسس العائلة المحمدية العلوية فدخلت في عصر جديد هو « النهضة الاخيرة »

Digitized by Birzeit University Library

حال آداب اللغة

فالامة التي هذا حالها من الضنك والشدة كيف يرجى رواج العلم والادب فيها ؟ ان التغيير السياسي والاجتماعي في العصر المغولي لم يظهر تأثيره في الآداب العربية الا في أواخره . أما في أوائله فظهرت ثمار نضج العلم في الاعصر السابقة . وقد رأيت أن الآداب العربية انحصر معظمها في مصر والشام وما يليهما من العالم العربي مع ظهور بعض الشعراء والادباء في بلاد فارس وما وراءها وفي الاندلس . أما العصر العثماني فتمكن فيه الذل من النفوس وفسدت ملكة اللسان وجمدت القرائح فلم ينبغ شاعر يستحق الذكر خارج البقعة العربية

ومع ذلك فاللغة العربية ما زالت هي لغة الدين في العالم الاسلامي من أقصاه الى أقصاه . لا يستغني عالم مسلم عن معرفتها والمطالعة فيها — حتى الافرنج في أوائل نهضهم فان علماءهم الطبيعيين من الاطباء والفلاسفة وسائر من أراد التوسع في العلم لم يكن يستغني عن اللغة العربية أو ما نقل من آدابها الى اللاتينية وغيرها . وسنفرد فصلا خاصاً لاشتغال الافرنج بآداب اللغة العربية وما نقلوه منها الى لسانهم عند كلامنا عن النهضة الاخيرة

أما الآداب العربية على الاجمال فأصبحت في أحط أدوارها وندر نبوغ العلماء المفكرين أو المستنبطين فيها . وأكثر ما كتب في هذا العصر انما هو من قبيل الشروح والحواشي والتعاليق وشروح الشروح ونحوها . ويصح ان يسمى هذا العصر « عصر الشروح والحواشي » كما سمينا العصر المغولي عصر الموسوعات والجاميع . وشاع في هذا العصر التصوف وتعددت الطرق الصوفية . وكثر التأليف بلا نظام مثل الكشكول . وانحط أسلوب الانشاء حتى أوشك أن يكون عامياً كما في قصص بني هلال ونحوها مما وصل الينا من القصص الموضوعة في عصور الانحطاط . ومن عواقب النظام انحطاط الآداب العامة بفساد الاخلاق وقد ظهرت آثار ذلك في آداب اللغة في هذا العصر فزاد الكتاب جرأة على التعابير البذيئة حتى في كتب التاريخ

Digitized by Birzeit University Library

الرواية والرواة

وقبل الخضوع في تاريخ الشعر العربي وغيره من الآداب العربية نذكر شيئاً عن الذين رووا اللغة والشعر حفظاً للصلة التاريخية فنقول

عمدة الرواة

كثر المشتغلون أيام بني أمية في علوم العرب وأخبارها بين قادم من البادية ونازل من العراق وفارس وخراسان يلتقون في البصرة أو الكوفة أو الحيرة فيتبادلون أخبار العرب وآدابهم وأشعارهم على غير نظام . وقد انتهى ذلك في العصر العباسي الاول الى ثلاثة هم عمدة الرواة وأئمة الناس في تلك العلوم وعنهم روى الرواة وأخذ الآخذون وهم أبو زيد الانصاري وأبو عبيدة والاصمعي وكلهم أخذوا عن أبي عمرو بن العلاء أحد القراء السبعة اللغة والنحو والشعر ورووا عنه القراءة . واشتهر بصدق الرواية قبل هؤلاء قتادة السدوسي وجاء بعدهم القاسم بن سلام

أبو عمرو بن العلاء

توفي سنة ١٥٤ هـ

هو زبان ابن العلاء بن عمار بن عبد الله بن الحصين التميمي المازني أحد القراء السبعة . وكان من أشراف العرب ووجوهها مدحه الفرزدق وغيره وكان أعلم الناس بالقراءات والعربية وايام العرب وكانت دفاتره الى السقف ثم تنسك فاحرقها وكان له شغف بالرواية وجمع علوم العرب وأشعارهم . وعامة أخباره عن أعراب أدركوا الجاهلية ومع ذلك فقد قال « ما انتهى اليكم مما قاله العرب الا أقله » وعنه اخذ أكثر نحاة ذلك العصر فضلا عن رواته وادبائه لكنه لم يخلف اثراً مكتوباً

أبو عبيدة معمر بن المثنى

توفي سنة ٢٠٩ هـ

هو معمر بن المثنى التيمي مولى بني تيم من قريش . ولد سنة ١١٠ وهو أجمع سائر الرواة لعلوم العرب وأخبارهم وأنسابهم . كان في البصرة ويفد على الخلفاء في بغداد وله حكايات في مجلس الرشيد مع الاصمعي للمناظرة والمناقشة . ثم انتقل

Digitized by Birzeit University Library

الى بغداد سنة ١٨٨ استقدمه اليها الفضل بن الربيع في خلافة الامين . واخذ عنه جماعة من علمائها أشهرهم ابو عبيدة القاسم بن سلام وابو عثمان المازني وابو حاتم السجستاني . وكان ابو عبيدة يقول: « ما التقى فرسان في جاهلية أو اسلام الا عرفتهما وعرفت فارسهما » وهو الذي روى اخبار ايام العرب التي يتناقلها المؤرخون الى الآن وروى أشعار كثيرين من الشعراء . وكان ابنه عبد الله يتكسب بإملاء الاشعار على الطلاب فكان يملي شعر كثير بثلاثين دينار وكان ابو عبيدة شعوبياً أي متعصباً على العرب ويرى رأي الخوارج. ومع سعة معرفته في اللغة كان اذا أنشد بيتاً لم يقم إعرابه . وكان شديد الطعن حاد اللسان فلم يسلم شريف من طعنه وألف كتاباً في المثالب . وكان غليظ الشفة وسخاً مدخول الدين والنسب لكنه كان كثير الاشتغال بالتأليف . فذكر له صاحب الفهرست مائة وخمسة مؤلفات في مواضيع شتى في القرآن واللغة والامثال والفتوح والانساب والمثالب وبيوتات العرب وأيامهم والتراجم وغيرها لم يصلنا منها الا كتاب نقائض جرير والفرزدق وكتاب طبقات الشعراء

الأصمعي

توفي سنة ٢١٤ هـ

هو عبد الملك بن قريب من قيس وقد اشتهر بكنيته « الأصمعي » ولكثرة ما يروى عنه أصبحت هذه الكنية مرادفة للفظ « الراوي » . وكان أتقن القوم وأعلمهم بالشعر وأحضرهم حفظاً تعلم نقد الشعر من خلف الاحمر وقد روى عنه كثيرون . وهو من أهل البصرة وقدم بغداد في أيام الرشيد مع أبي عبيدة فقيل لابي نواس ذلك فقال : « اما ابو عبيدة فاذا امكنوه قرأ عليهم اخبار الاولين والآخرين واما الاصمعي فبلبل يطربهم بنغماته » وكان الاصمعي شديد الحفظ يحفظ ١٢٠٠٠ أرجوزة واذا انتقل حمل كتبه في ١٨ صندوقاً ولما تولى المأمون كان الاصمعي قد عاد الى البصرة فاستقدمه فاعتذر بضعفه وشيخوخته فكان يجمع المشكل من المسائل ويسيرها اليه فيجيب عنها . واخبارهم كثيرة

أما مؤلفاته فقد ذكر منها ابن النديم نيفاً وأربعين كتاباً في موضوعات مختلفة ذهب معظمها . على ان حظه من البقاء خير من حظ أسلافه من الرواة . أما كتبه الباقية مما بلغ خبره الينا فبعضها شعرية والبعض الآخر كتب لغوية لدلالات الالفاظ

Digitized by Birzeit University Library

أكثرها موضوع في مجاميع كل كتاب في باب خاص من الاسماء بعضها لاسماء الوحوش والآخر للابل وغيرها وهي : الاصمعيات . رجز العجاج . كتاب اسماء الوحوش الابل . خلق الانسان . الخيل . الشاء . الدارات . الفرق . النبات والشجر . النخل والكرم . الغريب

أبو زيد الانصاري

توفي سنة ٢١٥ هـ

هو ابو زيد سعيد بن أوس الانصاري من اهل البصرة اخذ عن ابي عمرو ابن العلاء . وكان عالماً ثقة باللغة وكان سيبويه اذا قال « سمعت الثقة » فانه يريد أبا زيد الانصاري وعنه أخذ كثيرون من علماء البصرة . وكان لفرط رغبته في استيعاب العلم يأخذ عن أهل الكوفة أيضاً ولم يرو من البصريين عن أهل الكوفة الا أبو زيد فقد روي عن المفضل الضبي أكثر كتابه « النوادر في اللغة » على ان أكثر رواياته عن العرب البحت وقد غلب عليه اللغة والنوادر والغريب . وكان يمتاز عن رفيقيه أبي عبيدة والاصمعي بالثقة فانه كان أوثقهم كما كان الاصمعي أحفظهم وابو عبيدة أجمعهم وجاء ابو زيد بغداد حين قيام المهدي

وقد الف كتبا كثيرة في علوم الادب لم يصلنا منها الا : كتاب النوادر في اللغة . كتاب المطر . كتاب اللبن

رواة الشعر

وهناك طبقة من الرواة غلبت عليهم رواية الشعر على سواه من علوم العربية فاشتغلوا بجمع شعر عرب الجاهلية وغيرهم ودونوه أو حفظوه — وهم غير الذين يختص كل راو منهم بشاعر فيكون راويته — وقد علمت من كلامنا عن شعراء الجاهلية انهم كانوا كثاراً عددنا منهم مائة وبعض المائة وهم أكثر من ذلك لضياع اخبار الباقين منهم في أثناء ظهور الاسلام لكثرة من قتل منهم ومن رواتهم في الحرب والغزو على عهد النبي والراشدين

فلما احتاج المسلمون في صدر الاسلام الى معرفة معاني الالفاظ في التفسير والقراءة عمدوا الى جمع أشعار العرب وأمثالهم وأقوالهم بلا تخصيص . ثم غلب على بعضهم جمع الشعر وعلى البعض الآخر شواهد النحو وعلى غيرهم الامثال وغيرهم اللغة . فأخذوا يطلبونها في اماكنها وينقلونها عن أصحابها أو من سمع عنهم .

Digitized by Birzeit University Library

والمشهور ان اخبار الجاهلية لم يدون منها شيء قبل الاسلام . ثم ظهر ان بعض ذلك كان مدوّناً في صحف عند عباد الحيرة من أيام المناذرة

وأول من اشتغل بجمع الشعر بعد الاسلام ممن بلغ الينا خبره حماد الرواية المتوفي سنة ١٥٦ هـ وقد عاصر الدولتين الاموية والعباسية وعاصر ابا عمرو بن العلاء المتقدم ذكره . ثم ظهر خلف الاحمر والمفضل الضبي وغيرهما

وظهر بعد هذه الطبقة من الرواة طبقة من الجامعين الذين ينظرون في الروايات ويجمعون بينها ويعدلونها . نخص منهم بالذكر اثنين من اهل العصر العباسي الاول هما محمد بن سلام صاحب طبقات الشعراء ، وابن ابي الخطاب القرشي صاحب جمهرة اشعار العرب

ما هو مبلغ صدق الرواة

ان ما بين ايدينا من اخبار العرب واشعارهم في الجاهلية انما وصل الينا على أيدي الرواة الذين ذكرناهم فهم رووا تلك الاشعار والاخبار وروتها الناس عنهم — فهل نقلوها عن ثقة ؟ وهل هم صادقون في روايتها ؟

والجواب عن ذلك ان رواياتهم على اجمالها صادقة وان كان ما وصل الينا من أشعار الجاهلية لا يخلو من المنسوب لغير أصحابه . ولذلك سببان يتصل أحدهما بالعرب الذين تلوا تلك الاشعار على الرواة والثاني يتصل بالرواة أنفسهم . فالعرب لما قام الاسلام شغلوا به عن مفاخراتهم ومناشداتهم فلما انقضت دولة الراشدين وقام الامويون واقتضت سياستهم احياء عصبية الجاهلية عادت القبائل إلى مفاخراتها كل قبيلة تفاخر سواها بمن نبغ فيها من الشعراء وما قالوه . وكان قد ذهب معظمه فأخذ أبناء الشعراء أو بعض أهلهم يزيدون في الاشعار التي قيلت ولم يكن يخفى ذلك على أهل العلم . كما اتفق لابن داود بن متمم بن نويرة وقد قدم البصرة لما يقدم له البدوي من الجلب والميرة فأتاه بعض الرواة وسألوه عن شعر أبيه فلم يرو بعضه حتى أدركوا المصنوع منه

لكن كثيراً من الاشعار تنسب لغير أصحابها اعتباطاً لتشابه القافية والوزن والمعنى ، فكثير من أشعار كثيّر تنسب لمجنون ليلى . وكذلك سائر العشاق تتشابه أشعارهم لتشابه معانيها . فاذا اتحدت قوافيها وأوزانها اختلطت وصعب تفريقها كقصيدة ابن الحدادية اليائية التي مطلعها :

Digitized by Birzeit University Library

سقى الله أطلالاً بنعم ترادفت بهنَّ النوى حتى حللنا المطاليا

فان بعضهم يدخل أبياتاً منها في قصيدة مجنون ليلى التي مطلعها :

تذكرت ليلى والسنين الخواليا وأيام لا أعدي على الدهر عادياً

وقس على ذلك أمثاله وهو كثير. وقد ينسبون القصيدة الى غير واحد . وبعض القصائد تنسب إلى عشرين شاعراً أو أربعين

تعمد التزوير

والرواة يتفاوتون ثقة فمنهم الثقة المحقق ومنهم من يتعجل في التصديق وبعضهم يتقلب في رواياته مع الاهواء فينظم الابيات على لسان بعض الجاهليين وينسبها اليهم لمطمع مالي أو غرض آخر . وأشهر من فعل ذلك حماد وخلف المتقدم ذكرهما وهما مرجع رواة الاشعار كما رأيت . فكان حماد كثيراً ما يصنع الابيات أو القصيدة ينسبها إلى شاعر من قوم يريد أن يتزلف الى رجل منهم صاحب نفوذ أو سيادة في عصره . كما فعل في ولاية خالد بن عبد الله القسري وكان خالد شديد العصبية لقومه اليمنية على القيسية . فنظم حماد أبياتاً نسبها الى ابن الحدادية يمدح بها أسد بن كرز من بجيلة قبيلة خالد القسري المذكور وأسد بن كرز أبو جده . فأورد حماد حكاية جرت لابن الحدادية مع ناس من قومه أصابوا دماً في قوم من خزاعة فهربوا حتى نزلوا في بجيلة على أسد بن كرز فآواهم وأحسن اليهم وان ابن الحدادية نظم فيه قصيدة يمدحه بها ـ الى آخر الحديث ولكن الرواة المحققين يقولون انها من نظم حماد للغرض الذي تقدم . وكذلك كانوا يفعلون في وضع الانساب طمعاً بالمال ـ قال ابن الكلبي : « أول كذبة كذبتها في النسب : ان خالد بن عبد الله سألني عن جدته أم كريز وكانت أمة بغياً لبني أسد يقال لها زينب فقلت له هي زينب بنت عرعرة بن جذيمة بن نصر بن قعين فسرَّ بذلك ووصلني »

وقد شهد المفضل الضبي وهو معاصر لحماد أيضاً قال « قد سلط على الشعر من حماد الراوية ما أفسده فلا يصلح أبداً » فقيل له « وكيف ذلك ، أيخطىء في روايته أم يلحن ؟ » قال « ليته كان كذلك فان أهل العلم يردون من أخطأ الى الصواب ولكنه رجل عالم بلغات العرب وأشعارهم ومذاهب الشعراء ومعانيهم فلا يزال يقول الشعر يشبه به مذهب رجل ويدخله في شعره ويحمل ذلك عنه في الآفاق فتختلط أشعار القدماء ولا يتميز الصحيح منها إلا عند عالم ناقد ، وأين ذلك ؟ »

وقد بلغ قول الضبي الى الخليفة المهدي فأكده له بالامتحان بين يديه فاعترف

Digitized by Birzeit University Library

حماد بأبيات زادها في أشعار زهير بن أبي سلمى . فأمر المهدي بابطال روايته لانه يدخل بأشعار الناس ما ليس منها ووصل المفضل لصدقه وصحة روايته

وخلف الاحمر كان يفعل فعل حماد وقد قال عن نفسه إنه كان ينظم الاشعار وينحلها لغير أصحابها . وإنه كان يأخذ من حماد الصحيح من أشعار العرب ويعطيه المنحول فيقبله . وكان خلف شاعراً مجيداً فينظم القصائد الغرَّ ويدخلها في دواوين الشعراء ويقال ان القصيدة المنسوبة للشنفري التي أولها :

أقيموا بني أمي صدور مطيكم فاني الى أهل سواكم لأميلُ

هي له . وقال أبو حاتم كان خلف الاحمر شاعراً وقد وضع على عبد القيس شعراً مصنوعاً عبثاً منه . وأدخل أيضاً على غيرهم من القبائل أبياتاً وقصائد وكان أهل البصرة والكوفة يأخذون ذلك عنه لانه كان لتمكنه من الشعر والشعراء اذا نظم على ألسنة الناس أشبه كل شعر بقوله بشعر الذي يضعه له . وتنسك في أواخر أيامه وندم على ذلك وكفّ عن النظم . ثم خرج يوماً الى أهل الكوفة واعترف لهم بما كان يعمله وعرفهم الاشعار التي قد أدخلها في أشعار الناس فقالوا « أنت كنت عندنا في ذلك الوقت أوثق منك الساعة » ولم يستطيعوا اخراج ذلك من دواوينهم.

وممن كان يفعل فعل حماد وخلف ابن دأب والشرقي بن القطامي . سئل القطامي « ما كانت العرب تقول في صلاتها على موتاها » فقال « لا أدري » فقيل له « اكذب » فقال « كانوا يقولون رويدك حتى تبعث الخلق باعثة » فشاع ذلك وتحدثوا به حتى الرواة الثقات كالاصمعي وأبي عبيدة وأبي زيدفقد كانوا يتطاعنون ويضعّف كل منهم رواية الآخرين ولكن المحققين ينزهون هؤلاء عن الكذب . وقد قال محمد بن سلام الجمحي «في الشعر موضوع مفتعل مصنوع لا خير فيه ولا حجة باعرابه»

على ان المحققين في العصر العباسي الثاني كأبي الفرج الاصبهاني وابن قتيبة وابن عبد ربه وغيرهم ممن عنى الادب وانتقد الشعر بينوا أماكن الضعف في كثير من المواضع وجعلوا للرواية شروطاً في الاسناد والاخذ والتحقيق لا محل لها هنا . وانتقد محمد بن سلام شيئاً من ذلك في مقدمة طبقاته

ولابي القاسم عمر بن حمزة البصري (المتوفي سنة ٣٧٥ هـ) كتاب في انتقاد الرواة سماه « التنبيهات على أغاليط الرواة » ضمنه التنبيه على الاغاليط التي وقعت في نوادر أبي زياد الكلابي ونوادر أبي عمرو الشيباني وكتاب النبات لابي حنيفة الدينوري والكامل للمبرد والفصيح لثعلب والغريب للقاسم بن سلام واصلاح المنطق لابن السكيت وغيرهم

Digitized by Birzeit University Library

اللغة العربية

قبل الاسلام

لم يتصدَّ أحدٌ للبحث في آداب اللغة العربية قبل زمن التاريخ لقلة المواد المساعدة على ذلك ولاعتقادهم ان العرب حتى في الجاهلية الثانية قبل الاسلام كانوا غارقين في الفوضى والجهالة لا عمل لهم إلا الغزو والنهب والحرب في بادية الحجاز والشام وفي نجد وغيرها من بلاد العرب . على اننا اذا نظرنا الى لغتهم كما كانت في عصر الجاهلية نستدل على ان هذه الامة كانت من أعرق الامم في المدنية لانها من أرقى لغات العالم في أساليبها ومعانيها وتراكيبها ـ واللغة مرآة عقول أصحابها ومستودع آدابهم . فتكلمو اللغة الفصحى كما جاءتنا في القرآن والشعر الجاهلي والامثال لا يمكن أن يكون أصحابها دخلوا المدنية أو العلم من قرن أو قرنين فقط . اذ لا يتأتى للغة من لغات المتوحشين ان تبلغ مبلغ لغات المتمدنين إلا بتوالي الدهور فكيف باللغة العربية الدالة على سمو مدارك أصحابها وسعة تصورهم ودقة نظرهم

واللغة العربية احدى اللغات السامية ـ ويريدون باللغات السامية اللغات التي كان يتفاهم بها أبناء سام وهم في اصطلاحهم أهل ما بين النهرين وجزيرة العرب والشام . أشهرها العربية والسريانية والعبرانية والفينيقية والاشورية والبابلية والحبشية ولم يبق حياً منها الا العربية والحبشية والعبرانية والسريانية . والعربية أرقاها جميعاً

واللغات السامية أخوات لا يعرف لهن أم . وظن بعضهم ان اللغة البابلية أو الاشورية القديمة أمهنَّ كما ان اللغة اللاتينية أم اللغات الاسبانية والايطالية والبورتغالية ولكن المحققين لا يؤيدون ذلك . والمعول عليه ان هذه اللغات السامية أخوات انقرضت أمهن قبل زمن التاريخ . وقد دعاها علماء اللغات « اللغة الآرامية » نسبة الى آرام أحد أبناء سام مما يطول الكلام فيه

ومهما كان من تاريخ اللغة العربية القديم فقد عرفناها عند ظهور الاسلام ناضجة وقد تفرعت الى لغات باختلاف الاصقاع والقبائل فدوّن المسلمون احدى تلك اللغات مع أمثلة من سائر اللغات

Digitized by Birzeit University Library

في عصر الراشدين

وكان لظهور الاسلام تأثير كبير في اللغة العربية وأساليبها وألفاظها لتشرب المسلمين روح القرآن وحفظهم كلامه واعجابهم به . وطبيعي ان الكاتب تكيف ملكة اللغة فيه على مقتضى محفوظه من أشعارها وأمثالها وأساليبها فلا غرو اذا ظهرت أساليب القرآن وألفاظه في لغة المسلمين شعراً ونثراً كتابة وخطابة . ويرجع ذلك التغير إلى قسمين :

تغير في الاسلوب

تغيير في الالفاظ

١ — التغيير في الاسلوب

أما الاسلوب الانشائي فلا يمكننا تعيين مقدار التغير الذي أصابه لان ما وصلنا من انشاء الجاهليين لا يخلو من صبغة اسلامية إلا سجع الكهان فالغالب انه بقي على حاله والفرق بينه وبين أسلوب القرآن كالفرق بين الثريا والثرى — أين قول طريفة كاهنة اليمن حين خاف أهل مأرب سيل العرم وعليهم مزيقياء عمرو بن عامر فانها قالت لهم : « لا تؤموا مكة حتى أقول وما علمني ما أقول الا الحكم المحكم رب جميع الأمم من عرب وعجم الخ » من أساليب القرآن ؟

وتولد في صدر الاسلام ضرب من الانشاء من أبلغ ما يكون . وأحسن الامثلة عليه مخاطبات الخلفاء والقواد وكلها من السهل الممتنع ككتاب عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص لما بعث به لفتح مصر ثم تخوف فكتب اليه : « بسم الله الرحمن الرحيم. من الخليفة عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص عليه سلام الله تعالى وبركاته . أما بعد فان أدركك كتابي هذا وأنت لم تدخل مصر فارجع عنها وأما إذا أدركك وقد دخلتها أو شيئاً من أرضها فامض واعلم اني ممدك »

وكتب ابن الخطاب الى ابن العاص يستنجده في مجاعة بقوله : « من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى العاصي ابن العاصي سلام . أما بعد فلعمري يا عمرو ما تبالي إذا شبعت أنت ومن معك أن أهلك انا ومن معي فيا غوثاه ثم يا غوثاه » فكتب اليه عمرو « إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب من عمرو بن العاص . أما بعد فيا لبيك ثم يا لبيك قد بعثت اليك بعير أولها عندك وآخرها عندي والسلام »

ذلك أسلوبهم فيما يكتبونه أو يقولونه من المخابرات السياسية أو الخطب الحماسية

Digitized by Birzeit University Library

أو العهود أو العقود . حتى انك إذا قرأت لهم رسالة تبينت أسلوب صدر الاسلام فيها فيهون عليك التفريق بين الصحيح والموضوع منها . ومما يطعن في صحته من العهود ما يسمونه « العهدة النبوية » فانها بعيدة عن عصر الراشدين بأسلوبها وألفاظها فضلا عن مخالفة بعض نصوصها للتاريخ

وتجد أمثلة من المخابرات السياسية والخطب ونحوها على أسلوب صدر الاسلام في كتب الفتوح والغزوات كفتوح الشام للواقدي وفتوح البلدان للبلاذري ومنها جانب كبير في خطط المقريزي عن فتوح مصر . وتجد معظمها مجموعاً في كتاب فتوح الشام للشيخ أبي اسماعيل محمد بن عبد الله الأزدي البصري من أهل أواسط القرن الثاني للهجرة وقد شاهدنا فيه ما لم نشاهده في غيره مما وصل الينا من كتب الفتح فانه عبارة عن مجموع المخابرات السياسية أو الأوامر الرسمية التي جرت بين الخلفاء الراشدين وقوادهم أو ما تكاتب به القواد أو ما كتبوه الى كبراء الروم وغيرهم . أو ما عقدوه من العهود في أثناء حروبهم في الشام إلى فتحها وفتح أجنادها . كأنها الأصول التي أخذت أخبار الفتح عنها

٢ ـ التأثير في الالفاظ

أما تأثير القرآن في ألفاظ اللغة فضلا عن الأسلوب فظاهر فيما دخلها من الالفاظ الاسلامية مما اقتضاه الاصطلاح الديني أو الشرعي . وأكثر هذه الالفاظ كانت موجودة في اللغة قبل الاسلام لكنها كانت تدل على معان أخرى فتحولت للدلالة على ما يقاربها من المعاني الجديدة . فلفظ « مؤمن » مثلا كان معروفاً في الجاهلية ولكنه كان يدل عندهم على الأمان أو الأيمان وهو التصديق فأصبح بعد الاسلام يدل على المؤمن وهو غير الكافر وله في الشريعة شروط معينة لم تكن من قبل . وكذلك المسلم والكافر والفاسق ونحوها . ومما حدث من المصطلحات الشرعية الصلاة وأصلها في العربية الدعاء وكذلك الركوع والسجود والحج والزكاة والنكاح فقد كان لهذه الألفاظ وأشباهها معان تبدلت بالاسلام وتنوعت

وقس على ذلك المصطلحات الفقهية كالايلاء والظهار والعدة والحضانة والنفقة والاعتاق والاستيلاء والتعزير واللقيط والآبق والوديعة والعارية والشفعة والمناسخة والفرائض والقسامة وغيرها

ويروون ألفاظاً وتراكيب نطق بها النبي ولم تسمع من العرب قبله كقوله : « مات حتف أنفه » و « حمى الوطيس » و « لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين »

Digitized by Birzeit University Library

وفي كتابنا « تاريخ اللغة العربية » بحث ضاف فيما دخل اللغة من الالفاظ والأساليب قبل الاسلام وبعده

في العصر الأموي

اللغة كما ذكرنا مرآة عقول أهلها ومعرض آدابهم وأخلاقهم وسائر أحوالهم تتبعهم في ما يطرأ عليهم من التغيير وتحفظ آثار ذلك التغيير . وقد تتبدل أحوال الامة ويذهب كثير من عاداتها أو آدابها وتبقى آثار ذلك في ألفاظها وتراكيبها . وقد حدث ما حدث في اللغة من الآداب الشرعية واللسانية فاقتضى ذلك طبعاً أن يحدث فيها ألفاظ جديدة أو تتنوع بعض ألفاظها للتعبير عن المعاني الجديدة

فمن المصطلحات اللغوية التي اقتضتها العلوم اللسانية قولهم النحو والعروض والشعر والاعراب والادغام والاعلال والحقيقة والمجاز والنقض والمنع والقلب والرفع والنصب والخفض والمديد والطويل وغيرها من أسماء البحور وضروب الاعراب والتصريف وهي كثيرة جداً ولها فروع واشتقاقات ـ حتى لقد أصبح للفظ الواحد معنى فقهيٌ وآخر لغوي وآخر عروضي وآخر ديني مما لا يمكن حصره . أما المصطلحات الشرعية فقد ذكرنا بعضها في الكلام على اللغة في عصر الراشدين فليقس عليها

ودخل اللغة في هذا العصر وقبله بعض المصطلحات الادارية كالخلافة والوزارة والحجابة والامامة وغيرها من مصطلحات الجند كالمسترزقة والمتطوعة والعلوفة والعسكر . وضروب الحرب وأبواب الهجوم كالزحف والكرّ والفر والبيات والكفاح والغرة . وصنوف الاسلحة كالدبابة والكبش والعرادة وغيرها . ناهيك بمصطلحات الدواوين على اجمالها كقولهم الثغور والعواصم والاقاليم والقصبة والعمل والولاية والضياع والحكومة والسكة والتوقيع والوظيفة والخراج والجزية والعشور والمرافق والصوافي والجوالي والحماية والوقف والمصادرة والمستغلات والصدقة والمكوس والمراصد ودار الضرب والضمان والدفاتر والجرائد والخرائط والايغار والراتب والجاري والعطاء والبيعة والدعوة والختم والخطط والمطالعة والمؤامرة وغير ذلك كثير جداً

في العصر العباسي

أصاب اللغة في هذا الدور تغيير كثير في ألفاظها بما نقل اليها من العلوم الدخيلة

Digitized by Birzeit University Library

وما اقتضاه التمدن من الالفاظ الادارية وما استلزمه التوسع في العلوم الاسلامية وغيرها من الاوضاع والمصطلحات العلمية والفلسفية والادارية لتأدية ما حدث من المعاني الجديدة مما لم يكن له مثيل في لسان العرب كما هو شأننا اليوم في نقل العلم الحديث الى لساننا . وكانوا يومئذ أحوج الى اقتباس الالفاظ الاعجمية وتنويع المعاني العربية . ولم تقتصر تلك النهضة على اقتباس الالفاظ الاعجمية وتبديلها ولكنها أحدثت تنويعاً في معاني الالفاظ العربية واليك أمثلة من ذلك :

الالفاظ العلمية العربية

أهمها الالفاظ الطبية : ولم يكن منها في الجاهلية إلا مفردات كالحجامة والكي ونحوها . فحدث منها ما يدل على فنون الطب كالكحالة والصيدلة والتشريح والجراحة والتوليد ، ومنها ما يختص باصطلاحات كل فن كأسماء الرطوبات والامزجة والاخلاط من الحار والبارد والجاف واليابس والسوداء والصفراء والبلغم والنبض والتخمة والانذار والهضم والبحران والمشاركات

وأسماء الادوية : كالمسخنات والمبردات والمرطبات والمجففات والمسهلات والنطولات والمخدرات والاستفراغات والسعوطات والادهان والمراهم والاطلية

وأفعال تلك الادوية : مثل ملطف ومحلل ومنضج ومحشن وهاضم وكاسر الرياح ومخم ومحكك ومقرح وأكال ولاذع ومفتت ومعفن وكاو ومبرد ومقوّ ومخدر ومرطب وعاصر وقابض ومسهل ومدرّ ومعرق ومزلق ومملس وترياق وغير ذلك

ومن الالفاظ الجراحية : الفسخ والهتك والوني والرض والخلع والفتق وتفرق الاتصال ومفارقة الوضع والحيار وغيره

ناهيك بأسماء الامراض أو أعراضها : كالصداع والكابوس والصرع والتشنج واللقوة والرعشة والاختلاج والسرطان والسلاق والشترة والشرناق والخانوق والذبحة والربو وذات الجنب وذات الرئة والجهر والضمور والخفقان والغشيان واليرقان والاستسقاء والدبيلة والاسهال والزحير والسحج والسدد والهيضة والبواسير ونحو ذلك مما لا يمكن حصره

ومن أوصاف الامراض أنواع الحميات : كالمزمنة والحادة والمختلطة والغب والمطبقة والربع والدق وغيرها . غير الالفاظ التشريحية كأسماء الأوعية الدموية

Digitized by Birzeit University Library

ورطوبات العين وسائر الاعضاء الباطنية التي لم يكن العرب يعرفونها

ويليها الألفاظ الفلسفية ونحوها من مصطلحات الفلسفة والمنطق وما تفرع منها كعلم الكلام والتصوف والفقه ونحوه . وهي كثيرة تفوق الحصر كقولهم الكون والظهور والقدم والحدوث والاثبات والنفي والحركة والسكون والمماسة والمباينة والوجود والعدم والطفرة والاجسام والاعراض والتعديل والتحرير والمصاف من اصطلاحات علم الكلام . والمجاهد والمريد والسالك والمسافر والسطح والقطب والهيبة والانس والبقاء والعناء والشاهد والفترة والمجاهدة من اصطلاحات التصوف

وقد تكاثرت الاصطلاحات الكلامية والصوفية والفقهية والأصولية حتى صارت تعد بالألوف فاضطروا إلى وضع المعجمات الخصوصية لتفسيرها وشرح ما اكتسبته من المعاني المختلفة باختلاف تلك العلوم . ومن أشهر تلك المعجمات كتاب « التعريفات » للجرجاني في مائة ونيف صفحة و « كشاف اصطلاحات الفنون » للتهانوي في نحو ألفي صفحة كبيرة و « كليات أبي البقاء » في أربعمائة صفحة و « اصطلاحات الصوفية » الواردة في الفتوحات المكية وغيرها . فاذا ذكروا لفظاً أوردوا معناه اللغوي ثم معناه الاصطلاحي في الفقه أو الكلام أو التصوف أو الأصول مع ما يناسب ذلك من المعاني الرياضية أو الطبيعية أو النحوية . وقد يغفلون المعنى اللغوي على الاطلاق

الالفاظ العلمية والاعجمية

ونريد بها ما اضطر المترجمون الى نقله من لغته بلفظه ومعناه . وأكثر ما يكون ذلك في أسماء العقاقير والامراض والأدوات والمصنوعات مما لم يكن له نظير في بلادهم كالافسنتين والبقدونس والزنزفون والسقمونيا والقنطاريون والمصطكى من اللغة اليونانية والبابونج والبورق والبنج وخيار شمبر والراتينج والزرجون والزرنيخ والزاج والسرقين والاسفيداج والشاهترج والشيرج والمرادسنج من اللغة الفارسية

ومن أسماء الامراض ونحوها من الاستعمالات الطبية الفولنج والترياق والكيموس والكيلوس وقيفال ولومان ومانخوليا من اليونانية . وسرسام ومارستان من الفارسية

ومن المصنوعات والأدوات الاصطرلاب والقيراط والانبيق والصابون من

مكتبة جامعة بيرزيت

Digitized by Birzeit University Library

اليونانية والبركار والبوتقة والجنزار والدسكرة والاسطوانة من الفارسية

ومن الاصطلاحات الفلسفية ونحوها الهيولى والاسطقس والفلسفة والطلسم والمغنطيس والاقليم والقاموس والقانون من اليونانية ـ غير ما اقتبسوه من اللغة الهندية وأكثره من اسماء العقاقير ونحوها

فترى مما تقدم أن أهل تلك النهضة لم يكونوا يستنكفون من اقتباس الألفاظ الاعجمية ولم يتعبوا أنفسهم في وضع ألفاظ عربية لتأدية المعاني التي نقلوها عن الاعاجم بل كانوا كثيراً ما يستخدمون للمعنى الواحد لفظين من لغتين اعجميتين . فالسرسام مثلا اسم فارسي لورم حجاب الدماغ استعمله العرب للدلالة على هذا المرض ولما ترجموا الطب من لغة اليونان استخدموا اسمه اليوناني وهو « قرانيطس » ولو استنكفوا من استخدام الألفاظ الأعجمية لاستغنوا عن اللفظين جميعاً

التراكيب الاعجمية في اللغة العربية

قياساً على ما نشاهده من تطرق العجمة الى أسلوب كتبة أهل هذا العصر فيما ينقلونه من الافكار الأعجمية نعتقد أن أسلافنا في النهضة العباسية دخل أسلوبهم شيء من ذلك وإن كنا لا نستطيع تتبعه الى أصوله تماماً لتباعد عهده واختلاطه . على اننا اذا فحصنا لغة هذا العصر وقابلنا بين عبارة كتب الطب والفلسفة وعبارة كتب الأدب رأينا الفرق بينهما واضحاً . وإذا دققنا النظر في سبب ذلك رأينا عبارة أصحاب الفلسفة تمتاز بأمور هي سبب ضعفها وركاكتها أهمها :

(١) استعمال فعل الكون بكثرة على نحو ما يستعمله أهل اللغات الافرنجية

(٢) كثرة الجمل المعترضة الشائعة عندهم

(٣) الاكثار من استعمال الفعل المجهول

(٤) استعمال ضمير الغائب « هو » بين المبتدا والخبر حيث يمكن الاستغناء عنه

(٥) ادخال الألف والنون قبل ياء المتكلم في بعض الصفات كقولهم روحاني ونفساني وباقلاني ونحو ذلك مما هو مألوف في اللغات الآرية ولا يستحسن في اللسان العربي

ومن التعبيرات التي اقتبسها العرب من اللغة اليونانية ما لم يكن لهم مندوحة عنها ولا يأس منها :

Digitized by Birzeit University Library

(١) تركيب الالفاظ مع لا النافية وادخال أل التعريف عليها كقولهم اللانهاية واللاأدرية واللاضرورة

(٢) صوغ الاسم من الحروف أو الضمير مثل قولهم اللمية والكيفية والكمية والهوية والماهية

(٣) نقل الالفاظ الوصفية الى الاسمية كقولهم المائية والمنضجة والخاصة

ومن هذا القبيل اقتباسهم بعض التعبيرات الفارسية الادارية مثل قولهم « صاحب الشرطة » و « صاحب الستار » وهو تعبير فارسي . غير ما أصاب اللغة من التغيير في ألفاظها على الاجمال على أثر نموها وبما طرأ على الآداب الاجتماعية من التغيير فضلاً عن التجارة والصناعة . وما اقتضاه ذلك من تنوع الالفاظ العربية أو اقتباس الالفاظ الاعجمية غير العادات والاخلاق ونحوها . وغير ما اقتضاه ناموس الارتقاء من النمو والتجدد والتنوع والتفرع

Digitized by Birzeit University Library

الشعر

ما هو الشعر

الشعر من الفنون الجميلة التي يسميها العرب الآداب الرفيعة وهي الحفر والرسم والموسيقى والشعر . ومرجعها إلى تصوير جمال الطبيعة ـ فالحفر يصورها بارزة والرسم يصورها مسطحة بالاشكال والخطوط والالوان . والشعر يصورها بالخيال ويعبر عن اعجابنا بها وارتياحنا اليها بالالفاظ . فهو لغة النفس أو هو صور ظاهرة لحقائق غير ظاهرة . والموسيقى كالشعر ـ هو يعبر عن جمال الطبيعة بالالفاظ والمعاني وهي تعبر عنه بالانغام والالحان وكلاهما في الاصل شيء واحد

هذا هو تعريف الشعر في حقيقته ولكن علماء العروض من العرب يريدون بالشعر الكلام المقفى الموزون فيحصرون حدوده بالالفاظ وهو تعريف النظم لا الشعر وبينهما فرق كبير اذ قد يكون الرجل شاعراً ولا يحسن النظم وقد يكون ناظماً وليس في نظمه شعر ـ وان كان الوزن والقافية يزيدان الشعر طلاوة ووقعاً في النفس فالنظم هو القالب الذي يسبك فيه الشعر . ويجوز سبكه في النثر

وقد تقدم ابن خلدون خطوة أخرى في تعريف الشعر فقال : « الشعر هو الكلام المبني على الاستعارة والاوصاف المفصل بأجزاء متفقة في الوزن والروي مستقل كل جزء منها في غرضه ومقصده عما قبله وما بعده الجاري على أساليب العرب المخصوصة به » فهو يجعل التقفية والوزن من شروط الشعر ويشترط أيضاً استقلال كل بيت منها بغرضه . وهو تقييد لا باعث له اذ قد ترى في الكلام المنثور معاني تؤثر في نفسك تأثير الشعر وذلك كثير في كلامهم والحكم فيه للذوق . ومن أصعب الامور ان نعرّف الشعر ونجعل له حدوداً جامعة مانعة كما نعرّف الصرف أو النحو أو الفلك أو غيرها من العلوم والآداب . ولكنك اذا قرأت قولاً فيه خيال شعريٌّ تعرفت الشاعرية فيه وشعرت بلذة ذلك التعرف وطربت له وقد يكون ذلك القول نثراً وانما أطربك ما فيه من أساليب الكناية أو الاستعارة . فاذا سبكته في قالب شعري زاد رونقاً وطلاوة فاذا غنيته على توقيع الالحان زدت طرباً به . فالوزن يزيد الشعر طلاوة من قبيل التوقيع الموسيقي في الالفاظ والحركات لا من قبيل المعنى

Digitized by Birzeit University Library

فاذا قرأنا لبعضهم نثراً يصف به ذهوله بالحب فيقول « اذا جئت دار الحبيب ليلاً لحاجة لي ألتمسها فلا أدخل الدار حتى أنسى ما جئت له » فهذا معنى شعري غزلي ترتاح اليه النفس لكن ارتياحها يكون أكثر اذا نظم ذلك المعنى شعراً كقول المجنون :

فيا ليلى كم من حاجة لي مهمة اذا جئتكم بالليل لم أدرِ ما هيا

ويكون وقعه في النفس أشد اذا غني على لحن مطرب

وعلى ذلك فيدخل في الشعر كثير من أقوال العرب التي نعدُّها من قبيل الامثال أو الحكم المأثورة المبنية على الكناية كقولهم : المرء بأصغريه لا ببرديه . وعاد الامر الى نصابه . وصاحت عصافير بطنه . ونحو ذلك

فالشعر بالمعنى لا بالوزن والقافية . وقد رأينا بعض متقدمي العرب يرون هذا الرأي في تعريف الشعر فقد قال بعضهم « الشعر كلام وأجوده أشعره » ولم يقيده بالوزن ولا القافية وقال آخر « الشعر شيء نحيش به صدورنا فتقذفه على ألسنتنا »

الشعر في الجاهلية

أسباب النهضة بوجه عام

قضى العرب أجيالا لا يعرف مقدارها إلا الله وهم يقولون الشعر عند الحاجة مما لم يصل الينا خبره . وانما وصل الينا بعض ما نظموه في النهضة الاخيرة قبيل الاسلام . والنهضة في الشعر أو الادب أو العلم تحدث على أثر انقلاب سياسي من فتح أو حرب أو نصر . أو تغيير اجتماعي على أثر نكبة أو نازلة أو كل ما يثير العواطف . وهي قاعدة تشمل طبائع البشر في كل زمان ومكان . فالهنود القدماء لم ينظموا أناشيدهم السنسكريتية الا بعد ما لاقوه من الحروب والتنازع في أثناء نزولهم الهند قبل الميلاد بأجيال . واليونان ما زالوا على الشعر القصصي وشعراؤهم قايلون حتى قامت الفتن بينهم وتحاربوا ثم حاربوا الفرس وغيرهم فنبغ فيهم الشعراء الموسيقيون . وظلّ الرومان بعد تأسيس دولتهم ٢٤٠ سنة في جمود أدبي لم يظهر فيهم شاعر حتى كانت الحروب الفونية مع القرطاجيين فتفتقت قرائحهم وظهر فيهم الشعر . وقضت أمم أوربا أجيالاً في القرون الوسطى وقرائحهم خامدة فلما خرجوا للحروب الصليبية وقاسوا ما قاسوه فيها ظهرت مواهبهم في الشعر ثم نبغ

Digitized by Birzeit University Library

فيهم دانتي وشكسبير وغيرهما . وترى أشعار الامـة في نهضتها صورة من صور أحوالها على أثر ذلك الانقـلاب . فان كانت هي الظافرة فيه كثر شعرها الحماسي والفخري وإذا كانت المغلوبة كان شعرها أكثره في الرثاء كما فعل اليهود بعـد أسرهم في بابل بمراثي أرمياء وغيره . والشعر يوجبه الحب والحرب والموت

استقلال عرب الحجاز عن اليمن

والعرب شأنهم في نهضتهم الشعرية قبل الاسـلام مثل شؤون سائر الامم . ونريد بالعرب هنـا بدو الحجاز ونجد وما جاورهما فكانوا قبل هذه النهضة ينظمون على قلة ولا نظنهم كانوا يجيدون وهم تحت سيطرة الحميريين ملوك اليمن يخدمونهم في نقل تجارتهم أو رعي ماشيتهم . وكانت دولة اليمن تستأجرهم في حروبها كما يفعل أهل المدن اليوم بأهل البادية . وكانوا يؤدون لها الأتاوة (الخراج) وقد رسخ في اعتقادهم عظمة تلك الدولة لما فيها من أسباب الحضـارة فأصبحوا بتوالي الاجيال يعدون الاذعان لها فرضاً . فلما رأوا ما أصابها في حروبها مع الحبشة في أواسط القرن الرابع للميلاد إذ فتحها الاحباش بمساعدة قيصر الروم سنة ٣٤٥ تبين لهم عجزها عن حفظ سيادتها وذهبت هيبتها من قلوبهم فاخذوا يفكرون في الخروج من سيطرتها والامساك عن دفع الأتاوة وأحسوا بالحاجة إلى الاتحاد

وأول من كسر هـذا القيد من قبائل العرب قبيلة ربيعة على يد فارسها كليب الشجاع المشهور وكان معاصراً لزهير بن جنـاب الذي ولاه صاحب اليمن على بكر وتغلب اكبر قبائل ربيعـة . وكان زهير يتقاضى الأتاوة أو الخراج منهم في مقابل النجعة والـكلأ والمرعى وكان يخرج في حاشيته لجمع الأتاوة . فاصابهم في أثناء إمارته ضيق وأمحلت أرضهم فتأخروا عن الدفع فجاءهم زهير وألح في مطالبتهم فشكوا عجزهم وأبانوا عـذرهم فلم يصغ لشكواهم . ومنعهم النجعـة والمرعى أو يؤدوا ما عليهم فصبروا حتى كادت مواشيهم تهلك . وكانت هيبة الدولة قد ذهبت من نفوسهم — فلما أصابهم ذلك الظـلم شقوا عصا الطاعة ونقموا على زهير ورجاله فدسوا رجلا منهم اسمه زيابة من بني تيم الله وكان فاتكاً وأوعزوا اليه أن يقتل زهيراً غـدراً ولم يقدموا على مناوأته جهاراً لئـلا يستنجد جنده . فأتاه زيابة وهو نائم وطعنـه ورجع إلى قومـه وأخبرهم انه قتله والحقيقة ان السيف مرّ بجانب البطن ولم يصب من زهـير مقتلاً . وعلم هذا انه سالم فلم يتحرك لئلا يجهز عليـه . فلما انصرف زيابة أوعز زهـير لمن معه أن يظهروا موته ويسـتأذنوا بكراً وتغلب في

Digitized by Birzeit University Library

دفنه فلما أذنوا دفنوا ثياباً ملفوفة وفرّوا به مجدين إلى قومهم . فجمع زهير الجموع وفي ذلك يقول ابن زيابة :

طعنة ما طعنت في غلس الليـ ـل زهيراً وقد توافى الخصوم
حين يحمي له المواسم بكر ابن بكر وأين منها الحلوم
خانني السيف إذ طعنت زهيراً وهو سيف مضلل مشؤوم

وجمع زهير من قدر عليه من أهل اليمن وغزا بكراً وتغلب وقاتلهم قتالا شديداً انهزمت به بكر وقاتلت تغلب بعدها ثم انهزمت وأسر كليب ومهلهل ابنا ربيعة وأخذت الاموال وكثرت القتلى في بني تغلب وأسر جماعة من وجوههم وفرسانهم فعظم ذلك على قبائل ربيعة وتجمهروا وولوا عليهم ربيعة والد كليب ومهلهل وخرجوا على زهير وأنقذوا الأسيرين منه . ودالت الايام وعاد زهير الى سطوته فوضع الأتاوة أو الخراج على بني معد جميعاً

وفي أواخر القرن الخامس توفي ربيعة أمير ربيعة فخلفه ابنه كليب وفي نفسه على اليمن ضغائن لما قاساه في أسرهم فجمع معداً تحت لوائه أي ربيعة وقضاعة ومضر وإياد ونزار وحاربوا اليمن في معركة عرفت بيوم خزاز وهزموهم واستقلوا من سيطرتهم ولم يدفعوا اليهم أتاوة أو خراجاً من ذلك الحين . ونظرت معد إلى كليب نظرها إلى منقذ عظيم فولوه الملك عليهم وجعلوا له قسم الملك وتاجه وطاعته . وكان ذلك آخر عهدهم بسلطة اليمن

حروبهم فيما بينهم

فاستقلال عرب الحجاز ونجد من سيطرة اليمن انقلاب سياسي أهاج شاعريتهم وأيقظ ما فطروا عليه من عزة النفس وإباءة الضيم فاخذوا يختلفون فيما بينهم لان سيطرة اليمن كانت قد جمعتهم قيودها . فلما أطلق سراحهم تنازعوا فجرت بينهم حروب تعرف بأيام العرب واكثرها حدة وأطولها مدة الوقائع بين بكر وتغلب وكلاهما من ربيعة وهي حرب البسوس بين كليب وجساس دام النزاع فيها اربعين سنة مات في أثنائها الشيوخ وشاخ الشبان وشبّ الولدان وفي أثنائها نبغ مهلهل أخو كليب وشهد تلك الحروب . وكان شاعراً مطبوعاً فتوسط في المصالحة بين القبيلتين وله شأن في تاريخ الشعر . ناهيك بالحروب التي جرت بين قبائل مضر أشهرها أيام داحس والغبراء وغيرهما

Digitized by Birzeit University Library

نهضة قريش : وقد انهض قريش على الخصوص وأثارت شاعريتهم وشحذت قرائحهم حروبهم مع الاحباش في عام الفيل بأواسط القرن الاول قبل الهجرة . فان الاحباش لما فتحوا اليمن حملوا على مكة للاستيلاء على الكعبة . وكانت سدانتها يومئذ إلى عبد المطلب جد النبي فجاءه الاحباش بأفيالهم ورجالهم وعدتهم وأهل مكة لم يتعودوا شيئاً من ذلك لما للكعبة من المنزلة الرفيعة في أنفس القبائل وغيرهم . فلما رأوا الاحباش قادمين شعروا بما يهددهم من الخطر وأحسوا بافتقارهم إلى الاتحاد لدفع الاجانب فدفعوا الاحباش وقد تنبهت أذهانهم وأخذت مواهبهم في الظهور . ومما يدل على شدة تأثير ذلك الهجوم في نفوسهم انهم جعلوا يؤرخون منه وهو عام الفيل

وبعد عام الفيل حدثت حرب الفجار بين قريش وكنانة وقيس وكان لها تأثير كبير في نفوس القرشيين

فهذه الحروب والفتن أظهرت مواهب الرجال فتولدت طبقة من الحكماء وأخرى من الاسخياء وأخرى من الفرسان والشجعان وأيقظت الشاعرية الحماسية والفخرية فنبغ منهم الشعراء على اختلاف القبائل والبطون لمدح الظافرين أو وصف بسالتهم أو التفاخر بالقبائل . ورافق ذلك تحالف القبائل وتقاربها أو تباعدها وتنبهت عاطفة الحب فظهر العشاق من الشعراء . ولذلك كانت منظومات هذه النهضة اكثرها في الفخر والحماسة على أثر واقعة من تلك الوقائع أو في وصف شوق أو حكمة أو موعظة أو مدح ظافر أو كريم

كيف بدأ العرب ينظمون الشعر

الشعر والغناء

يظهر ان الشعر والغناء من أصل واحد عند جميع الامم والشعر وضع أولا للتغني به وانشاده للآلهة أو الملوك ولذلك فاليونان والرومان يقولون حتى الآن « غنى شعراً » وليس نظم شعراً أو صنع شعراً . والعرب يقولون « أنشد شعراً » أو أنشد الشعر الفلاني أي غناه . وقضى اليونان اجيالا لا يقولون الشعر الا انشاداً ولعل العرب كانوا كذلك في أقدم أحوالهم فنبغ منهم جماعة يغنون شعرهم كما فعل الأعشى قبيل الاسلام فقد كان ينظم الشعر ويغنيه ولذلك سموه صناجة العرب . وما زال ذلك شأنهم بعد الاسلام فان الشاعر إذا جاء الخليفة أو الأمير بقصيدة

Digitized by Birzeit University Library

أنشدها في حضرته وهو قائم فاذا لم يكن صوته رخيماً أو مسموعاً اقتنى غلاماً رخيم الصوت ينشد اشعاره . وللانشاد لحن مطرب وكان الرشيد يطرب للانشاد اكثر مما يطرب للغناء . واشتهر بعد الاسلام جماعة من الشعراء المغنين كالدارمي والحطيئة واسحق الموصلي وغيرهم

والغالب انهم بدأوا أولا بالسجع بلا وزن نحو ما وصل الينا من سجع الكهان وربما كان الكهان يغنونه توقيعاً على القافية . ومن أمثلة سجعهم قولهم في الانواء « اذا طلع السرطان استوى الزمان وحضرت الاوطان وتهادت الحيران . اذا طلع البطين اقتضى الدين وظهر الرين واقتنى بالعطار والقين . اذا طلع النجم يعني الثريا فالحر في حدم والشعب في حطم . اذا طلع الدبران توقدت الحزان وكرهت النيران واستغرب الزيان وبست الغدران ورمت بانفسها حيث شاءت الصبيان . اذا طلعت الهقعة تقوض الناس للقلعة ورجعوا عن النجعة وأردفتها الهنعة . اذا طلعت الجوزاء توقدت المعزاء وكنست الظباء وعرقت العلباء وطاب الحباء . اذا طلعت الذراع حسرت الشمس القناع وأشعلت في الافق الشعاع وترقرق السراب بكل قاع . . » وهي طويلة

هذا هو السجع بقافية بلا وزن . وكان العرب يتساجعون أي يتذاكرون بالسجع ولعلهم وضعوا السجع اولا لتقييد علومهم أو ما يريدون حفظه كما في المثل المتقدم ذكره

أما النظم أي القياس الشعري بالمقاطع وهو الوزن فابسطه الرجز وهو أقدم أوزان الشعر كل بيت منه منفرد بقافية خاصة وهو كالسجع لكنه موزون . والرجز قديم عندهم يزعم العرب ان اول من قاله مضر بن نزار اذ سقط عن جمل فانكسرت يده فجعلوه وهو يقول « وايداه وايداه » وكان من أحسن خلق الله صوتاً فأصغت الابل اليه وجدت في السير فجعلت العرب مثالا لقوله « هايدا هايدا » يحدون بها الابل . وقال آخرون ان الاصل في وضع الشعر للغناء قالوا « وكان الكلام كله منثوراً فاحتاجت العرب الى الغناء بمكارم اخلاقها وطيب اعراقها وذكر ايامها الصالحة وأوطانها النازحة وفرسانها الانجاد وسمحائها الاجواد لتهز نفوسها الى الكرم وتدل ابناءها على حسن الشيم فتوهموا اعاريض فعملوها موازين للكلام فلما تم لهم وزنه سموه شعراً لانهم شعروا به أي فطنوا له »

Digitized by Birzeit University Library

اصل وزن الشعر

والغالب في اعتقادنا ان الوزن مأخوذ في الاصل من توقيع سير الجمال في الصحراء وتقطيعه يوافق وقع خطاها . ويؤيد ذلك ان الرجز اول ما استعمله العرب لسوق الجمال وهو الحداء في اصطلاحهم وكأنه وضع لهذا الغرض لان العربي يقضي اكثر أوقاته في معاشرة جمله او ناقته . وعندهم ضربان من الرجز المشطور والمنهوك والمشطور هذا وزنه :

دع المطايا تنسم الجنوبا ان لها لنبأ عجيبا
حنينها وما اشتكت لغوبا يشهد ان قد فارقت حبيبا
ما حملت الا فتى كثيباً يسرُّ مما اعلنت نصيبا
لو ترك الشوق لنا قلوبا اذاً لآثرنا بهن النيبا

ان الغريب يسعد الغريبا

وهو يشبه بتوقيعه على مقاطعه مشي الجمال الهوينا . ولو ركبت ناقة ومشت بك الهوينى لرأيت مشيها يشبه وزن هذا الشعر تماماً . فكان العرب يحدونها به اذا ارادوا سيرها وئيداً . وربما كان شاعرهم عاشقاً فيتذكر حبيبته وهو يسوق ناقته فيحدوها بأبيات على وزن الرجز . كذلك فعل جميل بثينة وكان في سفر إلى الحج مع مروان بن الحكم فطلب اليه مروان ان يسوق الجمال أي يحدوها فقال :

يابثن حيي او عدينا او صلي وهوني الامر فزوري واعجلي
بثين ايا ما اردت فافعلي اني لآتي ما اشأت مقتلي

فلم يقبل مروان منه ان يتنزل بالحدو وانما يطلب الخلفاء والامراء اذا ركبوا الابل ان يحدوها الحادي برجز في مدحهم . خرج عبد الملك يوماً رائحاً على نجيب ومعه حاد يحدوه بقوله :

يا أيها البكر الذي اراكا عليك سهل الارض في ممشاكا
ويحك هل تعلم من علاكا ان ابن مروان على ذراكا
خليفة الله الذي امتطاكا لم يعل بكراً مثل ما علاكا

أما اذا اراد الحادي ان تسرع الجمال في السير حدا لها بالرجز المجزوء وهذا وزنه :

اعطيته ما سألا حكمته لو عدلا

Digitized by Birzeit University Library

قلبي به في شغـل لا ملّ ذاك الشغلا
قيـده الحب كما قيد راع جمـلا

واعتبر ذلك في بحر الخبب من الشعر فانه يوافق في توقيعه خبب الفرس أي ركضه وهذا وزنه :

أبكيت على طلل طرباً فشجاك وأحزنك الطلل

أوزان الشعر

ثم وضعوا الاوزان والبحور حسب الاقتضاء كل منها لحال من الاحوال بعضها يوافق الشعر الحماسي والبعض الآخر يوافق الفخر وآخر للغزل . فالبحر الطويل يوافق لنظم الشعر الحماسي والوافر للفخر والرمل للحزن أو الفرح والسريع لتمثيل العواطف وقس على ذلك

فالرجز أقدم أبحر الشعر وكان الشاعر يقول منه البيتين والثلاثة ونحو ذلك اذا حارب أو فاخر . ثم صاروا يطيلون النظم فيـه ويقال ان أول من أطاله الاغلب العجلي على عهد النبي ثم رؤبة بن العجاج وتفننوا في بحر الرجز فتعددت واخترعوا أبحراً غيرها وصاروا ينظمون الاراجيز الطوال ويريدون بها ما زادت أبياتها على عشرة

أما غير الرجز من أبحر الشعر فكانوا أولاً ينظمون منه المقاطيع القصيرة عند الحاجة . حتى اذا تحركت نفوس العرب بالحروب بعد استقلالها من اليمن وظهر فيها الابطال والفرسان احتاجوا الى الشعر فأطالوا فيـه وهي القصائد. وأول من أطالها المهلهل أخو كليب وأول قصيدة قالها في قتل أخيه المذكور — فهو لم يفعل ذلك إلا بعد أن حركه طلب الثأر وهو أول شاعر بلغت قصائده ثلاثين بيتاً من الشعر . واقتدى به سواه ثم كان للنظم تاريخ بعد الاسلام

الالحان

ولما وضعوا الاوزان صار الغناء عندهم ألحاناً معينة فجعلوا لكل غناء أو لحن وزناً مخصوصاً فصار عندهم للرثاء وزن وللحماسة آخر . فالنصب غناء الركبان والفتيان ويقال له الجنابي اشتقه رجل من كلب يقال له جناب وهو يخرج من أصل الطويل في العروض . والسناد هو الغناء الثقيل ذو الترجيع الكثير النغمات . والهزج هو الغناء الخفيف الذي يرقصون عليـه فيطرب ويستخف الحليم وظلوا بعد الاسلام يختصون كل لحن بوزن

Digitized by Birzeit University Library

خصائص الشعر الجاهلي

تمثيل الطبيعة

فطر العرب الجاهلية على البساطة والبعد عن التصنع أو التعمل في كل شيء شأن أهل البادية لبعدهم عن شوائب المدنية فهم على الفطرة الطبيعية وعنوانها الصدق بكل معانيه ويدخل فيه استقلال الفكر والشجاعة الادبية والصراحة في القول والعمل . فلا يتكلفون في لباسهم ولا طعامهم أو شرابهم ولا يتصنعون في كلامهم وانما يقولون ما يخطر لهم ويصوّرونه كما يتمثل لمخيلتهم بلا تنسيق أو تأنق — يدلك على ذلك ما ظهر من حريتهم في أقوالهم في صدر الاسلام يوم كان أحدهم يخاطب الخليفة كما يخاطب سائر الناس واذا رأى فيه عوجاً انتقده بوجهه والخليفة لا يرى غرابة في انتقاده

أضف الى ذلك تعوّدهم الاستقلال في شؤونهم الشخصية والادارية ونفورهم من التقييد بشيء حتى المكان فانهم لا يتوطنون صقعاً بل يجعلون منازلهم على ظهورهم لا يحملون ضيماً ولا يصبرون على ظلم . فتمكنت الحرية من طباعهم حتى ظهرت في أقوالهم وأفكارهم وفي أشعارهم . فاذا طرأ لهم خيال شعري صوّروه كما يتخيل لهم خلافاً لما تقتضيه الحضارة من التكلف وغيره من سمات الذل والانكسار مما تراه في أقوال الشعراء بعد ان استبحر عمران الدولة وكثر المتملقون والمتكسبون بالنجعة والزلفى — ذلك كان شأنهم في الحب والمديح والهجاء والفخر والحماسة وغيرها من أبواب الشعر

بلاغتهم

ان لغة الجاهلية على الاجمال ما تزال مثال البلاغة حتى الآن لبعدها عن مفاسد العجمة وهي معروفة بخلوها من الحشو وليس فيها من زخارف المدنية كالبديع والجناس ولا المجاز أو الكناية إلا بقدر الملح من الطعام . أما ما نجده في بعض أشعار الجاهلية من التعقيد فسببه غرابة بعض الالفاظ على مفهومنا وبعد بعض التراكيب عن مألوفنا ولا بد لمن يطالع تلك الاشعار من تفهم الالفاظ والتعوُّد على أساليبها

أسلوبهم

ولا يتقيد الجاهلي في نظمه بمقدمة أو تمهيد كما يفعل غيره من شعراء المدنية

Digitized by Birzeit University Library

بعد الاسلام من استهلال القصائد بالنسيب والغزل ونحوها . لكنه يصدر القصائد الطويلة غالباً بذكر المنازل والاطلال ويبكي على الطلول وذلك طبيعي عندهم لانهم أهل رحلة لا يقيمون في المكان حيناً حتى ينزحوا عنه فراراً من عدو أو التماساً للمرعى أو الماء

ابواب الشعر عندهم

ابواب الشعر اليوم تعد بالعشرات لم يكن منها في الجاهلية إلا الفخر والحماسة والتشبيب والمديح والهجاء . وتفرع من المديح الرثاء وهو مدح الميت . والاصل في المديح والهجاء الدفاع عن القبيلة والطعن في أعدائها — ذلك كان غرض الجاهليين من المديح والهجاء فأكثر مدحهم في قبائلهم ورؤسائها وفرسانها ليس على سبيل الاستجداء الا قليلا وكانت قصائدهم قصيرة . وقلما رثوا غير اخوتهم واخواتهم وابنائهم أو بعض أهلهم مدفوعين بالشعور الطبيعي ولذلك كان لرثائه وقع في النفس كقول تلك الاعرابية في رثاء ابنها :

من شاء بعدك فليمت فعليك كنت احاذر
كنت السواد لناظري فعمي عليك الناظر
ليت المنازل والديا ر حفائر ومقابر
اني وغيري لا محا لة حيث صرت لصائر

على ان في منظوماتهم كثيراً من الشعر الوصفي واكثره في وصف حيواناتهم ومنازلهم وادواتهم وفي وصف أخلاقهم ومناقبهم ومثالبهم ومفاخرهم ووقائعهم . وفيهم طبقة من الوصافين اشتهروا بوصف الخيل خاصة وآخرون بوصف الناقة أو حمار الوحش أو القطا وغيرها

وكان العربي في الجاهلية صاحب انفة وشرف يأبى الضيم ويغار على العرض اذا قال فعل واذا أوعد وفى ، واذا اضطر الى رهن في أمر عظيم رهن قوسه — ولا قيمة للقوس بنفسها ولكنها عندهم شرف الرجل فهو قائم بما رهن له مهما كلفه

ولم يكن أشد منهم غيرة على العرض ، وفي أخبارهم ما لا يحصى من الدفاع عن المرأة وعرضها وكثيراً ما انتشبت الحرب في هذا السبيل

أسواقهم

كان للعرب في الجاهلية أسواق يقيمونها في أشهر السنة وينتقلون من احداها الى الاخرى يحضرها العرب من قرب منهم ومن بعد . فاذا فرغوا من سوق

Digitized by Birzeit University Library

انتقلوا الى سواها . فكانوا ينزلون دومة الجندل في أعالي نجد أول يوم من شهر ربيع الاول فيقيمون أسواقها للبيع والشراء والاخذ والعطاء . ثم ينتقلون الى سوق هجر فيقيمون هناك شهراً ويرتحلون منها الى عمان فيقيمون سوقهم ثم يرتحلون الى حضرموت فعدن وبعضهم ينزل صنعاء فيقيمون أسواقهم ثم يرتحلون الى عكاظ في الاشهر الحرام . وكانت لهم أسواق أخرى في صحار والشحر والمجنة وحباشة والمشقر وغيرها

سوق عكاظ

وأشهر أسواق العرب الجاهلية سوق عكاظ وهي مكان بين الطائف ونخلة صحراء مستوية لا علم فيها ولا جبل إلا ما كان من الانصاب التي كانت لاهل الجاهلية وبها من دماء البدن كالارحاء العظام فكانت العرب اذا قصدت الحج أقامت بهذه السوق من أول ذي القعدة يبيعون ويشترون الى عشرين منه ثم يتوجهون الى مكة فيقضون مناسك الحج ثم يعودون الى أوطانهم . . وكان كل شريف انما يحضر سوق بلده إلا عكاظ فانهم كانوا يتوافدون اليها من كل ناحية . ومن كان له أسير سعى في فدائه هناك ومن كانت له حكومة ارتفع الى الذي يقوم بأمر الحكومة في أيام المواسم وهم أناس من تميم . ومن كان له ثأر على أحد ولم يعرف مكانه طلبه في الموسم . أو أراد أحد أن يعمل عملاً تعرفه العرب أو يستشهدها فيه عمله في عكاظ أو أراد أن يفاخر أحداً على مشهد من الناس فاخره هناك . وكانوا يتفاخرون حتى في كبر المصائب

وانما يهمنا في هذا المقام أن العرب كانوا يغتنمون وقت الموسم واجتماع القبائل ويقيمون مجالس البحث في كل موضوع كالمناشدة والمفاخرة فينشد الشعراء ويخطب الخطباء فيختارون كبيراً من وجهائهم يجعلونه حكماً فيما يختلفون فيه . وكان النابغة الذبياني اذا أتى عكاظ في الموسم ضربوا له قبة حمراء من آدم وتأتيه الشعراء فتعرض عليه أشعارها ليحكم فيها ويقال إنهم كانوا اذا أقروا على فضل قصيدة علقوها هناك أو في الكعبة ومنها المعلقات السبع

الشعر في عصر الراشدين

لقد كان أكثر شعراء الجاهلية من الفرسان والامراء وأهل الحرب وأكثر أشعارهم في الفخر والحماسة بما بين قبائلهم من التنازع ومرجع ذلك كله

Digitized by Birzeit University Library

الى العصبية . كل قبيلة تطلب الفضل لنفسها على سواها . فلما جاء الاسلام وجمع كلمة العرب وذهبت العصبية الجاهلية لم تبق حاجة الى الشعر أو الشعراء ـ ناهيك باشتغال أهل المواهب والقرائح بالحروب في الجهاد لنشر الاسلام وبالاسفار . وقد أدهشتهم أساليب القرآن وأخذتهم النبوّة وانصرفت قرائحهم الشعرية الى الخطابة لحاجتهم اليها . وزد على ذلك ان النبي لم يكن راغباً في الشعر لانه من عوامل التفريق وهو يدعو العرب الى الاجتماع على انه لم يكن يبخس الشعر حقه

وسار الراشدون على خطة النبي في حث الناس على حفظ القرآن ـ ذكروا ان غالباً أبا الفرزدق الشاعر جاء ابنه وهو غلام الى علي بالبصرة بعد واقعة الجمل وقال له « ان ابني هذا من شعراء مضر فاسمع له » فأجابه علي « علمهُ القرآن »

وكانوا ينشطون من يعدل عن الشعر الى القرآن كما فعل عمر بن الخطاب باستنشاد الشعراء على يد المغيرة بن شعبة ففضل من عدل الى القرآن . على انهم اقتدوا بالنبي في التمييز بين شعر وشعر وشاعر وشاعر . وحث عمر المسلمين على حفظ الشعر فقال « رووا أولادكم ما سار من المثل وحسن من الشعر » وقد أراد أحسنه ويؤيد ذلك قوله « أرووا من الشعر أعفه »

وقد ازدادوا حاجة الى الشعر لما عمدوا الى تفسير القرآن فقال ابن عباس « اذا قرأتم شيئاً في كتاب الله فلم تعرفوه فاطلبوه في أشعار العرب » وفي مقدمة جمهرة أشعار العرب لابي زيد القرشي أمثلة كثيرة من هذا القبيل

ولم يكن الراشدون يرون بأساً من أن يقولوا الشعر هم أنفسهم فقد رووا لابي بكر قصيدة حماسية قالها في غزوة عبيدة بن الحارث . ورووا لعمر أبياتاً في الحكم ونحوه وكذلك لعثمان . أما علي فالمروي من شعره كثير بعضه قاله في صفين ولم يبق من الصحابة من لم يقل الشعر أو يتمثل به

على انهم كانوا يمنعون الشعراء من هجو الاسلام والمسلمين وأشدهم وطأة في ذلك عمر فقد أخذ عهداً على الحطيئة ألا يهجو رجلاً مسلماً . ويقال بالاجمال ان الشعر في عصر الراشدين توقف لاشتغال المسلمين عنه بالجهاد إلا ما كان منه من قبيل الجهاد كأقوال حسان وأصحابه في الدفاع عن النبي والاسلام

Digitized by Birzeit University Library

الشعر في العصر الاموي

لم يكن للشعر العربي تأثير في النفوس ومنزلة في الدولة في عصر من أعصر العرب مثل ما كان له في العصر الاموي ولا غرابة في ذلك بعد ما علمته من خصائص ذلك العصر السياسية وطبائع الامويين

اقتضت سياسة بني أمية استنصار القبائل بعضها على بعض بالرجوع الى عصبية الجاهلية وأول من فعل ذلك معاوية في الخلاف بينه وبين علي وأبنائه . ثم كان انقسام القبائل عند انتقال الخلافة من آل معاوية الى آل مروان وكلاهما من بني أمية وانتشبت الحرب في مرج راهط . وأخيراً قام طلاب الخلافة من غير العلويين في زمن عبد الملك بن مروان وهم آل الزبير والازارقة وسعيد بن الاشدق وغيرهم . ولكل خارج قبيلة أو بضع قبائل تنصره والامويون يستعينون بالشعراء على اختلاف قبائلهم وبطونهم يتألفونهم بالعطاء لعلمهم بما لقول الشاعر من التأثير في نفوس عشيرته لانه لسان حالها فازداد الشعراء بذلك نفوذاً وتقرباً من الخلفاء أو الامراء . وكان الخليفة يعد مدح الشاعر له دليلاً على رضى قبيلته عن أغراضه لانه لسان حالها والقبيلة تعد اكرام الخليفة لشاعرها اكراماً لها

مميزات الشعر في العصر الاموي

الانسان صنيعة الاقليم فتتغير أطواره وأحواله بتغير البيئة المحيطة به ويظهر أثر ذلك في نتاج قريحته أو فكرته وقد رأيت ان العرب اختلفت أحوالهم في العصر الاموي عما كانت عليه في زمن الجاهلية أو في زمن الراشدين فظهر أثر ذلك في ثمار قرائحهم وخصوصاً الشعر . واليك أهم مميزاته في ذلك العصر :

خلوه من وحشي الكلام

ان قرب العصر الاموي من الجاهلية ورغبة الامويين في البداوة وتحديهم العرب الجاهلية في آدابهم وأشعارهم أبقت للشعر الاموي بلاغة الجاهلية وسلامتها من العجمة والركاكة . لكن الاسلام أكسبه أسلوب القرآن والحديث فتخلص من التركيب الغريب والكلام الوحشي . فهو من حيث البلاغة أحسن في هذا العصر مما في سائر العصور وان كان لكل عصر مميزات

Digitized by Birzeit University Library

كثرة التشبيب

كان الشاعر الجاهلي يقول الابيات تغزلاً في حبيبته يعبر بذلك عن حبه أو ما تكنه جوارحه من الغرام أو الشوق ولا يشبب في غير حبيبته أو خطيبته وقد يسميها بغير اسمها . والغالب أن يكني عنها باحدى عرائس الشعر لئلا يعلم أهله بتشبيبه فيمنعوه من التزوج بها . لانهم كانوا شديدي الغيرة على النساء حتى أن أحدهم اذا سطا عليه عدو وخاف على حياته منه عمد الى امرأته أو حبيبته فيقتلها غيرة عليها من أن يمسها سواه بعد موته ويندر في الجاهليين أن يشبب شاعرهم بغير حبيبته . واذا فعل فلداع فوق العادة كما فعل دريد بن الصمة اذ رثى أخاه بقصيدة صدَّرها بأبيات غزلية . وقد كان الشعراء العشاق في الجاهلية يعدون على الاصابع فأصبحوا في العصر الاموي أضعاف ذلك وأكثروا من وصف الحب وأعراضه وأحواله

وذلك طبيعي في الامة بانتقالها من البداوة الى الحضارة وخصوصاً اذا كان ذلك على أثر الفتوح وفيها الغنائم من السبايا فيصيب الرجل منهم جارية أو بضع جوار في كل معركة ملكاً حلالاً له . وكانت السبايا في صدر الاسلام كثيرات وأكثرهن من الروم والفرس . والفاتحون يبيعونهن أو يستخدمونهن في حاجات المنزل ويستبقون الجميلات منهن للتسري . فتحركت القلوب وتنبهت القرائح للمواضيع الغزلية وصار الشعراء يشببون بالنساء الجميلات . وكان الخلفاء انراشدون يعدون ذلك خروجاً عن حرمة الادب فجعلوا التشبيب ذنباً يستوجب القصاص . وكان عمر بن الخطاب لا يسمع بشاعر يشبب بامرأة إلا جلده

فلما أفضت الدولة الى بني أمية وقد انتقلت عاصمتها من المدينة الى دمشق وكثر الاختلاط بالاعاجم وأخذ العرب بأسباب الحضارة وذهبت هيبة العفة من نفوسهم وانقضت شدة الراشدين في المحافظة عليها هان عليهم التشبيب فأكثروا منه ولا سيما في المدينة لان أهلها من أسبق المسلمين الى القصف واللهو لقيام بعض أبناء الصحابة بين أظهرهم وقد أغرقهم معاوية بالعطايا والرواتب ليشغلهم باللهو عن طلب الملك فكانوا ينفقون الاموال في المغنين ونحوهم فكثر اللهو في المدينة وسبقت سائر المدائن الاسلامية الى الغناء وشاع القصف بين أهلها وتجرأ الشعراء على التشبيب بغير أحبائهم

Digitized by Birzeit University Library

على أن إمام أهل النسيب والغزل في الاسلام جميل بن معمر الشاعر العاشق كان معاصراً لعبد الملك بن مروان . وهو الذي وطأ النسيب للشعراء فأكثر منه وتفنن فيه لكنه كان يشبب بحبيبته بثينة وهو في عرف أهل الادب « إمام المحبين »

المهاجاة بين الشعراء

كان الجاهليون يتنافسون ويفاخرون فيذكر أحدهم ما في قبيلته من الشجاعة والنجدة وما أوتوه من النصر أو الغلبة أو ما هو عليه من هذه الفضائل . ويندر فيهم من يتخطى ذلك الى الهجو . وأكثر من تخطاه منهم المخضرمون . وقد كثر الهجو واتسعت دائرته في العصر الاموي وأجاد الشعراء فيه . ولبعضهم مهاجاة ونقائض تدخل في كتاب ضخم

وقد راج الهجو في العصر الاموي لاحتياج ولاة الأمر اليه بسبب الانقسام الذي قام بين الاحزاب المختلفة ـ وهو الهجو السياسي . وكان أكثر الشعراء يأخذون بناصر الامويين لانهم أهل السيادة وكان خلفاؤهم يبذلون الاموال للشعراء ليستعينوا بألسنتهم على أعدائهم لتأثير الهجاء في نفوس العرب لشدة حساستها ونخوة أهلها

وقد بدأت المهاجاة في الاسلام بين شعراء النبي وأعدائه القرشيين . ثم صارت بين المهاجرين والانصار أو هي بين قريش واليمن . وكان لكل من الجانبين شعراء يردون عنهم الهجاء بأشد منه وقد تقدمت الاشارة الى ذلك . وكان المسلمون يحفظون ما يقوله هؤلاء من المهاجاة وينشدونه كل طائفة تنتصر لأصحابها . وبلغ ذلك عمر بن الخطاب فنهى عنه وقال : « في ذلك شتم الحي بالميت وتجديد الضغائن »

فلما أفضى الامر الى معاوية اقتضت سياسته ومصلحته ان يجدد تلك الضغائن فجعل يغري الشعراء بالطعن في الانصار لانهم أصحاب علي بن أبي طالب خصمه . وكان يفعل ذلك تحت طي الخفاء ـ ومن الذين أغراهم بذلك الطعن الاخطل الشاعر التغلبي المشهور . فعظم ذلك على الانصار خصوصاً لانه نصراني واستعان به معاوية على المسلمين . فغضب متكلم الانصار وشاعرهم وهو يومئذ النعمان بن بشير ودخل على معاوية وأنشده قصيدة في الدفاع عن الانصار مطلعها :

معاويّ الاّ تعطنا الحق تعترف ... لحى الأزد مشدوداً عليها العمائم
ويشتمنا عبد الأراقم خلة ... وماذا الذي تجري عليك الاراقم
فما لي ثأر دون قطع لسانه ... فدونك من يرضيه منك الدراهم

Digitized by Birzeit University Library

ثم تخلص الى الفخر بأعمال الانصار وأنسابهم وختم القصيدة بالطعن على خلافة معاوية الى أن قال :

وانى لأغضي عن أمور كثيرة سترقى بها يوماً اليك السلالم
أصانع فيها عبد شمس وانني لتلك التي في النفس مني أكاتم
فما أنت والامر الذي لست أهله ولكن وليّ الحق والامر هاشم

فلما سمع معاوية تهديده أظهر أن الاخطل فعل ذلك من عند نفسه وأمر أن يدفع اليه ليقطع لسانه . وأوشك أن يفعل لو لم يستجر الاخطل بيزيد بن معاوية فأجاره وأرضى التغلبيين . وعرف الامويون هذا الفضل للاخطل فجعله عبد الملك ابن مروان شاعر الدولة

وتحولت المهاجاة بين الانصار والمهاجرين الى المشاتمة بين بني هاشم وبني أمية وانتشر ذلك في أطراف المملكة الاسلامية . فكان سديف الشاعر يخرج في جماعة من موالي بني هاشم في مكة وشبيب يخرج في جماعة من موالي بني أمية فيفتخرون ثم يتشاتمون ثم يتجالدون بالسيوف وكان يقال لهم السديفية والشبيبية . وكان أهل مكة منقسمين بينهما في العصبية

على أن التهاجي السياسي جرّ الى التهاجي بين الشعراء بقطع النظر عن الاحزاب السياسية من قبيل المفاخرة أو المعاظلة ويختلف سبب هذه المهاجاة باختلاف الاحوال وقد يكون الغرض منها المقارعة لبيان المقدرة على الهجو ثم يتنافر المتهاجيان الى من يحكم بينهما كما تهاجى جميل الشاعر المتيم وجواس بن قطنة العذري وتنافسا في أيهما أفضل أباً وحسباً ثم تنافرا الى يهود تيماء

وأشهر ضروب المهاجاة في العصر الاموي المهاجاة بين جرير والفرزدق وبين جرير والاخطل وغيره من الشعراء المعاصرين . والبادىء في ذلك كله جرير وكان لمهاجاته مع الفرزدق والاخطل شهرة كبيرة حتى أصبح حديث القوم في مجالسهم وموضوع مناقشاتهم في أي الشاعرين أفضل . وانقسم الناس في ذلك حزبين نسب أحدهما الى جرير وسمي جريرياً والآخر الى الفرزدق وسمي فرزدقياً وكثيراً ما احتدم الجدال بين الادباء في المجالس حتى آل الى الخصام

واتصلت المهاجاة بين الشعراء الى العصر العباسي فاشتهرت مهاجاة بشار بن برد وحماد ومهاجاة أبي العتاهية وأبي والبة . على ان اشتغال الناس في المناقشة على

Digitized by Birzeit University Library

الشعراء وتفاضلهم طبيعي في كل عصر وليس هو خاص بالعرب . فقد كان اليونان أيضاً يفعلون ذلك

نبوغ الموالي في الشعر

قد رأيت انه لم يقل الشعر في الجاهلية من الموالى الا عبد بني الحسحاس . وأما في الاسلام فانتظم في عداد الشعراء طائفة من الموالي وهم المسلمون غير العرب وفيهم الفرس والروم ممن دخل في حوزة العرب في أثناء الفتح ثم أسلموا . وأكثرهم من موالي بني أسد وقريش . وفيهم جماعة من نوابغ الشعراء . ولولا تقيد القوم بأساليب الجاهلية لأدخلوا كثيراً من المعاني الشعرية نقلا عن لغاتهم الاصلية

الشعر السياسي أو المديح للاستجداء

قد علمت مما تقدم ان الشعراء الجاهليين نظموا المديح لكنهم قلما كانوا يستجدون بمدحهم وانما كانوا يمدحون شكراً لصنيع . وأما في العصر الاموي فأصبح الغرض الاول من المدح التماس العطاء وقد جرهم الى ذلك استدرار الخلفاء للمدح ببذل الاموال للاسباب التي قدمناها

فأصبح الاستجداء عادة مألوفة ونبغت طائفة كبيرة من المداحين وكانوا يتذبذبون في مدحهم تبعاً لما يرجونه من العطاء أو يخافونه من النقمة . ولذلك كان أكثر مديحهم في الامويين أصحاب السيادة وبيت المال . وربما مدح أحدهم بني هاشم أو آل الزبير أو غيرهم من أعداء الامويين ثم رغب عنهم الى هؤلاء التماساً لعطائهم أو خوفاً من غضبهم لان الامويين كانوا يغضبون على الشعراء اذا مدحوا سواهم ويتطرقون الى الانتقام منهم بكل وسيلة . فلا غرو اذا رأينا حتى شعراء الشيعة ينظمون المدائح في الامويين . ومن الشعراء من مدح بني هاشم وبني أمية أو ابن الزبير وبني أمية

الشعر في العصر العباسي الاول

الانتقال الاجتماعي

انتقل الشعر في الدولة العباسية انتقالاً كبيراً مثل انتقال الامة العربية من البداوة الى الحضارة ومن شظف العيش الى الرخاء ومن الملابس الخشنة الى الناعمة . فتحضر كثيرون من الشعراء وشاركوا أهل الحضارة بأخلاقهم وشعورهم .

Digitized by Birzeit University Library

وبعد أن كانوا يقيمون في المضارب لا تقع عين أحدهم إلا على صحراء قاحلة تسفي الرياح رمالها يبيت فيها حذراً خائفاً من غارات الأعداء ودبابات الصحراء لا عشير له الا جواده أو ناقته ـ أصبح وقد ركن الى الرخاء يقيم في القصور تكتنفها الحدائق ،فيها من كل فاكهة زوجان تجري فيها المياه مدبرة في الأحواض والأقنية تحف بها الأزهار بأزهى الألوان وتسرح في أكنافها الأطيار الداجنة من جميل الريش ورخيم الصوت . وبعد أن كان يرتدي العباءة من شعر الجمل وينتعل الحفاء أو يحتذي النعال من الخوص أو الجلد لبس الحرير والوشي وانتعل الخف والجورب وتخفف بالغلائل والملايات . واستبدل بالمضارب وفرشها الرمال القاعات وفرشها البسط والسجاد وعلى جدرانها الستائر من الخز والديباج بمسامير الفضة عليها طراز الذهب . وقد ضعفت أنفة البداوة . وحل عقال الحشمة وترك الناس وشأنهم ينغمسون بما يشاؤون . وقد تدفقت عليهم الأموال بلا حساب وتكاثر الذهب بين أيديهم . فانتشر التهتك وذهبت الغيرة بشيوع التسري وانتشار المسكر . وللشعراء الحظ الأوفر من ذلك لترددهم على مجالس الغناء واختلافهم الى الخلفاء والوزراء والأمراء من أهل البذخ والترف والرخاء فانطبعت في مخيلاتهم صور لم تألفها أهل البادية

فلا غرو اذا اختلف الشعر في هذا العصر عما كان عليه في الدولة الأموية لرغبة الامويين بالبداوة والاخذ بناصر العرب وتحقير سواهم . فكان اكثر شعرائهم من أهل البادية يفدون عليهم من البصرة والكوفة أو الحجاز أو نجد ويندر فيهم المتحضرون . أما الدولة العباسية فأصحابها كانوا يرمون الى غرض يخالف ذلك ـ كان العباسيون يرون تقديم غير العرب ويودون التخلص من العرب والاستغناء عن جزيرة العرب . حتى حبب بعضهم الى المنصور ان يستبدل بالكعبة ما يقوم مقامها في العراق وتكون حجاً للناس وفعل ولم يفلح

مميزات الشعر في العصر العباسي الاول

يختلف الشعر العربي في هذا العصر عنه في العصر الاموي مثل اختلاف العصرين بالاحوال السياسية والاجتماعية والادبية لان الشعر مرآة أخلاق الامة وآدابها وسائر أحوالها . فخصائص الشعر في هذا العصر ترجع الى ما يأتي :

Digitized by Birzeit University Library

طريقة النظم

يشتمل الشعر على الخيال الشعري وهو المعنى . وعلى القالب الذي يسبك فيه ذلك المعنى وهو الكلام المقفى الموزون أو النظم وأهم ما يلاحظ في النظم ثلاثة أمور (١) طريقته وهي الخطة التي يجري عليها الشعراء في تنسيق المعاني (٢) الاسلوب وهو العبارة التي يختارونها للتعبير (٣) اللفظ

ومن القواعد الاساسية في تاريخ الشعر ان يتبع في لفظه وأسلوبه وطريقته حال الامة التي تقوله فيتنوع شعرها بتنوع نظام اجتماعها وسائر أحوالها . ولكن العرب ظلوا الى عهد غير بعيد يتخذون طريقة الجاهليين فيما ينظمونه . فيستهلون قصائدهم بذكر الرحيل والاطلال والابل وغيرها من خصائص الجاهلية حتى الالفاظ فانهم كثيراً ما يقلدونهم بها وفيها الوحشي الذي لا يلائم المدنية لان وحشي الكلام لوحشي الناس

والسبب في تمسكهم بالقديم رسوخ الاعتقاد بأفضلية آداب الجاهلية وشعراء الجاهلية اذ كان اليها مرجعهم في صدر الاسلام لتحقيق الالفاظ والتراكيب . ثم عظّم الامويون مناقب الجاهلية وطباع البداوة لرغبتهم في تأييد العرب ودولة العرب . فرسخ في أذهان الناس أن مناقب الجاهلية أفضل ما يتبع . فلما تغلب العباسيون بأنصارهم الفرس وغُلب العرب على أمرهم وعلت كلمة الفرس أخذ ذلك الاعتقاد بالزوال

أما من حيث الاسلوب فان الشعر الجاهلي عريق في البلاغة مع سلامته من الركاكة والعجمة . وأما الخيال الشعري فيرى بعض العلماء ان العقل البشري سائر نحو الارتقاء في كل سبيل إلا من حيث الخيال الشعري فانه لا يزال في مكانه — هذا هوميروس ما يزال نابغة الشعراء وقد مرّ عليه نحو ٣٠٠٠ سنة والناس يتقدمون في كل شيء

وانظر الى امرىء القيس والنابغة وزهير وغيرهم من الجاهليين فانهم ما يزالون يعدون من نوابغ الشعراء الى الآن على أن للشعر العربي شأناً خاصاً من حيث الاسلوب . فان كلام الاسلاميين يعد على العموم أعلى طبقة من كلام الجاهليين في منثورهم ومنظومهم نعني الشعراء والخطباء والمترسلين في صدر الاسلام الى أوائل الدولة العباسية فضلاً عن تأثير الاحوال الاجتماعية على الخيال الشعري ولا سيما في الانتقال من البداوة الى الحضارة . لكن تعظيم الامويين للعرب جعل الجاهليين

Digitized by Birzeit University Library

مثالا يقتدى بهم في الشعر . فكان الأدباء يتحاشون نقد ذلك الاعتقاد في الدولة الاموية . ومع ارتقاء الأسلوب واتساع الخيال ظلوا يتحدون طريقة الجاهليين في النظم

فلما انتقل الأمر الى بني العباس هان عليهم الانتقاد وأخذوا يفكرون في تقبيح تلك الطريقة وأول من تجرأ على نقدها من الأدباء ابن قتيبة في أواسط القرن الثالث للهجرة في كتابه الشعر والشعراء

على أن الشعراء تنبهوا الى هذا الأمر من صدر الدولة العباسية فأخذوا في انتقاد طريقة الجاهليين ولم يجدوا من يأخذ بناصرهم لغلبة التقليد على طباعهم . لكنهم حاولوا الخروج من تلك القيود على الاقل من العصر العباسي الاول عصر حرية القول . وأصبح حديث الشعراء في مجالسهم انتقاد تلك الطريقة وأقدم ما بلغنا من هذا القبيل اجتماع مطيع بن أياس بفتى من أهل الكوفة فقاوضه بشأن ذلك فقال :

لأحسن من بدٍ يحارُ بها القطا ومن جبلي طيٍّ ووصفكما سلعا
تلاحظ عيني عاشقين كلاهما له مقلة في وجه صاحبه ترعى

وكان ذلك لسان حال أكثر الشعراء وان لم ينظموه . وممن جاهر به منهم أبو نواس ومن أقواله التي يستدل بها على طريقة القدماء قوله :

لا تبك ليلى ولا تطرب الى هند واشرب على الورد من حمراء كالورد

ومن هذا القبيل قوله :

صفة الطلول بلاغة القدم فاجعل صفاتك لابنة الكرم

ولما سجنه الخليفة على اشتهاره بالخمر وأخذ عليه ألا يذكرها في شعره وكأنه كلفه الرجوع عنها الى النظم على طريقة الجاهليين فقال :

أعر شعرك الاطلال والمنزل القفرا فقد طالما أزرى به نعتك بالخمرا
دعاني الى نعت الطلول مسلط تضيق ذراعي ان اردّ له أمرا
فسمعاً أمير المؤمنين وطاعةً وان كنت قد جشمتني مركباً وَعراً

فجاهر بأن وصفه الاطلال والقفر انما هو من خشية الامام وإلا فهو عنده فراغ وجهل . واقتدى به أبو العتاهية ومن جاء بعده . ولكن بين الشعراء من يتحدى الجاهليين حتى الآن

Digitized by Birzeit University Library

وأثر في أسلوب الشعر ومعناه في هذا العصر ما نقل الى العربية أو حفظ فيها من آداب الفرس وأخبارهم فاكتسب الشعر العربي خيالا لطيفاً وزادت فيه معان جديدة نحو ما كان من تأثير آداب اليونان القدماء في أخلاق الرومان . ويشبه ذلك تأثير التمدن الحديث في آدابنا ومجاري أفكارنا

المعاني الجديدة باتساع الخيال

كان الاعتقاد في شعراء الجاهلية انهم لم يتركوا معنى من معاني الشعر لم يطرقوه . وفي الواقع انهم طرقوا اكثر المعاني التي لا تخطر لابن البادية ولكن الحضارة لها معان خاصة . أو هي توسع الخيال وتفتق القرائح لانتشار الناس في الارض . فاذا تأملت ما في أشعار الصدر الاول الاسلاميين من الزيادات على معاني القدماء والمخضرمين . ثم ما في طبقة جرير والفرزدق وأصحابهما من التوليدات والابداعات العجيبة التي لا يقع مثلها للقدماء إلا نادراً . ثم تأتي بشار بن برد وأبا نواس وأصحابه فترى ما زادوه من المعاني وما زاده الذين جاءوا بعدهم — علمت ان الشعر سار على سنة الارتقاء مثل سائر أحوال الحياة . ومن أمثلة المعاني التي حدثت في العصر العباسي الاول قول بشار بن برد الاعمى :

يا قوم أذني لبعض الحي عاشقة والاذن تعشق قبل العين أحيانا
قالوا بمن لا ترى تهذي؟ فقلت لهم الأذن كالعين توفي القلب ما كانا

وقول أبي نواس :

فكأني وما ازيّن منها قعديٌّ يزيّن التحكيما
كلّ عن حمله السلاح الى الحر ب فأوصي المطيق ألا يقيما

والقعدة فرقة من الخوارج ترى الخروج وتأمر به وتقعد عنه . وقوله أيضاً :

بنيت على كسرى سماء مدامة مكللة حافاتها بنجوم
فلو ردّ في كسرى بن ساسان روحه اذاً لاصطفاني دون كل نديم

وقال أيضاً في صفة النساء الخمارات ويروى لابن المعتز :

ومحت زنانير شددن عقودها زنانير أعكان معاقدها السرر

فهذا تشبيه لم يسبق اليه وقال :

لست أدري أطال ليلي أم لا كيف يدرى بذاك من يتقلى
لو تفرغت لاستطالة ليلي ولرعي النجوم كنت مخلا [1]

(١) الذي يرعى الخلة وهي شجوة شائكة والفقير المعدم

Digitized by Birzeit University Library

ومما زاد من المعاني في هذا العصر قول أبي تمام :

واذا أراد الله نشر فضيلة طويت أتاح لها لسان حسود
لولا اشتعال النار فيما جاورت ما كان يعرف طيب عرف العود

وقوله :

بني مالك قد نبهت خامل الثرى قبور لكم مستشرفات المعالم
غوامض قيد الكتب من متناول وفيها علا لا يرتقي بالسلالم

غير ما أخذوه من المعاني القديمة أو توسعوا فيه ولا سيما النسيب والغزل

المعاني الجديدة بالاقتباس

تلك معان شعرية اقتضاها توسع الخيال بالحضارة . وهناك معان حدثت بدخول العلوم القديمة الى اللغة العربية فاستعار الخطباء والكتاب والشعراء تعابير فلسفية فيها ألفاظ علمية قد تقدم ذكر أمثلة منها كالتناهي والتوليد والتجزء والمعاد . ومنها قول أبي نواس :

وذات خد موردٌ قوهية المتجردْ
تأمل العين منها محاسناً ليس تنفد
فبعضها قد تناهى وبعضها يتولد
والحسن في كل عضو منها معادٌ مردد

وقوله : يا عاقد القلب مني هلا تذكرت حلاّ
تركت قلبي قليلاً من القليل أقلاّ
يكاد لا يتجزى أقل في اللفظ من لا

واستعار آخرون معاني من أخبار اليونان كاقتباس أبي العتاهية ما قاله بعض حكماء اليونان في تأبين الاسكندر ونظمه في رثاء ابن له وهو :

كفى حزناً بدفنك ثم اني نفضت تراب قبرك من يديا
وكانت في حياتك لي عظات فأنت اليوم أوعظ منك حيا

ومن المعاني التي دخلت الشعر في هذا العصر أقوال بعض الأئمة ورجال الافكار اقتبسها الشعراء ونظموها كما نظم بشار الحكمة القائلة « أنظر الى ما ينفعك ودع كلام الناس اذ لا سبيل الى النجاة من كلام الناس » فقال بشار :

من راقب الناس لم يظفر بحاجته وفاز بالطيبات الفاتك اللهج

Digitized by Birzeit University Library

وحضارة العباسيين أكثر عمالها من الفرس فدخل اللغة طائفة من المعاني الفارسية فضلاً عن الالفاظ . حتى لقد يقتبس الشعراء جملاً فارسية يدخلونها في أشعارهم كقول العماني من قصيدة مدح بها الرشيد :

من يلقه من بطل مسرندي في دغفـة محكمة بالسردِ
يجول بين رأسه والكرد

يعني العنق . وقوله :

لما هوى بين غياض الاسـد وصار في كف الهزبر الورد
آلى يذوق الدهر آب سرد

واقتبسوا أيضاً ألفاظاً سريانية من لغة نبط السواد كقول ابراهيم الموصلي المغني في وصف حمار نبطي ـ وكأنه ينقل كلامه بلفظه اذ يقول :

فقال « ازل بشينا » حين ودعني وقد لعمرك زلنـا عنه بالشين

ومن المعاني الجديدة وصف ما استحدث من ثمار تلك المدنية من أسماء الآنية والابنية والقصور والرياش وسائر أسباب الحضارة ولا سيما الغلمان والخمر

المبالغة في المدح

لم يخل الشعر من المدح في عصر من العصور لـكنه كان في الجاهلية أقرب الى الواقع وأبعد عن المبالغة ثم أخذ يزداد مبالغة بازدياد الحضارة والاركان الى الرخاء واضطرار الشعراء الى التزلف والتملق ولا سيما بعد الاختلاط بالفرس . فبعد ان كان زهير بن أبي سلمى يقول في مدح كريم حازم :

تراه اذا ما جئته متهللاً كأنك تعطيه الذي أنت سائله

صار منصور النمري يقول في الرشيد :

ان المكارم والمعروف أودية أحلّك الله منها حيث تجتمع
اذا رفعت امرءاً فالله رافعه ومن وضعت من الاقوام متضع
من لم يكن بأمين الله معتصماً فليس بالصلوات الخمس ينتفع
ان أخلف الغيث لم تخلف أناملـه أو ضاق أمرٌ ذكرناه فيتسع

وقول رجل من ولد زهير بن أبي سلمى في مدحه : « فكأنه بعد الرسول رسول »

وقول العكوك في مدح أبي دلف :

أنت الذي تنزل الايام منزلها وتنقل الدهر من حال الى حال

Digitized by Birzeit University Library

وما مددت مدى طرف الى أحد إلا قضيت بأرزاق وآجال

على أن المبالغة زادت بعد هذا العصر من كل وجه بزيادة أسباب الزلفى والانغماس في الرخاء

وصف الخمر والغلمان

في العصر الأموي بدأ الشعراء بوصف الخمر على أثر انغماسهم في المسكر والقصف . ولكن وصفها لم ينضج إلا في العصر العباسي الاول الذي نحن في صدده . وأشهر من نظم في وصفها من شعرائه أبو نواس فان له في ذلك بضعة آلاف بيت في مئات من القصائد والمقاطيع تجدها في ديوانه . ولذلك عدوا أبا نواس امام الوصافين للخمر . وفي ديوانه من فاحش الغزل بالغلمان ما يدل على ما بلغ اليه القوم من التهتك في ذلك العصر ولم يعصمهم علمهم ولا أدبهم ولا مقامهم في الدولة عن ارتكابه . وسيد هذه الرذائل المسكر وعلة انتشاره تساهل بعض الفقهاء بتحليل شرب النبيذ لانه غير الخمر الوارد النهي عنها

الشعر المجوني

ان استبحار عمران الدولة بعث كبراءها على الاستكثار من أسباب اللهو ولا سيما الخمور والجواري والغلمان مع ميلهم الى سماع الادب والشعر فتولدت طبقة من الشعراء أكثروا من المجون في منظومهم وعرفوا بالشعراء المجان وامامهم أبو نواس . وقد تهتكوا في مجونهم وتفننوا فيه وهم يمثلون الآداب الاجتماعية في تلك الطبقة من الناس في ذلك العصر ـ والشعراء عنوان آداب الامة أو مثال يدل عليها

وصف الرياض والازهار

توسعوا في هذا العصر بوصف الرياض والازهار . ومن وصافها فيه أبو نواس كقوله :

يوم تقاصر واستبث نعيمه في ظل ملتف الحدائق أخضرا

واذا الرياح تنسمت في روضة نثرت به مسكاً عليك وعنبرا

ولم يخل الشعر الجاهلي والاموي من وصفها ولا سيما في أقوال الشعراء الذين خالطوا الحضارة ورأوا بساتين الحيرة أو غوطة الشام أو غيرهما من مدن العراق أو الشام كأعشى بكر القائل :

ما روضة من رياض الحسن معشبة خضراء جاد عليها مسبل هطل

Digitized by Birzeit University Library

يضاحك الشمس فيها كوكب شرق مؤزر بعميم النبت مكتهل
يوماً بأطيب منها نشر رائحة ولا بأحسن منها اذ دنا الأصل

على ان أهل هذا العصر فاقوهم فيه كأبي نواس وأبي تمام وفاقهما فيه أهل العصور التالية

الشعر في العصر العباسي الثاني

مميزات الشعر في هذا العصر

١ ـ ظهرت فيه شكوى الشعراء من ذهاب دولة الشعر وانقضاء العصر الذي كان الشعر يثير فيه النفوس ويستنهض الهمم بذهاب الخلفاء والامراء الذين كانوا يعرفون قدر الشعر ويقدمون أصحابه بالسخاء. وقد عبر ابن الرومي عن ذلك (وهو من أهل هذا العصر) بقوله:

ذهب الذين تهزهم مدّاحهم هزّ الكماة عوالي المرّان
كانوا اذا امتدحوا رأوا ما فيهم ما الأريحية منهم بمكان

٢ ـ كثر فيه ذكر المعاني الفلسفية وتعابيرها لتفشي علوم الاقدمين بين المسلمين على أثر ترجمة الكتب في العصر الماضي وفي هذا. وظهر جماعة من الشعراء عدوا بين الفلاسفة لتغلب العلوم الطبيعية على نفوسهم. على ان الآراء الفلسفية ظهرت ناضجة في شعراء العصر العباسي الثالث الآتي ذكره

٣ ـ ظهر فيه البديع ولم يكن منه قبلاً الا نزر يسير. على ان البديع قديم في العربية حتى في النثر فضلاً عن الشعر. لان هذه اللغة تمتاز بقبولها للاستعارات والكنايات. ولكن المشهور ان أول من فتق البديع بشار بن برد وابن هرمة ثم اتبعهما مقتدياً بهما كلثوم بن عمرو العتابي ومنصور النمري ومسلم بن الوليد وأبو نواس واتبع هؤلاء أبو تمام والبحتري. ثم ابن المعتز فانتهى البديع اليه وختم به فانه ألطف أصحابه شعراً وأكثرهم بديعاً وهو من شعراء العصر العباسي الثاني

٤ ـ نبغت طبقة من الكتاب انتقدوا الشعر وروايته وكانوا ينقلونه في العصر السابق بلا تمحيص فصاروا في هذا العصر ينظرون فيه ويتدبرون معانيه وأساليبه بعين النقد. ولا سيما بعد اطلاعهم على ترجمة كتاب أرسطو في نقد الشعر الذي نقله أبو بشر من السريانية الى العربية. وأكثر الذين اشتغلوا في ذلك من الادباء

Digitized by Birzeit University Library

أما النقد التاريخي فلم يجرأوا عليه في هذا العصر لاضطرار المؤرخين الى مصانعة رجال الدولة إلا ما كان من الطعن في اعداء الخلفاء والامراء

٥ ـ وفيه تقدم الشعراء خطوة أخرى في الزهريات والتغزل بها كقول ابن المعتز يصف قضيباً من الريحان :

قضيب من الريحان شابه لونه ... اذا ما بدا للعين لون الزمرد
وشبهته لما تأملت حسنه ... عذاراً تدلى في عوارض أمرد

وقول البحتري :

ورقٌ تغني على خضر مهدلة ... تسمو بها وتمسُّ الارض أحيانا
تخال طائرها نشوان من طرب ... والغصن من هزه عطفيه نشوانا

الشعر في العصر العباسي الثالث

ان ما قدمناه عن أحوال الدول والأمم في هذا العصر ظهر تأثيره في الشعر أكثر مما في سائر الآداب . كان الشعر في الجاهلية ديوان العرب ومعرض آدابهم وأخلاقهم يمثلون به الشجاعة والفروسية والضيافة والأنفة والوفاء لا يتكلفون ولا يبالغون . فصاروا في أيام بني أمية وأكثر نظمهم في السياسة وظهر التشبيب بكثرة الجواري والسراري وكثر الهجو لاختلاف الاحزاب مع المحافظة على صبغته البدوية . فلما استبحر عمران العباسيين وأوى الناس الى القصور وسرحوا في الحدائق وشربوا الخمر واقتنوا الغلمان ظهر أثر ذلك في أشعارهم . ثم زادوا على ذلك شكوى الزمان في العصر العباسي الثاني لاشتغال الخلفاء والوزراء عن الشعر والشعراء . ونحن الآن في عصر تسابق فيه ولاة الأمر الى تقديم أهل الادب . فلا غرو اذا تعدد الشعراء وكثرت مدائحهم وطالت قصائدهم وتفرعت أساليبهم

مزايا الشعر في هذا العصر

حل القيود القديمة

ان اطلاع أهل الادب على الكتب الفلسفية والطبيعية والمنطقية بعد ترجمتها عودت عقولهم على النظر الصحيح والتقرب من الحقيقة . فخطوا خطوة أخرى في تبديل مذهب الشعر وطرقه . وإماما هذه الطريقة المتنبي والمعري . وقد رأيت

Digitized by Birzeit University Library

ان شعراء العصر العباسي الاول انتقدوا طرق الجاهليين لكنهم ظلوا يتحدونهم في كثير منها وهم يرسفون بالقيود التي وضعوها للنظم من حيث اللفظ والمعنى . فتملص المتنبي والمعري من تلك القيود وقالا الشعر كما توحيه القريحة فنظما في فلسفة الوجود والحكمة في الخلق من عند أنفسهم ولا سيما المعري . والشعر الحقيقي هو التعبير عن الشعور بتلك الحكمة أو تصوير الجمال الطبيعي بأعم معانيه

مقتبسات الفلسفة والتاريخ والطب والفقه

على ان العرب في هذا العصر زاد اقتباسهم للافكار الفلسفية واطلعوا على تاريخ اليونان فصاروا يتمثلون بأبطالهم كقول المتنبي :

من مبلغ الأعراب أني بعدهم شاهدت رسطاليس والأسكندرا
وسمعت بطليموس دارس كتبه متملكا متبدياً متحضرا
ولقيت كل الفاضلين كأنما رد الأله نفوسهم والأعصرا

وقول الفتح البستي من المعاني الطبية :

وقد يلبس المرء خز الثيا ب ومن دونها حالة مضنيهْ
كمن يكتسي خده حمرة وعلته ورمٌ في الريه

وقوله : ان الجهول تضرني أخلاقه ضرر السعال لمن به استسقاء

وقوله وفيه شيء من علم النجوم :

قد غض من أملي أني أرى عملي أقوى من المشتري في أول الحمل
وانني زاحل عما أحاوله كأنني أستدر الحظ من زحل

ودخل الشعر العربي كثير من حكم القدماء وأمثالهم في اليونانية اما اقتباساً كما في أشعار المتنبي أو نقلا وتعريباً . وأكثر ذلك منقول عن الفرس وهذه أمثلة مما نقله أبو الفضل السكري :

من مثل الفرس ذوي الابصار الثوب رهن في يد القصار
ان البعير يغض الخشاشا لكنه في أنفه ما عاشا
نال الحمار بالسقوط في الوحل ما كان يهوى ونجا من العمل
نحن على الشرط القديم المشترط لا الزق منشق ولا العير سقط

وتكاثرت فيه المعاني الفقهية والصوفية لظهور التصوف وشيوعه واشتغال كثيرين من أصحابه في الشعر كقول بعضهم :

Digitized by Birzeit University Library

من سرّه أن يرى الفردوس عاجلة فلينظر اليوم في بنيان ايواني
أو سره أن يرى رضوان عن كثب بملء عينيه فلينظر الى الباني

أبواب عديدة

وتولدت فيه أبواب جديدة اقتضاها التبسط في الحضارة والتوسع في أسباب الرخاء فبعد أن كان الشعر الجاهلي أكثره في الحماسة والفخر والرثاء والمدح زاد عليه الامويون التشبيب والهجو . وزاد العباسيون في العصر الاول الخمريات والتغزل بالغلمان . وزادوا في هذا العصر (الثالث) أبواباً تلائم أحوال الاجتماع والمدنية أهمها الاخوانيات والعتاب وشكوى الدهر والزهد والمداعبات والسلطانيات والمجاوبات والمقارضات وصار النظم في الزهر باباً قائماً بنفسه . وبعض هذه الابواب كان منه أمثلة في الاعصر الماضية لكنها أصبحت في هذا العصر أبواباً مستقلة . وهي تدل على تلطف اخلاق الامة وتوسع علاقاتها وارتقاء أذواقها

فيراد بالاخوانيات مثلا ما ينظم في الاخوان أو الاصدقاء من أسباب التقارب كقول بعضهم :

وأخ اذا ما شط عني رحله أدنى إليّ على النوى معروفهُ
كالكرم لم يمنعهُ بعد عريشه من أن يقرب للجناة قطوفهُ

والمداعبات كقوله :

أبا جعفر هل فضضت الصدفْ وهل إن رميت أصبت الهدف
وهل جئت ليلا بلا حشمة لطول السرى سدفاً في سدف

والدهريات أو شكوى الدهر كقوله :

يا دهر ما أقساك يا دهرُ لم يحظَ فيك بطائل حرُّ
أما اللئام فأنت صاحبهم ولهم لديك العطف والنصر
يبقى اللئيم مدى الحياة فلا يرتاع منه لحادث صدر

وقس على ذلك

المبالغة

غالى أهل هذا العصر في المبالغة الشعرية الى ما لم يسبقهم اليه أهل الأعصر الماضية حتى خرجوا عن الممكنات الى المستحيلات كقول المتنبي :

وضاقت الارض حتى صار هاربهم اذا رأى غير شيء ظنه رجلا
فبعده والى ذا اليوم لو ركضت بالخيل في لهوات الطفل ما سعلا

Digitized by Birzeit University Library

ومثله قوله في وصف الضعف :

كني بجسمي نحولا انني رجل لولا مخاطبتي إياك لم ترني

وناهيك بالمبالغة في المدح فانهم تجاوزوا فيه المعقول والمشروع . وإماما المداحين في هذا العصر المتنبيان أبو الطيب وابن هانيء . ومن مبالغة أبي الطيب في المدح قصيدته السينية التي مطلعها :

هذي برزت لنا فهجت رسيسا ثم انثنيت وما شفيت نسيسا

الى أن يقول :

لو كان ذو القرنين أعمل رأيه لما أتى الظلمات صرن شموسا
أو كان صادف رأس عازر سيفه في يوم معركة لأعيا عيسى
أو كان لج البحر مثل يمينه ما انشق حتى جاز فيها موسى
أو كان للنيران ضوء جبينه عُبدت فصار العالمون مجوسا
لما سمعت به سمعت بواحد ورأيته فرأيت منه خميسا
ولحظت أنمله فسلن مواهباً ولمست منصله فسال نفوسا
يامن نلوذ من الزمان بظله حقاً ونطرد باسمه إبليسا

ونحو ذلك قوله :

واعجب منك كيف قدرت تنشا وقد أعطيت في المهد الكمالا
وأقسم لو صلحت يمين شيء لما صلح العباد له شمالا

وقوله :

بمن أضرب الامثال أم من أقيسه اليك وأهل الدهر دونك والدهر

أما ابن هانيء متنبي الغرب فيكفي مثالا لمبالغاته القصيدة التي مدح بها المعز لدين الله الفاطمي ومنها قوله :

ما شئت لا ما شاءت الاقدار فاحكم فأنت الواحد القهار
وكأنما أنت النبي محمد وكأنما أنصارك الانصار
أنت الذي كانت تبشرنا به في كتبها الاحبار والاخيار

طول القصائد

وطالت القصائد في هذا العصر عما كانت عليه قبلا حتى كثرت فيها ذوات المئات من الابيات كقصيدة ابن عبد ربه وقصائد الوأواء . ومع ذلك فان العرب لم يدركوا شأو الامم الاخرى في الاطالة كما فعل اليونان بالالياذة والاوديسة والفرس في

Digitized by Birzeit University Library

الشاهنامة وهو الشعر المعروف بالايبوبة وتعد أبيات الواحدة بعشرات الألوف . على انهم ذكروا لابي الرجاء محمد بن احمد بن الربيع الاسواني المتوفي سنة ٣٣٥ هـ قصيدة ابياتها تعد بالالوف ضمنها اخبار العالم وقصص الانبياء ومختصر المزني . ويعد من هذا القبيل نظم كليلة ودمنة ونحوها مما ضاع . ولكن ذلك منقول ليس فيه تفكير أي لم ينظمه الشاعر من بنات افكاره . ولا يكون ذلك إلا في نظم القصص الخيالية او نحوها

الوصف الشعري

وأجاد أهل هذا العصر في الوصف الشعري وتوسعوا فيه . والوصف قديم في الشعر العربي لكنه اتسع وطال بزيادة العمارة وصار له في هذا العصر باب خاص . وأول من أجاده منهم شعراء الاندلس لمخالطتهم الافرنج ، والشعر الوصفي عند هؤلاء باب من ابواب الشعر الكبرى . فصار شعراء العرب يصفون المناظر الطبيعية والأبنية الجميلة وسائر ظواهر المدنية حتى الادوات كالاسطرلاب ونحوه

على ان تاريخ الوصف الشعري يتصل بالجاهلية فكان العرب في الجاهلية وصدر الاسلام يصفون الخيل والمعارك ونحوها . وأحسن قصائد الوصف عندهم قصيدة بشر بن عوانة التي وصف بها مقتل الاسد ومطلعها :

أفاطم لو شهدت ببطن خبت وقد لاقى الهزبر اخاك بشرا

وتقدم الشعر الوصفي بعد الاسلام رويداً رويداً مع تقدم المدنية واتساع الخيال وتكاثر المعاني بتكاثر فروع العلم والاختلاط بالامم الاخرى في العصر العباسي الاول فالثاني حتى بلغ أحسنه في العصر الثالث هذا . وابرع وصاف العصر الثاني البحتري وأحسن قصائده في الوصف قصيدة يصف بها بركة بناها المتوكل على الله مطلعها :

يا من رأى البركة الحسناء رؤيتها والآنسات اذا لاحت مغانيها

حتى يقول :

تصبُّ فيها وفود الماء معجلة كالخيل خارجة من حبل مجريها
كأنما الفضة البيضاء سائلة من السبائك تجرى في مجاريها
اذا علتها الصبا أبدت لها حبكا مثل الجواشن مصقولا حواشيها
فحاجبُ الشمس أحياناً يضاحكها وريّق الغيث أحياناً يباكيها

Digitized by Birzeit University Library

اذا النجوم تراءت في جوانبها ليلا حسبت سماء ركبت فيها

وقصيدة وصف بها القصر الكامل للمعتز بالله قال فيها :

وكأن حيطان الزجاج بجوه لجج يمجن على جنوب سواحل
وكأن تفويف الرخام اذا التقى تأليفه بالمنظر المتقابل
حبك الغمام رصفن بين منمَّر ومسيَّر ومقارب ومشاكل

لكن شعراء العصر الثالث زادوا توسعاً في الوصف ودقة في التعبير . وممن أجاد فيه المتنبي وابن هانيء والمأموني . ولهذا الاخير قصيدة في وصف قصر بناه الصاحب بن عباد قال فيها :

فهنيئاً منها بدار حوت منـ ـك جبالا من الحلوم رجاحا
ذات صدر كرحب صدرك قد زا د على ظن آمليك أنفساحا

ثم أتى على وصف الدار وصفاً يطابق ما يتخيل للداخل اليها . فيتدرج من الفناء فالبهو فالصحن الخ

دع عنك وصف المتنبي لمواقع الحروب أو ما يحتاج الى فخامة اللفظ والمعنى كقصيدته التي يصف بها وقعة حرب لسيف الدولة مع البطريق . ومن أحسن شعره الوصفي قوله يصف مشية الاسد :

يطأ الثرى مترفقاً من تيهه فكأنه آس يجسُّ عليلا
ويرد غفرته الى يافوخه حتى تصير لرأسه اكليلا
وتظنه مما يزجر نفسه عنها لشدة غيظه مشغولا
قصرت مخافته الخطى فكأنما ركب الكميُّ جواده مشكولا

لكن شعراء العرب قلما اشتغلوا بوصف الحوادث الطويلة او التواريخ كما فعل اليونان والفرس قديماً او كما يفعل ادباء الافرنج الآن في تأليف الروايات الوصفية للاخلاق والعادات

زيادة ابحر الشعر وأوزانه

تولدت في الشعر أبحر جديدة لم تكن فيه من قبل اهمها الموشحات ينظمونها اسماطاً اسماطاً واغصاناً اغصاناً يكثرون منها ومن اعاريضها المختلفة ويسمون المتعدد منها بيتاً واحداً . ويلتزمون قوافي تلك الاغصان واوزانها متتالياً فيما بعد الى آخر القطعة واكثر ما تنتهي عندهم الى سبعة أبيات . ويشتمل كل بيت على اغصان عددها بحسب الاغراض والمذاهب . وينسبون فيها ويمدحون كما يفعل في القصائد

Digitized by Birzeit University Library

وهي من مخترعات الأندلسيين وأول من نظمها منهم مقدم بن معافر الفريري من شعراء الأمير عبد الله بن محمد المرواني في أواخر القرن الثالث للهجرة . وأخذ عنه ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد . ولم تقع هذه البدعة موقعاً حسناً عند المحافظين على القديم فكسدت حيناً حتى نبغ عبادة القزاز شاعر المعتصم ابن صمادح صاحب المرية (توفي سنة ٤٤٣ هـ) فأجاد وجاء بعده ابن أرفع رأس شاعر المأمون بن ذي النون صاحب طليطلة (توفي سنة ٤٦٧ هـ) . وذكر صاحب فوات الوفيات : « ان أول من نظم عقود الموشحات وأقام عمادها عبادة بن عبد الله ابن ماء السماء الشاعر الأندلسي المتوفي سنة ٤٢٢ هـ رأس الشعراء في الدولة العامرية وكانت صناعة التوشيح قد ظهرت وأخذ الشعراء ينهجونها فقام عبادة وقوم ميلها وسنادها فكأنها لم تسمع بالأندلس إلا منه ولا أخذت الا عنه . واشتهر بها اشتهاراً غلب على ذاته وذهب بكثير من حسناته . وأول من صنع أوزان هذه الموشحات محمد بن محمود المقبري الضرير . وقيل ان ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد أول من سبق الى هذا النوع من الموشحات ثم نشأ يوسف بن هرون الرمادي ثم نشأ عبادة هذا فأحدث التصفير وذلك أنه اعتمد على مواضع الوقف في المراكز »

وفي كل حال فان الموشحات نضجت في العصر الثالث الذي نحن في صدده وناهيك بما أدخله الجوهري صاحب الصحاح على عروض الشعر في هذا العصر وفيه أيضاً نضج نقد الشعر بظهور كتاب العمدة لابن رشيق

الشعر في العصر العباسي الرابع

تغيرت حال الشعر في هذا العصر عما كانت عليه قبله بعد ذهاب سيف الدولة والصاحب بن عباد وغيرهما من الآخذين بناصر الأدباء والشعراء . وصارت أمور الدولة أكثرها الى الأعاجم وانصرفت القرائح الى الفقه والتصوف وغيرهما من العلوم الدينية . فأصبح الشاعر لا ينظم رغبة في الجائزة أو تنافساً في التقدم لدى ولاة الأمر . وانما ينظم في الأكثر ارضاء لقريحته . فتغيرت أغراض الشعراء من النظم وقل النابغون منهم . ومع اتساع المملكة الاسلامية وطول مدة هذا العصر لم ينبغ فيه من الشعراء البلغاء نصف ما نبغ في سواه قبله

ونظراً لما توالى على المملكة الاسلامية من الاحن والفتن كسدت سوق الشعر

Digitized by Birzeit University Library

وأصبح المنتجع من الشعراء لا يستنكف من شكوى الفقر وطلب الرفد بصراحة كقول ابن التعاويذي يخاطب عضد الدين بن رئيس الرؤساء :

فيا مولاي هل حدثت عني بأني من ملائكة السماء
وأن وظائف التسبيح قوتي وما أحيا عليه من الدعاء
وأني قد غنيت عن الطعام الـ ـذي هو من ضرورات البقاء
وهل في الناس لو أنصفت خلق يعيش كما أعيش من الهواء
فلا في جملة الأحرار أدعى ولا بين العبيد ولا الاماء

واتجهت القرائح الى الأدعية ومدح النبي والراشدين بقصائد ظهر بعضها في أوائل العصر التالي هي أبلغ ما وصل الينا من مدحهم . وكثرت المعاني الصوفية لشيوع التصوف فيه . ولا يرجى مع ذلك أن يكون الفرق بين شعر هذا العصر والذي سبقه كبيراً لرغبة القوم في تحدي أسلافهم والنسج على منوالهم

على أن ما انتاب الشعر من أطوار المدنية والانقلابات الاجتماعية أحدث تغيراً في قواعده وأساليبه . وقد تقدم أن صناعته نضجت في العصر الماضي كما نضجت سائر آداب اللغة وانتهى الى ابن رشيق فوضع فيه كتاب العمدة في صناعة الشعر ونقده وهو في الشعر العربي أشبه ببوالو في الشعر الفرنسي لأنه قيد شوارده وعين أساليبه . وتمكن ذلك منه في هذا العصر فأصبحت أبوابه ومناحيه معينة يراد بها الصناعة الشعرية لا التعبير عن الشعور . فصار الفخر مثلا باباً من تلك الأبواب يتسابق الشعراء الى الاجادة فيه بالمبالغة بلا تحمس لمفاخرة في حرب أو للتفاخر بالأنساب أو نحو ذلك . وانما يريدون به مجرد الصناعة الشعرية . وممن أجاد في ذلك ابن سناء الملك الشاعر المصري المشهور بمبالغته . وقس على ذلك سائر الابواب

وفي هذا العصر نضجت الموشحات في الاندلس وتوسع اهلها بوصف المناظر الطبيعية ووضعوا فناً آخر سموه الزجل شهره واقام عماده ابو بكر بن قزمان الاندلسي القرطبي المتوفى سنة ٥٥٥ ويعرف بامام الزجالين. واستحدث اهل الامصار في المغرب فناً آخر من الشعر في أعاريض مزدوجة نظموه بلغتهم الحضرية وسموه « عروض البلد » استنبطه ابن عمير الاندلسي . وشاع هذا الفن بفاس فنوعوه أصنافاً سموه المزدوج والكاري والملعبة والغزل وغيرها . كما شاعت الآن أنواع الزجل المصري في مصر والقريض والمعنى في الشام . وفي أواخر مقدمة ابن خلدون فصل طويل في هذا الموضوع وأمثلة يحسن الاطلاع عليها

Digitized by Birzeit University Library

الشعر في العصر المغولي

إن استيلاء المغول على رقاب الناس قيد ألسنتهم وشغل عقولهم . فزادت قرائحهم جموداً عما كانت عليه في العصر السابق ولم ينبغ من الشعراء من يستحق الذكر الا خارج مملكة المغول ولا سيما في مصر والشام . ولا تخلو البلاد الاخرى من شعراء مجيدين لكن يقال بالاجمال ان الشعر أصبح صناعة لفظية بعد أن كان قريحة فطرية . واختلط الشعر بالأدب وقلما نبغ شاعر لم يشتغل بغير الشعر فان أكثرهم الفوا الكتب في الأدب وجمع الشعر والنكات والمواعظ والحكم ونحو ذلك وابتذلت الصناعة الشعرية وتعاطاها الناس لقضاء ساعات الفراغ فقط وكثر الناظمون من الباعة وأرباب الحرف كالخياطين والنجارين والدهانين ونحوهم . وليس ذلك خاصاً بهذا العصر إذ كثيراً ما ظهرت القرائح الشعرية في طبقات العامة لكنهم كانوا اذا نبغوا استغنوا عن صنائعهم بتقربهم من بعض الامراء أو الخلفاء فتشحذ قرائحهم ويأتون بالمعجزات كما اتفق لكثيرين من شعراء العصر الأموي والعباسي . أما في العصر المغولي فنظراً لكساد بضاعة الادب لا يجد صاحب القريحة الشعرية وسيلة للارتزاق بها فيبقى في مهنته ويتعاطى الشعر للتسلية . وكان السلاطين المماليك يقربون الادباء في الغالب ليؤلفوا لهم التاريخ أو كتب الحرب أو الادب أو العلوم الدخيلة أو الاسلامية

البدوي والحوراني

وفي هذا العصر تولد ضرب من الشعر اقتضاه فساد اللغة الفصحى بتوالي الاختلاط بالاعاجم فتولدت طبقة من الشعراء عرفها ابن خلدون بالمستعجمة عن لغة مضر كانوا ينظمون في أغراض الشعر المعروفة بالنسيب والمدح والرثاء والهجاء مثل من تقدمهم . لكن شعرهم يمتاز بخلوه من الاعراب وباحتوائه على كثير من الالفاظ العامية . ويبتدىء شاعرهم قصيدته بذكر اسمه ثم يستطرق الى النسيب فالموضوع المراد النظم فيه . واشهر من هؤلاء الشعراء طائفة كبيرة من أهل المغرب بتونس والجزائر ومراكش وكانوا يسمون قصائدهم « الاصمعيات » ويسميها أهل مصر والشام « البدوي » . وكانوا يغنونه ويسمون الغناء به « الحوراني » نسبة الى حوران منازل العرب البادية . وذكر ابن خلدون أمثلة

Digitized by Birzeit University Library

من هذا الشعر في مقدمته . من ذلك قول شاعرهم الشريف بن هاشم يبكي الجازية بنت سرحان في قصيدة مطلعها :

قال الشريف بن هاشم علي ترى كبدي حرّا شكت من زفيرها

ومن هذا القبيل مطلع لشاعر آخر :

تقول فتاة الحي سعدى وهاضها لها في ظعون الباكين عويل

أيا سائلي عن قبر الزناتي خليفة خذ النعت مني لا تكون هبيل

عروض البلد والموالیا وغيرها

وتولد فيه أيضاً المربع والمخمس الذي يلتزمون فيه القافية الرابعة من كل بيت . وهو ما أحدثه المولدون في القرن الثامن للهجرة . ذكر ابن خلدون فناً من الشعر في أعاريض مزدوجة كالموشح نظمه أهل الامصار للغنم الحضرية وسموه « عروض البلد » كان أول من استحدثه فيهم رجل من أهل الاندلس نزل بفاس يعرف بابن عمير فنظم قطعة على طريقة الموشح ولم يخرج فيها عن مذاهب الاعراب مطلعها :

أبكاني بشاطي النهر نوح الحمام على الغصن في البستان قرب الصباح

وكف السحر يمحو مداد الظلام وماء الندى يجري بثغر الاقاح

فاستحسنه أهل فاس ونظموا على طريقته مع اغفال الاعراب . ثم نوعوه أصنافاً ، منها المزدوج والكاري والملعبة والغزل واختلفت أسماؤها باختلاف ازدواجها كقول ابن شجاع وهو من فحولهم :

المال زينة الدنيا وعز النفوس يبهي وجوهاً ليس هي باهيا

فها كل من هو كثير الفلوس ولوه الكلام والرتبة العاليا

ويشبه ذلك نظم العامة في سوريا ما يسمونه « القصيد » أو « القريض » وهذا الاخير ينظمونه على أوزان بعضها سرياني الاصل

ونضج في هذا العصر ضرب من الشعر العامي يقال له « الموالیا » كان في بغداد وتحته فنون كثيرة منها « القوما » و « كان وكان » ومنه مفرد ودوبيت . وانتقل الى القاهرة وشاع فيها من ذلك العهد وأجاد فيه المصريون كثيراً من ذلك قولهم :

طرقت باب الحبا قالت من الطارق فقلت مفتون لا ناهب ولا سارق

تبسمت لاح لي من ثغرها بارق رجعت حيران في بحر ادمعي غارق

Digitized by Birzeit University Library

ونظراً لطول اقامة الافرنج في سوريا قبيل هذا العصر في أثناء الحروب الصليبية يغلب على الظن ان وجودهم ترك أثراً في نفوس الادباء قد يظهر في أشعارهم

التاريخ الشعري

وفي أواخر هذا العصر ظهر التاريخ الشعري والمراد به ضبط تاريخ واقعة بأحرف تتألف منها كلمة أو جملة أو شطر يكون مجموع جملها يساوي التاريخ الذي جرت فيه تلك الواقعة يأتي بها الشاعر بعد لفظ « تاريخ » أو ما يشتق منها . وهو شائع اليوم لكنه من محدثات العصور الاخيرة . لم نقف على شيء منه أقدم من أوائل القرن العاشر للهجرة على أثر فتح العثمانيين مصر . ويظهر انه أقدم من ذلك عند العثمانيين

كان أهل الحساب في صدر الاسلام يستخدمون له حروف الهجاء كما نستخدم الارقام الهندية وكذلك كان يفعل السريان والعبران . فلما عرف العرب الارقام الهندية اتخذوها لسهولتها وظلوا يستخدمون الحروف أيضاً ردحاً من الزمن . ولهم في ترتيبها طرق تؤدي العدد المطلوب بلا التفات الى معنى الكلمة التي يتألف منها . وكثيراً ما كان يتألف منها ألفاظ ذات معنى فخطر لبعضهم على ما يظهر ان يتعمد ذلك بحيث يكون للجملة أو الكلمة التي يتألف منها التاريخ معنى يوافق الحادثة المؤرخة . ولا ندري من تنبه لذلك أولا ولا متى ؟

على ان هذه الطريقة كانت معروفة عند أصحاب الجفر وأسرار الحروب . ثم استخدمها الادباء نثراً لتدوين الحوادث التاريخية فيجمعون أحرفاً مجموع جملها يساوي تاريخ الحادثة وله معنى يلائمها . ومن أقدم ما وقفنا عليه من ذلك تاريخ فتح القسطنطينية سنة ٨٥٧ هـ فقد أرخه العثمانيون بقولهم « بلدة طيبة » وأرخ رجل آخر بناء سبيل سنة ٩٦٦ بقوله « رحم الله من دنا وشرب » واستخدموا ذلك نظماً قبل هذا التاريخ كقول بعضهم يؤرخ وفاة ابن المؤيد الاماسي سنة ٩٢٢ بقوله :

قل للذي يبتغي تاريخ رحلتـه « نجل المؤيد مرحوم ومبرور »
ولم يحسبوا الا الشطر الثاني من البيت

وأرخ شاعر آخر وفاة محمد باشا المقتول والي مصر سنة ٩٧٥ بقوله :

قتله بالنـار نور وهو في التاريخ « ظلمة »

Digitized by Birzeit University Library

ثم توسع الشعراء في فن التاريخ الشعري بعد ذلك حتى صاروا ينظمون القصيدة وكل شطر منها تاريخ ويجتمع من أحرف أوائل الابيات ألفاظ يتركب منها أبيات كل شطر منها تاريخ أو تاريخان كما فعل النحلاوي بقصيدة مدح بها الشيخ عبد الغني النابلسي سنة ١١٣٦ وعارضها الشيخ ناصيف اليازجي بقصيدة مدح بها ابراهيم باشا سنة ١٨٤٨ وتفنن آخرون بأن يتألف من مهمل كل بيت تاريخ ومن معجمه تاريخ وغير ذلك

الشعر في العصر العثماني

أصاب الشعر ما أصاب سائر الآداب العربية في هذا العصر . فاستولى الجمود على القرائح لما توالى على الامة من الذل في تلك الفترة المظلمة . على ان المجيدين منهم انما كانت اجادتهم تقليدية ساروا فيها على خطة المتقدمين يقلدونهم في المعاني والاساليب والالفاظ وزاد تعويلهم على اللفظ . وأصبح الكاتب أو الشاعر انما يهمه تنميق العبارة بالجناس والتورية والسجع حتى خرجوا بذلك عن الذوق المألوف فأضاعوا أوقاتهم فيما لا فائدة فيه من الصنائع اللفظية فذهبت المعاني ضحية تلك الاساليب الباردة . ويشبه ذلك مبالغة أهل زماننا هذا بتزيين ظواهر المرأة بالازياء الجديدة حتى خرجوا بها عن الغرض الاصلي من خلقتها . فأصبحت مثل سائر أدوات الزينة انما يلتفت فيها الى شكلها الخارجي . وكثيراً ما جرّ اجتهادها في ذلك الى الوقوف في سبيل وظيفتها الطبيعية في جسم العمران — وهكذا اللغة في العصر العثماني بعد ان كان المراد بالالفاظ التعبير عن المعاني وتصوير الافكار اشتغل الكتاب بتنميق الالفاظ وأضاعوا المعاني

وازداد اختلاط الشعراء بالادباء في هذا العصر وأكثروا من الشعر الديني

Digitized by Birzeit University Library

أشهر الشعراء

من العصر الجاهلي الى النهضة الجديدة

أصحاب المعلقات

اختلف الرواة في عدد المعلقات وأصحابها فأبو زيد القرشي صاحب جمهرة أشعار العرب يجعلهم ثمانية . وهم امرؤ القيس وزهير والنابغة والاعشى ولبيد وعمرو بن كلثوم وطرفة وعنترة . ولكن الزوزني جعل المعلقات سبعاً ليس بين أصحابها النابغة ولا الاعشى وأضاف الحارث بن حلّزة . وأضاف أبو زكريا التبريزي فوق ذلك قصيدة عَبيد بن الابرص فصارت المعلقات وملحقاتها عشراً هذه أسماء أصحابها :

امرؤ القيس	عنترة
النابغة	عمرو بن كلثوم
زُهير	الحارث بن حلّزة
طرَفة بن العبد	الاعشى
لبيد	عَبيد بن الابرص

وذكر أبو جعفر النحاس المتوفي سنة ٣٣٨ هـ وهو شارح المعلقات انها سبع وأن بعضهم أضاف اليها قصيدتي النابغة والاعشى وان لم يعدهما من المعلقات . وذكر ابن خلدون سبعة من أصحاب المعلقات فيهم علقمة بن عبدة لكنه لم يعين معلقته . وسنأتي هنا بترجمة كل من نسبت اليه معلقة معينة فان الشاعرية تجمعهم جميعاً

امرؤ القيس بن حُجر

توفي نحو سنة ٥٦٠ م

هو أشهر شعراء الجاهلية وأشرفهم أصلاً وأرفعهم منزلة يتصل نسبه بملوك كندة وهم في قول العرب بطن من كهلان . وكانوا يقيمون في البحرين والمشقّر

Digitized by Birzeit University Library

ثم أجلوا عنهما الى كندة في حضرموت واليه ينسبون . أقاموا هناك دهراً يتولون بعض مناصب الدولة على عهد التابعة الحميريين وقد ضاع أكثر أخبارهم . وأقدم من عرفت أخباره منهم حُجر بن عمرو آكل المرار جد جد امرىء القيس الشاعر . ونزح حجر الى نجد ونزل بطن عاقل في أوائل القرن الخامس للميلاد وكان اللخميون (المناذرة) قد ملكوا كثيراً من تلك البلاد ولا سيما بلاد بكر ابن وائل وهم يومئذ بنجد فنهض البكريون معه لمحاربة اللخميين واستقلوا عن سلطانهم . فاجتمعت كلمتهم على تعظيمه وملكوه عليهم حتى توفي بأواسط القرن الخامس للميلاد فخلفه ابنه عمرو بن حجر . فلما مات خلفه ابنه الحارث بن عمرو وفي أيامه فتح الاحباش اليمن فضعف شأن دولته فوجه مطامعه نحو اللخميين في الحيرة وكان يحسدهم لتقربهم من الاكاسرة فاغتنم تغير كسرى قباذ على المنذر بن ماء السماء لسبب المزدكية وتقرب اليه فوافقه وولاه الحيرة مكان المنذر . فعظم الحارث في نظر القبائل وجعلوا يتقربون اليه بالطاعة وسألوه أن يولي عليهم من أراد . وكان له أربعة أولاد أقام كلاً منهم حاكماً على بعض القبائل ومنهم حجر بن الحارث والد امرىء القيس تولى على بني أسد وغطفان

ثم انقلب الامر على الحارث بعد موت قباذ لان أنوشروان ابنه وافق المنذر وأخرج الحارث ففرّ . وطمع فيه المنذر فطارده حتى قتله وجعل يفسد بين أولاده بالتحاسد حتى تحاربوا فقتل اثنان منهم وبقي اثنان هما حجر والد امرىء القيس ومعدي كرب أمير قيس . ورأى بنو أسد تضعضع دولة كندة فاجتمعوا على خلاف ملكهم حجر وأمسكوا عن أداء الاتاوة فحاربهم فقتلوه

وكان امرؤ القيس عند مقتل أبيه غائباً فلما علم بقتله رجع وهو يعتقد عجزه عن الاخذ بثأره لان عدوه قوي . وعلم أيضاً ان ذلك العدو اذا عرف مقرّه قبض عليه فقضى برهة من الدهر وهو يجتال متنكراً في اليمن ونجد والحجاز يستجير القبائل فلم يجره أحد حتى أتى السموأل صاحب حصن الأبلق فاستجاره فأجاره . فاستودعه أدراعه وأمتعته وهو لا يرى من يستنصره على أعدائه إلا قيصر الروم . لان ملوك الحيرة عمال الفرس نصروا أعداءه على جاري عادة العرب في ذلك العهد ـ اذا تظلموا من احدى هاتين الدولتين استنصروا الاخرى . ولم يكن لامرىء القيس سبيل الى القيصر فوسط الحارث بن أبي شمر الغساني صاحب النفوذ عند قيصر الروم يومئذ وطلب اليه أن يوصله اليه ففعل فسار امرؤ القيس

Digitized by Birzeit University Library

الى القيصر . ويقول العرب ان القيصر بعد ان اجاب دعوته وسمع مدائحه وشى به أحد بني اسد اعدائه وقال للقيصر « ان امرأ القيس شتمك » فصدق الوشاية وألبس الشاعر حلة مسمومة قتلته . ولا نعرف سبباً يفعل هذا الفعل . وفي كل حال ان امرأ القيس قتل ولم ينل اربا

وجاء في « شعراء النصرانية » بعد ذكر موت امرىء القيس بالجدرى مانصه : « وذكر في كتاب قديم مخطوط ان ملك قسطنطينية لما بلغه وفاة امريء القيس امر بأن ينحت له تمثال وينصب على ضريحه . ففعلوا وكان تمثال امرىء القيس هناك الى أيام المأمون وقد شاهده هذا الخليفة عند مروره هناك لما دخل بلاد الروم لينزو الصائفة »

وكان امرؤ القيس قويَّ الشاعرية ولولا ذلك لم يقل الشعر لان الملوك كانوا قبله يأنفون من قوله . ولكنه كان مطبوعاً عليه يقوله وابوه حيّ وكثيراً ما زجره وهو يعصاه حتى اضطر ابوه ان يبعده عنه . فلم يبال بل جعل يجول في الاحياء مع بعض الاخلاط من شذاذ العرب من طيء وكلب وبكر بن وائل فاذا صادف غديراً أو روضة او موضع صيد اقام فذبح لمن معه في كل يوم وخرج الى الصيد فتصيد ثم عاد فأكل وأكلوا معه وشرب الخمر وسقاهم وغنته قيانه . ولا يزال كذلك حتى ينفد ماء ذلك الغدير ثم ينتقل عنه الى غيره

فلما أتاه نعي ابيه كان بدمون من ارض اليمن فغضب غضباً شديداً وغضبه هاج شاعريته واسفاره في البلاد زادت اختباره. ولعله جاء بلاد الروم قبل سفرته الاخيرة والاسفار توسع الخيال الشعري . واذا عاشر الناس وخالطهم اطلع على آدابهم واستفاد معاني جديدة او تفتق قريحته فتستنبط صوراً جديدة . وذلك من الاسباب التي جعلت امرأ القيس يسبق الى اشياء في الشعر لم تكن معروفة قبله

وإذا أمعنت النظر فيما استنبطه من المعاني أو الأساليب رأيتها من ثمار الأسفار وسعة الاطلاع فمنها استيقاف الصحب في الديار كقوله : « قفا نبك الخ » فانه طبيعي فيمن قضى معظم حياته في توديع ديار واستقبال ديار . وقد كان ألوفاً دقيق الشعور اذا أقام في المكان ألفه واذا عاشر الرجل كلف به

ومنها دقة وصفه واجادته على الخصوص في وصف الفرس والناقة وهذا طبعاً من ثمار الأسفار لأنه كان يقضي الساعات والأيام على فرسه لا شيء يشغله عنه مع تعلقه به لأنه أكبر مساعد له على النجاة في فراره من أعدائه . ولذلك فلا تكاد

Digitized by Birzeit University Library

تقرأ له قصيدة إلا وجدت فيها أبياتاً يصف بها فرسه أو ناقته

أما معلقته المشهورة فقد نظمها في وصف واقعة جرت له مع حبيبته وابنة عمه عنيزة وحظر عليه لقاءها ولعلهم منعوه لما كان من رغبته في الشعر

زهير بن ابي سلمي

توفي سنة ٦٣١ م

هو أحد الثلاثة المقدمين على سائر الشعراء وهم امرؤ القيس وزهير والنابغة وانما اختلفوا في تقديم أحد الثلاثة على صاحبيه . وكما امتاز امرؤ القيس باستنباط الافكار والأساليب وتلطيف المعاني فقد امتاز زهير بما في نظمه من الحكمة البالغة وكثرة الامثال مع القدرة على المدح وهو لا يعاظل في الكلام ويتجنب وحشيه ولا يمدح أحداً إلا بما فيه وكثيرون يفضلونه على صاحبيه ويقولون إنه أحسنهم شعراً وأبعدهم عن سخف وأجمعهم لكثير من المعاني في قليل من الالفاظ

وهو من مزينة إحدى قبائل مضر وكان يقيم هو وأبوه وولده في منازل بني عبد الله بن غطفان بالحاجر من نجد . وأول من نزل هناك منهم أبوه ابو سلمى لانه تزوج امرأة من بني فهر بن مرة من ذبيان بن غطفان فولدت له زهيراً وأوساً وتزوج زهير امرأة من سحيم بن مرة ولذلك كان زهير يذكر في شعره بني مرة وغطفان ويمدحهم . وكان لزهير أخلاق عالية ونفس كبيرة مع سعة صدر وحلم وورع . فرفع القوم منزلته وجعلوه سيداً . وكثر ماله واتسعت ثروته وكان مع ذلك عريقاً في الشاعرية فكان أبوه شاعراً وكذلك خاله واختاه وابناه . وكان لشعره تأثير كبير في نفوس العرب وكان مقرباً من أمراء ذبيان وخصوصاً هرم بن سنان والحرث بن عوف . وأول قصيدة نظمها في مدحهما معلقته المشهورة التي مطلعها :

أمن أمّ أوفى دمنة لم تكلم بحومانة الدرّاج فالمتثلم

قالها على أثر مكرمة أتياها بحجب الدماء بين عبس وذبيان

النابغة الذُّبياني

توفي سنة ٦٠٤ م

هو أحد الثلاثة المقدمين على سائر الشعراء واسمه زياد بن معاوية من ذبيان من قيس وهو من الاشراف الذين غضّ الشعر منهم كما غض من امريء القيس .

Digitized by Birzeit University Library

وكان يفد على النعمان صاحب الحيرة فيمدحه فوقعت العداوة بينه وبين المتخل الشاعر فوشى به الى النعمان فهرب النابغة الى بني غسان ونزل بعمرو بن الحارث الاصغر ملك الغساسنة فمدحه . وما زال مقيما عنده حتى مات عمرو وخلفه النعمان أخوه فصار معه حتى اصطلح مع النعمان صاحب الحيرة فعاد اليه

وكان يفد على صاحب الحيرة أيضاً حسان بن ثابت الانصاري ولكن النابغة كان مقدماً على الجميع . فجمع من عطايا النعمان صاحب الحيرة ثروة طائلة وصار يأكل ويشرب في آنية الفضة والذهب . وله منزلة كبرى عند شعراء عصره فاذا جاء عكاظ ضربوا له في سوقها قبة من جلد وجاء الشعراء ينشدون أشعارهم . وأول من أنشده الاعشى ثم حسان ثم الخنساء وهذا شرف لم ينله أحد من الشعراء سواه

ويمتاز النابغة عن صاحبيه بأنه أحسنهم ديباجة شعر وأكثرهم رونق كلام وأجزلهم بيتاً فكأن شعره كلام ليس فيه تكلف . وذلك ظاهر في كل أقواله حتى جرى كثير منها مجرى الامثال واقتبس الشعراء كثيراً من أقواله

أعشى قيس

توفي سنة ٦٢٩ م

اسمه ميمون بن قيس بن جندل من بكر بن وائل من ربيعة وهو أحد الاعلام من شعراء الجاهلية وفحولهم . والبعض يقدمونه على سائرهم اذا طرب كما يتقدم امرؤ القيس اذا غضب والنابغة اذا رهب وزهير اذا رغب ويحتج الذين يقدمونه بكثرة طواله الجياد وتصرفه في المديح والهجاء وسائر فنون الشعر مما ليس لسواه . ويقال إنه أول من سأل بشعره وانتجع به أقاصي البلاد وكان يغني به فسموه صناجة العرب

وقد كان قدري المذهب لما روى عنه :

استأثر الله بالوفاء وبا عدل وولى الملامة الرجلا

ولم يكن يمدح قوماً إلا رفعهم ولم يهج آخرين إلا وضعهم لانه من أسير الناس شعراً وأعظمهم فيه حظاً ويمتاز الأعشى عن شعراء الجاهلية بوصف الخمر إذ قلَّ فيهم من ذكرها أما هو فقد وصفها بقوله :

وأدكن عاتق جحل ربحل صبحت براحه شرباً كراماً
من اللائي حملن على المطايا كريح المسك تستل الزكاما

Digitized by Birzeit University Library

لبيد بن ربيعة

توفي سنة ٦٧٥ م

هو لبيد بن ربيعة العامري (من قيس) وكان من أشراف الشعراء المجيدين والفرسان المعمرين . يقال إنه عمر ١٤٥ سنة عاش معظمها في الجاهلية وقد أدرك الاسلام وأسلم وهاجر وحسن اسلامه ونزل الكوفة أيام عمر بن الخطاب فأقام بها حتى مات في أواخر خلافة معاوية . فكان عمره ١٤٥ سنة منها ٩٠ في الجاهلية . وكانت الشاعرية ظاهرة في عينيه منذ صباه — ذكروا ان النابغة رآه وهو غلام جاء مع أعمامه الى النعمان بن المنذر فتوسم فيه الشاعرية فسأل عنه فنسبوه فقال له « يا غلام ان عينيك لعينا شاعر أفتقرض من الشعر شيئاً » قال « نعم يا عم » قال « فانشدني » فأنشده قوله « ألم ترجع على الدمن الخوالي الخ » . فقال له « يا غلام أنت أشعر بني عامر زدني » فأنشده قوله « طلل لخولة في الرسيس قديم » فضرب بيده على جنبيه وقال « اذهب فأنت أشعر من قيس كلها »

وأكثر شعره في الجاهلية لان الخلفاء الراشدين شغلوا الناس عن الشعر بالقرآن وذكروا أن عمر بن الخطاب بعث الى المغيرة بن شعبة وهو على الكوفة يقول له « استنشد من قبلك من شعراء مصرك ما قالوا في الاسلام » فأرسل الى الاغلب الراجز العجلي فقال له انشدني فقال :

أرجزاً تريد أم قصيدا لقد طابت هيناً موجودا

ثم أرسل الى لبيد فقال « انشدني ما قلته في الاسلام » فكتب صورة البقرة في صحيفة ثم أتى بها وقال « أبدلني الله هذا في الاسلام مكان الشعر » فكتب المغيرة بذلك الى عمر فنقص من عطاء الاغلب خمسمائة وجعلها في عطاء لبيد

ومما يستجاد من قوله قصيدة مطلعها :

ألا كل شيء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل

ويقال انه لم يقل في الاسلام إلا بيتاً واحداً هو :

الحمد لله لما ينتهي أجلي حتى كساني من الاسلام سربالا

Digitized by Birzeit University Library

عمرو بن كلثوم

توفي سنة ٦٠٠ م

هو من قبيلة تغلب وأمه ليلى بنت مهلهل أخي كليب المشهور فهو حفيد مهلهل واشتهرت أمه ليلى بالأنفة وعظم النفس تفاخراً بأبيها . وساد عمرو بن كلثوم قومه تغلب وهو في الخامسة عشرة وقد عمّر طويلاً وكان أعز الناس نفساً وأكرمهم امتناعاً وأنفة وكان شاعراً مطبوعاً اشتهر بمعلقته التي مطلعها :

ألا هبي بصحنك فاصبحينا ولا تبقى خمور الاندرينا

وهي حماسية فخرية يقال انها كانت تزيد على ألف بيت وانما وصل الينا بعضها . وقد نظمها غضباً لأمه وقبيلته من عمرو بن هند صاحب الحيرة . وكان عمرو هذا معجباً بنفسه فقال يوماً للندماء « هل تعلمون أحداً من العرب تأنف أمه من خدمة أمي » فقالوا « نعم أم عمرو بن كلثوم » قال « ولمَ » قالوا « لأن أباها مهلهل ابن ربيعة وعمها كليب بن وائل أعز العرب وبعلها كلثوم بن مالك أفرس العرب وابنها عمرو وهو سيد قومه »

فأرسل عمرو بن هند صاحب الحيرة الى عمرو بن كلثوم يستزيره ويسأله أن يزير أمه أمه . فأقبل ابن كلثوم من الجزيرة الى الحيرة في جماعة بني تغلب وأقبلت ليلى بنت مهلهل في ظعن من بني تغلب . وأمر عمرو بن هند برواقه فضرب فيما بين الحيرة والفرات وأرسل الى أهل مملكته فحضروا في وجوه بني تغلب فدخل عمرو بن كلثوم على عمرو بن هند في رواقه ودخلت ليلى وهند في قبة من جانب الرواق وقد كان عمرو بن هند أمر أمه أن تنحي الخدم اذا دعا بالطرف وتستخدم ليلى . فدعا عمرو بمائدة ثم دعا بالطرف . فقالت هند « ناوليني يا ليلى ذلك الطبق » فقالت ليلى « لتقم صاحبة الحاجة الى حاجتها » فأعادت عليها وألحت فصاحت ليلى « واذلاه يا لتغلب » فسمعها عمرو بن كلثوم فثار الدم في وجهه ونظر الى عمرو بن هند فعرف الشر في عينيه . فوثب عمرو بن كلثوم الى سيف لعمرو بن هند معلق بالرواق ليس هناك سيف غيره فضرب به رأس عمرو بن هند ونادى في تغلب فانتهبوا ما في الرواق وساقوا نجائبه وساروا نحو الجزيرة

فجاشت نفس ابن كلثوم وحمي غضبه وأخذته الأنفة والنخوة فنظم معلقته وفيها إشارة إلى حادثة أخرى جرت له مع عمرو بن هند المذكور على اثر خلاف

Digitized by Birzeit University Library

جرى بين قومه التغلبيين واخوتهم البكريين وتقاضوا الى عمرو هذا . وكان قد أصلح بينهما بعد حرب البسوس وشرط عليهما شروطاً اذا اختصا . فلما جاءوه للمقاضاة كان ابن كلثوم سيد تغلب والنعمان بن هرم سيد بكر . وجرى بين الاميرين جدال بين يدي صاحب الحيرة . وكان هذا يؤثر تغلب على بكر فطرد ابن هرم فنهض ابن كلثوم وأنشد معلقته وكان حاضراً هناك الحارث بن حلزة من بكر وائل فأنشد معلقته . فالغالب أن ابن كلثوم نظم معلقته على مرتين في حادثة أمه وهذه الحادثة ولذلك رأيت فيها إشارة إلى كليهما وقد وقف عمرو بن كلثوم بهذه المعلقة في سوق عكاظ فأنشدها في موسم مكة وكان بنو تغلب يعظمونها ويرويها صغارهم وكبارهم لما حوته من الفخر والحماسة مع جزالتها وسهولة حفظها

الحارث بن حلّزة اليشكري

توفي سنة ٥٨٠ م

هو من بكر وائل وقد اشتهر بين أهل العراق وكان به وضح أي برص وهو قليل النظم وانما اشتهر بمعلقته وهي قصيدة واحدة كما اشتهر بمثلها عمرو بن كلثوم وطرفة بن العبد . وقد تقدم ان الحارث كان في وفد البكريين الذين أتوا عمرو ابن هند وخطيبهم النعمان بن هرم . فلما غضب ابن هند عليه وأوشك أن يقضي لبني تغلب قال الحارث بن حلزة لقومه « اني قلت خطبة فمن قام بها ظفر بحجته وفاز على خصمه » . فروّاها اناساً منهم فلما قاموا بين يدي الملك لم يرضه انشادهم فقال اني لا أرى أحداً يقوم بها مقامي لكني أكره أن أكلم الملك من وراء سبعة ستور وينضح أثري بالماء اذا انصرفت عنه . وكانوا يفعلون ذلك بمن فيه برص وقيل بل كان ابن هند يفعل ذلك لعظم سلطانه ولا ينظر الى أحد به سوء . ثم خاف ابن حلزة على قومه وقال « أنا محتمل ذلك وأقرب من الملك » فقيل لعمرو بن هند « ان به وضحاً » فأمر أن تمد بينه وبين الحارث سبعة ستور . فجعلت . فلما نظر عمرو بن كلثوم قال للملك « أهذا يناطقني وهو لا يطيق صدر راحلته » فاجابه الملك حتى أفحمه . وأنشد الحارث قصيدته التي مطلعها :

آذنتنا ببينها أسماءُ ربَّ ثاوٍ يملُّ منه الثواءُ

وكانت هند أم عمرو صاحب الحيرة تسمع فقالت « تاللهِ ما رأيت كاليوم قط

Digitized by Birzeit University Library

رجلا يقول مثل هذا القول يكلم من وراء سبعة ستور » فقال الملك « ارفعوا ستراً وادنوا الحارث » حتى اذا أزيلت الستور السبعة أقعده الملك قريباً منه وبالغ في اكرامه . وضرب بالحارث المثل بالفخر فقيل « أفخر من الحارث بن حلزة » وخصوصاً لأنهم يزعمون أنه قالها ارتجالا وذلك بعيد لأنه ذكر فيها عدة من أيام العرب عير بعضها بني تغلب تصريحاً وعرض ببعضها لعمرو بن هند فهي من قبيل الملاحم في وصف الوقائع

طرفة بن العبد

توفي سنة ٥٥٠ م

هو أبو عمرو طَرَفة بن العبد من بكر وائل من ربيعة ابن أخت جرير بن عبد المسيح المعروف بالمتلمس وقد نبغ في الشعر من حداثته حتى صار يعد من الطبقة الاولى وتوفي صغير السن . ومع كونه من المقلين فان أشعاره كانت معول أصحاب اللغة في الاستشهاد وكان في صباه عاكفاً على الملاهي يعاقر الخمر وينفق ماله عليها ولكن حبه في قومه جعله جريئاً على الهجاء ومات أبوه وهو صغير فأبى أعمامه أن يقسموا ماله وظلموا حقاً لأمه وردة فنظم في هجائهم قصيدة أبدع فيها مطلعها :

ما تنظرون بحق وردة فيكم صَغرُ البنون ورهط وردة غيّب

واشتهر بالاكثر بمعلقته . ويقال في سبب نظمها ان أخاه معبداً كانت له ابل ضلت فذهب أخوه طرفة الى ابن عمه مالك وأراد منه أن يعينه في طلبها فلامه وانتهره وقال « فرطت فيها ثم أقبلت تتعب في طلبها » فهاجت قريحة طرفة فقال معلقته التي مطلعها :

لخولةَ اطلالٌ ببرقة ثهمدِ تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليدِ

وفيها يشبه حدوج حبيبته بالسفن السابحة في الماء ثم يصف ناقته وصفاً جميلا يوهمك لأول وهلة أنه يصف حبيبته ولكنك لا تلبث أن ترى وصفه الدقيق لكل عضو من أعضائها حتى ذيلها وقلبها ثم ينتقل الى الحكم والموعظة ثم العتاب يعاتب عمه على تعنيفه ويأسف لانه لا يقدر أن يرد تعنيفه لمقامه عنده

ولطرفة حديث مع عمرو بن هند صاحب الحيرة والمتلمس الشاعر كان سبباً لقتله . وذلك : ان طرفة كان في صباه معجباً بنفسه يتخلج في مشيته فمشى تلك

Digitized by Birzeit University Library

المشية مرة بين يدي عمرو بن هند فنظر اليه نظرة كادت تبتاعه من مجلسه . وكان المتلمس حاضراً فلما قاما قال له المتلمس « يا طرفة اني أخاف عليك من نظرته اليك » فقال طرفة « كلاّ » ثم انه كتب لهما كتابين الى المكعبر وكان عامله على البحرين وعمان فخرجا من عنده وسارا حتى اذا هبطا بارض قريبة من الحيرة رأيا فيها شيخاً دار بينهما وبينه كلام نبه المتلمس الى ما قد يكون في الكتاب الذي يحمله من الاذى . ولم يكن يعرف القراءة فاذا هو بغلام من أهل الحيرة يسقي غنيمة له من نهر الحيرة فقال له المتلمس يا غلام اتقرأ قال نعم قال اقرأ هذه فاذا فيها « باسمك اللهم . من عمرو بن هند الى المكعبر اذا أتاك كتابي هذا من المتلمس فاقطع يديه ورجليه وادفنه حياً » فالقى المتلمس الصحيفة في النهر وقال « يا طرفة معك والله مثلها » فقال « كلاّ ما كان ليكتب لي مثل ذلك » ثم أتى طرفة الى المكعبر فقطع يديه ورجليه ودفنه حياً فضرب المثل بصحيفة المتلمس لمن يسعى في حتفه بنفسه

عنترة بن شداد العبسي

توفي سنة ٦١٥ م

هو عنترة بن شداد من قبيلة عبس من قيس وهو من الشعراء الفرسان الشجعان وعشق فهاجت شاعريته واتسع خياله . وأخباره مدونة في قصته المشهورة لكن اكثرها موضوع من قبيل القصص الروائية . اما عنترة فلا شك في وجوده وله حروب وأشعار . والصحيح من خبره أن أمه زبيبة كانت حبشية فلما أنجب ابنها وظهرت مواهبه اعترف به أبوه وألحقه بنسبه على اصطلاحهم في ذلك العصر

وهو أحد أغربة العرب وأمهاتهم اماء وهم ثلاثة عنترة وخفاف بن عمير والسليك ابن السلكة . وشهد عنترة حرب داحس والغبراء وهو شاب ووقعت ملاحاة بينه وبين بني عبس في ابل أخذها من حليف لهم اقتتلوا عليها . وحدثت حروب بين جديلة وثعل وكان عنترة مع جديلة فنصرهم فانتصروا فشكاه الثعلبيون الى غطفان . ووقائعه كثيرة يشتبه فيها الصحيح بالموضوع وهم في اختلاف في سبب قتله . وأحب عبلة بنت عمه ، وهو يذكرها في اكثر اشعاره

ولعنترة أشعار كثيرة تدخل في ديوان كبير ، والرواة مختلفون فيما هو له وما

Digitized by Birzeit University Library

هو موضوع . ومما هو ثابت له المعلقة التي مطلعها :

هل غادر الشعراء من متردم أم هل عرفت الدار بعد توهّم

ويقال في سبب نظمها انه جلس يوماً في مجلس بعد ما كان قد ابلى واعترف به أبوه واعتقه فسابّه رجل من بني عبس ذكر سواده وأمه واخوته . فسبه عنترة وفخر عليه وقال فيما قال له « اني لاحضر البأس ، واوفي المغنم ، واعف عند المسألة ، وأجود بما ملكت يدي ، وافضل الخطة الصماء » قال له الرجل « انا أشعر منك » . قال « ستعلم ذلك » فقال عنترة . يذكر قتل معاوية بن نزال وهي أول كلمة قالها . فبدأ بذكر الديار ديار عبلة وخاطبها يشكو البعد والغرام ثم استأنف الى الفخر والحماسة . وأكثر الرواة ينكرون أن يكون مطلع المعلقة له ومنهم الاصمعي وابن الاعرابي وكلهم يقولون إن أول المعلقة الحقيقي :

يا دار عبلة بالجواء تكلمي وعمي صباحاً دار عبلة واسلمي

ومن غرر القصائد المنسوبة اليه قصيدة يذكر فيها واقعة يوم الفروق مطلعها :

ألا قاتل الله الطلول البواليا وقاتل ذكراك السنين الخواليا

وصف فيها الواقعة وافتخر . وله قصيدة فخيمة يتوعد بها النعمان ويفتخر بقومه كلها حكم وحماسة مطلعها :

لا يحمل الحقد من تعلو به الرتب ولا ينال العلى من طبعه الغضب

قصة عنتر

أما قصته فقد اختلفوا في وضعها . ويظهر لنا أنها وضعت بالتدريج ومعنى ذلك أنهم توسعوا بها وأضافوا اليها رويداً رويداً حتى بلغت ما هي عليه الآن . وكان من عادة المسلمين في صدر الاسلام أن يستنهضوا همم الجند للحرب بتلاوة أخبار الشجعان فرسانهم الجاهليين . وقد رأيناهم يفعلون ذلك في القرن الاول للهجرة في زمن الحجاج بن يوسف سنة ٧٧ في الواقعة التي قتل فيها شبيب عتاب بن ورقاء وزهر بن حوبة . ذكر ابن الاثير أن عتاباً سار في أصحابه قبل المعركة يحرضهم على القتال ويقص عليهم ثم قال : « ابن القصّاص » فلم يجبه أحد فقال : « أين من يروي شعر عنتر » فلم يجبه أحد الخ

فكانوا أولا يروون أشعار عنترة للتحميس ثم صاروا يجمعون أخباره وأحاديثه ويتناقلونها رواية عن الاصمعي وهي تتسع حتى جمعت بمصر في أواخر القرن الرابع للهجرة في زمن الخليفة العزيز بالله الفاطمي وقد جاء في سبب جمعها وتدوينها أن

Digitized by Birzeit University Library

رجلا اسمه الشيخ يوسف بن اسماعيل كان يتصل بباب العزيز بالله فاتفق أن حدثت ريبة في دار العزيز بالله لهجت الناس بها في المنازل والاسواق فساء العزيز ذلك وأشار الى الشيخ يوسف المذكور أن يطرف الناس بما عساه أن يشغلهم عن هذا الحديث . وكان الشيخ يوسف هذا واسع الرواية في أخبار العرب كثير النوادر والاحاديث وكان قد أخذ روايات شتى عن أبي عبيدة ونجد بن هشام وجهينة الاخبار والاصمعي وغيرهم من الرواة فأخذ يكتب قصة عنتر ويوزعها في الناس فأعجبوا بها واشتغلوا بها عن سواها . ومن تلطفه في الحيلة أنه قسمها الى ٧٢ كتاباً والتزم في آخر كل كتاب أن يقطع الكلام عند معظم الامر الذي يشتاق القاريء والسامع الى الوقوف على تمامه . فلا يفتر عن طلب الكتاب الذي يليه فاذا وقف عليه انتهى به مثل ما انتهى في الاول وهكذا الى نهاية القصة . وقد أثبت في هذه الكتب ما ورد من أشعار العرب المذكورين فيها ولكن تداول النساخين أفسد روايتها والقصة مشهورة ومطبوعة مراراً

عبيد بن الابرص الاسدي

توفي سنة ٥٥٥ م

هو من بني أسد من مضر من شعراء الطبقة الاولى قديم الذكر عظيم الشهرة لكن الباقي من شعره أقل من شهرته وكان عبيد لا يقول الشعر في صباه . وذكروا في سبب ما بعثه على النظم انه كان ضيق الرزق قليل المال فأقبل ذات يوم بغنيمة له ومعه أخته ماوية ليوردا غنمها فمنعه رجل من ملك وجهه فانطلق حزيناً مهموماً ثم ابتهل الى الله ان كان فلاناً ظلمني ورماني بالبهتان فادلني منه وانصرني عليه . ووضع رأسه فنام فرأى في المنام ان رجلا أتاه بكبة من شعر ألقاها في فيه ثم قال « قم » فقام وهو يرتجز واستمر بعد ذلك على قول الشعر حتى صار شاعر بني أسد غير مدافع فنظم قصيدته البائية وهي التي تعد من المعلقات ومطلعها :

اقفر من أهله ملحوب[1] فالقطبيات[2] فالذنوب

وهي ٤٨ بيتاً نشرها التبريزي ملحقة بالمعلقات السبع مع قصيدتي الاعشى والنابغة في شرح القصائد العشر . وهو معدود من أصحاب المجمهرات عند صاحب جمهرة اشعار العرب وجمهرته عنده هي نفس هذه المعلقة مع بعض التغيير

(١) ماءة في بلاد العرب (٢) اسم موضع

Digitized by Birzeit University Library

وعمر عبيد طويلا حتى قتله المنذر بن ماء السماء في حديث خلاصته ان المنذر قتل نديمين له من بني أسد وهو غضبان فلما أصبح ندم فبنى على قبريهما ضريحين سماهما الغريين وجعل لنفسه يومين في السنة يجلس فيهما هناك أحدهما يوم نعيم والآخر يوم بؤس . فأول من يطلع عليه في يوم النعيم يعطيه مائة من الابل وأول من يطلع عليه في يوم البؤس يقتله ويطلي بدمه الغريين . فاتفق لعبيد انه أتاه في يوم بؤسه فقتله . وهذا الحديث يشبه ما ذكره عن حنظلة والنعمان لكن في حادثة حنظلة يمثل الوفاء أحسن تمثيل اذ يطلق النعمان حنظلة بضمانة على ان يغيب سنة ثم يعود ليقتل فلما حان الوقت جاء وسأله النعمان عما حمله على المجيء بعد أن نجا بنفسه فقال الوفاء

فلعل الاصل فيها قصة عبيد فزاد عليها العرب وعد حنظلة ووفاءه ليمثلوا بها الوفاء على نحو ما كان يفعل اليونان في الروايات التمثيلية (درام)

ومن أحاسن شعر عبيد قصيدته الدالية التي مطلعها :

أمن دمنة أقوت بجوة(١) صرغد تلوح كعنوان الكتاب المجدَّد

وغير من ذكر عدد كبير من مشاهير الجاهلية والمخضرمين فليراجع اخبارهم من أراد التوسع في تاريخ آداب اللغة العربية « المطول » وقد اشتهر عدد من النساء في الشعر منهن الخنساء وخرنق وليلى وجليلة والاولى أشهرهن وقد عرفت بالرثاء ولها أقوال مشهورة في أخيها صخر من ذلك قصيدتها السينية ومطلعها

يؤرقني التذكر حين أمسي فاصبح قد بايت بفرط نكس

فحول شعراء العصر الاموى

الاخطل

توفي سنة ٩٥ هـ

يكنى أبا مالك واسمه غياث بن غوث بن الصلت من قبيلة تغلب وهو نصراني مثل أكثر تلك القبيلة . والاخطل لقب غلب عليه لسبب اختلفوا فيه . وظهرت الشاعرية في الاخطل منذ حداثته وكان يقيم في الحيرة فدارت مهاجاة بينه وبين كعب بن جعيل شاعر تغلب قبله فغلبه الاخطل وأفحمه فصار هو المقدَّم في شعرائها

(١) الجوة ما انخفض من الارض

Digitized by Birzeit University Library

وكان ينقي شعره فينظم تسعين بيتاً ويختار منها ثلاثين . وسئل حماد عن الاخطل فقال « وما تسألونني عن رجل حبب شعره إليَّ النصرانيـة » وكان الاخطل يشرب الخمر ولا يجيـد النظم إلا اذا شرب . ولـكنه لم ينظم شعراً تستحي العذراء من سماعه

وكان السبب في تقربه الى بني أمية ان معاوية أراد أن يهجو الانصار لاسباب تقدم بيانها فاقترح ابنه يزيد على كعب بن جعيل المشار اليه أن يهجوهم وكان مسلماً فأبى وقال « أدلك على غلام منا نصراني لا يبالي أن يهجوهم كأن لسانه لسان ثور » قال « ومن هو ؟ » قال « الاخطل » فدعاه معاوية وأمره بهجائهم فقال « على ان تمنعني » قال « نعم » فقال قصيدة جاء فيها من الهجو بالانصار قوله :

واذا نسبت ابن القريعة خلته ... كالجحش بين حمارة وحمار
لعن الاله من اليهود عصابة ... بالجزع بين صليصل وصرار
قوم اذا هدر البعير رأيتهم ... حمراً عيونهمو من المسطار
خلوا المكارم لستمو من أهلها ... وخذوا مساحيكم[1] بنو النجار
ان الفوارس يعلمون ظهوركم ... أولاد كل مقبح اكار
ذهبت قريش بالمكارم والعلا ... واللؤم تحت عمائم الانصار

ثم افضت الخلافة الى عبد الملك بن مروان وكان ناقماً على قبائل قيس لانهم نصروا اعداءه فعمد الى تقديم شعراء القبائل الاخرى ليكتسب احزابهم وعلم ان الاخطل شاعر تغلب وله يدٌ في نصرة الامويين على الانصار فقربه واكرمه . وكان عبد الملك بصيراً بالشعر يعجبه شعر الاخطل فيطرب لما يقوله حتى سماه « شاعر بني امية » وبعث بمولى له ينادي على رؤوس الملأ « هـذا شاعر أمير المؤمنين ، هذا شاعر العرب » وكان الاخطل مغرماً بالخمر وحملتـه الدالة على عبد الملك أن يطلب منه ان يسقيه خمراً فغضب عليه وقال « لولا حرمتك لفعلت بك وفعلت » فخرج حتى لقي حماراً شرب عنده وعاد فجاءت قريحته فدخل على عبد الملك ومدحه بقصيدة مطلعها :

خفّ القطين فراحوا منك وابتكروا ... وأزعجتهم نوى في صرفها غيرُ

وقال له عبد الملك مرة « ألا تسلم فنفرض لك في الفيء ونعطيك عشرة آلاف » فقال « وكيف الخمر » قال « وما تصنع بها وان أولها لمرّ وان آخرها لسكرٌ » فقال

(١) لعلها مساحيكم ج مسحاة ما يقشر به الطين وسحا الطين أي قشره

Digitized by Birzeit University Library

« اما اذا فات ذلك فان فيما بين هاتين لمنزلة ما ماسك فيها إلا كلعقه ماء من الفرات بالاصبع » فضحك وتركه على نصرانيته وسهل عليه الدخول والخروج حتى كان يجيء وعليه جبة خز وفي عنقه سلسلة ذهب فيها صليب تنقض لحيته خمراً حتى يدخل على عبد الملك بغير إذن

أما دخوله في الهجاء بين جرير والفرزدق فسببه انه كان مرة عند بشر بن مروان أخي الخليفة وعنده جرير والفرزدق . وكان بشر يرى من السياسة ان يغري بين الشعراء فقال للاخطل « احكم بين الفرزدق وجرير » فقال اعفني ايها الامير » قال « احكم بينهما » فقال « الفرزدق ينحت من صخر وجرير يغرف من بحر » وبلغ ذلك جريراً فلم يعجبه وهجاه بقوله :

ياذا الغباوة ان بشراً قد قضى ألا تجوز حكومة النشوان

فرد عليه الاخطل ثم رد عليه جرير مما يطول ذكره . وكان الاخطل أشهب اللحية له ضفيرتان ومن أحاسن شعره قوله في وصف السكران :

صريع مدام يرفع الشرب رأسه ليحيا وقد ماتت عظام ومفصل
نهاديه أحياناً وحيناً نجره وما كاد الا بالحشاشة يعقل
اذا رفعوا صدراً تحامل صدره وآخر مما نال منها تحمّل

وهو من أصحاب الملحمات وله ملحمة مطلعها :

تغير الرسم من سلمى باقفار وأقفرت من سليمى دمنة الدار

جرير

توفي سنة ١١٠ هـ

هو جرير بن عطية بن الخطفي من كليب بن يربوع (تميم) نشأ في البادية أيام معاوية وهو واسع الخيال قوي الشاعرية مع ميل الى الهجو وكان يفد الى الشام مع من يفد على الخلفاء للاستجداء بالمديح فعرّفه أحدهم الى يزيد بن معاوية وهو أمير وجعل يختلف اليه وهو شاب . فاستلطف يزيد نظمه . واتفق أن يزيد أراد أن يعاتب أباه بشعر فاقتبس أبياتاً من قصيدة لجرير فرفعها الى أبيه عن لسانه وفيها قوله :

بأي سنان تطعن القوم بعد ما نزعت سناناً من قناتك ماضيا

فاعتقد معاوية أن الأبيات لابنه . فلما صارت الخلافة الى يزيد وفد اليه جرير

Digitized by Birzeit University Library

فاستؤذن له مع الشعراء فجاء الجواب « ان أمير المؤمنين يقول لا يصل الينا شاعر لا نعرفه ولا نسمع بشيء من شعره » فقال جرير « قولوا له أنا القائل (وذكر الأبيات) » فأمر بادخاله فلما أنشده القصيدة قال يزيد « لقد فارق أبي الدنيا وما يحسب إلا أني قائلها » وأمر له بجائزة

ولما صارت الخلافة الى عبد الملك بن مروان لم يتجرأ جرير على الوفود عليه لعلمه بغضب عبد الملك على شعراء مضر لأنهم كانوا يمدحون آل الزبير أعداءه (وتميم من مضر) فاحتال حتى قدم على الحجاج وهو أمير العراقين على يد بعض عماله فاعجب الحجاج ببلاغته وشاعريته فاحب أن يقدمه للخليفة وعلم أن عبد الملك سينكر ذلك فأنفذ معه ابنه محمد بن الحجاج فاستقبله عبد الملك بعد الجهد ثم أقبل يعاتبه قائلا « ماذا عسى أن تقول فينا بعد قولك بالحجاج عاملنا :

من سدَّ مطلع النفاق عليكم أو من يصول كصولة الحجاج

ان الله لم ينصرنا بالحجاج وإنما نصر دينه وخليفته » وظهر الغضب في وجه عبد الملك . فتوسط ابن الحجاج في الرضا فاستأذن جرير في الانشاد وأنشد القصيدة التي يقول منها :

ألستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح

فتبسم عبد الملك وقال : « كذلك نحن وما زلنا كذلك » وأمر له بمائة لقحة وثمانية من الرعاء . وصار يفد على عبد الملك من ذلك الحين ويأخذ الجوائز وكانت جائزته اربعة آلاف درهم وتوابعها من الحلان والكسوة

ولما تولى الخلافة عمر بن عبد العزيز وهو لا يرى للشعراء حقاً من العطاء وفد عليه بقصيدة عامرة فاعتذر له ولم يعطه . وتوفي جرير سنة ١١٠ بعد الفرزدق ببضعة اشهر ودفن في اليمامة حيث قبر الاعشي وكان يخنخن في لفظه فيخرج الكلام من انفه او كأن فيها نوناً

واشتهر جرير على الخصوص بمهاجاة الفرزدق وغيره من معاصريه وكان الناس يخافون لسانه . وانتشبت المهاجاة بين جرير والاخطل لسبب ذكرناه في ترجمة الاخطل . والذين هاجاهم جرير كثيرون وربما تهاجى الرجلان قبل ان يتعارفا كما يتناقش الصحفيان او الكاتبان اليوم وبينهما ألوف من الاميال

واحسن اقوال جرير في النسيب قوله :

ان العيون التي في طرفها حور قتلننا ثم لا يحيين قتلانا

Digitized by Birzeit University Library

ومن أحسن شعره قوله يرثي ابنه :

قالوا نصيبك من اجرٍ فقلت لهم كيف العزاء وقد فارقت اشبالي
فارقتني حين كف الدهر من بصري وحين صرت كعظم الرمّة البالي

ومن قوله يرثي امرأته :

لولا الحياء لعادني استعبار ولزرت قبرك والحبيب يزار
ولهت قلبي اذ علتني كبرة وذوو التمائم من بنيك صغار
لا يلبث الاحباب أن يتفرقوا ليل يكر عليهم ونهار
صلى الملائكة الذين تخيروا والطيبون عليكِ والابرار

وهو من أصحاب الملحات ومطلع ملحمته :

حي الغداة برامة الاطلالا رسماً تقادم عهده فأحالا

الفرزدق

توفي سنة ١١٠ هـ

هو من دارم من تميم واسمه همام بن غالب بن صعصعة وكان جده صعصعة وجيهاً يعرف بمحيي الموؤدات وأبوه غالب كان رئيساً في قومه وله مناقب مشهورة . وُلد الفرزدق في البصرة وأقام في باديتها مع أبيه وظهرت فيه ملكة الشعر وهو غلام فجاء به أبوه الى علي بن أبي طالب بعد واقعة الجمل وأخبره انه شاعرٌ فقال « علمه القرآن »

وكان الفرزدق يتشيع لعلي وأهله . والتقى في أواخر أيامه بهشام بن عبد الملك في الحج ورأى هشام هناك علي بن الحسين في غمار الناس فقال « من هذا الشاب الذي تبرق أسرة وجهه كأنه مرآة صينية تتراءى فيها عذارى الحي وجوهها » فقالوا « هذا علي بن الحسين » فنظم الفرزدق قصيدة في مدح علي المذكور مطلعها :

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته والبيت يعرفه والحل والحرم

وبلغ هشاماً خبر القصيدة وهو بين مكة والمدينة فغضب وحبسه هناك فقال :

أتحبسني بين المدينة والتي اليها قلوب الناس يهوى منيها
يقلب رأساً لم يكن رأس سيد وعيناً له حولاء بادٍ عيوبها

فلما بلغ ذلك هشاماً أمر باطلاقه

ولم يكن الفرزدق من مداح بني أمية لانه كان يتشيع لعلي كما رأيت وقد هجا

Digitized by Birzeit University Library

بعضهم ولكنه مدح بعض عمالهم وخصوصاً آل المهلب والحجاج خوفاً منهم

ويعتقد علماء اللغة أن شعر الفرزدق فيه كثير من أساليب العرب وألفاظهم حتى قالوا لولا شعر الفرزدق لذهب ثلث لغة العرب وكان له على الحجاج دالة. وكان من أقرب شعراء ذلك العصر الى الثبات في الرأي فقد طلب يزيد بن عبد الملك بعد قتل يزيد بن المهلب من الشعراء هجو يزيد المذكور فأبى الفرزدق وقال « امتدحت بني المهلب بمدائح ما امتدحت بمثلها أحداً وانما يقبح بمثلي أن يكذب نفسه على كبر السن فليعفني أمير المؤمنين » فأعفاه

ومن أمثال الفرزدق التي تجري مجرى الامثال قوله :

فيا عجباً حتى كليب تسبني كأن أباها نهشل وبجاشع

وقوله وكنا اذا الجبار صعّر خده ضربناهُ حتى تستقيم الاخادع

« وكنت كذئب السوء لما رأى دماً بصاحبه يوماً أحال على الدم

« أحلامنا تزن الجبال رزانة وتخالنا جناً اذا ما نجهل

« فان تبج مني تبج من ذي عظيمة وإلا فاني لا أخالك ناجيا

« ترى الناس ما سرنا يسيرون حولنا وان نحن أومأنا الى الناس وقفوا

وهو من أصحاب الملحات ومطلع ملحمته :

عزفت بأعشاش وما كدت تعزف وأنكرت من حدراء ما كنت تعرف

جميل بن معمر

توفي سنة ٨٢ هـ

هو جميل بن عبد الله بن معمر من عذرة وكان شاعراً فصيحاً مقدماً جامعاً للشعر والرواية اشتهر بحبه بثينة ابنة عمه ولذلك عرف بجميل بثينة وكانا يقيمان في وادي القرى وكان أول عهده بها وهي صغيرة ومن أوائل نظمه فيها قوله :

وأول ما قاد المودة بيننا بوادي بغيض يا بثين سباب

وقلت لها قولاً أجابت بمثله لكل جواب يا بثين جواب

ولم يكن يراها حتى صارت شابة فأخذ ينظم القصائد فيها حتى اشتهر أمره واتفق مرة ان توبة بن الحميّر صاحب ليلى مرّ ببني عذرة فرأته بثينة فجعلت تنظر اليه وجميل حاضر فثارت الغيرة في قلب جميل فقال لتوبة من أنت قال أنا توبة ابن الحمير قال هل لك في الصراع قال ذلك اليك . فأعطته بثينة ملاءة حمراء فأزر

Digitized by Birzeit University Library

بها ثم صارعه فصرعه جميل . ثم قال هل لك في النضال قال نعم فناضله فنضله جميل . ثم قال هل لك في السباق قال نعم فسابقه فسبقه جميل . فقال له توبة « يا هذا انما تفعل ذلك بريح هذه الجالسة ولكن اهبط بنا الوادي » فهبط فصرعه توبة ونضله وسبقه

وكان عند بثينة مثل ما عند جميل ولما رأت مناضلته عنها زادت شغفاً به ولكنهما لم يكونا يجتمعان إلا خلسة على موعد . ولم يكن جميل يخلو من الرقباء لكنهم لم يستطيعوا رميه بريبة . وأخباره معها كثيرة لا يسعها هذا المقام . وما زال يجتمع بها سراً عن أهلها فألحوا بالشكوى عليه الى العامل ففر الى اليمن حتى عزل العامل وانتجع أهل بثينة الشام فرحل جميل اليهم فترصدوه وشكوه الى عشيرته فعنفه أهله وهددوه فانقطع عنها واخيراً لجأ الى مصر وعاملها عبد العزيز بن مروان فأحسن وفادته ومرض هناك ومات . وكان طويل القامة عريض بين المنكبين جميل الخلقة حسن البشرة . ومن قوله فيها :

وإني لأرضى من بثينة بالذي ... لو ابصره الواشي لقرَّت بلابله
بلا وبألاَّ أستطيع وبالمنى ... وبالامل المرجوّ قد خاب آمله
وبالنظرة العجلى وبالحول تنقضي ... أواخره لا نلتقي وأوائله

ومن قوله أبيات ينسبونها الى مجنون ليلى :

وما زلتم يا بثن حتى لو انني ... من الشوق استبكي الحمام بكى ليا
اذا خدرت رجلي وقيل شفاؤها ... دعاء حبيب كنت أنت دعائيا
وما زادني النأي المفرق بعدكم ... سلواً ولا طول التلاقي تقاليا
ولا زادني الواشون إلا صبابة ... ولا كثرة الناهين إلا تماديا
لقد خفت ان ألقى المنية بغتة ... وفي النفس حاجات اليك كما هيا

ومن بديع قوله في النسيب :

لها في سواد القلب بالحب منعة ... هي الموت أو كادت على الموت تشرف
وما ذكرتك النفس يا بثن مرة ... من الدهر إلا كادت النفس تتلف
وما استطرفت نفسي حديثاً لخلة ... اسرُّ به إلا حديثك أطرف

وأكثر شعره فيها وله أبيات في الفخر بليغة منها :

يحب الغواني البيض ظلُّ لوائنا ... اذا ما أتانا الصارخ المتلهف
نسير أمام الناس والناس خلفنا ... فان نحن أومأنا الى الناس وقفوا

Digitized by Birzeit University Library

وكنا اذا ما معشر نصبوا لنا ومرت جواري طيرهم وتعيفوا
وضعنا لهم صاع القصاص رهينة بما سوف نوفيها اذا الناس طففوا

عمر بن ابي ربيعة

توفي سنة ٩٣ ﻫ

هو عمر بن عبدالله بن أبي ربيعة من مخزوم بطن من قريش . وكانت العرب تقر لقريش بالتقدم عليها في كل شيء إلا الشعر حتى ظهر عمر بن أبي ربيعة فأقرت لها به واختص عمر المذكور شعره بوصف النساء ولم يصف سواهن . وكان الاسلام لا يزال في أوائله والمسلمون يستنكفون من التعرض للنساء والتشبيب بهن . ولم يجرأ ابن أبي ربيعة على ذلك إلا لمنزلته في قريش ومع ذلك فقد عدوا شعره ضرراً على الآداب

وقد اقتبس عمر من جميل وقلده . وكان جميل يشبب بحبيبته أما عمر فكان يشبب بكل جميلة ولو لم يكن بينه وبينها مودة . وصار له في التشبيب طريقة عرفت باسمه تحداها الشعراء . ولما سمع الفرزدق تشبيبه قال « هذا الذي كانت الشعراء تطلبه فاخطأته وبكت الديار ووقع هذا عليه » وكانوا لذلك يعدونه أنسب الناس وأوصف الشعراء لربات الجمال . وكان يقيم بمكة فاذا آن الحج اعتمر في ذي القعدة ولبس الحلل الفاخرة وركب النجائب المخضوبة بالحناء ، عليها القطوع والديباج وسبل لمته ولقي العراقيات فيما بينه وبين ذات عرق محرمات ويتلقى المدنيات الى مرو ويتلقى الشاميات الى الكديد . ويتعرض للحجاج فيشبب بشهيرات النساء اللواتي يقدمن الى مكة وهن في مشاعر الحج أو ينظر اليهن وهن في الطواف فيرى منهن مالا يراه في الخارج فيصفهن . فتعرض لاشهر نساء العرب وأجملهن وفيهن جماعة من كبار القوم وفي جملتهن فاطمة بنت عبد الملك بن مروان الخليفة ولكنه لم يكن يذكر اسمها خوفاً من أبيها ومن الحجاج

وكان أبوها قد بعث اليه يتوعده اذا ذكرها ، فلما عادت من الحج قال فيها :

كدت يوم الرحيل أقضي حياتي ليتني مت قبل يوم الرحيل
لا أطيق الكلام من شدة الخو ف ودمعي يسيل كل مسيل
ذرفت عينها وفاضت دموعي وكلانا يلقى بلب أصيل

Digitized by Birzeit University Library

عمدة الشعراء في العصر العباسي

بشار بن برد

توفي سنة ١٦٧ هـ

هو فارسيٌ أصل آبائه من طخارستان أخذ أبوه برد في سبي وقع في يدي المهلب بن أبي صفرة فكان من فيء القشيرية امرأة المهلب . فأقامته في ضيعة لها بالبصرة مع عبيدها ثم زوجته وأهدته الى امرأة عقيلية كانت صديقة لها فولد له بشار . وأعتقته العقيلية فصار مولى بني عقيل . ونشأ في البصرة ثم قدم بغداد بعد أن بناها المنصور

ولد بشار اعمى جاحظ الحدقتين يغشاها لحم أحمر . وكان ضخما طويلا عظيم الخلق والوجه مجدراً . وكان اطبع شعراء ذلك العصر على الشعر وقد قوّى العمى شاعريته لانصراف المخيلة الى التصور ـ ولذلك رأيت اكثر العميان من الشعراء يفوقون معاصريهم في سعة الخيال مثل هوميروس اليوناني وملتن الانكليزي وبشار وابي العلاء وغيرهما عند العرب

جاء بشار في اوائل العصر العباسي الاول فكان في مقدمة الذين نبغوا فيه فهو مقدم عليهم باجماع الرواة ورئيسهم بلا خلاف . قال الجاحظ « المطبوعون على الشعر بشار والسيد الحميري وابو العتاهية وابن ابي عيينه ولكن بشاراً اطبعهم » وقد عاصر أواخر الدولة الاموية وأوائل العباسية . وقال الشعر وهو ابن عشر سنين وادرك جريراً والفرزدق . وهجا جريراً فاعرض جرير عنه استخفافاً ـ قال بشار « ولو هاجاني لكنت اشعر الناس » فظل نحو ثمانين سنة وهو ينظم الشعر فمدح وهجا ونال الجوائز . وبلغ ما نظمه نحو ١٢ ٠٠٠ قصيدة ولذلك جاهر بين يدي أهل الادب أن له ١٢ ٠٠٠ بيت جيد . فقالوا له « هذا القدر لا يجتمع لكل الشعراء » فقال « لي ١٢ ٠٠٠ قصيدة ألا يكون لي بيت جيد من كل قصيدة ؟ » ولم يبق من هذه القصائد الى ايام ابن النديم صاحب الفهرست الا ٤٠ ٠٠٠ بيت وليس منها الآن إلا نتفٌ متفرقة في كتب الادب . ويقال ان اكثر الناس شعراً في الجاهلية والاسلام ثلاثة بشار وأبو العتاهية والسيد الحميري

ويمتاز بشار بانه تصرف وتفنن في معاني الشعر شيئاً كثيراً . وراج شعره في

Digitized by Birzeit University Library

أيامه بالبصرة حتى لم يبق غزل ولا غزلة الا ويروي من شعر بشار ولا ناشئة ولا مغنية إلا تتكسب به ولا ذو شرف الا وهو يهابه ويخاف معرة لسانه . وبشار مثل امرىء القيس فهو عندهم امام الشعراء المحدثين وقد قالوا ذلك أيضاً في ابي نواس ولكن بشاراً أسبق . وكان عند قيام الدولة العباسية منحازاً للعلويين وكان ابراهيم بن عبد الله بن الحسن ناهضاً على المنصور . فنظم بشار قصيدة حرض بها ابراهيم على الفتك بالمنصور ومطلعها :

أبا جعفر ما طول عيش بدائم ولا سالم عما قليل بسالم

ثم علم بفوز المنصور وقتله ابراهيم المذكور فقلب الكنية واظهر انه قال القصيدة في ابي مسلم الخراساني فقال :

ابا مسلم ما طول عيش بدائم ولا سالم عما قليل بسالم

وفي هذه القصيدة ابيات حكمية في غاية البلاغة منها

اذا بلغ الرأي المشورة فاستعن برأي نصيح أو نصيحة حازم
ولا تجعل الشورى عليك غضاضة فان الخوافي قوة للقوادم
وما خير كفٍّ امسك الغلُّ اختها وما خير سيف لم يؤيد بقائم
وخلّ الهوينا للضعيف ولا تكن نؤوماً فان الحزم ليس بنائم
وحارب اذا لم تعطَ إلا ظلامة شبا الحرب خيرٌ من قبول المظالم

ثم انتقل الى بغداد ومدح العباسيين وعاصر المهدي . ومدح خالد بن برمك جد البرامكة وكان كلما وفد عليه أعطاه خمسة آلاف درهم ثم زادها له . ومن قوله بيتان أمر خالد ان يكتبا في صدر مجلسه وهما :

أخالد ان الحمد يبقى لاهله جمالاولا تبقى الكنوز على الكدّ
فاطعم وكلْ من عارة مستردة ولا تبقها ان العواري للردّ

وأخبار بشار كثيرة بسطها صاحب الاغاني في ٦٠ صفحة من الجزء الثالث من كتابه . ولم يدع بشار باباً من ابواب الشعر الا طرقه وأجاد فيه ومن قوله في الغزل :

لم يطل ليلي ولكن لم انم ونفى عني الكرى طيفٌ ألمْ
واذا قلت لها جودي لنا خرجت بالصمت عن لا ونعم
نفّسي يا عبد عني واعلمي انني يا عبد من لحم ودم
ان في برديَّ جسما ناحلا لو توكأت عليه لانهدم

Digitized by Birzeit University Library

خَتْم الحب لها في عنقي موضع الخاتم من اهل الذمم

ومن قوله :

اذا كنت في كل الامور معاتباً صديقك لم تلقَ الذي لا تعاتبه
فعش واحداً أو صل أخاك فانه مقارف ذنب مرة ومجانبه
اذا انت لم تشرب مراراً على القذى ظمئت وأيُّ الناس تصفو مشاربه

ومن الغزل قوله :

يزهدني في حب عبدة معشرٌ قلوبهم فيها مخالفة قلبي
فقلت دعوا قلبي وما اختار وارتضى فبالقلب لا بالعين يبصر ذو الحبِ
فما تبصر العينان في موضع الهوى ولا تسمع الاذنان إلا من القلبِ

وكان بشار من أصحاب الفلسفة المتحيرين في الدين ويعتقدون أن الانسان مسوق لا مخير يدل على ذلك قوله :

طبعت على ما فيَّ غير مخيرٍ هواي ولو خيرت كنت المهذبا
أريد فلا أعطى وأعطى فلم أرد وقصر علمي أن أنال المغيبا
فاصرف عن قصدي وعلمي مقصر وأمسي وما أعقبت إلا التعجبا

وقد تقدم خبر انحرافه عن بني العباس ولم يغنه تنير مطلع تلك القصيدة شيئاً فان المنصور سكت عنه وما زال يعتقد انحرافه عنهم قلبياً . ولذلك ظل في خاطره شيء عليه . وكان المهدي بعده يظهر له فتوراً فغضب بشار ومدح وزيره يعقوب بن داود فلم ينفعه . فهجاه ببيتين كانا سبب موته وهما :

بني أمية هبوا طال نومكم ان الخليفة يعقوب بن داود
ضاعت خلافتكم ياقوم فالتمسوا خليفة الله بين الزق والعود

فبعث المهدي اليه صاحب الزنادقة فضربه حتى مات . ولم يخرج في دفنه أحد لأنه مات وخصمه الخليفة — وربما كان هذا هو السبب أيضاً في خمول اسمه مع تبرزه في الشعر

السيد الحميري

توفي سنة ١٧٣ ﻫ

اسمه يدل على انه من حمير نزل البصرة وكان شاعراً متقدماً مطبوعاً . وقد تقدم أنه هو وبشار وأبا العتاهية أكثر الناس شعراً في الجاهلية والاسلام . وبلغ

Digitized by Birzeit University Library

منظومه ٢٣٠٠ قصيدة ولم يصلنا منها ما يستحق الذكر . وقد خمل ذكره لانه كان يسب الصحابة لتشيعه لعلي فتحومي شعره وتخوف الناس منه . أما من حيث الشاعرية فله طراز ومذهب قلما يلحق فيه . وكان أسمر اللون تام القامة أشنب ذا وفرة حسن الالفاظ جميل الخطاب . اذا تحدث في مجلس قوم أعطى كل رجل من المجلس نصيبه من حديثه ويعده بعضهم من طبقة بشار وأنهما أشعر المحدثين . ويمتاز عن سائرهم انه كان يكره الاستجداء بالشعر وقد نظم في ذلك أبياتاً وهي :

أيها المادح العباد ليعطى ... ان لله ما بأيدي العباد
فاسأل الله ما طلبت اليهم ... وارج نفعَ المنزّل العواد
لا تقل في الجواد ما ليس فيه ... وتسمي البخيل باسم الجواد

فلما سمع بشار قوله قال « لولا أن هذا الرجل شغل عنا بمدح بني هاشم لشغلنا ولو شاركنا في مذهبنا لتعبنا » ومن شعره في مدح بني هاشم لما استقرّ الامر لابي العباس السفاح قوله :

دونكوها يا بني هاشم ... فجددوا من عهدها الدارسا
دونكوها فالبسوا تاجها ... لا تعدموا منكم له لابسا
لو خبر المنبر فرسانه ما ... اختار الا منكم فارسا
قد ساسها قبلكم ساسة ... لم يتركوا رطباً ولا يابسا
ولست من أن تملكوها الى ... مهبط عيسى فيكم آيسا

ومن قوله في ذم الصحابة :

قل لابن عباس سميّ محمد ... لا تعطين بني عديّ درهما
احرم بني تيم بن مرة انهم ... شرُّ البرية آخراً ومقدما
ان تعطهم لا يشكروا لك نعمة ... ويكافئوك بأن تذم وتشتما
وان ائتمنتهم أو استعملتهم ... خانوك واتخذوا خراجك مغنما
ولئن منعتهم لقد بدءوكم ... بالمنع اذ ملكوا وكانوا أظلما
منعوا تراث محمد أعمامه ... وبنيه وابنته عديلة مريما

وله في مدح العلويين ما يدل على حرية في القول . ومن أدلة ترفعه عن الجوائز ان الرشيد أعطاه جائزة ففرقها

Digitized by Birzeit University Library

أبو نواس

توفي سنة ١٩٨ هـ

هو الحسن بن هانىء ولد في الاهواز سنة ١٤٥ هـ في خلافة أبي جعفر المنصور وكانت أمه اهوازية اسمها جلبان وكان أبوه دمشقياً من جند مروان بن محمد آخر ملوك بني أمية أنفذه مروان الى الاهواز فلقي جلبان فأحبها وتزوجها فولدت له أولاداً منهم ابو نواس وابو معاذ . وقبل أن يتجاوز ابو نواس السنة الثانية من عمره انتقل والده إلى البصرة فنشأ فيها . ولم يكن والداه في سعة أو لعل والده مات وترك أولاده في كفالة أمهم فاسلمت ابا نواس إلى عطار يتخرج عنده في مهنة العطارة ولكن نفسه كانت تميل إلى غير هذه الصناعة . وكان إذا قرأ شعراً ارتاحت نفسه إلى معانيه . وقامت فيه رغبة في النظم . فاذا اجتمع بأديب أو راوية أو شاعر أو حضر مجلس أدب وسمع شعراً أحب ناظمه وتمنى ان يراه . وكان في جملة من سمع أشعارهم وأحب الاجتماع بهم والبة بن الحباب وكان ظريفاً غزلاً وصّافاً للشراب . واتفق ان والبة قدم الاهواز ليمدح أبا بجير الأسدي عامل المنصور عليها فمر بذلك العطار فلقي أبا نواس وكان جميل الصورة ذكياً فتوسم فيه النباهة فجالسه وخاطبه فآنس فيه قريحة وقادة فقال له : « ان فيك مخايل أرى ألا تضيعها وستقول الشعر فهل تصحبني أخرّجك » ولم يكن ابو نواس يعرف مخاطبه فقال ومن أنت . قال : « انا أبو اسامة والبة بن الحباب » فقال : « نعم . انا والله في طلبك ولقد أردت الخروج إلى الكوفة بسببك لآخذ عنك وأتبع منك » فسار أبو نواس معه إلى الكوفة ثم قدما بغداد

وكان والبة وبعض شعراء تلك الايام وندمائه يجتمعون كل ليلة على الشراب وقول الشعر لا يكادون يفترقون فيهجو بعضهم بعضاً هزلا وجداً ويصفون الخمر وغيرها . وكان أبو نواس يحضرهم فيسمع ويعي ويزداد كل يوم علماً ودربة وكان يختلف الى أبي زيد الانصاري فتعلم منه غريب الالفاظ وتردد على أبي عبيدة معمر بن المثنى فتعلم منه أيام الناس ونظر في نحو سيبويه حتى أصبح في الطبقة الاولى من المولدين وشعره عشرة أنواع أجاد فيها كلها . وأحسن علم اللغة وفروعها حتى قال فيه الجاحظ « ما رأيت رجلاً أعلم باللغة من أبي نواس ولا أفصح لهجة مع مجانبة الاستكراه » وقال معمر بن المثنى « كان أبو نواس للمحدثين كامرىء القيس للمتقدمين »

Digitized by Birzeit University Library

ويروى عن أبي نواس أنه قال « ما قالت الشعر حتى رويت لستين امرأة من العرب منهن الخنساء وليلى فما ظنك بالرجال » وقال ابن السكيت « اذا رويت من أشعار الجاهليين فلا مرىء القيس والأعشى ومن الاسلاميين فلجرير والفرزدق ومن المحدثين فلابي نواس فحسبك » وهو يعد أيضاً من الشعراء المجّان

وقد قدمنا في كلامنا عن مزايا الشعر في العصر العباسي الاول ماكان لابي نواس من الفضل في تغيير طريقته والتوسع في معانيه فهم يعدونه إمام هذه الطريقة . ولذلك فهو يمتاز بتصرفه في الشعر عن طريقة القدماء ـ كان عندهم للشعر ألفاظ محدودة وأساليب معينة فتجاوزها كما تجاوزها الأعشى قبله ولكن تقرب أبي نواس من الخلفاء ونفوذه عندهم ساعد على نشر طريقته فصار الشعراء يتحدونه فيها شأنهم في تحدى كل وجيه نافذ الكلمة . ولذلك قالوا « الناس على دين ملوكهم » . واذا تدبرت تاريخ الاجتماع رأيت ذلك قاعدة في سائر أحوال الحياة

ووصف شعر أبي نواس لا تفي به صفحة أو بضع صفحات . وهو أول من توسع في وصف الخمر والتغزل بالغلمان . وفي ديوانه المطبوع بمصر صفحات عديدة من نظمه في هذين البابين فضلاً عن تغزله بجارية أحبها اسمها جنان . وقد أشرنا الى تهتكه في جملة متهتكي ذلك العصر ولعله أكثرهم انغماساً في اللهو على أنواعه طمعاً منه بعفو الله على حد قوله :

تكثر ما استطعت من الخطايا فانك بالغ رباً غفورا
ستبصر ان وردت عليه عفواً وتلقى سيداً ملكاً كبيرا
تعض ندامة كفيك مما تركت مخافة النار السرورا

ومن لطيف نظمه في مدح محمد الامين قوله يمدح ناقته :

وتجشمت في هول كل تنوفة هوجاء فيها جرأة اقدام
تذر المطيّ وراءها فكأنها صف تقدمهن وهي أمام
واذا المطيّ بنا بلغن محمداً فظهورهن على الرجال حرام

وعابوا عليه المبالغة في مدح الرشيد لقوله :

وأخفتَ أهل الشرك حتى انه لتخافك النطف التي لم تخلق

ومن قوله في وصف الخمر :

وندمان سقيت الراح صرفاً وستر الليل منسدل السجوف
صفت وصفت زجاجتها عليها كمعنى دق في ذهن لطيف

Digitized by Birzeit University Library

وقوله : مدام تبدت من مقام مشرف تلوح لنا أنوارها ثم تختفي
ولما شربناها ودبّ دبيبها الى موضع الاسرار قلت لها قفي
مخافة ان يسطو عليّ شعاعها فيطلع جلاسي على سري الخفي

وقوله : معتقة صاغ المزاج لرأسها أكاليل در ما لناظمها سلكُ
جرت حركات الدهر فوق سكونها فذابت كذوب التبر أخلصه السبك
وقد خفيت من لطفها فكأنها بقايا يقين كاد يذهبها الشك

وهي كثيرة ويناسب ذلك وصفه للأقداح وما عليها من النقوش كقوله :

تدور علينا الراح في عسجدية حبتها بألوان التصاوير فارس
قرارتها كسرى وفي جنباتها مهاً تدَّريها بالقسيّ الفوارس
فالخمر ما زرت عليه جيوبها وللماء ما حازت عليه القلانس

ويظهر أنه كان مطلعاً على أقوال الأوائل المنقولة الى العربية ولا سيما علم النجوم والطبيعيات بدليل قوله وفيه إلمام بالفلك :

ألم ترَ الشمس حلت الحملا وقام وزن الزمان فاعتدلا
وغنت الطير بعد عجمتها واستوفت الخمرُ حولها كملا

ومما يدل على معرفته علم الطبائع قوله :

قل لزهير اذا حدا وشدا أقلل وأكثر فأنت مهذارُ
سخنت من شدة البرودة حتى صرت عندي كأنك النار
لا يعجب السامعون من صفتي كذلك الثلج باردٌ حار

وفي ذلك إشارة الى نظر أهل الهند في الطبائع فهم يزعمون أن الشيء اذا زاد في البرد عاد حاراً . ومن أقوالهم : « ان الصندل الابيض إذا أفرط في حكه عاد حاراً مؤذياً » . ومما يدل على إلمامه بخرافات اليونان والفرس قوله من قصيدة يمدح بها يحيى بن خالد :

صورة المشتري لدى بيت الـ ـليل والشمس أنت عند انتصابِ
ليس زاويش حين سار أمام الـ ـحوت والبدر اذ هوى لانصباب
منك أسخى بما تشع به الأ نفس عند انتقاص درّ الحلاب
لا وبهرام تستقلّ به العـ ـقرب بالليل رائداً في الحساب
منك أمضى لدى الحروب ولا أهـ ـول في العين عند ضرب الرقاب

مكتبة
Digitized by Birzeit University Library

واختلفوا في سنة وفاته والارجح أنها سنة ١٩٨ هـ ولو أردنا الاتيان بأمثلة من نظمه لضاق المقام مع شيوع ديوانه . وقد جمعه غير واحد وهو مطبوع غير مرة

أبو العتاهية

توفي سنة ٢١١ هـ

هو مولى وإسمه إسماعيل بن القاسم من سويد بن كيسان . وُلد بعين التمر سنة ١٣٠ هـ ونشأ في الكوفة وكان في أول أمره يتخث فيحمل زاملة المخنثين . ثم اشتغل بصناعة أبيه فجعل يصطنع الجرار ويحملها في قفص على ظهره ويدور في الكوفة ويبيع منه . ولكنه أحس من حداثته باقتداره على النظم . وكان الشعر يومئذ ديوان الناس وموضوع أحاديثهم وحيثما اجتمعوا تناشدوه وتذاكروا فيه

فاتفق يوماً وهو يدور بقفص الجرار أنه مر بفتيان جلوس يتذاكرون الشعر ويتناشدونه فسلم ووضع القفص عن ظهره ثم قال : « يا فتيان أراكم تتذاكرون الشعر أفأقول شيئاً منه فتجيزونه ؟ فان فعلتم فلكم عشرة دراهم » فهزأوا منه وسخروا به لكنهم قالوا « نعم » قال : « لا بد أن يشترى بأحد القمرين رطب يؤكل فانه قمر حاصل » وجعل رهنه تحت أيديهم وقال أجيزوا :

ساكني الاجداث أنتم

وجعل بينه وبينهم وقتاً في ذلك الموضع وعين نقطة إذا بلغتها الشمس ولم يجيزوا البيت غرموا الخطر . فلما أعياهم ذلك جعل يهزأ بهم ويتممه :

ساكني الاجداث أنتم مثلما بالأمس كنتم
ليت شعري ما صنعتم أربحتم أم خسرتم

وهي قصيدة من شعره طويلة . فخجل الفتيان وأذاعوا خبره في الكوفة فجعل أدباؤها وطلاب الشعر من فتيانها يأتونه الى معمله يستنشدونه فينشدهم أشعاره فيأخذون ما تكسر من الخزف فيكتبونها فيه

ثم وفد على بغداد في أول خلافة المهدي وأنشده قصيدة مطلعها :

ألا ما لسيدتي مالها أدلت فأجمل ادلالها

وكان بشار بن برد حاضراً فاستخف بها حتى اذا وصل الى قوله :

أتته الخلافة منقادة اليه تجرر أذيالها
فلم تك تصلح إلا له ولا يك يصلح إلا لها

Digitized by Birzeit University Library

ولو رامها احـد غيره لزلزلت الارض زلزالها
ولو لم تطعه بنات القلو ب لما قبـل الله اتمالها

قال بشار لجار له : « انظر ويحك هل طار الخليفة عن فرشه » وصار ابو العتاهية من المقربين . وكان المهدي يراعي خاطره ويكرمه فأحرز نفوذاً عظيماً عنده حتى كثيراً ما كان يتوسط بالعفو لديه . ولما توفي المهدي خلفه الهادي وكان واجداً عليه لانه كان يلازم أخاه الرشيد فهنأه ابو العتاهية بقصيدة يتقرب بها اليه مطلعها :

ألا شافع عنـد الخليفة يشفع فيدفع عنـا شر ما يتوقع

فأذن بادخاله . ولم تطل مدة الهادي فخلفه الرشيد وكان أبو العتاهية قد عاهد نفسه ألا يقول شعراً فألزمه الرشيد على القول فأطاعه فحظي عنده حظوة كبيرة حتى كان لا يفارقه في حضر ولا سفر وعين له راتباً مقداره ٥٠٠٠٠ درهم سوى الجوائز منه ومن أمرائه ووزرائه. وكان بعض هؤلاء يجرون عليه الرواتب الشهرية أو السنوية

وكان أبو العتاهية سوداوي المزاج كثير التردد في أمر الدين فتقلب على أطوار شتى — شأن الذين يحلون أنفسهم من قيود الدين وينظرون فيه نظر الناقد . فاستقر رأي أبي العتاهية أخيراً على التمسك بالاسلام والزهد عن الدنيا فأمره الرشيد أن يقول الشعر فأبى فحبسه وضربه ثم أطلقه شفقة عليه . وله غزل كثير في عتبة جارية المهدي

وهو من مؤسسي الانقلاب الشعري في هذا العصر وقد أطلق نفسه من التقليد بالمعاني والالفاظ فأتى بمعان جديدة ونظم على أوزان لا تدخل في العروض ولم يتقدمه فيها أحد ولم يتهيب مما يتهيب له كثيرون من شعرائنا خوفاً من الرجوع عن التقليد . قعد يوماً عند قصار فسمع صوت المدقة فحكى ذلك في أبيات شعره فقال :

للمنون دائرا ت يدرن صرفها
هن ينتقينـا واحداً فواحدا

ومن مخترعاته في المعاني قوله :

الناس في غفـلاتهم ورحى المنية تطحن

وقوله لاحمد بن يوسف :

ألم تر أن الفقر يرجى له الغنى وأن الغنى يخشى عليه من الفقر

وقوله في موسى الهادي :

ولمـا استقـلوا بأثقالهم وقد أزمعوا للذي أزمعوا
قرنت التفاتي بآثارهم وأتبعتهم مقـلة تدمع

Digitized by Birzeit University Library

وقوله :

هب الدنيا تصير اليك عفواً أليس مصير ذاك الى زوال

ومن لطيف معانيه قوله :

اذا المرء لم يعتق من المال نفسه تملكه المال الذي هو مالكه
ألا انما مالي الذي أنا منفق وليس لي المال الذي أنا تاركه

وذكروا له أرجوزة حكيمة في بضعة آلاف بيت منها :

حسبك مما تبتغيه القوت ما أكثر القوت لمن يموت
الفقر فيما جاوز الكفافا من اتقى الله رجا وخافا

ومع ذلك فالاصمعي يقول « شعر أبي العتاهية كساحة الملوك يقع فيها الجوهر والذهب والتراب والخزف والنوي »

وكان أبو العتاهية أبيض اللون أسود الشعر نظيف الثياب له وفرة جعدة وهيأة حسنة ولباقة وحصافة . وكان سيال القريحة سريع الخاطر لطيف المعاني سهل الالفاظ . فقد سأله بعضهم كيف تقول الشعر قال « ما أردته قط إلا مثل لي فأقول ما أريد وأترك ما لا أريد »

وقد نظم في كل أبواب الشعر وامتاز منها بالزهد . ويؤخذ من سيرة حياته انه كان متردداً متقلباً ويغلب ذلك في طباع الشعراء لانهم أهل خيال وأوهام وخصوصاً الذين يستجدون بشعرهم فانهم يتقلبون مع الاهواء ويسعون وراء النفع حيثما كان . على ان تمنع أبي العتاهية عن قول الغزل بعد أن أمره به الرشيد يخالف هذه القاعدة ولكن لعل له سبباً حمله على ذلك

وأما تقلبه فظاهر من تذبذبه في الدين كما تقدم . وانه كان اذا اختص ببعض الامراء ادعى ولاء قبيلته ـ فقد كان طول حياة يزيد بن منصور يدعي انه مولى لليمن وينتفي من عنزة . فلما مات يزيد رجع الى ولائه . وعاتبه بعضهم في ذلك وقال له « ألم تكن تزعم ان ولاءك لليمن » قال « ذلك شيء احتجنا اليه في ذلك الزمن . وما في واحد انتميت اليه خيرٌ ولكن الحق أحق ان يتبع » . وكان مع ما جمعه من الاموال بخيلاً وله حوادث كثيرة تدل على شدة بخله

Digitized by Birzeit University Library

أبو تمام

توفي سنة ٢٣١ هـ

هو عربيٌ من طي واسمه حبيب بن أوس الطائي ولد في منبج من بلاد الشام وجاء مصر صغيراً . وكان يسقي الماء في الجامع ثم جالس الادباء وأخذ عنهم وتعلم . وكان فطناً فهماً يحب الشعر فلم يزل يعانيه حتى أجاده وسار شعره وشاع ذكره في بغداد بؤرة الادب في ذلك الحين وخليفتها المعتصم وقد التفت حوله حلقة من الشعراء فبعث في طلب ابي تمام فنظم فيه القصائد فاجازه وقدمه على شعراء وقته . فلم يعد يقدر أحد منهم أن يأخذ درهماً بالشعر في حياته . فلما مات اقتسم الشعراء ماكان يأخذه . وقد امتاز بمذهب في المطابق سبق به الشعراء وان كانوا قد فتحوه قبله وقالوا القليل منه فأن له فضل الاكثار فيه والسلوك في جميع طرقه

وهو من المقدمين بحسن الديباجة ورقة العبارة وفي اجادة الرثاء ومطلع قصيدته التي رثى بها محمد بن حميد الطوسي لا يزال الراثون والمؤبنون يتمثلون به الى اليوم وهو :

ألا فليجل الخطب وليفدح الامر وليس لعين لم يفض ماؤها عذر

وذكر صاحب الاغاني أن كثيراً من أبيات هذه القصيدة مسروق من قصيدة مكنف ابي سلمى من ولد زهير بن أبي سلمى هجا فيها ذفافة العبسي وذكر أبياتاً منها .

ومن مراثيه قوله يرثي ابنين صغيرين لعبد الله بن طاهر ماتا معاً :

لهفي على تلك الخايل منهما لو امهلت حتى تكون شمائلا
لغدا سكونهما حجى وصباها حلماً وتلك الاريحية نائلا
ان الهلال اذا رأيت نموه ايقنت أن سيكون بدراً كاملا

ومن مدائحه قوله :

سود اللباس كأنما نسجت لهم ايدي السموم مدارعاً من قار
بكروا واسروا في متون ضوامر قيدت لهم من مربط النجار
لا يبرحون ومن رآهم خالهم ابداً على سفر من الاسفار

ولأبي تمام وصية في كيفية النظم أوصى بها أبا عبادة البحتري بين فيها أحسن الوسائل لاجادة النظم قال « تخير الاوقات وأنت قليل الهموم صفر من الغموم .

Digitized by Birzeit University Library

واعلم ان العادة في الاوقات ان يقصد الانسان لتأليف شيء او حفظه في وقت السحر وذلك ان النفس قد أخذت حظها من الراحة وقسطها من النوم فان اردت النسيب فاجعل اللفظ رقيقاً والمعنى رشيقاً واكثر فيه من بيان الصبابة وتوجع الكآبة وقلق الاشواق ولوعة الفراق واذا أخذت في مدح سيد ذي أياد فاشهر مناقبه واظهر مناسبه وابن معالمه وشرف مقامه وتقاض المعاني واحذر المجهول منها وإياك ان تشين شعرك بالالفاظ الزرية . كن كأنك خياط يقطع الثياب على مقادير الاجسام واذا عارضك الضجر فأرح نفسك ولا تعمل الا وأنت فارغ القلب . واجعل شهوتك لقول الشعر الذريعة الى حسن نظمه فان الشهوة نعم المعين . وجملة الحال ان تعتبر شعرك بما سلف من شعر الماضين فما استحسنته العلماء فاقصده وما تركوه فاجتنبه ترشد ان شاء الله تعالى »

ديوان الحماسة

وله فضل على معاصريه من الشعراء انه لم يكتف بما نظمه من ضروب الشعر لكنه جمع مختارات من أشعار العرب الجاهلية وغيرهم في كتاب سماه الحماسة وتعرف بحماسة أبي تمام تميزاً لها من حماسة البحتري . حمله على جمعها انه نزل عند صاحب له في همذان اسمه ابن سلمة فأكرمه فأصبح ذات يوم وقد وقع ثلج كثير قطع السابلة فمن ابي تمام وفرح ابن سلمة وقال « وطن نفسك على البقاء ان الثلج لا ينحسر إلا بعد زمان » واحضر له خزانة كتب فطالعها واشتغل بها وصنف خمسة كتب في الشعر منها كتاب الحماسة والوحشيات وهي قصائد طوال . فبقي كتاب الحماسة في خزائن آل سلمة يضنون به ولا يكادون يبرزونه لاحد حتى تغيرت احوالهم وورد من همذان رجل من أهل دينور يعرف بابي العوازل فظفر به وحمله الى اصبهان . فأقبل ادباؤها عليه ورفضوا ما عداه من الكتب المصنفة في معناه فشهر فيهم وقد شرحه كثيرون

ومن أحسن الشروح شرح الخطيب التبريزي المتوفي سنة ٥٠٢ هـ وقد طبع بمصر سنة ١٢٩٦ في أربعة أجزاء كبار بين فيها اشتقاق أسامي شعراء الحماسة وغيرهم وتفسير كل بيت وما فيه من الغريب والاعراب وايراد الاخبار من أماكنها . وطبعت الحماسة بلا شرح في الهند سنة ١٨٥٦ ولها شرح للمرزوقي وآخر لابي العلاء المعري وآخر لابن جني منها نسخ خطية في دار الكتب المصرية وفي غيرها

Digitized by Birzeit University Library

وقد عني في طبع الحماسة مع شرح التبريزي أيضاً فريتاغ في مجلدين مع ترجمة وشروح لاتينية . ظهر المجلد الاول سنة ١٨٢٨ والثاني ١٨٥١ في بون . وقد ترجمها الى الالمانية فردريك روكرت وطبعت مع الاصل في مجلدين في ستتغارت سنة ١٨٤٦ . ولابي تمام حماسة أخرى هي كتاب الوحشيات منها نسخة في جملة كتب خطية استنسخها زكي باشا سكرتير مجلس النظار من مكاتب أوربا لتطبع بمصر

وكان أبو تمام أشعر طويلا فصيحاً حلو الكلام فيه تتمة يسيرة . وله ديوان شرحه كثيرون شروحاً حسنة

ابن الرومي

توفي سنة ٢٨٣ هـ

هو أبو الحسن علي بن العباس بن جريج أو جورجيس ويعرف بابن الرومي نسبة الى أصله وهو من موالي بني عباس . اشتهر بالتوليد في الشعر لانه أتى بكثير من المعاني لم يسبق اليها . ومن مميزاته أنه لا يترك المعنى حتى يستوفيه ويمثله للقارىء تمثيلا . ولد في بغداد سنة ٢٢١ هـ وتوفي سنة ٢٨٣ هـ وكان شديد الهجاء جريئاً فيه حتى مات بسببه لانه هجا القاسم بن عبيد الله وزير المعتضد فدسّ اليه ابن فراش فأطعمه خشكنانجة مسمومة وهو في مجلسه فلما أحس بالسم نهض فقال له الوزير « الى اين » فقال « الى الموضع الذي بعثتني اليه » فقال له « سلم على والدي » فقال « ما طريقي على النار » وأتى منزله أقام فيه أياماً ومات . ومن بديع شعره في المديح قوله :

المنعمون وما منوا على أحد ... يوم العطاء ولو منوا لما مانوا
كم ضنَّ بالمال أقوامٌ وعندهم ... وفرٌ واعطى العطايا وهو يدَّان

وله أيضاً وقال : « ما سبقني أحد الى هذا المعنى » :

آراؤكم ووجوهكم وسيوفكم ... في الحادثات اذا دجون نجوم
منها معالم للهدى ومصابح ... تجلو الدجى والاخريات رجوم

ومن معانيه البديعة قوله .

واذا امرؤٌ مدح امرأ لنواله ... وأطال فيه فقد أراد هجاءه
لو لم يقدّر فيه بعد المنتهى ... عند الورود لما أطال رشاءه

Digitized by Birzeit University Library

وكذلك قوله في ذم الخضاب وهو مما لم يسبق اليه :

اذا دام للمرء السواد واخلقت شبيبته ظن السواد خضابا
فكيف يظن الشيخ أن خضابه يُظن سواداً أو يخال شبابا

وله في بعض الرؤساء وقد سأله حاجة فقضاها له وكان لا يتوقع منه خيراً :

سألتك في أمر فجدت ببذله على انني ما خلت أنك تفعلُ
وألزمتني بالبذل شكراً وانه عليَّ من الحرمان أدهى وأعضل
لئن سرني ما نلت منك فأنه لقد ساءني اذ أنت ممن يؤمل

ومن نظمه في الحكم :

أرى فضل مال المرء داء لعرضه كما أن فضل الزاد داء لجسمه
فليس لداء العرض شيء كبذله وليس لداء الجسم شيء كحسمه

ومن بديع معانيه :

دهرٌ على قدر الوضيع به وترى الشريف يحطه شرفه
كالبحر يرسب فيه لؤلؤه سفلاً وتعلو فوقه جيفه

ويمتاز ابن الرومي بتفضيله المعنى على اللفظ كالمتنبي فيطلب صحة المعنى ولا يبالي حيث وقع من هجنة اللفظ وقبحه وخشونته . ومع ذلك فانك تجد في نظمه سهولة ومتانة.

وكان شعره غير مرتب رواه عنه المتنبي ثم جمعه أبو بكر الصولي ورتبه على الحروف . وجمعه أبو الطيب وراق بن عبدوس وزاد في جميع النسخ نحو الف بيت . وأكثر شعره في علي بن يحيى بن أبي منصور والحسن بن عبيد الله بن سليمان وأبي القاسم التوزي الشطرنجي والمعتضد والقاسم بن عبيد الله وابن المدبر وغيرهم ممن عاصروه . وله أهاج شديدة ومدائح بليغة وقد أبدع في وصف الاخلاق والعواطف وفي العتاب وله مراثٍ مؤثرة بعضها في ابنه وأمه . وله قصائد طويلة بعضها يزيد على ٣٠٠ بيت أكثرها في المدح

البحتري

توفي سنة ٢٨٤ هـ

هو أبو عبادة الوليد بن عبيد الطائي وُلد بمنبج من أعمال الشام وتخرج بها . ثم خرج الى العراق ومدح جماعة من الخلفاء أولهم المتوكل على الله وخلقاً كثيراً من الاكابر والرؤساء . وأقام في بغداد دهراً طويلاً ثم عاد الى الشام . وله أشعار

Digitized by Birzeit University Library

كثيرة يذكر فيها حلب وكان يتغزل بها . وقد أدرك أبا تمام بحمص وعرض عليه شعره في جملة من كان يأتيه لهذا الغرض . فلما سمع أبو تمام قوله أقبل عليه وترك سائر الناس فلما تفرقوا قال له : « أنت أشعر من أنشدني » وأوصى به أهل معرة النعمان فصار اليهم فأكرموه ووظفوا له ٤٠٠٠ درهم . واشتهر بعد ذلك حتى صار من الطبقة الاولى ويشبهون شعره بسلاسل الذهب لتناسبه . وصار بعضهم يفضله على أبي تمام . وسئل هو مرة « من أشعر أنت ام ابو تمام؟ » فقال : « جيده خير من جيدي ورديئي خير من رديئه » وسئل أبو العلاء المعري أي الثلاثة اشعر أبو تمام أم البحتري أم المتنبي؟ فقال : «المتنبي وابو تمام حكمان وانما الشاعر البحتري » على انه امتاز بقوة التصور فانه كان يصور اخلاق الممدوح تصوراً لم يسبقه أحد الى مثله . ومن أحاسن شعره في المتوكل قصيدة مطلعها :

أخفي هوى لك في الضلوع واظهر ... وألام في كمد عليك وأعذر

ويقول منها :

بالبر صمت وأنت افضل صائم ... وبسنة الله الرضية تفطر
فانعم بيوم الفطر عيناً انه ... يوم اغر من الزمان مشهر
اظهرت عز الملك فيه بمحفل ... لجب يحاط الدين فيه وينصر
خلنا الجبال تسير فيه وقد غدت ... عدداً يسير بها العديد الأكثر
فالخيل تصهل والفوارس تدعي ... والبيض تلمع والاسنة تزهر
والارض خاشعة تميد بثقلها ... والجو معتكر الجوانب أغبر
والشمس طالعة توقد في الضحى ... طوراً ويطفيها العجاج الاكدر
حتى طلعت بنور وجهك فانجلى ... ذاك الدجى وانجاب ذاك العثير
فافتن فيك الناظرون فاصبع ... يُدمي اليك بها وعين تنظر
يجدون رؤيتك التي فازوا بها ... من أنعم الله التي لا تكفر
ذكروا بطلعتك النبي فهللوا ... لما طلعت من الصفوف وكبروا
حتى انتهيت الى المصلى لابساً ... نور الهدى يبدو عليك ويظهر
ومشيت مشية خاشع متواضع ... لله لا يزهى ولا يتكبر
فلو ان مشتاقاً تكلف فوق ما ... في وسعه لمشى اليك المنبر

ظل البحتري في العراق في خدمة المتوكل ووزيره الفتح بن خاقان وله الحرمة التامة حتى قتلا فرجع الى منبج . وقد تحدى ابا تمام في البديع وبعده اماماً له

Digitized by Birzeit University Library

ويقدمه على نفسه كما رأيت . ثم صارت له طريقة في الجزالة والعزوبة والفصاحة والسلاسة خاصة به تحداها معاصروه ومن جاء بعدهم من الشعراء وعرفت بطريقة أهل الشام . وكان الصاحب بن عباد يعجب بها ويحرض على حفظ اشعار أصحابها ويستملي الطارئين عليه من تلك البلاد ما يحفظونه منها حتى كتب دفتراً ضخم الحجم عليها كان لا يفارق مجلسه ولا يملأ أحد منه عينه غيره . وصار ما جمعه فيه على طرف لسانه ، وفي سن قلمه ، فطوراً يحاضر به في مخاطباته ومحاوراته ، وتارة يحله او يورده في مراسلاته كما هو

وكان البحتري بخيلا وسخ الثوب ومن ابغض الناس انشاداً يتشادق ويتزاور في مشيه مرة جانباً ومرة القهقري يهز رأسه مرة وكتفه أخرى ويشير بكمه . ويقف عند كل بيت ويقول : « احسنت والله ما لكم لا تقولون أحسنت » فضجر المتوكل منه

وما زال شعر البحتري غير مرتب حتى جمعه ابو بكر الصولي ورتبه على الحروف . وجمعه ايضاً علي بن حمزة الاصبهاني ورتبه على الانواع . واكثره في مدح المتوكل والمعتز والمستعين والمعتمد ورجال دولتهم . وتكاد لا تخلو قصيدة من استهلال بالغزل

حماسة البحتري

وللبحتري حماسة مثل حماسة ابي تمام طبعت في بيروت سنة ١٩١٠ بعناية الأب شيخو وقد ذيلها بالفهارس . وهي تمتاز على حماسة ابي تمام من أوجه كثيرة : منها كثرة الابواب لان حماسة ابي تمام مؤلفة من عشرة ابواب وحماسة البحتري من ١٧٤ باباً تتضمن معظم المعاني الشعرية . وقد رواها عن نحو ٦٠٠ شاعر اكثرهم من الجاهليين والمخضرمين . وتمتاز على الخصوص بخلوها مما تنبو عنه الاسماع من الالفاظ البذيئة حتى الغزل والنسيب فقد تحاشاها . كأن البحتري جمعها لشبيبة هذه الايام

وللبحتري أيضاً كتاب معاني الشعر . وألف الحسن بن بشر الآمدي المتوفي سنة ٣٧١ كتاباً انتقادياً في الموازنة بين أبي تمام والبحتري تعصب فيه على ابي تمام وجدّ في طمس محاسنه وتزيين مرذول البحتري

Digitized by Birzeit University Library

أبو الطيب المتنبي

توفي سنة ٣٥٤ هـ

هو أبو الطيب احمد بن الحسين بن عبد الصمد الجعفي الكندي . وبنو جعف بطن من سعد العشيرة من القحطانية فهو عريق بالعروبة . ولد في الكوفة سنة ٣٠٣ في محلة تسمى كندة فنسب اليها وليس هو من كندة القبيلة المعروفة . وكان أبوه من العامة يستي الناس ويسمونه « عبدان السقاء » لكن أبا الطيب نشأ على طلب العلم والادب وكان قوي الحافظة مطبوعاً على الشعر . فلما ترعرع حمله أبوه الى الشام يتنقل به من باديتها الى حاضرتها . وأخذ العلم من أصحابه فمهر أولاً باللغة فحفظ غريبها وحوشيها وأشعار الجاهلية وغيرهم واشتهر بالفصاحة والبلاغة . وكان مفطوراً على كبر النفس وبعد الهمة فلم يقنع بما يتمناه سواه من الشهرة بالشعر أو الادب فطلب السيادة بالفتح فدعا الى بيعته قوماً من مريديه من أبناء سنه فبايعوه . وحين كاد يتم أمر دعوته وصل خبره الى والي البلدة فقبض عليه وحبسه. وفي هذا الحبس نظم قصيدة استعطف بها الوالي على إطلاقه مطلعها :

أيا خدَّد الله ورد الخدود وقدَّ قدود الحسان القدود

الى أن قال :

دعوتك لما براني البلى وأوهن رجلي ثقل الحديد
وقد كان مشيهما في النعال فقد صار مشيهما في القيود
وكنت من الناس في محفل فها أنا في محفل من قرود
تعجل فيَّ وجوب الحدود وحدي قبل وجوب السجود
أي انما تجب الحدود على البالغ وأنا صبي لم تجب علي الصلوات بعد فأطلقه

ولما فرغت يده من الفتح طلب ما هو أبعد منه فزعم أنه نبي اعتماداً على بلاغة أسلوبه فخرج الى بني كلب أقام فيهم وادعى أنه علوي ثم ادعى النبوة . وقال إنه أظهر دعوته هذه أولاً في بادية سماوة ونواحيها وأخذ يتلو عليهم كلاماً زعم أنه قرآن أنزل عليه فكانوا يحكون له سوراً كثيرة أورد أبو علي بن حامد جزءاً من سورة قال انها ضاعت وبقي أولها في حفظه وهو « والنجم السيار والفلك الدوار والليل والنهار ان الكافر لفي أخطار أمض على سننك واقف أثر من قبلك من المرسلين فان الله قامع بك زيغ من ألحد في دينه وضل عن سبيله » فلما شاع أمره بين الناس

Digitized by Birzeit University Library

خرج عليه لؤلؤ أمير حمص من قبل الاخشيدية فقاتله وأسر من كان معه من بني كلب وكلاب وغيرهم من قبائل العرب وحبسه في السجن دهراً طويلا حتى كاد يتلف فسئل في أمره فاستتابه وكتب عليه وثيقة وأشهد عليه فيها ببطلان ما ادعاه ورجوعه إلى الاسلام وأطلقه . فكان المتنبي كلما ذكر له قرآنه بعد ذلك أنكره وحاول التنصل من تبعته

فقنع بعد فشله هذا بالشهرة الادبية . فنال منها ما لم ينله سواه فراجت سوق شعره بما أصابه من رغبة الملوك والامراء فيه فنظم القصائد في أغراض مختلفة وفاق معاصريه على الاطلاق . فتسابق الملوك الى استدنائه بالجوائز ففعل . وبدأ بسيف الدولة بن حمدان فقدم عليه سنة ٣٣٧ هـ ومجلسه حافل بفحول الشعراء . فأحرز المتنبي قصب السبق بقصائد سار بذكرها الركبان . وكان في جملة من يحضر مجلس سيف الدولة ابن خالويه النحوي فوقع بينه وبين المتنبي كلام أدى الى نفور فوثب ابن خالويه على المتنبي فضرب وجهه بمفتاح كان معه فشجه . ولم يرَ المتنبي من سيف الدولة دفاعاً عنه فغضب وخرج الى مصر . وأراد الانتقام لنفسه فتقرب من كافور الاخشيدي سنة ٣٤٦ هـ لما يعلم من عداوته لبني حمدان وامتدحه وامتدح انوجور بن الاخشيد فاكرماه حتى صار يقف بين يدي كافور وفي رجليه خفان وفي وسطه سيف ومنطقة وركب بحاجبين من مماليكه وهما بالسيوف والمناطق . فلما رأى كافور منه سموه بنفسه وتعاليه بشعره خافه وقال : « يا قوم من ادعى النبوة بعد محمد (صلعم) ألا يدعي الملك مع كافور فحسبكم » فأغضبه فخرج أبو الطيب من مصر فأتى بغداد ثم ذهب قاصداً بلاد فارس وامتدح عضد الدولة ابن بويه الديلمي فأجزل عطاءه

ثم رجع من فارس قاصداً بغداد ومعه ابنه محسد وغلامه مفلح حتى اذا كان بالقرب من النعمانية في موضع يقال له الصافية في الجانب الغربي من سواد بغداد عند دير العاقول بينهما مسافة ميلين عرض له فاتك بن أبي الجهل الاسدي في عدة من أصحابه فاقتتلا . فأحسَّ المتنبي بالضعف فعمد الى الفرار فقال له غلامه مفلح « لا يتحدث الناس عنك بالفرار وأنت القائل :

فالخيل والليل والبيداء تعرفني والسيف والرمح والقرطاس والقلم »

فكر راجعاً حتى قتل سنة ٣٥٤ هـ

أما شعره ففي الدرجة الاولى من المتانة والبلاغة وهو مشهور بضخامة المعاني

Digitized by Birzeit University Library

ومتانة المباني . ولم يدع باباً من ابواب الشعر إلا طرقه واجاد فيه وخصوصاً الحكم والحماسة والمديح والفخر والعتاب . وحوى شعره من الفلسفة والحكمة ما جرى على ألسنة الناس مجرى الامثال . واقتبس كثيرون من المنشئين معانيه وحلوا شعرها الى نثر ادخلوه في نثرهم كما فعل الصاحب بن عباد أو نظموه لانفسهم كما فعل ابو بكر الخوارزمي وغيره . ولم نأت بأمثلة من نظمه لكثرته ولاشتهار ديوانه وشيوعه

مضى على شعره نحو الف سنة ولا يزال موضوع مناقشات اهل الادب وكثيراً ما اشتغلوا في تفسير اشعاره وحل مشكلها وعويصها وألفت الكتب في ذكر جيده ورديئه وتكلم الافاضل في الوساطة بينه وبين خصومه والافصاح عن ابكار كلامه وتفرقوا فرقاً في مدحه والقدح فيه والتعصب له أو عليه . وذلك دليل على وفور فضله وتقدمه على اقرانه — والكامل من عدت سقطاته والسعيد من حسبت هفواته

وممن درس شعر المتنبي وبين حسنه وقبيحه ونقده ابو منصور الثعالبي في الجزء الاول من يتيمة الدهر . فأنه بين حسناته وسيئاته مفصلاً مع سائر أخباره في نحو مائة صفحة ولم يبق شاعر أو أديب جاء بعد المتنبي إلا انتقده . ويرى ابن رشيق ان أبا الطيب كان يأتي بالمستغرب ليبين معرفته . وانه كان في طبعه غلظ وفي عتابه شدة وانه كثير التحامل ظاهر الكبرياء والانفة

وقال ابو العلاء المعري : « ابو تمام والمتنبي حكيمان وانما الشاعر البحتري » وكان شيوخ الشعر في ايام ابن خلدون لا يرون المتنبي والمعري من الشعراء لانهما لم يجريا على اساليب العرب . وابو سعيد محمد بن احمد العبيدي ألف كتاباً سماه « الابانة عن سرقات المتنبي لفظاً ومعنى » ذكر فيه نحو ٢٥٠ بيتاً من اشعار المتنبي وأورد ما يقابلها من نظم المتقدمين كالبحتري وأبي تمام وابن الرومي وديك الجن وغيرهم من فحول الشعراء وزعم أن المتنبي سرقها وغيّر فيها وأعادها لنفسه والكتاب مطبوع بمصر في ٨٨ صفحة . وابو علي محمد بن حسن الحاتمي بين ما توارد من المعاني بين ابي الطيب وارسطو ولم يتهم المتنبي بالسرقة بل قال : « لما رأيت ابا الطيب قد أتى في شعره على اغراض فلسفية ومعان منطقية اردت الموافقة بين ما توارد به في شعره مع ارسطو في حكمه لانه ان كان ذلك عن فحص ونظر فقد اغرق في درس العلوم وان يكن ذلك منه على سبيل الاتفاق فقد زاد على الفلاسفة في ذلك

Digitized by Birzeit University Library

وهو في الحالين على غاية الفضل » ثم أورد بعض اقوال ارسطو وما يقابلها من اشعار المتنبي في نحو عشرين صفحة . وانتقد المتنبي جماعة من المستشرقين اشهرهم رايسكي ودي ساسي وبولين وبروكلمن وعمر ونيكلسن وغيرهم

وقد جمع ديوان المتنبي ورتب على الحروف الابجدية . وشرحه كثيرون وطبع في الهند ومصر والشام وغيرها . ومن شروحه التي بقيت شرح ابن جني المتوفى سنة ٣٩٢ في ثلاثة مجلدات . وعلق عليه ابن فورغا سنة ٤٣٧ هـ كتاباً سماه التجني على ابن جني . وشرحه ابراهيم الافليلي المتوفى سنة ٤٤١ هـ . وشرحه أبو العلاء المعري المتوفى سنة ٤٤٩ . وشرحه التبريزي سنة (٥٠٢) . وشرحه العكبري سنة (٦١٦) . وأحدث شروحه العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب للشيخ اليازجي

ابن هانيء الاندلسي

توفي سنة ٣٦٣ هـ

هو أبو القاسم محمد بن هانيء الازدي الاندلسي ويرجعون بنسبه الى آل المهلب ابن أبي صفرة . كان أبوه هانيء شاعراً في بعض قرى المهدية بأفريقية فانتقل الى الاندلس فولد له محمد سنة ٣٢٦ هـ في اشبيلية ونشأ بها وكان شاعراً مطبوعاً . تقرب من صاحب اشبيلية وحظي عنده وكان معاصراً لعبد الرحمن الناصر وابنه الحكم والاندلس في ابان زهوها وحضارتها . لكنهم كانوا يطاردون طلاب الفلسفة ويتهمونهم بالكفر وكان ابن هانيء من طلابها . فلما اشتهر أمره بها نقم عليه الناس وساءت المقالة بحق صاحب اشبيلية بسببه واتهم بمذهبه فأشار عليه بالغيبة عن البلدة ريثما ينسى أمره . فبرحها وعمره ٢٧ سنة الى بلاد المغرب والدولة الفاطمية في أثناء رغبتها في فتح مصر فلقي القائد جوهر ومدحه . حتى انتهى خبره الى المعز لدين الله الفاطمي فاستقدمه اليه . ثم انتقل المعز الى مصر بعد فتحها فأخذ ابن هانيء يستعد للحاق به فتجهز ولحق به فوصل برقة فأضافه شخص من أهلها أقام عنده أياماً في مجلس أنس . ويقال انه خرج من تلك الدار وهو سكران فنام في الطريق فوجد ميتاً وهو في السادسة والثلاثين من عمره فأسف المعز لوفاته وقال : « هذا الرجل كنا نرجو أن نفاخر به شعراء المشرق »

ويمتاز شعر ابن هانيء بالمبالغة الكثيرة في المديح والافراط الى حد الكفر . وفي ألفاظه قعقعة وأنين . ونظراً لما تقدم من اشتهاره بالكفر لم ينصفه المؤرخون

Digitized by Birzeit University Library

ولا الشعراء . وكان أبو العلاء المعري اذا سمع شعر ابن هانيء قال « لا أشبهه الا برحى تطحن قروناً » لاجل القعقعة التي في ألفاظه . ويزعم انه لا طائل تحت تلك الالفاظ ـ وانما فعل المعري ذلك تعصباً للمتنبي

وفي كل حال فانه أشعر أهل الاندلس على الاطلاق . هو عندهم كالمتنبي في المشرق وكان معاصراً له . وأكثر شعره في مدح المعز لدين الله الفاطمي . ومن قوله في وصف الخيل من قصيدة مدح بها المعز :

وصواهل لا الهضب يوم مغارها هضبٌ ولا البيد الحزون حزونُ
عرفت بساعة سبقها لا انها علقت بها يوم الرهان عيون
وأجلُّ علم البرق فيها انها مرّت بجانحتيه وهي ظنون
في الغيث شبه من نداك كأنما مسحت على الانواء منك يمين

الشريف الرضي

توفي سنة ٤٠٦ هـ

هو أبو الحسن محمد بن الطاهر وينتهي نسبه الى موسى الكاظم ومنه الى الحسين بن علي ولذلك لقب بالشريف الرضي الموسوي . ولد في بغداد سنة ٣٥٩ وبدأ يقول الشعر وعمره بضع عشرة سنة وكان أبوه نقيب الاشراف الطالبيين فصارت النقابة اليه سنة ٣٨٨ وأبوه حي . وكان عالماً بعلوم القرآن واللغة والنحو وله فيها المؤلفات النافعة وكان يقيم في سرّ من رأى (سامرّا) . وقد أجمع الاكثرون على أن الشريف الرضي أشعر قريش لان شعراء قريش كان فيهم من يجيد القول إلا أن شعره قليل . فأما مجيد مكثرٌ فليس الا الشريف الرضي . وتوفي في بغداد سنة ٤٠٦ هـ ودفن في الكرخ ورثاه الشعراء . وكان رفيع المنزلة لشرف نسبه ومنصبه وعلو كعبه في الشعر والادب . ومن أجمل نظمه الدالّ على عظم نفسه وشاعريته قصيدة قالها في الخليفة القادر بالله العباسي في جلسة جلسها فأوصل اليها الحجيج وغيرهم سنة ٣٨٢ مطلعها :

لمن الحدوج تهزهنّ الانيق والركب يطفو في السراب ويغرق

وتخلص الى مدح الخليفة والافتخار بنسبه فقال :

وبرزت في برد النبي وللهدى نور على اسرار وجهك مشرق

Digitized by Birzeit University Library

وكأن دارك جنة حصباؤها الـــجادىُّ أو انماطها الاستبرق
في موقف تغضي العيون جلالة فيـه ويعثر بالـكلام المنطق
والناس إما شاخصٌ متعجبٌ نمـا يرى أو ناظر متشوق
مالوا اليك محبـة فتجمعوا ورأوا عليك مهابة فتفرقوا
عطفاً أمـير المؤمنين فاننـا في دوحة العليـاء لا نتفرق
ما بيننا يوم الفخار تفاوُت أبداً كلانا في المعـالي معرق
إلا الخلافة ميزتك فانني أنا عاطل منها وأنت مطوّق

ويمتاز الشريف الرضي ببراعته في الرثاء وله عدة مراثٍ أشهرها رثاؤه لأبي اسحق الصابي بقصيدة مطلعها :

أرأيت من حملوا على الاعواد أرأيت كيف خبا ضياء النادي

وقد أكبر الناس قوله في هذه القصيدة لان المرثي كان صابئياً

ومن قوله في الحكم :

كن في الانام بلا عـين ولا أذن أو لا فعش أبد الايام مصـدورا
والناس أسـد تحامي عن فرائسها إما عقرتَ وإما كنت معقورا

وللشريف المذكور ديوان كبير رواية أبي حكيم الخيري مرتب على أبواب : (١) المديح (٢) الافتخار وشكوى الزمان (٣) المراثي (٤) النسيب والمشيب ووصف طيف الحبيب (٥) الفنون المختلفة . وكل باب مرتب على الحروف الابجدية ويليها زيادات . وله مؤلفات في معاني القرآن لم تصلنا . وله كتاب انشراح الصدر في مختارات من الشعر

أبو العلاء المعري

توفي سنة ٤٤٩ هـ

هو خاتمة شعراء العصر العباسي الثالث كما كان شبيههُ أبو الطيب المتنبي فاتحته ـ ونعم الفاتحة والخاتمة . وهو الشاعر الحكيم الفيلسوف أحمد بن عبد الله بن سليمان ابن محمد التنوخي . وُلد في المعرة سنة ٣٦٣ هـ وكان أبوه من أهل الادب وتولى جده القضاء فيها . وكانت أمه أيضاً من أسرة وجيهة يعرفون بآل سبيكة اشتهر منهم غير واحد بالوجاهة والادب . وكانت المعرة تحت سيطرة الدولة الحمدانيـة بحلب وأميرها يومئذ سعد الدولة أبو المعالي

Digitized by Birzeit University Library

ولم يتم أبو العلاء الثالثة من عمره حتى أصابه الجدري فذهب بيسرى عينيه وغشى يمناها بياض . فكف بصره وهو طفل وكان يقول : « لا أعرف من الالوان الا الاحمر لاني ألبست في الجدري ثوباً مصبوغاً بالعصفر » لقنه أبوه النحو واللغة في حداثته ثم قرأ على جماعة من أهل بلده ولما أدرك العشرين من عمره عمد الى سائر علوم اللغة وآدابها فاكتسبها بالمطالعة والاجتهاد . وكان يقيم أناساً يقرأون له كتبها وأشعار العرب وأخبارهم . وهو قوي الحافظة الى ما يفوق التصديق

وكان مطبوعاً على الشعر نظمه قبل ان يتم الحادية عشرة من عمره . ولم يمنعه العمى من مباراة ارباب القرائح فيما اشتغلوا به حتى في ألعابهم فقد كان يلعب الشطرنج والنرد ويجيد لعبها لا يرى في العمى نقصاً . بل هو كان يقول : « احمد الله على العمى كما يحمده غيري على البصر » . وكان يرتزق من وقف يحصل له منه ثلاثون ديناراً في العام ينفق نصفها على من يخدمه

ورحل في طلب العلم على عادتهم في ذلك العهد فأتى طرابلس واللاذقية وسواها من بلاد الشام واخذ فلسفة اليونان عن الرهبان . ثم رحل الى بغداد سنة ٣٩٨ وشهرته قد سبقته اليها فاستقبله علماؤها بالحفاوة . واطلع في اثناء اقامته هناك على فلسفة الهنود والفرس فضلا عن سائر العلوم . حتى اذا نضج عقله وامعن النظر في الوجود رأى الدنيا كما هي فزهد فيها وعزم على الاعتزال ليتسنى له التأمل والتفكير فغادر بغداد سنة ٤٠٠ هـ وأتى المعرة ولزم بيته وسمى نفسه « رهين المحبسين » وأخذ بالتأليف والنظم وتدوين أفكاره وآرائه ومحفوظه في الكتب . وانقطع عن اكل اللحوم من ذلك الحين واقتصر على النبات كما يفعل النباتيون اليوم — اقتبس ذلك من آراء البراهمة الهنود فذهب مذهبهم فيه رفقاً بالحيوان ومجافياً عن ايلامه ولزم الصوم الدائم

قضى ابو العلاء في هذه العزلة بضعاً واربعين سنة واكله العدس وحلاوته التين وهو يؤلف وينظم والناس يتوافدون اليه ليسمعوا اقواله واخباره . او يكاتبونه في استفهام او استفتاء ويأخذون عنه العلم مجاناً حتى توفاه الله سنة ٤٤٩

وكان معدوداً من أقطاب العلم والادب والشعر ويمتاز بأنه لم يتكسب بشعره وكان مشاركا في كثير من علوم الاقدمين كالفلسفة والكيمياء والنجوم والمنطق ويظهر أثر ذلك في أشعاره وأقواله . ولو اردنا الاتيان بأمثلة منها لضاق بنا المقام

Digitized by Birzeit University Library

ودواوينه شائعة فميزناه بخلو ترجمته من الامثلة الشعرية كما ميزنا المتنبي قبله

ويقال بالاجمال ان الشعر العربي دخل بعد المعري في طور جديد من حيث النظر في الطبيعة والتفكير في الخلق والحكمة الاجتماعية . فانتقل الشعر على يده من الخيال الى الحقيقة . واختلف الناس في مناقب ابي العلاء واخلاقه واعتقاده. وله فلسفة خاصة في الدين والطبيعة والخليقة . وهو أقرب من هذا القبيل الى مذهب اللاأدريين . ويعتقد التقمص وخلود المادة وان الفضاء لا نهاية له . وكان يقبح الزواج ويعد تخليف الاولاد جناية . وكان يرى ان المرأة لا ينبغي لها أن تتعلم غير الغزل والنسج وخدمة المنزل . وكان من القائلين بالرفق بالحيوان فقضى النصف الاخير من عمره لم يذق لحماً . وله أقوال في هذا الموضوع سبق بها أصحاب الرفق بالحيوان اليوم عدة قرون

وقد اتهمه بعضهم بالكفر وكانوا يتهمون به كل حر الضمير مستقل الفكر في تلك الايام . مع ان اعترافه بالخالق ووحدانيته ظاهرة في كثير من أشعاره لكنه لم يكن يرى الاعتقاد بالتسليم بل بالتفكير وكانت حقيقة الدين عنده أن يعمل الانسان خيراً لا أن يكثر من الصلاة والصوم . ولذلك كان شديد الوطأة على الفقهاء الذين يتظاهرون بالدين للارتزاق

عمر بن الفارض

توفي سنة ٦٣٢ هـ

هو أبو حفص عمر بن أبي الحسن علي بن المرشد بن علي الحموي الاصل ، المصري المولد والدار والوفاة ونعت بالشرف . وهو أشهر من أن يعرّف لاشتهار ديوانه وكثرة شراحه . كان ينحو في شعره منحى الصوفية ورعاً اذا مشى في المدينة ازدحم الناس عليه يلتمسون منه البركة والدعاء . وكان وقوراً اذا حضر مجلساً استولى السكون على أهله . واذا أراد النظم أصابته غيبوبة قيل ان بعضها كان يستغرق عشرة أيام لا يأكل ولا يشرب ولا يتحرك فاذا أفاق أملى من الشعر أبياتاً . جاور بمكة زمناً وتوفي في القاهرة ودفن في سفح المقطم وقبره معروف هناك

ويمتاز شعره بكثرة الجناس والبديع مع الاجادة فيهما مما كان مستملحاً في عصره . وما زال محل اعجاب الادباء الى عصرنا هذا ثم جنح الناس الى الحقائق

Digitized by Birzeit University Library

واستنكفوا من كثرة التأنق في الصناعة اللفظية . وكان ديوان الفارض الى عهد غير بعيد يعلم في المدارس فيحفظه الاحداث غيباً وإن لم يفهموه لكنهم يرون في ذلك فائدة للقريحة الشعرية . وفي أغراض ابن الفارض اختلاف بين الشارحين أشهر شراحه الشيخ حسن البوريني (١٠٢٤ هـ) والشيخ عبد الغني النابلسي (١١٤٣هـ) شرحه البوريني على ظاهر المراد منه أي بحسب المعنى الظاهر وشرحه النابلسي شرحاً صوفياً . وقد جمع رشيد بن غالب بين الشرحين في كتاب

الطغرائي

توفي سنة ٥١٣ هـ

هو العميد فخر الكتاب ابو اسماعيل الحسين بن علي المنشيء الملقب مؤيد الدين ويعرف بالطغرائي نسبة الى مهنته في أول حياته . فانه كان طغرائياً اي يكتب الطغرى او الطرة في اعلى الكتب فوق البسملة بالقلم الغليظ ومضمونها نعوت الملك الذي صدر الكتاب عنه . ثم ما زال يرتقي حتى وزر للسلطان مسعود السلجوقي بالموصل وصار ينعت بالاستاذ ويلقب بالمنشيء وبهذا اللقب عرفه السمعاني في كتاب الانساب . وكان نابغة عصره في النظم والنثر له ديوان شعر كبير أكثره في مدح السلطان سعيد بن ملك شاه ونظام الملك وغيرهما . واشتهر الطغرائي بقصيدته المعروفة بلامية العجم التي مطلعها :

أصالة الرأي صانتني عن الخطل وحلية الفضل زانتني لدى العطل

وهي مشهورة وقد طبعت مراراً وشرحها وشطرها كثيرون . وللطغرائي عدة مؤلفات في الكيمياء القديمة منها نسخ في مكاتب أوربا لا فائدة من ذكرها

ابن التعاويذي

توفي سنة ٥٣٨ هـ

هو أبو الفتح محمد بن عبيد الله ويعرف أيضاً بسبط التعاويذي لان سبط تعاويذي آخر جد من أجداده اسمه المبارك بن المبارك نسب اليه لانه كفله صغيراً فنشأ في حجره . وكان شاعر وقته ويعتقد ابن خلكان انه لم يكن قبله بمئتي سنة من يضاهيه . عمي في آخر عمره وله في عماه أشعار يرثي بها عينيه ويندب شبابه جمع ديوانه بنفسه قبل العمى وصدره بخطبة ورتبه على أربعة فصول وكل ما جدّ بعد ذلك سماه الزيادات . وهو كثير الشكوى في أشعاره

Digitized by Birzeit University Library

صفي الدين الحلي

توفي سنة ٧٥٠ هـ

هو أشهر شعراء العصر المغولي خارج مصر والشام . واسمه عبد العزيز بن سرايا بن علي بن أبي القاسم . ويعرف بصفي الدين الطائي السنبسي الحلي نسبة الى الحلة في العراق . ولد سنة ٦٧٧ هـ وكان شاعر الدولة الارتقية في ماردين ورحل الى القاهرة في زمن السلطان الملك الناصر سنة ٧٢٦ ومدحه بقصيدة وازى بها قصيدة المتنبي التي مطلعها « بأبي الشموس الجانحات غواربا » فقال في مطلعها :

أسبلن من فوق النهود ذوائبا فتركن حبات القلوب ذوائبا

ثم عاد الى ماردين . وتوفي في بغداد سنة ٧٥٠ وقد أجاد في القصائد الطوال والمقاطيع واشتهر بسهولة اللفظ وحسن السبك . وله ديوان شعر جمعه بنفسه ورتبه على ١١ باباً حسب أبواب الشعر من الفخر والمدح والوصف والاخوانيات والغزل والرثاء وغيرها

Digitized by Birzeit University Library

الخطابة

في الجاهلية

الخطابة تحتاج إلى خيال وبلاغة ولذلك عددناها من قبيل الشعر أو هي شعر منثور وهو شعر منظوم وإن كان لكل منهما موقف . فالخطابة تحتاج إلى الحماسة ويغلب تأثيرها في ابناء عصر الفروسية واصحاب النفوس الابية طلاب الاستقلال والحرية مما لا يشترط في الشعر . ولذلك تشابهت جاهلية العرب وجاهلية اليونان من هذا الوجه لان كليهما أهل شعر وخطابة وأهل إباء واستقلال . ولذلك ايضاً كانت الخطابة رائجة عند الرومان مع تأخر الشعر عندهم . ولنفس هذا السبب قصر العبرانيون في الخطابة مع تقدمهم في الشعر لغلبة الذل والضعف على طباعهم فتحول خيالهم الشعري الى الشكوى والتضرع وانصرفت قرائحهم إلى نظم المراثي والحكم

اما العرب فقد قضى عليهم الاقليم بالحريه والحماسة وهم ذوو نفوس حساسة مثل سائر اهل الخيال الشعري فأصبح للبلاغة وقع شديد في نفوسهم فالعبارة البليغة تقعدهم أو تقيمهم بما تثيره في خواطرهم من النخوة . واقتضت المنازعات بينهم ان يتفاخروا ويتنافروا فاحتاجوا الى الخطابة في الاقناع وتأليف الاحزاب ـ وان غلب في مواضيع خطبهم المفاخرة في الاحساب والآداب في المجالس والاندية العمومية والخصوصية . وكانوا يخطبون وعليهم العمائم وهم وقوف في أيديهم المخاصر ويعتمدون على الارض بالقسي ويشيرون بالعصي والقنا وقد يخطبون وهم جلوس على رواحلهم . ومما يدل على تشابه الشعر والخطابة ان الغالب في الشعراء ان يخطبوا والخطباء أن ينظموا فيكون الواحد شاعراً وخطيباً فاذا غلب عليه الشعر سموه شاعراً أو الخطابة سموه خطيباً . والقبائل التي كثر خطباؤها هي غالباً التي كثر شعراؤها . ومن اقوالهم في تاريخ الشعر والخطابة ان عبد القيس بعد محاربة اياد تفرقوا فرقتين ففرقة وقعت بعمان وشق عمان وفيهم خطباء العرب ، وفرقة وقعت إلى البحرين وشق البحرين وهم من أشعر القبائل ولم يكونوا كذلك حين كانوا في سرة البادية وفي معدن الفصاحة ويدل ذلك على تناج احتكاك الافكار عند الاختلاط بالاعاجم . ولهذا السبب كثر الخطباء أيضاً في اليمن

Digitized by Birzeit University Library

لاختلاطهم بالفرس وكان الفرس أهل خطابة مثل العرب

﴿ مواضيع الخطب ﴾ وكان العرب يخطبون بعبارة بليغة فصيحة وهم أميون لا يقرأون ولا يكتبون وانما كانت الخطابة فيهم قريحة مثل الشعر وكانوا يدربون فتيانهم عليها من حداثتهم لاحتياجهم إلى الخطباء في إيفاد الوفود مثل حاجتهم إلى الشعراء في حفظ الانساب والدفاع عن الاعراض . ولكنهم كانوا يقدمون الشاعر على الخطيب في الجاهلية فلما جاء الاسلام صار الخطيب مقدماً لحاجتهم اليه في الاقناع وجمع كلمة الاحزاب . ولكن نظراً لحاجة العرب الى الخطباء في ارسال الوفود فقد كان خطيب القبيلة عندهم عميدها وزعيمها وهو واحد يعدل قبيلة ولسان يعرب عن ألسنة

أما إيفاد الوفود فقد كان شائعاً في تلك العصور فكانت دول الروم والهند والصين والفرس يتبادلون الوفود لمبادلة العلائق أو للمفاخرة . ولم يكن للعرب دولة تستوفد من قبلها ولكن المناذرة ملوك العرب في العراق كانوا يذكرون فصاحة العرب بين يدي الاكاسرة وخصوصاً كسرى أنوشروان فكان يميل إلى مشاهدتهم . فاتفق مرة ان النعمان خاطبه في ذلك فطلب اليه ان يريه واحداً منهم فاستقدم جماعة من خطباء العرب اختار من كل قبيلة اثنين أو ثلاثة هم بالحقيقة حكماؤها ووجهاؤها ومنهم أكثم بن صيفي وحاجب بن زرارة من قبيلة تميم والحرث بن ظالم وقيس بن مسعود من قبيلة بكر وخالد بن جعفر وعلقمة بن علاثة وعامر بن الطفيل من بني عامر وغيرهم . فقدموا على كسرى وخطب كل منهم بين يديه خطاباً

على أن عرب اليمن وشرقي جزيرة العرب كانوا يقدمون على كسرى للشكوى من عماله هناك وكان غيرهم من العرب يفدون عليه بالهدايا من الخيل ونحوها على سبيل الاستجداء كما فعل أبو سفيان والد معاوية

وكانوا يفدون على الامراء من العرب وغيرهم كوفود حسان بن ثابت على النعمان بن المنذر بالحيرة وعلى آل جفنة في البلقاء . ووفود وجهاء قريش على سيف ابن ذي يزن في اليمن بعد قتله الحبشة — وفدوا عليه للتهنئة بالنصر وكان في جملة خطباء ذلك الوفد عبد المطلب جد النبي . ومن هذا القبيل وفود القبائل على النبي بعد ان استتب له الامر فقد جاءه من كل قبيلة وجهاؤها وخيرة بلغائها للدخول في الاسلام أو للاستفهام أو غير ذلك . ومن هذا القبيل أيضاً وفود العرب على الخلفاء

Digitized by Birzeit University Library

للتسليم والتهنئة كوفود جبلة بن الايهم وعمرو بن معدي كرب على عمر بن الخطاب ووفود أهل اليمامة على أبي بكر وغيرهم مما يطول شرحه

﴿ الخطباء ﴾ وجملة القول أن الخطباء كانوا عديدين في النهضة الجاهلية كالشعراء والغالب فيهم أن يكونوا أمراء القبائل أو وجهاءها أو حكماءها . وكان لكل قبيلة خطيب واحد أو أكثر كما كان لها شاعر واحد أو أكثر . وأشهر خطباء الجاهلية قس بن ساعدة من بني أياد وقد ادركه النبي فرآه في سوق عكاظ على جمل أحمر وهو يقول في خطابه : « أيها الناس اجتمعوا فاسمعوا وعوا من عاش مات ومن مات فات وكل مات هوآت آت »

ومنهم سحبان وائل الباهلي الذي يضرب المثل بفصاحته فيقال : « هو أخطب من سحبان وائل » وكان اذا خطب يسيل عرقاً ولا يعيد كلمة ولا يتوقف ولا يقعد حتى يفرغ . ومنهم جماعة كبيرة من حمير كدويد بن زيد وزهير بن جناب ومرثد الخير وغيرهم من سائر القبائل كالحارث بن كعب المذحجي وقيس بن زهير العبسي وذي الاصبع العدواني وأكثم بن صيفي التميمي وعمرو بن كلثوم وغيرهم

وكانوا يتخيرون في خطبهم الالفاظ الرقيقة والمعاني المألوفة . وكانت خطبهم على ضربين الطوال والقصار . والقصار أكثر عدداً لانهم كانوا يفضلونها لسهولة حفظها . وكانوا لشدة عنايتهم بالخطب يتوارثونها ويتناقلونها في الاعقاب ويسمونها بأسماء خاصة كالعجوز خطبة لآل رقية والعذراء خطبة قيس بن خارجة والشوهاء خطبة سحبان

في عصر الراشدين

الفرق بين الخطابة في الجاهلية وفي الاسلام ان الاسلام زادها بلاغة وحكمة بما كان يتوخاه الخطباء من تحدي أسلوب القرآن واقتباس الآيات القرآنية . وقد كان للقرآن نحو هذا التأثير في الشعر أيضاً ولكن الخطابة أوسع مجالاً للاقتباس . فأخذ الخطباء يرصعون خطبهم بالآيات تمثلاً أو اشارة أو تهديداً حتى لقد يجعلون الخطبة برمتها مجموع آيات كما فعل مصعب بن الزبير لما قدم العراق وأراد أن يحث أهله على الطاعة لأخيه عبد الله فصعد المنبر وقال : « بسم الله الرحمن الرحيم طسم تلك آيات الكتاب المبين نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون

Digitized by Birzeit University Library

إن فرعون علا في الارض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يُذبحُ أبناءهم ويستحي نساءهم إنه كان من المفسدين (وأشار بيده نحو الشام) ونريد أن نمنَّ على الذين استضعفوا في الارض ونجعلهم أئمةً ونجعلهمُ الوارثينَ (وأشار بيده نحو الحجاز) ونمكّن لهم في الارض ونُريَ فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون (وأشار بيده نحو العراق) »

وزادت الخطابة بعد الاسلام قوة ووقعاً في النفوس بنهضة العرب للحروب وانتصارهم في أكثر مواقعها فازدادوا أنفة وسمت نفوسهم فسما بها ذوقهم في البلاغة وشحذت قرائحهم بما شاهدوه من البلاد الجديدة والامم الجديدة والألسنة الجديدة فبلغت الخطابة عندهم مبلغاً قلما سبقهم فيه أحدٌ من الامم التي تقدمتهم بلاغة وايقاعاً وتأثيراً حتى اليونان والرومان ـ لا تنكر ما كان من تبرز هاتين الامتين في الخطابة وما نبغ بين رجالها من الخطباء الذين لا يشق لهم غبار كديموستنيس واشينس وهيبريدس من خطباء اليونان وشيشرون ويوليوس قيصر وسالوستس ولوكيرتس من خطباء الرومان. ولكن العرب لم يأتوا بأقل مما أتى به أولئك بلاغة ووقعاً. وربما كان الخطباء في الاسلام أكثر عدداً وخطبهم أوفر وأبلغ مع اعتبار الفرق بين الامتين لغة وخلقاً وأدباً

فقد ذكروا لديموستنيس أخطب خطباء اليونان ٦١ خطبة نصفها منسوب اليه خطأ وهذه خطب الامام علي تعد بالمئات . وأما في كثرة الخطباء فالعرب كانوا في صدر الاسلام من أكثر الامم خطباء لان خلفاءهم وأمراءهم وقوادهم كان معظمهم من الخطباء حتى النساك والزهاد ولا غرابة في ذلك لان العرب أهل خيال وذوو نفوس حساسة وللبلاغة تأثير شديد في عواطفهم تقعدهم وتقيمهم . وقد كان ذلك من جملة ما ساعد على نشر الاسلام بينهم ـ وكثيراً ما توقف فتح البلد أو الحصن على خطاب يتلوه القائد على رجاله فتثور فيهم النخوة وتسري في عروقهم الحماسة فيستهلكون في الدفاع أو الهجوم . وفي أخبار الفتوح أدلة كثيرة لا يساعد المقام على ايرادها . ونعرف قواداً انما ساعدهم على النصر قوة عارضتهم وتأثير خطبهم في نفوس رجالهم

واذا رجعت لحوادث الفتح أو جمع الاحزاب أو اخماد الثورات رأيت عجباً . وأول ثورة كادت تهبُّ في الاسلام لما بلغ أهل المدينة موت النبي فهاجوا حتى خاف الصحابة سوء العاقبة فقام أبو بكر خطيباً فقال : « أيها الناس ان يكن محمد قد

Digitized by Birzeit University Library

مات فان الله حيّ لم يمت . . وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفئن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم . . ؟ وقد علمتم اني أكثركم قتباً في برّ وجارية في بحر فأقروا أميركم وأنا ضامن ان لم يتم الامر ان أردها عليكم » فهذه الكلمات القليلة كانت كافية لاخماد تلك الثورة . وقس على ذلك خطبه في السقيفة وخطب من تولى بعده من الخلفاء الراشدين

في العصر الاموي

ظلت الخطابة على جلالة قدرها في العصر الاموي لحاجة القوم الى استنهاض الهمم في جمع الاحزاب أو تفريقها أو التحريض على النهوض لحرب ونحوها فكان القواد خطباء وفيهم جماعة من أبلغ رجال الخطابة . فالحجاج بن يوسف كان خطيباً بليغاً زادته الخطابة عظمة وسطوة — كان العراق متمرداً على عبد الملك فلما أعجزه أمره ولى الحجاج عليه فدخل الحجاج الكوفة وصعد المنبر متلثماً متنكباً قوسه واضعاً إبهامه على فمه فاحتقره الناس وكادوا يرمونه بالحصى كما كانوا يفعلون في الولاة قبله . فوقف وأزاح لثامه عن وجهه ولفظ خطبته التي قال في مطلعها :

أنا ابن جلا وطلاّع الثنايا متى أضع العمامة تعرفوني

الى ان قال :

« أما والله لا أحمل الشر بثقله وأحذوه بنعله وأجزيه بمثله . أما والله اني لأرى رءوساً قد أينعت وحان قطافها وكأني أرى الدماء بين العمائم واللحى

« ألا وان أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان كبّ كنانته فعجم عيدانها فوجدني أصلبها عوداً فوجهني اليكم . فانكم أهل بغي وشقاق وخلاف ونفاق طالما سعيتم في الضلالة وسننتم سنن البغي . أما والله لألحونكم لحو العصا ولأعضبنكم عضب السلمة ولأقرعنكم قرع المروة ولأضربنكم ضرب عزائب الابل . والله ما أحلف إلا فريت ولا أعد الا وفيت . . . الخ . »

فما فرغ من خطبته حتى هابوه وأذعنوا له وكان شديداً عليهم وأمره مشهور . ومع ذلك فقد كان اذا رقي المنبر وذكر احسانه الى أهل العراق وصفحه عنهم واساءتهم اليه يخيل للسامع انه صادق وأن أهل العراق ظالموه ولذلك كان الامراء والخلفاء يخافون الخطباء كما يخافون الشعراء لما في أقوالهم من التأثير في تلك النفوس الحساسة

Digitized by Birzeit University Library

وكان أكثر الخلفاء يخطبون لكنهم يتفاوتون في البلاغة وقوة العارضة على ان تلك القوة أخذت تضعف فيهم بعد الفراغ من الفتوح والانغماس في أسباب الترف والسكون الى الرخاء والبذخ وتحوّلت من الحماسة الى المواعظ ثم الى الشكاية . وتداعى فن الخطابة بتداعي دولة العرب في الشرق . فلما قامت دولتهم في الاندلس بعثوه وقربوا الخطباء كما قربوا الشعراء لكنهم قلما كانوا يستخدمونهم لانهاض الهمم أو اخماد الفتن لذهاب الحاجة الى ذلك . بذهاب البداوة والفراغ من الفتح . على انهم كانوا اذا احتفلوا بتنصيب خليفة أو بالنصر على عدو أو باستقبال قادم كبير تقدمت الخطباء للترحيب به واعظام شأنه أو شأن مقعده ووصف ما تهيأ له من توطيد الخلافة

وأما الامراء والقواد فكانوا يخطبون في الجند قبل الاغارة على العدو فيحرضونهم على الثبات . وكثيراً ما كانت الخطبة سبباً للنصر كخطبة خالد بن الوليد في وقعة اليرموك وخطبة المغيرة في وقعة القادسية وخطبة خليد بن المنذر في غزوة فارس وخطبة طارق بن زياد في فتح الاندلس ونحو ذلك مما لا تسعه المجلدات

ناهيك بشيوع الخطابة في القبائل على اختلاف أصقاعها كما كانت في الجاهلية . وكانت ترد الوفود الى المدينة أو دمشق أو بغداد أو غيرها من عواصم المسلمين لتهنئة الخليفة أو استنفاره أو استنجاده أو استجدائه . وكان شباب الكتاب اذا قدم الوفد حضروا لاستماع بلاغة خطبائهم لشيوع حب الخطابة فيهم ولاقتباس أساليب البلاغة منهم

Digitized by Birzeit University Library

الادب والانشاء

الادب في العصر العباسي الاول

اختلف العلماء في تعريف الأدب وتحديده . أما علم الادب فيشتمل في اصطلاحهم على أكثر علوم العربية كالنحو واللغة والتصريف والعروض والقوافي وصنعة الشعر وأخبار العرب وأنسابهم . وصاحب هذه العلوم أو احداها كانوا يسمونه « أديب » وقالوا الفرق بين الاديب والعالم أن الاديب يأخذ من كل شيء أحسنه فيألفه والعالم من يقصد لفن من العلم فيتقنه . ولكن التعريف الاول أقرب الى المراد ولذلك جعلوا الغاية من علم الادب الاجادة في فني المنثور والمنظوم — وقد شاعت هذه التسمية قبل أن تتميز هذه العلوم ويستقل بعضها عن بعض . وكانت في أول أمرها مختلطة متشابهة ثم استقلت بالتدريج وتفرعت وصار كل منها علماً له أحكام مستقلة جرياً على سنة النشوء والارتقاء

فكان المراد بالأدب في أول الاسلام جمع أقوال العرب وأشعارهم وأخبارهم وأمثالهم للاستعانة بها على تفسير القرآن وضبط ألفاظه وتفهم أساليبه ـ أخذوا بذلك من القرن الأول للهجرة . وكان ابن عباس يقول : « إذا قرأتم شيئاً من كتاب الله لم تعرفوه فاطلبوه في أشعار العرب لأن الشعر ديوان العرب »

ثم وضع أبو الأسود الدؤلي النحو لضبط المعاني كما تقدم فزادت الحاجة الى جمع أقوال العرب وأشعارهم للاستشهاد بها في الاعراب والتصريف . واهتمت الدولة الاموية في إحياء لغة العرب وآدابها وأخذ خلفاؤها في حفظ آداب الجاهلية فجعلوا يقربون الذين يحفظونها أو ينقلونها أو يروونها ويبذلون لهم الاعطية

الادباء في الدولة العباسية

وظلت الرغبة في اللغة وأدبها متصلة بالدولة العباسية ولا سيما في عصرها الاول لرغبة خلفائها الاولين ووزرائها البرامكة في العلم والادب والشعر . ولم تكن رغبتهم مقصورة على الشعر ولكنهم نشطوا الادب على الاجمال واستقدموا الادباء من الكوفة والبصرة للسماع منهم أو لتعليم أبنائهم اللغة والنحو والشعر . فالمنصور استقدم شرقي القطامي ليعلم ابنه المهدي الادب والنسب فشب المهدي على حب الادب والادباء

Digitized by Birzeit University Library

فألف له المفضل الضبي المفضليات . وكثيراً ما كان يعقد المجالس للمناظرة بين الادباء في النحو أو اللغة يحضرها الكسائي واليزيدي وغيرهما ثم عهد الى الكسائي بتعليم ابنه هرون (الرشيد) في حديث لطيف يدل على عناية المهدي في اللغة

فلما صارت الخلافة الى الرشيد نشأ على احترام أستاذه حتى كان يجلسه على كرسي في حضرته ويأمره ألا ينزعج لنهضته وعهد اليه بتعليم ابنه الامين . وكان الرشيد شديد الرغبة في سماع مناظرات الادباء فكان يعقد المجالس للمناظرة بين الاصمعي وأبي عبيدة أو يدعو أحد الرواة اذا أرق أو ضجر ليقص عليه أخبار العرب فاذا سرّه حديثه أجزل عطاءه الى مائة ألف درهم أو حواليها فضلا عن الهدايا وغيرها وقد يجادله أو ينتقده مما يشف عن علم ومعرفة . وكان الرشيد يحب أن يكون محاطاً بالادباء والشعراء حتى في دار النساء . فكان يؤثر الجواري المتعلمات ويعرضهن على الاصمعي أو غيره ليمتحنهن ويعلم درجة معارفهن واعتبر ذلك أيضاً في الوزراء والامراء فالبرامكة تنشيطهم للأدب أشهر من أن يذكر . والفضل بن الربيع فاضل بين الاصمعي وأبي عبيدة . أما الامراء فكانوا يقتدون بالخلفاء في تقريب أهل الأدب

رواة الأدب من غير العرب

وكان العرب في الصدر الأول مشتغلين عن الادب بالسياسة أو الشعر أو الخطابة وهم في غنى عن الاستشهاد في ضبط كلامهم أو قراءتهم لاستغنائهم بملكتهم الفطرية عن تعلم القواعد وحفظ الالفاظ . وكان الاعاجم الذين دخلوا الاسلام من أهل فارس والعراق وخرسان بالولاء أو الخدمة يفتقرون في تعلم العربية الى قواعد وشواهد لانها ليست لغتهم . واكثرهم مع ذلك أهل فاقة يلتمسون الرزق . فتوافدوا للاشتغال بالادب الى البصرة والكوفة لانهما على حدود البادية أو هما واسطة الاتصال بين الحضارة والبداوة . وزاد توافدهم في الدولة العباسية لانها جعلت قصبتها في العراق على مقربة من هذين البلدين وفيهما جماعة كبيرة من قبائل العرب نزلوهما في صدر الاسلام وأنزلوا مواليهم معهم فنبغ من هؤلاء الموالي طائفة من الادباء كان لهم فضل كبير على آداب اللغة وأكثرهم من موالي بني أسد النازلين بجوار الكوفة وغيرهم بجوار البصرة

فمن أولئك الادباء جماعة اشتغلوا بجمع الاشعار والاخبار والامثال ونحوها

Digitized by Birzeit University Library

وسموا الرواة لانهم رووا ما سمعوه . وكانوا يأخذون ذلك عن عرب البادية الذين لم يخالط لسانهم العجمة ممن كانت قريش تتخير ألفاظهم وأساليبهم . وأكثر ما نقلوه عن قبائل قيس وتميم وأسد وعمدة الثقات من الرواة . ثم قبيلة هذيل وبعض كنانة وبعض طي . ولم يأخذوا شيئاً عن الحضر ولا من البدو المجاورين — فلم يأخذوا من لخم وجذام لمجاورتهما أهل مصر ولا من قضاعة وغسان وايادٍ لمجاورتهم أهل الشام وأكثرهم نصارى يقرأون العبرانية والسريانية . ولا من بكر لمجاورتهم النبط والفرس ولا من عبد القيس والازد وعمان لانهم كانوا بالبحرين يخالطون الهند والفرس ولا من أهل اليمن لمخالطتهم الهند والحبشة ولا من بني حنيفة وسكان اليمامة ولا من ثقيف وأهل الطائف لمخالطتهم تجار اليمن . ولا من حاضرة الحجاز لان الذين نقلوا اللغة صادفوهم حين ابتدأوا ينقلون لغة العرب وقد خالطوا غيرهم من الامم وفسدت ألسنتهم

فأهل البصرة والكوفة هم رواة اللغة وواضعو أساس آدابها وعلومها . وكانوا يركبون في طلب ذلك الى البادية يحادثون العرب ويستطلعون أخبارهم وأشعارهم ويعودون بها الى البصرة . وكان أولئك العرب في أول الامر لا يرون بأساً من املاء ما يعرفونه ولا يطلبون على ذلك أجراً . ثم علموا ان الرواة يرتزقون بما يأخذونه عنهم فصاروا يطلبون به مالا . ثم صار الفصحاء من العرب يتوافدون هم أنفسهم الى البصرة يقيمون فيها أو في ضواحيها تخفيفاً لمشاق الرحلة على الرواة وتسابقاً الى التكسب من املاء ما يعرفونه من اللغة أو الشعر . وربما كان الراوي لا يكتفي بالاخذ عن الوافدين فيرحل الى البادية ليأخذ عن أهلها — بدأوا بذلك من أواخر العصر الاموي وتكاثر الرواة والوافدون في الدولة العباسية الى البصرة وبغداد وكان أكثر وفودهم في العصر العباسي الاول أولا الى البصرة فأصبحت غاصة بالادباء والرواة والشعراء والفصحاء وغيرهم

وأشهر الرواة أبو زيد الأنصاري وأبو عبيدة والاصمعي وحماد وخلف الاحمر والمفضل الضبي . ولكن كثيراً مما رواه الرواة لم يكن يخلو من الخطأ أو من التزوير

الادب في العصر العباسي الثاني

خطا الادب في هذا العصر خطوة أخرى نحو النشوء والتفرع فبدأت علومه بالاستقلال بعضها عن بعض . وكانت في العصر الماضي مختلطة يدرس الاديب

Digitized by Birzeit University Library

النحو واللغة والاخبار والامثال معاً . وقل من تفرغ لواحد منها ـ الا النحو فانه استقل في ذلك العصر كما رأيت . وظلت سائر علوم الادب مختلطة . ففي هذا العصر أخذ علم اللغة بالاستقلال وظهر علماء اشتغلوا بتعريف الالفاظ واشتقاقها ومعانيها وترتيبها على الابجدية تمهيداً لوضع المعاجم التي لم تظهر ناضجة الا في العصر العباسي الثالث

فالادب هنا ينقسم الى ثلاثة أقسام : (١) الادب كما هو ويدخل فيه الاخبار والامثال والاشعار وغيرها (٢) النحو (٣) اللغة

ولا بد لنا هنا من التنبيه الى أمرين مهمين في تاريخ آداب اللغة : الاول أن الاغراض السياسية التي ذكرناها في صدر العصر العباسي الاول من تفضيل أهل الكوفة على أهل البصرة واثارة المنافسة بين البلدين ضعفت في هذا العصر وفرغ البصريون والكوفيون من الغرض الذي أحيا ذينك البلدين لقربهما من البادية وسطاً بين الحضارة والبداوة . واستبحر عمران بغداد وغلبت الحضارة على نفوس المسلمين فأخذ الادباء وطلاب العلم في الانتقال الى بغداد وخصوصاً بعد ان سطا صاحب الزنج على البصرة وأخربها . والامر الثاني ان نقل العلوم الى اللغة العربية أكسبها ميلاً الى تأليف الكتب وغيرها . على مثال ما شاهدوه هناك من الكتب الجامعة لمواضيع مختلفة والتوسع في الموضوع الواحد . فالكتب التي جاء ذكرها لاصحاب العصر الاول أوفاها ما كتب في الفقه والسيرة النبوية والطبقات والفتوح والنحو . أما في هذا العصر فعمدوا الى التأليف في سائر المواضيع العلمية والادبية والفلسفية والتاريخية وغيرها . وان لم ينضج التأليف على الاجمال الا في العصر الآتي

مميزات الادب في هذا العصر

يمتاز الادب في هذا العصر بأشياء أهمها :

١ ـ انه كان في العصر الماضي مقصوراً على النقل بلا تصرف وانما كان همّ الاديب ان يروي ما سمعه بالاسناد الى الراوي أو سرد ما عاينه كما كان يفعل حماد والاصمعي وأبو عبيدة فأصبح يتدبر تلك المرويات ويبني عليها أو يستنتج منها حكمة أو عظة كما فعل الجاحظ وابن قتيبة وغيرهما . والسبب في ذلك اتساع اختبارهم وتعودهم النظر والتدبر بما اطلعوا عليه من كتب الادب التي نقلت الى العربية من الفارسية والهندية وكتب المنطق وتحاليل القياس ونحوهما عن اليونانية

Digitized by Birzeit University Library

٢ ـ ان ما ألمَّ بالامة من تغير الحال لفساد الحكومة وتوالي النكبات على الخلفاء حوَّل همّ المفكرين الى نشر الحكم واخبار الزهد والزهاد وأقوال الحكماء وسير رجال العدل والحزم التي يترتب عليها العظة والاعتبار مع الحث على الاقتداء بهم لرد الناس عن غيهم وتعزية المصابين والمظلومين فأخذوا يجمعون ذلك في كتب الادب

٣ ـ أخذوا يجمعون شتات أخبار العرب على اختلاف مواضيعها وما آخذها في كتاب واحد أو بضعة كتب وترتيبها في أبواب مبنية على الحكمة المستفادة منها للاسباب التي قدمناها . كما في الموشي والعقد الفريد

٤ ـ تغيرت وجهة الادب في نظر الادباء فقد كان الغرض منه بالاكثر طلب الرزق في دور الخلفاء بما كان لهؤلاء من الرغبة في الاطلاع على أخبار العرب وأشعارها وأمثالها . فأصبح في هذا العصر صناعة علمية في الانشاء والتأليف وقلّ المقتصرون عليها منهم . وانصرفت القرائح بالاكثر الى الاشتغال في النحو واللغة ولم ينقطع للاشتغال بالادب بالمعنى الذي قدمناه الا قليلون

الادب في العصر العباسي الثالث

نضج الادب في هذا العصر وزاد استقلالاً عن سائر العلوم ومال بالاكثر الى النظر في الشعر والشعراء من شرح أو تلخيص أو انتقاد . ويمتاز على الخصوص بنقد الشعر بعد ان نضج وتعددت أبوابه ومواضيعه فتعوّد الادباء بعد شيوع المنطق والفلسفة وعلم الكلام النظر في الادب نظر الناقد المحص بالمقابلة والموازنة ـ وان أنكروا الفلسفة على أصحابها واتهموهم بالكفر . فان روح النقد والنظر الفلسفي دبّت في عروقهم وهم لا يعلمون . فنبغ منهم نقاد الشعر كقدامة ابن جعفر وابن رشيق . وفيهم من انتقد الرواية والاخبار كأبي الفرج الاصبهاني صاحب الاغاني وعمر بن حمزة . ونظروا في فحول الشعراء فشرحوا أقوالهم في الجاهلية والاسلام كشروح الحماسة والمعلقات . وجمعوا أقوال الشعراء ومحصوها وجمعوا دينها كما فعل الثعالبي إمام المؤلفين في ذلك العصر وانتقدوا آداب المجالسة ووضعوا للندماء شروطاً وغير ذلك من مظاهر الادب

Digitized by Birzeit University Library

المحاضرات

هي علم من علوم الادب تحصل به الملكة على ايراد كلام الغير بما يناسب المقام . وفائدته الاحتراز من الخطأ في تطبيق الكلام المنقول عن الغير على المقام حسب اقتضاء المخاطبة من جهة معانيه الاصلية . وهو من الفنون الاجنبية يقال ان مخترعه رجل من اليونان قبل القرن الثالث للميلاد وقد أخذه العرب في جملة ما أخذوه عن الاعاجم في خلافة أبي جعفر المنصور على يد عبد الله بن المقفع عند ما ترجم كليلة ودمنة من الفارسية الى العربية فكانت ترجمته هذه أساساً لهذا الفن لكنه لم ينضج الا في العصر الثالث الذي نحن في صدده . وأشهر من ألف فيه ابن حيان التوحيدي المتوفي سنة ٤٠٠ هـ ألف كتاباً سماه كتاب المحاضرات والمناظرات . وأشهر ما بين أيدينا من كتب المحاضرات كتاب « محاضرات الادباء ومحاورات الشعراء والبلغاء » لابي القاسم الراغب الاصبهاني

الروايات أو القصص

نريد بالروايات ما يسميه الافرنج بلسانهم « رومان » واحدها رواية و هي القصة عندنا . وانما اخترنا لفظ الرواية مجاراة لمفهوم القراء منها لانها عندهم أدلُّ من القصة على ما نحن فيه . والروايات فن له شأن عظيم في آداب اللغات الافرنجية يكاد يكون أهمها . وأما في العربية فانه من أضعف فروع الادب . ويراد به تمثيل الاخلاق والعادات والآداب في سياق قصة موضوعة . وقد تكون بشكل تمثيلي فتسمى في اصطلاحهم « درام » . ونحن ذاكرون هنا فن الروايات على الاجمال في التمدن الاسلامي

يظهر أن العرب قلما اهتموا لهذا الفن في صدر دولتهم ولا التفتوا الى ما كان منه عند اليونان لما نقلوا علومهم . فلم ينقلوا الالياذة ولا الانياد ولا غيرهما من الروايات عند اليونان والرومان . لكنهم نقلوا شيئاً من هذا القبيل عن الفرس والهنود على يد عبد الله بن المقفع وجبلة بن سالم وغيرهما . فما نقل عن الفارسية كليلة ودمنة . وكتاب رستم واسفنديار . وكتاب الآداب الكبير . وهزار افسانة . وشهريزاد مع أبروز . والكارنامج في سيرة أنوشروان . ودارا والصنم الذهبي . وبهرام ونرسي

Digitized by Birzeit University Library

ومما نقل عن الهندية كتاب سندباد الكبير والصغير . وكتاب بوداسف وكتاب أدب الهند وغيرها . وقد ضاع أكثر هذه الترجمات وتغير ما بقي منها وتبدل حتى صار الى غير ما كان عليه

على أننا نرى بين أيدينا قصصاً وروايات مطبوعة يتداولها الناس ويقرأونها أشهرها قصة عنتر وألف ليلة وليلة وأبو زيد الهلالي والزير والملك سيف والملك الظاهر وعلي الزيبق وفيروز شاه ونحوها . فهذه القصص أكثرها وضع بعد العصر الثالث وانما يهمنا هنا القصص أو الروايات التي دونت في ذلك العصر أو قبله . وهي تقسم الى قسمين : الاول ما وضعه العرب من عند أنفسهم والثاني ما نقلوه عن غيرهم وتوسعوا فيه — واليك تفصيل ذلك

١ ـ القصص التي وضعوها

أما ما وضعوه فيرجع في الغالب الى تصوير مناقب الجاهلية وحال الاجتماع فيها . كالحماسة والوفاء والجوار والشجاعة والعصبية والثأر ونجد هذه المناقب ممثلة في أخبارهم وأيامهم المشهورة قبل الاسلام وهي حقائق تاريخية تناقلوها بعد الاسلام . وكانوا يتلون تلك القصص في صدر دولتهم على جندهم لتحميسهم واستحثاث بسالتهم اذا قاموا لفتح أو حرب . كذلك كانوا يفعلون بتلاوة أشعار عنترة وغيرها على أيدي القصاص قبيل المعارك لهذا الغرض

فلما تحضروا وأنشأوا الدول عمدوا الى بعض تلك الاخبار فوسعوها في شكل روائي يشوق الى المطالعة . ولم يكن ذلك مقصوداً في بادىء الرأي وانما كانت القصة تكبر وتتسع تدريجاً بالتناقل الشفاهي قبل تدوينها . ومما أن المراد منها التحميس لا تقرير الحقيقة فكان الراوي يبالغ في القصة ويزيد فيها ما يثير الحماسة على ما تقتضيه الاحوال . والقصة تنمو وتتشعب حتى يفضي بهم الامر الى تدوينها بشكل الروايات الحماسية فيدونونها كما صارت اليه ـ هكذا فعلوا في أكثر قصصهم ورغبة في تصويرها بشكل الحقيقة أسندوا أخبارها الى بعض الرواة المشهورين كالاصمعي وأبي عبيدة وأمثالهم . وتنوسي مؤلفوها الحقيقيون بتباعد العهد بهم كما تنوسيت أسماء مؤلفي أكثر القصص القديمة عند الافرنج

وقد نضج هذا الفن عند العرب في العصر العباسي الثالث فدونت تلك الروايات أو القصص قبل انقضائه . وهي تتفاوت بعداً عن الحقيقة وقرباً منها

Digitized by Birzeit University Library

وصار بعضها يتلى في المنازل والأندية لمجرد التسلية ولم يصلنا منها كاملا ناضجاً الا قصة عنتر

قصة عنتر

هي أكبر القصص الحماسية العربيـة أو هي عدة قصص متداخلة متسلسلة لا تحتاج في تعريفها الى تفصيل لاشتهارها وشيوعها . وانما نقول بالاجمال انها قصة حماسية غرامية تمثل آداب الجاهليـة وأخلاق أهلها وحروبهم وعاداتهم . وأكثر الاسماء الواردة فيها لها مسميات تاريخية حقيقية لكنها مسبوكة في سياق قصة والمبالغة ظاهرة فيها . والمشهور أنها وضعت في أواخر القرن الرابع للهجرة . وضعها رجل اسمه يوسف بن اسماعيل في زمن الخليفة العزيز بالله الفاطمي بمصر لسبب تقدم ذكره . وقد بينا هناك أن هذا الرجل ليس هو واضعها دفعة واحدة بل تكونت بالتدريج . وهي أحسن القصص العربيـة وأفيدها وقد عني الافرنج بنقلها الى ألسنتهم كاملة وملخصة وطبعت في العربية مراراً عديدة في بضعة آلاف صفحة

قصة البراق

وهناك طائفة من الروايات الحماسية العربية وقف نموها في أوائل تكونها لانهم أسرعوا في تدوينها ولا تزال عليها صبغة الاخبار التاريخية وتعد من قبيل التاريخ أو أيام العرب الجاهلية

منها مجموعة لعمر بن شبة المتوفي سنة ٢٦٢ هـ سماها الجمهرة تشتمل على عدة حوادث أكثرها وقع بين ربيعة وغيرهم كما أن قصة عنتر بين عبس وسواهم . لكن المطالع يتبين من مواقف كثيرة أن هذه الاخبار متوسطة بين التاريخ والقصة . بطلها الأشهر اسمه البراق وهو شاعر قديم من ربيعة من أقرباء المهلهل وكليب . وله تاريخ مختصر فيه حماسة مثل تاريخ عنترة وله خبر مع ابنة عمه ليلى بنت لكيز وأشعار حماسية وفخرية . وقد توسع خبره هذا بتوالي الأيام كما توسعت قصة عنتر لكنه لا يزال أصغر حجما وأقرب الى الحقيقة منها . وقصته هذه لا تعرف باسمه وانما هي مجموعة أخبار عن وقائع حربية ضمنها ابن شبة كتاب الجمهرة في خمس قصص متسلسلة :

القصة الاولى مبنية على قتل الحارث بن عباد من ضبيعة (بطن من ربيعة) للفضيل بن عمران من سدوس (بطن من طي) بسبب قنص اختصما عليه فانتشبت

Digitized by Birzeit University Library

الحرب بين القبيلتين ثم بين ربيعة وطي وقضاعة . ودخل فيها البراق وهو من رؤساء ربيعة وابن أخت زعيم الطائيين شيبب بن لهيب . فاجتمعت قبائل ربيعة تحت راية البراق وكليب وجرت بين الطائفتين ثماني وقائع قد تكون في أصلها تاريخية لكن سياقها يدل على توسع فيها على سبيل الرواية . واستغرقت هذه القصة ٢٦ صفحة واسناد الحديث فيها الى ذؤيب بن نافع

يليها قصة قطيعة مضر وربيعة . ثم خروج لكيز . وهما صغيرتان . ثم قصة سبي ليلى بنت لكيز من وائل الى بلاد العجم وما جرى بسبب ذلك من الحروب بين العرب والعجم والروم . وبطل الرواية البراق المذكور . واستعانوا بمضر وزعيمها نوفل بن عمرو . وأخبار البراق في هذا القسم أقرب الى الرواية لانها تشبه ما يروى عن عنترة ويتخلل ذلك أشعار حماسية

ويليها حروب بين وائل والعنبين سببها أن أسيراً كان عند كليب فقتله كليب . ودخل في هذه القصة كليب ومهلهل . وأخيراً حرب البسوس وهي قصة قائمة بنفسها استغرقت مائة صفحة كبيرة يتخللها حوادث عنترية وحماسات ومبارزات ومناشدات وغير ذلك حتى يخيل للقارىء أنه يطالع قصة عنتر . لكنها أصح لغة وأقرب الى أسلوب صدر الاسلام وأقل مبالغة . ولعلها لو تداولتها الايدي وتناقلها القصاص شفاهاً الى العصر الذي دوّنت فيه قصة عنتر لصارت مثلها . ولكنها دوّنت قبلها بقرن وبعض القرن . والجمهرة موجودة خطاً في دار الكتب المصرية

قصة بكر وتغلب

ومن هذا القبيل كتاب بكر وتغلب ابني وائل وفيه خبر كليب وجساس . والقصة فيه أقرب الى التاريخ منها الى الرواية تشتمل على وقائع لها ذكر في التاريخ . وقد زاد فيها المؤلف قصائد وتفاصيل نظمها خيالية أراد بها بيان حماسة العرب وقوة ربيعة على الخصوص . وهي منسوبة في روايتها الى محمد بن اسحق . أو لعل الكاتب أخذ شيئاً من رواية ابن اسحق وأتمها من عند نفسه والكتاب مطبوع في بمباي سنة ١٣٠٥ تقع في ١٢٠ صفحة كبيرة

قصة شيبان مع كسرى أنوشروان

هي قصة تاريخية تقع في سبعين صفحة مطبوعة في بمباي مع تلك لكنها أقرب منها الى الرواية الخيالية . مبنية على حادثة تاريخية في أصلها وتوسع المؤلف بها . فجعل سبب الحروب بين شيبان وكسرى أنوشروان ان كسرى طلب من

Digitized by Birzeit University Library

النعمان ابنتـه الحرقة بنت المتجردة فقامت الحرب بسبب ذلك . ويتخلل تلك الحوادث قصائد تنم عن حداثة نظمها فضلاً عن قصائد حقيقية نظمها أبطال تلك الرواية . ومجمل الحديث فيها مروي عن بشر بن مروان الاسدي عن ابن نافع التيمي

والتوسع في الوقائع التاريخية حتى تصير بشكل الرواية ليس من مبتدعات العرب بل هو عام في الامم القديمة قبل التدوين لان القصص تنمو بالتناقل بسليقة في فطرة الانسان من الميل الى المبالغـة فيما يقصه التمـاساً لاعجاب السامع . وفي بعض الناس ميل الى زويق العبارة وتطويلها والتوسع فيها . وبتوالي الاجيـال تنمو الحادثة وتصير قصة . وأكثر روايات الامم القديمة من هذا القبيل . وأكثرها شيوعاً بيننا الياذة هوميروس فان لهـا أصلاً تاريخياً هو حصار طروادة اتسع بتوالي الاجيال حتى انتهى الى هوميروس فدوّنه أو أتمه فنسبت روايته اليـه كما تنسب رواية قصة بني شيبان وكسرى الى ابن نافع . ولم يبلغ العرب ما بلغ اليـه اليونان من المبالغة فان هؤلاء انزلوا الآلهة الى ساحة الحرب

الروايات الغرامية

ومما وضعه العرب من عند أنفسهم أيضاً قصص العشاق العذريين ونحوهم . وفيها تمثيـل العفة أو التفاني في سبيل الحب . بنوها على ما جاء في أخبار عشاق صدر الاسلام ككثير لبني وجميل بثينة . فألفوا قصصاً غرامية نضجت قبل انقضاء العصر الثالث الذي نحن في صدده . منها كتاب عمر بن أبي ربيعة الشاعر المشهور بالنسيب . وكتاب مليكة ونعم وابن الوزير . وأحمد وداحة . وقصة أبي العتاهية وعتب . وأحمد بن قتيبة وبانوحة . ووضعوا قصصاً غرامية عن غير المشهورين من عشاق العرب كقصة علي بن أديم ومنهلة وقصة عمرو بن صالح وقصاف . وقصصاً في الحبائب المتطرفات من النساء كقصة ريحانة وقرنفل . ورقية وخديجة . وسكينة والرباب . وهنـد وابنة النعمان . وسلمى وسعادة . وغيرها . وقد ذكر صاحب الفهرست عشرات منها ومن قصص بين الانس والجن وغير ذلك . وأكثرها ضاع وما بقي منها أدخلوه في قصة ألف ليلة وليلة

٢ ـ القصص المنقولة

أما ما نقله العرب من القصص عن اللغات الأخرى فهو يمثل على الغالب آداب

الامة التي نقلت القصة عنها . وأكثرها نقل عن الفرس والهند فهي لذلك تمثل آداب تينك الامتين . وقد ذكرنا أسماء بعضها وذكر الفهرست عشرات منها وقصصاً وأسماراً يونانية ضاعت كلها ولم يصلنا منها الا ما في رواية الف ليلة وليلة من تلك الاقاصيص

ألف ليلة وليلة

هي مجموع قصص متسلسلة تقع في بضعة آلاف صفحة . وهي مشهورة ومتداولة ولها طبعات عدة . واختلف الباحثون في أصلها وتاريخها . وعندنا أنها مؤلفة من قصص تجمعت بتوالي الأجيال مما ترجموه أو وضعوه . ولها أصل نقل عن الفارسية قبل القرن الرابع للهجرة نعني كتاب « هزار افسانة »

روى ذلك المسعودي المتوفي سنة ٣٤٦ هـ قال : « وقد ذكر كثيرٌ من الناس أن هذه الاخبار موضوعة من خرافات مصنوعة نظمها من تقرب للملوك بروايتها وأن سبيلها سبيل الكتب المنقولة الينا والمترجمة لنا من الفارسية والهندية والرومية مثل كتاب افسان وتفسير ذلك في الفارسية (خرافة) . ويقال له افسانة والناس يسمون هذا الكتاب الف ليلة وليلة وهو خبر الملك والوزير وابنته وجاريتها شهر زاد ودينار زاد »

وجاء بعده ابن النديم البغدادي صاحب الفهرست الآتي ذكره فقال في أصل وضع كتاب هزار أفسانة هذا في الفارسية : « ان ملكا من ملوكهم كان اذا تزوج امرأة وبات معها ليلة قتلها من الغد فتزوج بجارية من أولاد الملوك لها عقل ودراية يقال لها شهر زاد فلما حصلت معه ابتدأت تخرّفه وتصل الحديث عند انقضاء الليل بما يحمل الملك على استبقائها ويسألها في الليلة الثانية عن تمام الحديث الى أن أتى عليها ألف ليلة فرزقت منه ولداً أظهرته وأوقفت الملك على حيلها عليه فاستعقلها ومال اليها واستبقاها . وكان للملك قهرمانة يقال لها دينار زاد فكانت موافقة لها على ذلك . وقد قيل ان هذا الكتاب تأليف لحماي (الصحيح اهما) ابنة بهمن » وهذا الوصف ينطبق على ألف ليلة وليلة تمام الانطباق

وذكر ابن النديم في مكان آخر أنه شاهد هذا الكتاب وأنه غث بارد . ولا ندري الآن أي جزء من ألف ليلة وليلة هو

Digitized by Birzeit University Library

فالعرب نقلوا هذا الكتاب من الفارسية قبل القرن الرابع للهجرة ثم أضافوا اليه ووسعوه وغيروا وبدلوا فيه حتى صار كما وصل الينا . ومن يطلع عليه يجد فيه قصصاً يدل أسلوبها وألفاظها وبعض ما حوته من العادات أنها كتبت بعد ذلك بقرون عدة كشرب القهوة وذكر بعض الحكام المتأخرين من المماليك أو رجالهم كأبي طبق ونحوه . ولا يعلل ذلك الا بما تقدم من توسيع القصة الأصلية المنقولة عن الفارسية باضافة قصص وأسمار كانت شائعة بين الناس مما وضعوه هم أو نقلوه عن سواهم

والأرجح أن تأليفها على الصورة التي وصلت بها الينا تم بعد القرن العاشر للهجرة وأكثر تلك الزيادات حدثت في مصر . ولعلنا لو أتيح لنا الوقوف على الترجمة الاصلية لهزار أفسانه لوجدنا الفرق بينها وبين قصة ألف ليلة وليلة كالفرق بين أوذيسة هوميروس وانيادة فرجيل . فان هذه أكثرها منقول عن الاوذيسة ومع ذلك فهي تنسب الى فرجيل . ولهذا السبب يصح ان يقال عن ألف ليلة وليلة إنها من مؤلفات العرب وان كان بعضها لا يزال على أصله الفارسي

وهي كما وصلت الينا تمثل الآداب الاجتماعية في القرون الاسلامية الوسطى ويدخل في ذلك الانهماك في الملذات والتهتك . وقد وصفت المرأة فيها وصفاً يدل على ضعفها وسوء ظن الرجل فيها وفي آدابها . وفي الكتاب كثير من قصص العفاريت وعجائب الخلق وغرائب الحوادث مما يصوره الوهم والخيال . وسواء كان ذلك مما نقل عن الفرس أو مما وضعه العرب فانه من طبيعة تلك العصور . وقد تولد بالنمو التدريجي قبل تدوينه لميل الانسان من فطرته الى المبالغة كما تقدم . فأخبار السندباد البحري وغرائب ما شاهده في أسفاره من الاسماك الكبيرة الحجم التي يبلغ طولها مئات من الاذرع ومنها ما هو بصفة البقر أو الحمير والوادي الذي حجارته من الالماس ويعج بالافاعي عجيجاً وجبل القرود والثعابين التي تأكل الآدميين وطير الرخ الذي يشبع من فرخه الصغير عشرات من الناس واذا كبر سطا على السفن وكسرها بصخور يلقيها عليها — ونحو ذلك مما يخالف المألوف عندنا الآن فانه لم يوضع دفعة واحدة وانما نما بالتناقل وأصله مبالغة قليلة رواها أهل الرحلة

Digitized by Birzeit University Library

على أن ذلك ليس خاصاً بالشرقيين كما يتهمنا بعض العلماء من الافرنج بل هو يتناول سائر الامم في تلك العصور من الميل الى المبالغة في رواية الغرائب . ولا سيما فيما تلذ المبالغة فيه من أخبار الابطال والفاتحين . والافرنج أكثر مبالغة في ذلك من العرب . فان هؤلاء نسبوا الى عنترة مقابلة المائة والمئتين أو أكثر من الرجال وحده وذلك مع بعده لا يخالف نواميس الطبيعة . وأما الافرنج في قرونهم الوسطى فانهم نسبوا الى الاسكندر المقدوني خرافات تخالف النواميس الطبيعية

فقالوا إنه لقي في اثناء فتوحه أقواماً نصف أجسادهم السفلى آدمي والنصف العلوي وحشي . وأقواماً وحشيين لكل منهم ست أيدٍ . وانه حارب جنوداً من السلاحف وأخرى من التنين . وانه بارز مرة حيواناً هائلاً بثلاثة قرون وبارز مرة أخرى أسوداً وغيرها . وقد صوروا ذلك في كتبهم ونشروه بين عامتهم

ويتخلل حكايات ألف ليلة وليلة قصص قصيرة أبطالها من مشاهير العرب بالجود أو الحلم أو الوفاء أو غير ذلك . كقصة حاتم الطائي بعد موته وقصص معن بن زائدة ويحيى البرمكي وابنيه جعفر والفضل وابراهيم بن المهدي واسحاق الموصلي وعكرمة وخزيمة والرشيد والمأمون وغيرهم . وفيها قصص مغزاها حسن تمثل الصبر والتعقل والحكمة والتبصر في العواقب . ومعظمها كانت قصصاً مستقلة فادخلت عليها بتوالي الازمان . وبعضها يقرب من الواقع ويطابق سياق التاريخ . وفيها من الجهة الاخرى خرافات على ألسنة البهائم كقصة الدجاجة والبطة والاسد ونحوها

وعلى الجملة إنها مجموع قصص مختلفة المواضيع والاساليب والاغراض . عبارتها على الاجمال سهلة تختلف قوة وصحة باختلاف القصص وأعصرها . على انها لم تبق كما وضعت لان النساخ والطباعين نقحوها وهذبوا عبارتها . وقد طبعت مراراً ونقلت الى أكثر لغات أوربا نقولاً تختلف قرباً من الاصل وبعداً عنه بين اختصار وتهذيب . وبعضهم بالغ في الاختصار والتبديل حتى صارت الترجمة ليس عليها من قصة ألف ليلة وليلة الا اسمها . وفي بعض المواضع من هذه القصة عبارات تخجل الاديب من تلاوتها حذفت من بعض طبعاتها في بيروت ومصر

Digitized by Birzeit University Library

لما شاعت الترجمات الفارسية المتقدم ذكرها في العالم العربي أخذ الادباء في القرنين الثالث والرابع ينسجون على منوالها أو يجمعون مما بين أيديهم ما يشبهها وقد ذكر ابن النديم كتاباً شاهده بنفسه تأليف الجهشياري قال في وصفه: «وابتدأ أبو عبدالله محمد بن عبدوس الجهشياري صاحب كتاب الوزراء بتأليف كتاب اختار فيه ألف سمر من سمار العرب والعجم والروم وغيرهم كل جزء قائم بذاته لا يعلق بغيره . وأحضر المسامرين فأخذ عنهم **أحسن ما يعرفون** ويحسنون واختار من الكتب المصنفة في الاسمار **والخرافات ما يحلى بنفسه** . وكان فاضلاً فاجتمع له من ذلك أربعمائة ليلة وثمانون **ليلة كل ليلة** سمر تام يحتوى على خمسين ورقة . ورأيت من ذلك عدة أجزاء بخط أبي الطيب أخي الشافعي . وكان قبل ذلك من يعمل الاسمار والخرافات على ألسنة الناس والطير والبهائم جماعة منهم عبد الله بن المقفع وسهل بن هرون وعلى بن داود كاتب زبيدة وغيرهم » . ولم يصلنا من هذه الكتب وأمثالها غير ألف ليلة وليلة

وهناك طائفة من القصص الخرافية والنكت المجونية ظهرت قبل انقضاء العصر الذى نحن في صدده ككتاب حوشب الاسدي وكتاب جحا ونوادر أبي ضمضم ونوادر ابن الموصلي لم يبق منها الا القليل

الدرام

ونريد به الروايات التمثيلية وهو عظيم الاهمية عند الافرنج لانه يمثل لاخلاق والآداب والعادات على المسارح ليشاهدها الناس ويعتبروا بها . لكن العرب لم يعانوا التمثيل على المسارح ولا ألفوا فيه وقد عدَّ بعض المستشرقين المقامات كمقامات الهمذاني أو الحريرى من قبيل الدرام . ولا نرى مسوغاً لهذا القول والمقامات انما يراد بها الفائدة اللغوية لما يتوخونه فيها من البلاغة والالفاظ الغريبة وايراد الامثال والحكم . وليس المراد مغزاها كما يريد الافرنج من التمثيل . ونجل كتابنا عن أن يكون غرضهم من تأليفها العبرة أو الموعظة . وهي في الغالب مبنية على المجون وانتحال أسباب الكسب بالحيل ونحوها

ولعل السبب في تقاعد العرب عن فن التمثيل أنه يحتاج الى ظهور المرأة على المراسح وهم يتجافون عنه بسبب الحجاب . أو هو تابع لتباعدهم عن وضع

Digitized by Birzeit University Library

القصص الشعرية أو الشعر القصصي (ايوبه) الذي يحتاج الى توسيع الموضوع وتشعيبه وتفريعه . على أن أبا العلاء المعري نابغة الشعراء في العصر الثالث وضع شيئاً كالدرام نعني رسالة الغفران فانها تشبه أن تكون من نوع الكوميديا وان لم يقصد تمثيلها

ويظهر أن الشيعة في بلاد فارس لم يالوا بهذه الموانع في تمثيل مقتل الحسين في كربلاء فانهم يمثلون تلك الواقعة على المراسح في عاشوراء . وتبتديء هذه الرواية يوم خروج الحسين من مكة وتنتهي بقتله . أو هو الفصل الأخير منها ويسمونه « روز قتل » أي يوم القتل . فهذا الفصل يمثلونه يوم عاشوراء بحضور الشاه ورجال دولته في ساحة كبيرة فيشخصون الحسين وشمر والعباس وجعفر وزينب وسكينة وكلثوم وام ليلى وعمر بن سعد وغيرهم وكيفية الواقعة من أول النهار الى آخره ومقتل الحسين وأصحابه ـ يفعلون ذلك في ساحة ينصبون فيها الخيام عليها شارات الحداد . فيقوم شيخ يقرأ على الناس حكاية مقتل الحسين بنغم محزن ولا يكاد يبدأ بالقراءة حتى يهيج عواطف السامعين فيكون ويندبون وينوحون فيطوف عليهم شيخ بقطنة يلتقط بها دموعهم ثم يعصرها في قارورة تحفظ بها للاستشفاء . وقد وصف ذلك الاحتفال الرحالة موريه في رحلته الثانية الى فارس سنة ١٨١١ م

الانشاء في العصر الاموي

كان الانشاء في عصر الراشدين جامعاً مانعاً وفيه بلاغة وايجاز كما تقدم . وقد علمت ان الدولة الاموية عززت اللغة العربية وآدابها فكانت بلاغة القول في جملة ذلك . وكان الخلفاء والامراء ينشطون أهل الادب . وأكثر انشائهم في المراسلات بين الخليفة وعماله يتحدُّون بها مكاتبات عصر الراشدين . على ان اقتراب الدولة الاموية من الحضارة أثر في الانشاء ونوَّعه وأطاله ونشأت طائفة من الكتّاب (أي كتاب الرسائل) في الدولة فأصبحت الكتابة مهنة . وكان الخلفاء يتخيرون لهذا المنصب أبلغ المنشئين وكان للبلاغة نشأة في سياستهم كما كان للشعر لأن القوم يومئذ كانوا ما يزالون في عهد الفروسية والاريحية تقيمهم البلاغة وتقعدهم

وكان للامراء كتاب ينشئون لهم الرسائل لم يصلنا من أخبارهم الا القليل وكان الانشاء في أثناء ذلك يتنوّع ويرتقي حسب الاحوال وعملاً بناموس الارتقاء فلم

Digitized by Birzeit University Library

تنقض الدولة الاموية حتى صار للانشاء فيها صفة معيَّنة وطريقة مخصوصة وضعها وأتمها عبد الحميد بن يحيى كاتب مروان وصار له أسلوب خاص نسب اليه وتحدّاه الكتّاب فيه

الانشاء في العصر العباسي الاول

كان الانشاء كما تقدم انشاء الرسائل في المخاطبات والمكاتبات . ولكن هناك ضرباً من الانشاء نضج في العصر العباسي الاول نعني الانشاء المرسل في تأليف الكتب أو كتابة المقالات الطويلة في الوصف أو الموعظة أو الفلسفة — وهو غير أسلوب المراسلات . فان هذا أقرب الى الخطابة أو الشعر منه الى الاسلوب المتناسق الذي يقتضيه الاسترسال في وصف موضوع طويل متسلسل

ولم ينضج الاسلوب المرسل إلا في العصر العباسي الاول لاضطرار الناس الى التأليف من عند أنفسهم بأن يدوّنوا أفكارهم أو ينقلوا أفكار سواهم من اللغات الاخرى . وأشهر من فعل ذلك في العصر المذكور عبد الله بن المقفع في نقل كتاب كليلة ودمنة وغيره من الفارسية القديمة (الفهلوية) الى العربية

وكان ابن المقفع عريقاً في الفارسية عالماً بآدابها متمكناً من أساليبها لانها لغته ولغة آبائه . وكان يعرف اللغة اليونانية جيداً . وقد نشأ في البصرة في النصف الاول من القرن الثاني للهجرة وهي حافلة بالادباء والشعراء فبرع في اللغة العربية وآدابها وكان سليم الذوق ذا قريحة انشائية . ولما نقل كتاب كليلة ودمنة من الفارسية الى العربية جاءت عبارته شاملة للبلاغة والسهولة . وقد تحداها من جاء بعده لانه أقدم من حفظ انشاؤه في المواضيع الادبية باللغة العربية

وكتاب كليلة ودمنة أقدم ما وصل الينا من الانشاء المرسل من قلم رجل واحد هو من علماء الفرس وقد نقل الكتاب عن لغة الفرس . ونظراً لما يمتاز به الكتاب المذكور من السهولة والرشاقة عن سائر ما كتب في عصره أو ما بعده من كتب الادب يغلب على ظننا أنه اكتسب ذلك من تأثير أساليب اللغات الاخرى التي كان يعرفها ابن المقفع مع اقتدار خاص فيه على مثل ذلك الاسلوب . وقد قلّ من جاء بمثله بعده ولم يأت أحد بأحسن منه في بابه على ما بلغ اليه العلم من الرقي في العصر العباسي . وما نبغ فيه من عاية الكتاب المشاهير — مما يدلك على ان الانشاء قريحة خاصة مثل قريحة الشعر

Digitized by Birzeit University Library

الانشاء في العصر العباسي الثاني

فلما دخل العصر العباسي الثاني نبغت طبقة من الكتاب المنشئين لا يشق لهم غبار إمامهم الجاحظ وضع أسلوباً في الانشاء تحدّوه فيه . وذلك أنه جعل الجملة قطعاً صغيرة كالشعر لكن بدون وزن ولا قافية . أو هو سجع لا تشترط فيه القافية كقوله : « جنبك الله الشبهة وعصمك من الحيرة . وجعل بينك وبين المعرفة سبباً . وبين الصدق نسباً . وحبب اليك التثبت . وزين في عينيك الانصاف . وأذاقك حلاوة التقوى . وأشعر قلبك عز الحق . وأودع صدرك برد اليقين . وطرد عنك ذل اليأس . . الخ »

وقد أدخل الدعاء حشواً معترضاً يوجه الى المخاطب بصيغة المفرد كقوله :

« وليس حفظك الله مضرة سلاطة اللسان عند المنازعة . وسقطات الخطل يوم اطالة الخطبة . بأعظم مما يحدث عن العي من اختلال الحجة . وعن الحصر من فوات درك الحاجة . والناس لا يعيرون الخرس . ولا يلومون من استولى على بيانه العجز وهم يذمون الحصر ويؤنبون العي . . الخ »

وهذا الاسلوب في الانشاء ينسب الى الجاحظ وقد تو خاه معاصروه فنسجوا على منواله كابن قتيبة والمبرد وابن ثوابة وغيرهم . ومن أمثلة ذلك قول حمزة الاصفهاني جامع ديوان أبي نواس فانه من أهل العصر الثاني وأسلوبه كأسلوب الجاحظ ـ قال في مقدمة الديوان المذكور :

« سألتني أبقاك الله وأعلى قدرك وبلغك أقصى أملك . وزادك من أفضل ما خولك . وأحسن ما منحك . ولا أعدمك جميل ما عودك . أن اصرف لك عنايتي الى عمل مجموع من شعر أبي نواس . يشتمل على كل أشعاره . وجل أخباره . وقد أسعفتك أيدك الله بطلبتك وأجبتك الى ملتمسك . . الخ »

وهم يرون النزوع الى هذا التكرار أكثر ابلاغاً للمعنى وأشد تأثيراً في النفس حتى رأيناهم ينتقدون ما كان شائعاً من الايجاز في صدر الاسلام كقول يزيد لما كتب الى مروان حين بلغه تلكؤه في بيعته : « أما بعد فاني أراك تقدم رجلا وتؤخر أخرى فاعتمد على ايتهما شئت » قال ابن قتيبة في أدب الكاتب: « ان هذا لو قيل الآن لم يأت بالتأثير المطلوب . والصواب ان يطيل ويكرر ويعيد ويبديء ويحذر وينذر . . »

Digitized by Birzeit University Library

ولا يؤخذ من ذلك أن تكون أساليب الكتّاب في ذلك العصر واحدة من كل وجه فان ذلك غير طبيعي . والطبيعي أن يكون لكل كاتب اسلوب يعرف به . ولكن أبناء العصر الواحد تتشابه أساليبهم ويغلب أن يكون أحدهم مقداماً يسيرون على خطواته فيقلدونه في أسلوبه كل منهم جهد طاقته . والجاحظ في هذا العصر إمام أهل الأدب وقدوة المنشئين

كساد البضاعة وفساد العقيدة

وأصاب صناعة الادب في هذا العصر كسادٌ كما أصاب الشعر للاسباب التي قدمناها من فساد الدولة واشتغال الملوك والامراء عن التنشيط . وانصراف الناس الى الفلسفة والطبيعات والمنطق من العلوم الحادثة عندهم . وشيوع الشعوبية واحتقار العرب والطعن على كفاءتهم وعلومهم . فأصبح الادباء يشكون كساد بضاعة الادب وفساد عقيدة الناس بالفلسفة وتقاعد الادباء عن اتقان صناعة الانشاء

قال ابن قتيبة في أدب الكاتب : « رأيت كثيراً من كتاب زماتا كسائر أهله. قد استطابوا الدعة . واستوطأوا مركب العجز . واعفوا أنفسهم من كد النظر وقلوبهم من تعب الفكر . حين نالوا الدرك بغير سبب . وبلغوا البغية بغير آلة . ولعمري كان ذاك . فإن همة النفس وأين الانفة من مجانسة البهائم . وأي موقف أخزى لصاحبه من موقف رجل من الكتاب اصطفاه بعض الخلفاء لنفسه . وارتضاه لسره فقرأ عليه يوماً كتاباً ـ وفي الكتاب (ومطرنا مطراً كثر عنه الكلأ [1]) فقال له الخليفة ممتحناً (وما الكلأ) فتردد في الجواب وتعثر لسانه ثم قال (لا أدري) فقال له (سل عنه) ومن مقام آخر في مثل حاله قرأ على بعض الخلفاء كتاباً ذكر فيه (حاضرطي) فصحفه تصحيفاً أضحك منه الحاضرين »

ذلك ما بعث ابن قتيبة على وضع كتابه المشار اليه وذكر الشروط اللازمة لطالب هذه الصناعة ولا سيما سعة الاطلاع في العلوم الاسلامية والادبية فضلا عن اللغوية كأقامة الهجاء وتقويم اللسان وضبط الابنية

ومن انتقاده فساد عقيدة الادباء في عصره قوله :

« رأيت أكثر أهل زماتا هذا عن سبيل الادب ناكبين . ومن اسمه متطيرين ولأهله كارهين . أما الناشيء منهم فراغب عن التعليم . والشادي تارك للازدياد .

(١) الكلأ : العشب أو ما ليس له ساق رطبة ويابسة

Digitized by Birzeit University Library

والمتأدب في عنفوان الشباب ناسٍ أو متاس ليدخل في جملة المجدودين ويخرج عن جملة المحدودين . فالعلماء مغمورون وبكثرة الجهل مقموعون . حين خوى نجم الخير وكسدت سوق البر . وبارت بضائع أهله . وصار العلم عاراً على صاحبه . والفضل نقصاً . وأموال الملوك وقفاً على النفوس . والجاه الذي هو زكاة الشرف يباع بيع الخلق . وآضت المروءات في زخارف النجد وتشييد البنيان . ولذات النفوس في اصطفاق المزاهر . ومعاطاة الندمان . ونبذت الصنائع وجهل قدر المعروف . وماتت الخواطر . وسقطت همم النفوس . وزهد في لسان الصدق وعقد الملكوت . فأبعد غايات كاتبنا في كتابته . أن يكون حسن الحظ . قويم الحروف . وأعلى منازل أديبنا أن يقول من الشعر أبياتاً في مدح قينة أو وصف كأس . وأرفع درجات لطيفنا . ان يطالع شيئاً من تقويم الكواكب . وينظر في شيء من القضاء وحدّ المنطق . ثم يعترض على كتاب الله بالطعن وهو لا يعرف معناه . وعلى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتكذيب وهو لا يدري من نقله . . الخ »

وتكاثر أدعياء الانشاء في ذلك العصر عن غير معرفة وتوهموا انه يحلو بالاكثار من اللفظ الغريب فأضحى عليهم ابن قتيبة باللائمة . وأنى مثلاً على ذلك بقول يحيى ابن يعمر لرجل خاصمته امرأته فقال له : « ان سألتك ثمن شكرها وشبرك أنشأت تطلها وتضهلها » وكقول عيسى بن عمر ويوسف بن عمر بن هبيرة يضربه بالسياط : « والله إن كانت إلا أثيّاباً في أسيفاط قبضها عشاروك » قال ابن قتيبة : « فهذا وأشباهه كان يستثقل والادب غض . والزمان زمان . وأهله يتحلون فيه بالفصاحة ويتنافسون في العلم . ويرونه تلو المقدار في درك ما يطلبون وبلوغ ما يؤملون . فكيف به اليوم مع انقلاب الحال ؟ »

والمشهور ان عمدة كتب الادب والانشاء أدب الكاتب لابن قتيبة والكامل للمبرد والبيان والتبيين للجاحظ والنوادر لأبي علي القالي . ونزيد عليها العقد الفريد لابن عبد ربه والاغاني لابي الفرج الاصفهاني . واذا أريد الانشاء خاصة فكليلة ودمنة وسائر كتب ابن المقفع . وكلها مطبوع

ذلك كان شأن الانشاء في العصر العباسي الثاني وأكثر أدبائه من المنشئين . وسيخطو خطوة أخرى في العصر الآتي

Digitized by Birzeit University Library

الانشاء في العصر العباسي الثالث

تمكنت الحضارة من أسلوب الترسل في هذا العصر ـ ونعني بالترسل انشاء المراسلات على الخصوص . ويريدون به « معرفة أحوال الكاتب والمكتوب اليه من حيث الادب والمصطلحات الخاصة الملائمة لكل طائفة » . وهو الذي يتغير مع الاعصر كما بينا ذلك في كلامنا عن الانشاء في العصر الماضي . ويشتمل على المراسلات والخطب ومقدمات الكتب لان أساليبها متشابهة . أما انشاء الكتب أي عبارة المؤلفات التاريخية والعلمية التي يراد بها تقرير الحقائق بغير ارهاب أو تهديد أو تنبيه أو تحريض فهذه قلما يعتورها تغيير لان تقرير الحقائق العلمية أو التاريخية قلما تؤثر فيه الانفعالات النفسية فهو أقل مجاراة للاحوال الاجتماعية . ولذلك رأيت عبارة البلغاء من المؤلفين متشابهة يندر الاختلاف فيها ـ الا فيما يختص بنفس الكاتب وأسلوب تفكيره وموضوع كتابه . اذ أن لكل كاتب طريقة يعبرون عنها بالذوق ولكل فن مصطلحات خاصة تجعل للكتابة فيه نسقاً خاصاً . فعبارة الفقيه تختلف عن عبارة المؤرخ وهذه تختلف عن عبارة الحكيم أو الرياضي وقد يختلف أسلوب المؤلف الواحد باختلاف الموضوع الذي يكتب فيه . ولكنها ترجع كلها الى أسلوب خاص يختلف عن أسلوب الترسل

والكاتب في المواضيع العلمية لا يزال على أسلوب المؤلفين المتناسق المرسل حتى يقتضي الموضوع مخاطبة القارىء فينتقل الى أسلوب الترسل بالتسجيع أو نحوه حسب العصور . فاذا فرغ من الخطاب عاد الى الانشاء المرسل البسيط ـ الا طائفة من المؤلفين أرادوا زيادة التأنق في مؤلفاتهم فجعلوا عباراتها كلها مسجعة . وذلك نادر

أسلوب الترسل

لما كان المراد بالمراسلات والخطب التعبير عن العواطف والاميال وسائر الاحوال وهذه تختلف في الناس باختلاف آدابهم الاجتماعية وأحوالهم الادبية وهي تتغير بتغير الاحوال ـ كان الترسل أكثر تعرضاً للتغيير في أسلوبه وعبارته وهو ما نريد بيانه هنا

يغلب ان يكون لكل عصر إمام في إنشاء المراسلات يتحداه معاصروه . كذلك كان عبد الحميد وابن المقفع في العصر العباسي الاول والجاحظ في العصر الثاني .

Digitized by Birzeit University Library

وأما إمام الانشاء في هذا العصر فهو ابن العميد لاسباب سنبينها في ترجمة حاله . وقد رأيت ما أصاب هذا الانشاء في العصر الماضي على يد الجاحظ وأصحابه من تقطيع العبارة وإدخال الدعاء فيها بصيغة المخاطب بغير اشتراط السجع أو التفية . وعلمت ما يمتاز به هذا العصر من التوسع بأسباب الحضارة والترف نعني ما صار اليه الادباء والمنشئون من التبسط في العيش عن سعة ورخاء . لا يخافون مزاحمة أو فقراً لتعدد مصادر الارتزاق في دور الامراء والوزراء والخلفاء . فاذا خافوا سبقاً في بلاط نزحوا الى سواه ـ والرخاء يدعو الى التأنق فتطرق ذلك الى انشائهم فصاروا يتأنقون فيه كما يتأنقون بلباسهم وطعامهم وأثاثهم فأطالوا العبارة وتوسعوا في التسميع . ونبغ جماعة من أصحاب القرائح تساعدوا على ذلك حتى صار للانشاء في هذا العصر طريقة اتخذها أهل العصور التالية نموذجاً نسجوا على منواله . وهي الطريقة المدرسية في اصطلاح الافرنج (كلاسيك) وبعبارة أخرى أن الطريقه المدرسية للترسل العربي نضجت في هذا العصر كما نضج الانشاء الروماني في عصر شيشرون ثم أخذ في التقهقر . وهكذا أصاب الانشاء العربي بعد هذا العصر وللطريقة المدرسية في الانشاء العربي شروط هاك أهمها :

شروط الطريقة المدرسية في الانشاء العربي

١ ـ السجع : أصبح التسجيع شرطاً من شروط الترسل وهو من ثمار التأنق لما يقتضيه من العناية في اتقانه . فالرسالة المسجعة يظهر التأنق فيها اكثر من غير المسجعة . وتدل من جهة أخرى على تفرغ صاحبها للتنميق ولا يكون ذلك إلا في الرخاء ـ والسجع إذا أتقنت صياغته أكسب المعنى قوة . وقد اتقنه بلغاء العصر الثالث فرغب الناس فيه وتسابقوا اليه . لكن بعض معاصريهم من أدعياء هذا الفن كلفوا به عن غير مقدرة عليه فجاء بارداً . ومما يروى من هذا القبيل وفيه فكاهة ان الخاقاني الوزير كان يحب السجع حتى استخدمه في التوقيع على كتب العمال فوقع مرة : « إلزم وفقك الله المنهاج واحذر عواقب الاعوجاج واحمل ما أمكن من الدجاج إن شاء الله » فحمل العامل دجاجاً كثيراً على سبيل الهدية . فقال : « هذا دجاج وفرته بركة السجع » وأمر أن يباع ويورد ثمنه في الحساب فاورد منسوباً إلى ثمن دجاج السجع

٢ ـ الجناس والبديع : واكثروا من الجناس وهو من قبيل الترصيع للآنية

Digitized by Birzeit University Library

أو الوشي للثوب . لا يزيد الوشي الثوب نفعاً للابسه من حيث الغرض المراد منه كالدفء والستر ولكنه يزيده جمالاً . والجناس أو البديع لا يزيد العبارة معنى لكنه يكسبها رونقاً ولا سيما مع السجع . فقول أبي بكر الخوارزمي في كتابه الى نائب الوزير ابن عباد : « كتبت الى الاستاذ معاتباً مرة . ومستعتباً كرة . فما وجدت للعتاب اعتاباً . ولا قرأت عن الكتاب جواباً . وليت شعري ما الذي منعه عن صلة لا تضره وتنفعني . وعن تواضع لا يضعه ويرفعني » لو جعله مرسلاً بسيطاً لم يكن له ذلك الوقع في النفس

٣ ـ كثر فيه الخيال الشعري حتى أصبح سجعهم كالشعر المنثور لكنه مقفى فلا يعوزه غير الوزن ليصير شعراً

٤ ـ كثر تضمين مراسلاتهم الامثال أو النكت الادبية أو العبارات التاريخية أو العلمية التي تحتاج الى شرح كقول ابن العميد في رسالة الى أبي العلاء السروي : « وأحمد الله على كل حال وأسأله أن يعرفني فضل بركته . ويلقيني الخير في باقي أيامه وخاتمته . وأرغب اليه في أن يقرب على القمر دوره ويقصر سيره . ويخفف حركته ويعجل نهضته وينقص مسافة فلكه ودائرته . ويزيل بركة الطول من ساعاته . ويردّ عليّ غرة شوال فهي أسرّ الغرر عندي وأقرها لعيني . ويسمعني النعرة في قفا شهر رمضان . ويعرض عليّ هلاله أخفى من السر وأظلم من الكفر . وأنحف من مجنون بني عامر وأضنى من قيس بن ذريح وأبلى من أسير الهجر . ويسلط عليه الحور بعد الكور [١] ويرسل على رقاقته التي يغشى العيون ضوؤها ويحط من الاجسام نوؤها كلفاً يغمرها وكسوفاً يسترها » الخ

٥ ـ أكثروا فيه من الاستشهاد بالاشعار في أثناء مراسلاتهم وهو ترصيع جميل يزيد المعنى طلاوة ووضوحاً ويكسبه قوة على ابداء ما في خاطر الكاتب . وقد بالغ بعضهم في ذلك الترصيع حتى أصبح الشعر فيه أكثر من النثر . كقول الصاحب ابن عباد يصف فصلاً من كتب ابن العميد قال : « فصل رأيته فصيح الاشارة لطيف العبارة

اذا اختصر المعنى فشربة حائم وان رام اسهاباً أتى الفيض بالمد
فصل قد نظرته فرأيته جسماً معتدلاً وفهماً مشتعلاً
ونفساً تفيض كفيض الغمام وظرفاً يناسب صفو المدام

(١) النقصان بعد الزيادة

Digitized by Birzeit University Library

فصل قد عمهم بنعمه وغمرهم بشيمه

وغزاهم بسوابغ من فضله جعلت جماجمهم بطائن نعله » الخ

وتفنن آخرون بجعل الترصيع شطراً شطراً كقول الهمذاني من رسالة الى الخوارزمي :

أنا لقرب دار الاستاذ كما طرب النشوان مالت به الخمر

ومن الارتياح للقائه كما انتفض العصفور بلله القطر

ومن الامتزاج بولائه كما التقت الصهباء والبارد العذب

ومن الابتهاج بمزاره كما اهتز تحت البارح الغصن الرطب

٦ ـ صار للرسائل نمط خاص تراه ممثلاً في رسائل ابي بكر الخوارزمي وابي منصور الثعالبي وأمثالهما من كتاب ذلك العصر . فالرسالة تبدأ غالباً بمخاطبة المرسل اليه بلقبه او نعته بعد الاشارة الى كتابه . ويتلو ذلك مخاطبته بصيغة الغائب كقولهم : « ورد كتاب الامير يأمرني فيه بكذا وكذا الخ » وقولهم : « قد حملت الى حضرة الشيخ ابياتاً عاتبته بها » وهو يريد الشيخ المخاطب . وقد يأتي اللقب مشفوعاً بالدعاء بصيغة الغائب ايضاً كقول ابي بكر الخوارزمي في كتاب الى محمد بن ابراهيم صاحب الجيش وكان محبوساً وخرج من الحبس : « كتبت ايد الله صاحب الجيش وقد خرجت من تلك الاهوال خروج المشرفي من الصقال الخ » وقد يجعلون الخطاب بصيغة المخاطب في بعض الاحوال

٧ ـ تفرع الترسل الى أبواب عملاً بسنة النشوء كما تفرع الشعر . فصارت الرسائل تقسم الى رسائل التهنئة والتعزية والمديح والرثاء والى الاخوانيات والسلطانيات ونحو ذلك

٨ ـ تمتاز مقدمات الكتب أو خطبها بتقديم الحمدلة والصلاة على النبي وتختم بآية يحسن الختام بها كقولهم : « وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت » أو بالحسبلة ونحوها

٨ ـ اختصاص كل طبقة من الوجهاء ورجال الدولة بنعوت خاصة بها . فان تفاوت رجال الدولة بالمنزلة والنفوذ اقتضى أن تتفاوت اساليب مخاطباتهم . واستقر ذلك على وجه معين في العصر العباسي الثالث . فاصبح عندهم لكل طبقة من رجال الدولة نعوت تفتتح بها مخاطباتهم وعبارات تعنون بها كتبهم وأدعية يدعون بها لهم . كقولهم في مخاطبة أولاد الخليفة في زمن المقتدر بالله : « أطال بقاء الامير » ولمؤنس المظفر : « أطال الله بقاءك وأعزك وأكرمك وأتم نعمته واحسانه

Digitized by Birzeit University Library

اليك» والعنوان: « لابي الحسن اطال الله بقاءه » ولصاحب اليمن ونحوه: « أكرمك الله ومدّ في عمرك وأتم نعمته عليك وآدامها لك » وقس عليه

١٠ ـ صار الانشاء فناً له الالفاظ خاصة سموها الالفاظ الكتابية لا يتجاوزونها الى سواها . وتولدت فيه مصطلحات خاصة لاساليبه وعباراته كالتشجيع والترصيع

الانشاء في العصر العباسي الرابع

قد رأيت في كلامنا عن الانشاء في العصر العباسي الثالث انه نضج في ذلك العصر وتعينت له قواعد تحداها من جاء في العصر الرابع وما بعده . ونبغ في هذا العصر جماعة من المنشئين قلّ من تفرغ منهم للانشاء كما فعل ادباء العصر الثالث فاشتغل بعضهم في التاريخ او غيره . وانما نقول كلمة في الانشاء على الاجمال ـ ونريد انشاء الرسائل او الترسل والخطب ومقدمات الكتب

لما تمكنت السيادة للاعاجم اصبح العرب وغيرهم من أهل الادب في حاجة الى التملق . فجرهم ذلك الى تمييق العبارة والمبالغة في الاطراء والتأنق في الانشاء مع ما تقتضيه طبيعة العمران من التبسط في الحضارة والاسترسال في تزويق العبارة بانواع البديع والجناس ـ شأن المتحضرين في سائر احوالهم فانهم يجنحون الى اسباب الرخاء والتأنق في كل شيء . وتجاوزوا في الانشاء ما وضعه ادباء العصر الثالث من القواعد التي سميناها مدرسية

كان التنميق في العصر العباسي الثالث يزيد الانشاء رونقاً للاكتفاء بالقدر اللازم على ما يقتضيه الذوق السليم من سجع أو جناس أو كناية . فاستحسن أهل العصر الرابع ذلك فاسترسلوا فيه وتجاوزوا حده فآل الى عكس المراد ـ كالثوب أرادوا به في أصل صنعه اتقاء البرد أو ستر العورة ثم رأوا انهم اذا تفننوا بشكله من اطالة الذيل او توسيع الاكمام أو زركشة الاطراف ببعض الالوان يزداد رونقاً وجمالاً ففعلوا لكن بعضهم يكثر من تلك الزينة ويبالغ في التأنق حتى يتجاوز الحد وينقلب الى الضد . بحيث يصير الثوب كأنه وضع للزينة فقط ، وقد يعود بالضرر ـ ذلك ما اصاب الانشاء (أو الترصد) لما أراد أصحابه الاكثار من تزيينه ولم يكتفوا بالقدر اللازم فأصبح كأن المراد به الزينة دون الفائدة وانصرفت العناية الى اللفظ دون المعنى . وتنافس الكتاب في ذلك بين جناس وبديع وسجع وإغراب في اللفظ حتى اصبح الترسل مغلقاً على غير المتبحرين كما فعل عماد الدين

Digitized by Birzeit University Library

الاصفهاني عمدة المنشئين في ذلك العصر فانه بالغ في التأنق حتى استخدمه في كتابة التاريخ فضلا عن الرسائل والخطب . وتراه ظاهراً في كتابة الفتح القسي الذي أرخ فيه فتح صلاح الدين بيت المقدس . فان في عبارته مالا يحل الا بالتأمل أو مراجعة المعاجم وهذا مثال منها : « ثم رحل من عسقلان للقدس طالباً . وبالعزم غالباً . . وللنصر مصاحباً . ولذيل العز ساحباً . وقد أصحب[١] ريض[٢] مناه وأخصب روض غناه . وأصبح رائح الرجاء . أرج الارجاء . سيب[٣] العزف[٤] . طيب العَرْف[٥] . ظاهر اليد . قاهر الايد[٦] . سنا عسكره قد فاض بالفضاء فضاء . وملأ الملا فأفاض الآلاء . وقد بسط عثير[٧] فيلقه[٨] ملاءته على الفلق[٩] وكأنما أعاد العجاج رأد الضحى جنح الغسق[١٠] فالارض من إجحاف[١١] الجحافل[١٢] والسماء حاظية[١٣] بأقساط القساطل[١٤] الخ . » وقس عليه من عاصره أو نسج على منواله من المتأنقين في الانشاء . لكن ذلك بحمد الله لم يتناول كتب العلم والتاريخ والادب في هذا العصر إلا قليلا

نقد الانشاء او النقد البياني

اقدم من تصدى لهذا الموضوع ابن قتيبة المتوفي سنة ٢٦٧ هـ في كتاب ادب الكاتب . واقتدى به كثيرون ممن جاء بعده من الادباء والبلغاء كالخوارزمي والثعالبي والعسكري والآمدي والماوردي . لكنهم انتقدوا الانشاء عرضاً أو في فصل أو مقالة . وربما أفرد بعضهم كتاباً في انتقاد الالفاظ الشائعة على اقلام الكتاب او ما يشوب انشاءهم من الركاكة او الاغلاط . وقد يأتون ذلك في عرض كلامهم عن بلاغة القرآن كما فعل القاضي ابو بكر الباقلاني المتوفي سنة ٤٠٣ في كتابه اعجاز القرآن فانه أتى في اثنائه بفوائد انتقادية هامة عن الانشاء والبلاغة . وكان مشهوراً بجودة الاستنباط وهو من كبار علماء الكلام

---

(١) انقاد (٢) الدابة أول ما تراض وهي صعبة بعد (٣) لعلها سيب بمعنى سائب من ساب الماء أي جرى وذهب كل مذهب (٤) العزف مصدر بمعنى الاقامة في الاكل والشرب (٥) غالى (٦) القوة (٧) العجاج (٨) الجيش (٩) الصبيح (١٠) ظلمة أول الليل (١١) مصدر أجحف به اي احتمله وذهب به واهلكه (١٢) الجيوش الكثيرة (١٣) من حظي بالرزق أي نال حظاً منه (١٤) جمع قسطل وهو غبار الحرب

Digitized by Birzeit University Library

اما نقد الانشاء من حيث هو فنّ ذو قواعد فتصدى له الجرجاني في كتابه اسرار البلاغة في علم البيان وهو واضع اساس هذا العلم في العربية على قواعد راسخة ـ قال في سبب ما بعثه على ذلك انه رأى فساد ملكة الانشاء وانصراف الكتاب عن المعاني إلى الالفاظ فوضع كتابه المشار اليه في البلاغة . وتوسع فيه من جاء بعده من أئمة اللغة وارباب البلاغة حتى صار الانشاء علماً يبحث فيه عن المنثور من حيث انه بليغ وفصيح . ويشتمل على الآداب المعتبرة من العبارات المستحسنة واللائقة بالمقام . وموضوع علم البيان كما عرفه اصحابه : « إيراد المعنى الواحد بتراكيب مختلفة في وضوح الدلالة على المقصود بأن تكون دلالة بعضها أجلى من بعض »

ويدخل في ذلك ايضاً انتقاد اللغة من حيث صيغ الالفاظ ومعانيها واستعمالها في اماكنها . وهو قديم ادركه ادباء العصر العباسي الاول فألفوا في لحن العامة والخاصة . اشهرهم ابو عبيدة والسجستاني والمفضل بن سلمة والزبيدي والعسكري وغيرهم . ومن هذا القبيل درة الغواص في اوهام الخواص للحريري والانتقادات اللغوية كثيرة منذ اشتغل العرب في تدوين لغتهم وانتشب الجدال بين البصريين والكوفيين . وتصدى جماعة من العلماء لانتقاد المعاجم وغيرها من كتب اللغة مما يطول شرحه

وإنما نحصر الكلام الآن في البلاغة او البيان فالجرجاني واضع اسس هذا العلم ثم جاء السكاكي وغيره فتوسعوا فيه واستحسنه المنشئون وبالغوا في التنميق حتى صاروا إلى التكلف والتأنق . وتوسعوا في شرح قواعده وزادوا عليه حتى بلغ إلى مانعرفه من امره . ومن الكتب الوافية في علم البيان « المثل السائر » لضياء الدين ابن الاثير الجزري وقد توسع في ابواب البلاغة وشروطها وانتقادها من حيث الصناعة اللفظية والصناعة المعنوية . ثم الف كثيرون في الانشاء وانتقاده في سبيل علم البيان أو البلاغة او في سبل اخرى . ولابن خلدون في مقدمته فصول في هذه المواضيع جزيلة الفائدة . وكلهم انتقدوا التسجيع إلا بشروط عينوها فوضعوا للبلاغة قواعد ترجع في الحقيقة إلى الذوق

Digitized by Birzeit University Library

أشهر المنشئين والادباء

نبغ من الادباء والمنشئين عدد كبير في تاريخ العرب وقد اخترنا منهم اثنى عشر اديباً كأمثلة للحركة الادبية في التاريخ

عبد الله بن المقفع

توفي سنة ١٤٣ هـ

هو إمام هذه الطبقة وكان فى بادىء أمره مجوسياً فأسلم على يد عيسى بن علي عم السفاح ثم اختص بالمنصور وكتب له حتى قتل وهو في مقتبل العمر لم يتجاوز ٣٦ سنة لكنه خلف آثاراً حفظت ذكره قروناً ولا تزال ـ اهمها :

كتاب كليلة ودمنة

هو كتاب في اصلاح الاخلاق وتهذيب النفوس وضعه فيلسوف هندي اسمه بيدبا منذ نيف وعشرين قرناً لملك من ملوك الهند اسمه دبشليم ذكروا انه تولى الهند بعد فتح الاسكندر وطغى وبغى فأراد بيدبا اصلاحه وتدريبه فألف هذا الكتاب وجعل النصح فيه على ألسنة البهائم والطيور على عادة الهنود البراعمة في عصورهم القديمة فانهم كانوا يروون الحكمة على ألسنة الحيوانات لاعتقادهم بتناسخ الارواح . والمظنون أن معظم ما يتناقله الناس من أمثال هذه الاقاصيص أصله من الهند . وقد صنف في هذا الموضوع وعلى هذه الكيفية غير واحد من الحكماء . ويقال ان بيدبا أول فاتح لهذا الباب

وترجع مواضيع النصح في هذا الكتاب الى ما يحتاج اليه الناس في معاملاتهم كوجوب الابتعاد عن سماع كلام الساعي والنمام ووخامة عاقبة الاشرار ومنافع الاصحاب وعدم جواز الامن من كيد العدو ومضار الاهمال والغفلة وآفة التعجيل وفائدة الحزم وعدم الاعتماد على أرباب الحقد ونحو ذلك مما يهذب النفوس ويرقي العواطف في حكايات يتفرع بعضها عن بعض

وقد كتب أولاً باللغة الهندية السنسكريتية في ١٢ باباً ونقل الى لغة التيبت فاللغة السريانية ثم الى الفهلوية أي الفارسية القديمة وعنها نقل ابن المقفع الترجمة العربية وصدرها بمقدمة سماها « عرض الكتاب » وصف بها الكتاب وأفاض في التحريض على مطالعته . فلما اطلع العرب على فوائده أعجبوا به وأخذوا

Digitized by Birzeit University Library

يتدارسونه ويتناقلونه وكأن علماء اللغة وأدباءها حسدوا ابن المقفع على سبقه في ترجمته فاقدم بعضهم على نقله ثانية واشتغل غيره بنظمه شعراً تسهيلا لحفظه وتصدى آخرون لمعارضته . على أن الترجمات ذهبت كلها الا ترجمة ابن المقفع التي هي بين أيدينا وقد تعدلت بتوالى الازمان بين تنقيح وتصدير وتذليل فبلغت ابوابها ٢٩ باباً بعضها هندي الاصل والآخر فارسي والآخر عربي

فالابواب الهندية ١٢ وهي : باب الاسد والثور . الحمامة المطوقة . البوم والغربان . القرد والغيلم . الناسك وابن عرس . الجرذ والسنور . الملك والطائر فنزه . الاسد وابن آوى . اللبوة وبلاذ وابرخت . السائح والصائغ . ابن الملك وأصحابه

والفارسية ثلاثة : مقدمة برزويه وباب بعثة برزويه وباب ملك الجرذان

وهناك ستة أبواب لم تكن معروفة قبل الترجمة العربية نعني مقدمة الكتاب على لسان بهنود بن سحوان المعروف بعلي بن الشاه الفارسي . وباب عرض الكتاب لابن المقفع وباب الفحص عن أمر دمنه وباب الناسك والضيف وباب مالك الحزين والبطة وباب الحمامة والثعلب ومالك الحزين . وبعض هذه الفصول لا يوجد الآن في النسخ المطبوعة من الترجمة العربية

ثم فقد الاصل الهندي والترجمة الفهلوية ولم يبق غير العربية وعنها أخذت الامم هذا الكتاب الى ألسنتها . فنقل الى السريانية مرة ثانية والى اليونانية والايطالية والفارسية الحديثة والتركية والعبرانية واللاتينية والاسبانية والملقية والانجليزية والروسية . ونقل عن بعض هذه التراجم الى لغات أخرى

سائر مؤلفاته

كتاب الادب الصغير : في الاخلاق والمواعظ وفلسفة الاجتماع

كتاب الدرّة اليتيمة ويسمى أيضاً كتاب الادب الكبير : هي رسائل في النصح والارشاد

رسالة في الاخلاق

وله كتب أخرى أدبية واخلاقية نقلها عن الفارسية منها كتاب التاج في سيرة انوشروان وكتاب سير ملوك العجم لم نقف عليها . لكن منها نقلاً نقلها ابن قتيبة في كتاب عيون الاخبار

Digitized by Birzeit University Library

الجاحظ

توفي سنة ٢٥٥ هـ

هو ابو عثمان عمر بن بحر بن محبوب الكناني الليثي بالولاء من اهل البصرة ويعرف بالجاحظ لجحوظ عينيه . واشتهر بقبح خلقته وكان جده اسود اللون جمّالاً لعمرو بن قلع الكناني . وبلغ الجاحظ من الذكاء وجودة القريحة وقوة العارضة والتفكير ما جعله من كبار أئمة الادب . نشأ في البصرة وهي آهلة بالادباء والنحاة واصحاب اللغة ونبغ في كل ذلك . وبلغ خبره الى المتوكل وكان عازما على اختيار من يؤدب ولده فاستقدمه اليه في سرّ من رأى . فلما رآه استبشع منظره فامر له بعشرة آلاف درهم وصرفه . وله اخبار كثيرة تتعلق بقبح منظره . وأصيب في أواخر أيامه بالفالج النصفي فكان يطلي نصفه الايمن بالصندل والكافور لشدة حرارته والنصف الآخر لو قرض بالمقاريض ما أحس به من شدة برده في اصطلاحهم . وكان قد اشتهر وذاع صيته في العالم الاسلامي فتقاطر الناس لمشاهدته والسماع منه فلا يمر أديب او عالم بالبصرة الا طلب ان يرى الجاحظ ويكلمه . وكان اذا طلب احد ان يراه يقول : « وما تصنع بشق ماثل ولعاب سائل ولون حائل » وتوفي بالبصرة سنة ٢٥٥

وهو امام الادباء في العصر العباسي الثاني وله أساليب ومذاهب وآراء في الادب واللغة خاصة به واشتهر بطريقة في الانشاء تنسب اليه تحداه بها الناس وعرفت باسمه . فهو قدوة المنشئين وامامهم في هذا العصر كما كان ابن المقفع امامهم في العصر الاول

الجاحظية

وكان الجاحظ من فضلاء المعتزلة جماعة المفكرين في ذلك العهد تلقى العلم على ابي اسحق ابراهيم بن سيار البلخي المعروف بالنظام المتكلم المشهور وكان علم الكلام قد نشأ على أثر نقل الفلسفة والتبحر فيها . وطالع الجاحظ كثيراً من كتب الفلاسفة وانفرد عن سائر المعتزلة بمسائل تابعه بها جماعة عرفوا بالجاحظية . ومن مذهبه أن المعارف كلها ضرورية وليس فيها شيء من أفعال العباد وانما هي

Digitized by Birzeit University Library

طبيعية وليس للعباد كسب سوى الارادة . وان العباد لا يخلدون في النار بل يعبرون من طبيعتها . وان الله لا يدخل احداً النار وإنما النار تجذب اهلها بنفسها وطبيعتها . وان القرآن المنزل من قبيل الاجساد ويمكن ان يصير مرة رجلاً ومرة حيواناً . وان الله لا يريد المعاصي وانه لا يُرى . وان الله لا يريد بمعنى انه لا يغلط ولا يصح في حقه السهو فقط . وانه يستحيل العدم على الجواهر من الاجسام وانما الاعراض تتبدل والجوهر باقٍ . ونحو ذلك

مؤلفاته

خلف الجاحظ مؤلفات عديدة طبع كثير منها ونشر هاك أهمها :

١ — كتاب البيان والتبيين : (ويقال التبين والتبيان) في الادب والانشاء والخطابة وابحاث في البيان والخطابة والخطباء والسجع والشعر والشعراء والنساك والزهاد وامثلة من خطب النبي والخلفاء . وفي اللحن واللحانين واحاديث ونوادر وغير ذلك وهو اصدق مثال للانشاء في اواسط القرن الثالث للهجرة

٢ — كتاب الحيوان : هو اقدم كتاب في علم الحيوان بالعربية ويختلف عن كتب الحيوان المعروفة بانه يشتمل على وصف طبائع الحيوانات من حيث علاقتها بالناس . ويتخلل ذلك فوائد ادبية واجتماعية وتاريخية

٣ — كتاب المحاسن والاضداد والعجائب والغرائب : في اللغة

وغير ذلك كثير

ابن قتيبة

توفي سنة ٢٧٦ هـ

هو أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري . وُلد في الكوفة سنة ٢١٣ وتثقف على أهلها وسكن بغداد وتولى قضاء الدينور فنسب اليها . وكان عالماً في اللغة والنحو والشرع متفنناً بالعلوم صادقاً فيما يرويه مستقل الفكر جريئاً في قول الحق . وهو أول من تجرأ على النقد الادبي فألف في أكثر فنون الادب المعروفة . والباقي من مؤلفاته الى اليوم حسن وشائع وبعضها من أمهات كتب التاريخ والادب وهاك أهمها :

كتاب المعارف : هو من قبيل كتب التاريخ العام ومن أقدمها . فيه خلاصة تاريخ الخلق والانبياء وأنساب العرب وسيرة النبي ومغازيه وأخبار الصحابة

Digitized by Birzeit University Library

والتابعين والقراء ورواة الشعر وصناعات الاشراف وأهل العاهات ونوادر الحوادث والاديان العرفي واخبار ملوك العرب والعجم

كتاب الشعر والشعراء : ويسميه بعضهم طبقات الشعراء أو كتاب الشعراء أو اخبار الشعراء وكلها واحد . وهو يحتوي على تراجم « المشهورين من الشعراء الذين يعرفهم جل أهل الادب والذين يقع الاحتجاج بأشعارهم في الغريب وفي النحو وفي كتاب الله » ويدخل في ذلك أخبار اشهر شعراء الجاهلية وصدر الاسلام الى أيام المؤلف وأمثلة من أشعارهم وفيه نظر وانتقاد

أدب الكاتب : يبحث فيما يحتاج اليه الاديب في صناعة الكتابة من الآداب والعلوم واصلاح ماكان يقع فيه الكتاب بأيامه من الخطأ او الوهم في معاني الالفاظ او الاشتقاقات والتراكيب مما نحن في حاجة اليه حتى اليوم . وقد قسم ذلك الى ابواب في اقامة الهجاء وتقويم اللسان والابنية . وقد لخص هذا الكتاب وشرح غير مرة

الامامة والسياسة : هو تاريخ الخلافة وشروطها بالنظر الى طلابها من وفاة النبي الى عهد الامين والمأمون

ابن عبد ربه

توفي سنة ٣٢٨ هـ

هو ابو عمر احمد بن محمد عبد ربه القرطبي صاحب العقد الفريد . اصله من موالي بني امية في الاندلس توفي سنة ٣٢٨ (وقيل ٣٤٨) وكان من العلماء المكثرين من المحفوظات والاطلاع على اخبار الناس . وكان شاعراً مطبوعا . وانما اشتهر بكتابه العقد الفريد . وفي شعره ميل الى الشعر القصصي اي سرد القصة شعراً وهو قليل في العربية . له فيه ارجوزة قص فيها تاريخ عبد الرحمن الناصر صاحب الاندلس حسب السنين وكان معاصراً له . وهي منشورة في الجزء الثاني من العقد الفريد

العقد الفريد : اما العقد الفريد فانه من اجل كتب الادب واحواها او هو كالخزانة حوت خلاصة علوم ذلك العصر حتى الطب والموسيقى فضلا عن الاخبار والانساب واللغة والامثال والشعر والعروض وقواعده . في ثلاثة مجلدات تزيد صفحاتها على الف صفحة كبيرة وهو مقسوم حسب المواضيع . وقد تأنق صاحبه

Digitized by Birzeit University Library

في تقسيمه وتسمية أبوابه فسماها باسماء الحجارة الكريمة تطبيقاً لاسم الكتاب « العقد الفريد » ويشتمل الجزء الاول على السلطان والحروب والاجواد والاصفاد والوفود والعلم والادب والامثال والمواعظ . والثاني في التعازي والمراثي والنسب وفضائل العرب وكلام الاعراب والاجوبة والخطب والتوقيعات وأخبار الكتبة . والثالث في أخبار زياد والحجاج والطالبيين والبرامكة وأيام العرب ووقائعها وفضائل الشعر وعلم الالحان والنساء والمتنبئين والممردين والبخلاء وطبائع الانسان وفي الطعام والشراب

وفي بعض هذه الابواب فصول تاريخية لا تجد مثلها في كتب التاريخ . فأخبار زياد والحجاج والطالبيين فيها حقائق يعز العثور عليها في كتاب آخر . وناهيك بأيام العرب وأعاريض الشعر وما هناك من أخبار الخوارج والازارقة فضلا عن كثير من الاقوال المأثورة عن عظماء الملوك نقلاً عن كتب ضاعت أصولها . فالعقد الفريد خزانة فوائد وهو من أمهات كتب الادب الثقة . ويؤخذ من مطالعته انه حوى خلاصة ما في الكتب السالفة يومئذ للاصمعي وأبي عبيدة والجاحظ و بن قتيبة وابن الكلبي وغيرهم غير القرآن والحديث والتوراة والانجيل . ولم يقتصر فيما جمعه على ما عرفه العرب بل نقل عن الكتب التي ترجمت إلى العربية في ذلك الزمن عن اليونانية والهندية والفارسية وهو يشير إلى ذلك في كلامه

ابو الفرج الاصبهاني

توفي سنة ٣٥٦ هـ

قد يفهم من لقبه أنه فارسي الاصل وهو عربيٌّ أموي يتصل نسبه بمروان ابن الحكم من بني أمية . وهو مع ذلك شيعيٌّ ويندر التشيع في بني أمية . واسمه علي بن الحسين وكنيته أبو الفرج وإنما لقب الاصبهاني لانه وُلد في أصبهان . لكنه نشأ في بغداد وكان من أعيان أدبائها وأفراد مصنفيها . وقد روى عن كثيرين وطالع كثيراً من الكتب وكان قوي الحافظة فوعى في ذاكرته ألوفاً من الاشعار والاغاني والاخبار والآثار والاحاديث والانساب بأسانيدها وأسماء قائليها ورواتها. فضلاً عن توسعه في اللغة والنحو والسير والمغازي وعلوم الجوارح والبيطرة والطب والنجوم والاشربة وغير ذلك . وكان انقطاعه بالاكثر إلى الوزير المهلبي المتقدم ذكره . وكان يلقى سواه من ملوك ذلك العصر وأمرائه فيعرفون فضله ويجيزونه

Digitized by Birzeit University Library

ولم يقتصر من العلم على الحفظ والاختزان كما يفعل كثيرون . لكنه تدبر تلك المعارف وأخرج منها كتباً نافعة أشهرها كتاب الاغاني وبه اشتهر . وألف أيضاً كتاب القيان وكتاب الاماء الشواعر وكتاب الديارات وكتاب دعوة الاطباء وكتاب مجرد الاغاني وكتاب أخبار جحظة البرمكي ومقاتل الطالبيين وكتاب الحانات وآداب الغرباء . وحصل له ببلاد الاندلس كتب صنفها لبني أمية ملوك الاندلس يوم ذاك وسيرها اليهم سراً . وجاءه الانعام منهم سراً . فمن ذلك كتاب نسب بني عبد شمس وكتاب أيام العرب ألف وسبعمائة يوم وكتاب التعديل والانتصاف في مآثر العرب ومثالبها وكتاب جمهرة النسب وكتاب جمهرة بني شيبان وكتاب نسب المهالبة وكتاب نسب بني تغلب ونسب بني كلاب وكتاب الغلمان المغنين وغيرها . وهي كثيرة لكن أكثرها ضاع بتوالي الاحن فنأتي على ذكر أهمها وهو :

كتاب الاغاني : هو أشهر من أن يعرّف وقد وقع الاتفاق على انه لم يعمل مثله في بابه . ويقال انه اشتغل في جمعه وتأليفه نحو خمسين سنة . وبلغ خبره الى الحكم بن الناصر صاحب قرطبة وهو أموي مثله فسأله ان يرسل الكتاب اليه قبل اخراجه لبني العباس وبذل له على ذلك ألف دينار . ولما تم تأليفه حمله الى سيف الدولة بن حمدان فأعطاه ألف دينار واعتذر اليه . ولم يبق أحد من أمراء ذلك العصر إلا اقتناه ليستغني به عن سواه . وقد علمت ان الصاحب بن عباد كان اذا سافر حمل كتبه على عشرات من الجمال فلما اقتنى كتاب الاغاني استغنى به عنها

وهو أجزاء كثيرة وصل الينا منها ٢١ جزءاً في نحو ٤٠٠٠ صفحة . واسم الكتاب يدل على المراد بوضعه في الاصل نعني « الاغاني » فصدره بمائة صوت كان الرشيد أمر ابراهيم الموصلي مغنيه وغيره ان يختاروها له . ثم وقعت للواثق بعده فأمر اسحق بن ابراهيم فاختار له منها ما رأى انه أفضل وأضاف اليها أشياء أخرى . فسار أبو الفرج على هذه الخطة معولاً على ما اختاره غير هؤلاء أيضاً من أهل العلم بصناعة الغناء . وقد يعترض على وضع هذا الكتاب بين كتب الادب اذ يجدر به أن يكون بين كتب الموسيقى لكن أهميته قائمة بما فيه من الاخبار والاشعار . لان المؤلف اذا ذكر أبياتاً على لحن وعين نغمها ومن غناها استطرد الى ذكر ناظمها وترجمته والاحوال التي قيلت فيها من حرب أو حب في الجاهلية

مكتبة جامعة بيرزيت
Digitized by Birzeit University Library

أو الاسلام . ومن غناها ومن شهد ذلك وأسبابه وأحواله فيورد تفاصيل ذلك بالدقة والاسناد . فاحتوى الكتاب على أخبار مئات من الشعراء والادباء والمغنين والعشاق والخلفاء والقواد . وأكثر أيام العرب وأخبار قبائلهم وأنسابهم ووقائعهم وغزواتهم ومياههم . وفيه خيرة أشعار الجاهلية والاسلام ولا سيما ما كانوا يغنون به . وآداب القوم في طعامهم وشرابهم واجتماعهم وحروبهم وزواجهم وطلاقهم وسائر أحوالهم

فأهمية هذا الكتاب متوقفة على ما حواه من تلك التراجم والاخبار ويكاد يكون منفرداً بها . ولولاه لضاع كثير من أخبار الجاهلية وصدر الاسلام وأيام بني أمية . وهو ثقة لتدقيقه وتمحيصه لانه لا يكتفي بالاسناد الى الرواة بل هو ينتقدهم ويبين أوجه الخطأ أو المناقضة بين رواياتهم ثم يرجع الى رأيه . وكان أشد وطأة في النقد على ابن خرداذبه وابن الكلبي مما على سواهما . وفي مروياته كثير من الاخبار والحوادث تلقتها عن أناس عاصروه فحدثوه بما علموه فدوّنه وهو منفرد بتدوينه . وأخذ عن كتب ضاعت

ابن العميد

توفي سنة ٣٦٠ هـ

هو أبو الفضل محمد بن العميد والعميد لقب والده على عادة أهل خراسان في اجرائه مجرى التعظيم . وكان ابن العميد وزير ركن الدولة الحسن بن بويه والد عضد الدولة . تولى الوزارة سنة ٣٢٨ هـ وكان متوسعاً في الفلسفة والنجوم فضلاً عن الادب والترسل حتى سموه « الاستاذ » وكان يلقب لبراعته في الترسل بالجاحظ الثاني . وقيل بدئت الكتابة بعبد الحميد وختمت بابن العميد . وكان الصاحب بن عباد من بعض أتباعه . وعاد الصاحب مرة من بغداد فسأله ابن العميد عنها فقال « بغداد في البلاد كالاستاذ في العباد » يشير الى تفرده في العلم . وهو أسبق المنشئين الى أسلوب ذلك العصر وقد أجاد فيه فقلدوه ونسجوا على منواله وساعد على شيوع طريقته رفعة منزلته وعلو كعبه في العلم ـ وكثيراً ما رأينا الوجاهة من جملة أسباب الشهرة العلمية فهي لا تجعل الجاهل مشهوراً بالعلم لكنها تجعل قليل العلم ان يشتهر بكثرته . وأخذ الصاحب بن عباد عن

Digitized by Birzeit University Library

ابن العميد وكان الصاحب مركزاً يدور حوله أدباء ذلك العصر فساعد ذلك على نشر تلك الطريقة

ويدل على مناقب ابن العميد ويمثل منزلة الادباء في ذلك العصر حادثة جرت له مع ابن نباتة السعدي وقد مدحه بقصيدة فتأخرت صلته فشفعها باخرى وأتبعها برقعة فلم يزده ابن العميد على الاهمال مع رقة حاله التي ورد عليها الى بابه . فتوصل الى ان دخل عليه يوماً وهو في مجلس حفل بأعيان الدولة ومقدمي أرباب الديوان فوقف بين يديه وأشار اليه بيده وقال : « أيها الرئيس اني لزمتك لزوم الظل وذللت لك ذل النعل وأكلت النوى المحرق انتظاراً لصلتك . والله مابي من الحرمان ولكن شماتة الاعداء وهم قوم نصحوني فأغششتهم وصدقوني فكذبتهم فبأي وجه القاهم وبأي حجة أقاومهم . ولم أحصل من مديح بعد مديح ومن ثر بعد نظم الا على ندم مؤلم وبأس مسقم . فان كان للنجاح علامة فأين هي ؟ وما هي الا أن الذين تحسدهم على ما مدحوا به كانوا من طينتك وأن الذين هجوا كانوا مثلك . فزاحم بمنكبك أعظمهم شأناً وأنورهم شعاعاً وأمدهم باعاً وأشرفهم بقاعاً »

فحار رشد ابن العميد ولم يدر مايقول فأطرق ساعة ثم رفع رأسه وقال : « هذا وقت يضيق عن الاطالة منك في الاستزادة وعن الاطالة منى في المعذرة . واذا تواهبنا مادفعنا اليه استأنفنا ما تتحامد عليه » فقال ابن نباتة « أيها الرئيس هذه نفثة مصدور منذ زمان وفضلة لسان قد خرس منذ دهر . والغني اذا مطل لئيم »

فاستشاط ابن العميد غضباً وقال « والله ما استوجب هذا العتب من أحد من خلق الله تعالى ولست ولي نعمتي فاحتملك ولا صنيعتي فاغضي عليك وان بعض ما قررته في مسامعي ينغص مرة[1] الحلم ويبدد شمل الصبر . هذا وما استقدمتك بكتاب ولا استدعيتك برسول ولا سألتك مدحي ولا كلفتك تقريضي » فقال ابن نباتة « صدقت أيها الرئيس ما استقدمتني بكتاب ولا استدعيتني برسول ولا سألتني مدحك ولا كلفتني تقريضك ولكن جلست في صدر ديوانك بابهتك وقلت لايخاطبني أحد الا بالرئاسة ولا ينازعني خلق في احكام السياسة . فاني كاتب ركن الدولة وزعيم الاولياء والحضرة والقيم بمصالح المملكة . فكأنك دعوتني بلسان الحال ولم تدعني بلسان المقال »

---

(١) الحالة التي يستمر عليها الشيء والعقل والاصالة والاحكام والقوة والشدة والمراد بها هنا المعنيان الاخيران

Digitized by Birzeit University Library

فثار ابن العميد مغضباً واسرع في صحن داره الى ان دخل حجرته وتقوض المجلس وماج الناس وسمع ابن نباتة وهو في صحن الدار ماراً يقول « والله ان سف التراب والمشي على الجمر اهون من هذا . فلعن الله الادب اذا كان بائعه مهيناً ومشتريه مما كسّاً فيه »

فلما سكن غيظ ابن العميد وثاب اليه حلمه التمسه من الغد ليعتذر اليه ويزيل آثار ماكان منه فكأنما غاص في سمع الارض وبصرها ولم يقف على مكانه . فكانت حسرة في قلب ابن العميد الى ان مات . ونسب بعضهم هذه الحادثة الى شاعر آخر غير ابن نباتة

وكان ابن العميد يقرب اهل الادب والشعر فحام حوله طائفة منهم امتدحوه كالمتنبي وابن نباتة والصاحب بن عباد وغيرهم . كانوا يجتمعون في مجلسه فيقترح عليهم النظم والمقارضة — وهي ان يقول احدهم شعراً او بيتاً في وصف شيء او حادثة فيتمه الاخر فالآخر

وكان ابن العميد شاعراً رقيقاً من أحسن شعره قصيدة قال منها :

قد ذبت غير حشاشة ودماء ماين حر هوى وحر هواء

الى ان قال وفيه مبالغة :

لا تغتم اغضاءتي فلعلها كالعين تغضيها على الاقذاء
واستبق بعض حشاشتي فلعلني يوماً اقيك بها من الاسواء
فلوان ماابقيت من جسمي قذى في العين لم يمنع من الاغفاء

ومن قوله في الغزل :

ظلت تظللني من الشمس نفس اعز على من نفسي
فاقول وا عجباً ومن عجب شمس تظللني من الشمس

الصاحب بن عباد

توفي سنة ٣٨٥ هـ

هو ابو القاسم اسماعيل بن عباد بن العباس الطالقاني . وقد تقدمت الاشارة الى منزلته من الوجاهة وتأثيره في تلك الحركة الادبية وكان اديباً منشئاً وعالما في اللغة وغيرها . اخذ عن احمد بن فارس اللغوي وعن ابن العميد . وهو اول من لقب بالصاحب من الوزراء لانه كان يصحب ابن العميد فقيل له صاحب ابن العميد . ثم اطلق عليه هذا اللقب لما تولى الوزارة وبقي علماً عليه . وسمي به

Digitized by Birzeit University Library

كل من ولي الوزارة بعده . وقد وزر اولاً لمؤيد الدولة بن ركن الدولة بن بويه بعد ابن العميد . فلما توفي مؤيد الدولة تولى مكانه اخوه فخر الدولة فاقر الصاحب على وزارته وكان مبجلا عنده نافذ الامر . وكان مجلسه بؤرة الادباء والشعراء يمدحونه او يتنافسون او يتقارضون بين يديه . وذاعت شهرته في ذلك العصر حتى اصبح موضوع اعجاب القوم يتسابقون الى اطرائه ونظمت القصائد في مدحه . وكتب اليه نوح بن منصور الساماني يستقدمه اليه فاعتذر . وقد بلغ من رفعة القدر حتى انه لما توفي سنة ٣٨٥ هـ اغلقت له مدينة الري ابوابها واجتمع الناس على باب قصره ينتظرون جنازته . وحضر مخدومه فخر الدولة المذكور اولا وسائر القواد وقد غيروا لباسهم . فلما خرج نعشه من الباب صاح الناس بأجمعهم صيحة واحدة وقبلوا الارض . ومشى فخر الدولة أمام الجنازة مع الناس وقعد للعزاء أياماً . ورثاه أبو سعيد الرستمي بقوله :

أبعد ابن عباد يهشُّ الى السرى أخو أمل أو يستاح جوادُ
أبى الله إلا ان يموتا بموته فما لهما حتى المعاد معادُ

وكان شاعراً مترسلاً مع ولع شديد بالسجع حتى في الكلام فضلاً عن الكتابة . وقيل فيه « انه لو رأى سجعة تنحل بموقعها عروة الملك ويضطرب بها حبل الدولة لما هان عليه التخلي عنها » وكان يتثنى ويتلوى ويتهادى . وفي يتيمة الدهر أمثلة من نظمه ونثره فضلاً عن معرفته اللغة فانه ألف معجماً سماه المحيط . وألف له ابن فارس كتاب الصاحبي . وساعده منصبه السياسي على الشهرة العلمية

بديع الزمان الهمذاني

توفي سنة ٣٩٨ هـ

هو أبو الفضل أحمد بن الحسين بن يحيى بن سعيد الهمذاني الحافظ المعروف ببديع الزمان كان يقيم في هراة بأفغانستان . وكان شاعراً وكاتباً ولغوياً واشتهر على الخصوص بقوة الحافظة كان يسمع القصيدة التي لم يسمعها قط وهي أكثر من خمسين بيتاً فيحفظها كلها ويؤديها من أولها الى آخرها لا يخرم حرفاً ولا يخل معنى . وينظر في الاربعة والخمسة الاوراق من كتاب لم يعرفه نظرة واحدة خفيفة ثم يتلوها عن ظهر قلبه

Digitized by Birzeit University Library

وكان سريع الخاطر قوي البديهة يقترح عليه نظم القصيدة أو انشاء الرسالة فيفرغ منها في الوقت والساعة . وربما يكتب الكتاب المقترح عليه فيبتدىء بآخر سطر منه وهلم جرا الى الاول . وله من المؤلفات :

رسائل مجموعة في كتاب يعرف برسائل بديع الزمان

ديوان شعر

مقامات تعرف باسمه وهي أقدم كتاب وصل الينا في هذا الفن من فنون اللغة . وهو أول من وفاه حقه وجعله علماً . وقد اقتبس نسقه من أستاذه ابن فارس اللغوي . وعنه أخذ الحريري نسق مقاماته . والمقامات حكايات قصيرة موضوعة على لسان رجل خيالي تنتهي بعبرة أو موعظة أو نكتة . والمراد بها في الاكثر التفنن بالانشاء وتضمينه الامثال والحكم . ولم يكن هذا كل المراد منها في زمن الهمذاني . وقد شبهها بعضهم بالدرام في اللغات الافرنجية . ومقامات الهمذاني تروى على لسان رجل اسمه عيسى ابن هشام . وهو غير عبد الرحمن الهمذاني صاحب الالفاظ الكتابية

أبو منصور الثعالبي

توفي سنة ٤٢٩ هـ

هو أبو منصور عبد الملك بن محمد بن اسماعيل النيسابوري الثعالبي — قيل له ذلك لانه كان فراء يجلد الثعالب . وهو خاتمة مترسلي العصر العباسي الثالث وأهم أدبائه . ونعم الخاتمة لانه أكثرهم آثاراً وأوسعهم مادة وهو الذي ترجمهم وذكر أخبارهم وأقوالهم . وكان في العصر المشار اليه راعي تلعات العلم وجامع أشتات النثر والنظم ورأس المؤلفين وإمام المصنفين . وهو مع ذلك شاعر مطبوع ومن نظمه في وصف الفرس قوله :

يا واهب الطرف الجواد كأنما ... قد أنعلوه بالرياح الاربع
لا شيء أسرع منه الا خاطري ... في وصف نائلك اللطيف الموقع
ولو انني أنصفت في اكرامه ... لجلال مهديه الكريم الالمعي
أقضمته حبّ الفؤاد لحبه ... وجعلت مربطه سواد المدمع
وخلعت ثم قطعت غير مضيع ... برد الشباب لجله والبرقع

Digitized by Birzeit University Library

وله مؤلفات كثيرة أكثرها من قبيل الادب أهمها :

يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر : تشتمل على أخبار شعراء المائة الرابعة للهجرة وهو العصر العباسي الثالث في أربعة مجلدات . قسم الكلام فيها الى أبواب باعتبار البلاد . فأفرد باباً لشعراء الشام وماكان من أحوال سيف الدولة ومحاسن الشعراء ولا سيما المتنبي وابو فراس استغرق الكلام عنهما ٢٠٠ صفحة . وباباً لشعراء مصر والمغرب . وآخر لشعراء الموصل وآخر عن آل بويه وشعرائهم وكتابهم وآخر عن شعراء البصرة فالعراق فبغداد فابن العميد والصاحب بن عباد مفصلا . ثم شعراء أصبهان والطارئين على الصاحب وشعراء الجبل وفارس والاهواز وجرجان . ثم محاسن الدولة السامانية ومن فيها من الشعراء . ففضلاء خوارزم وفصول لكل من أبي بكر الخوارزمي والهمذاني والبستي والميكالي وشعراء خرسان والطارئين على نيسابور وغير ذلك

لطائف المعارف : وهو كتاب جزيل الفائدة لانه يشتمل على فوائد لايتصل اليها الا بمطالعة الكتب الكثيرة

ابن رشيق القيرواني

توفي سنة ٤٥٦ هـ

هو أبو العباس الحسن بن رشيق من أهل القيروان . أبوه مملوك رومي من موالي الازد كان صائغاً في بلده المحمدية فعلمه أبوه صناعته . ثم قرأ الادب وقال الشعر وتاقت نفسه الى التزيد منه فرحل الى القيروان واشتهر بها وامتدح صاحبها واتصل بخدمته ولم يزل بها حتى هجم عليها العرب وقتلوا أهلها وأخربوها . فانتقل الى صقلية وأقام بمازر الى أن مات . وله مؤلفات أشهرها وأهمها :

كتاب العمدة . وبه اشتهر وهو يبحث في صناعة الشعر ونقده وعيوبه وهو أجل كتاب في هذا الموضوع . يقسم الى أبواب في فضل الشعر وأشعار الخلفاء والقضاة والفقهاء ومن رفعه الشعر ووضعه ومن قضى له وقضي عليه . واحتجاء القبائل بشعرائها والتكسب بالشعر ومنافع الشعر ومضاره والمقلين من الشعراء وحدود الشعر وأوزانه وبحوره والبلاغة والايجاز والاستعارة الخ . . . وفي آخره فصول في النسيب وأيام العرب وملوك العرب والخيول والزجر والقيافة والوصف وغير ذلك . وفي خلاله طائفة من أحسن الاشعار وبحث تحليلي في الشعر ومعانيه

Digitized by Birzeit University Library

على طريق الانتقاد . قال ابن خلدون « ان كتاب العمدة هو الكتاب الذي انفرد بهذه الصناعة وأعطاها حقها ولم يكتب فيها أحد قبله ولا بعده مثله »

الحريري

توفي سنة ٥١٦ هـ

هو أبو محمد القاسم بن علي بن محمد بن عثمان الحريري البصري صاحب المقامات . كان أحد أئمة عصره في علوم اللغة ولد في البصرة سنة ٤٤٦ هـ من أسرة أصلها من مشان واشتهر بمقاماته المعروفة وهي تشتمل على كثير من كلام العرب ولغاتها وأمثالها تدل على فضل هذا الرجل . وذكر ابنه السبب الذي بعث أباه على نظمها رواه ابن خلكان في ترجمة الحريري في حديث طويل

وقد ألفها لشرف الدين وزير الامام المسترشد بالله فأجاد ووفى الموضوع حقه مما لم يسبقه أحد الى مثله . وهي مشهورة لا حاجة الى وصفها . وكان لها وقع عظيم عند طلاب الادب حتى عند الافرنج أهل هذه المدنية . فلما نهضوا لدرس اللغة العربية اهتموا بنشرها وترجمتها وشرحها والتعليق عليها

القلقشندي

توفي سنة ٨٢١ هـ

هو شهاب الدين أحمد بن علي بن أحمد القلقشندي المصري نزيل القاهرة — هكذا سماه صاحب شذرات الذهب . ورأينا اسمه في صدر كتابه قلائد الجمان في التعريف بقبائل العربان هكذا « شهاب الدين أبو العباس أحمد بن عبد الله ابن أحمد بن عبد الله بن سليمان بن اسماعيل القلقشندي المصري الشافعي الشهير بابن أبي غدة » ويختلف بعض الاختلاف في أماكن أخرى . ولكن الاتفاق واقع على انه أبو العباس شهاب الدين أحمد . سمي القلقشندي نسبة الى قرية بجوار قليوب . تفقه بالأدب وكان قوي الحافظة وعى في ذاكرته أهم علوم الادب في عصره . وتولى كتابة الانشاء سنة ٧٩١ في دولة المماليك بمصر وعانى هذه الصناعة ودرسها . ونبغ غير واحد من هذه الاسرة هذا أشهرهم وألف كتباً جزيلة الفائدة أهمها :

كتاب صبح الاعشى في صناعة الانشا : هو أهم كتاب في بابه . يبحث في فضل الكتابة ومدلولها وفي الكتاب وآدابهم وصفاتهم والتعريف بحقيقة ديوان الانشاء

Digitized by Birzeit University Library

وقوانينه وترتيبه ووظائف أصحابه . وما يحتاج اليه الكاتب من المعارف والعلوم الادبية والتاريخية والاجتماعية والشرعية والطبيعية ومعرفة الازمان والاوقات ثم الادوات التي تستخدم في الكتابة كالدواة والاقلام وأنواعها . وفيه مقالة في المسالك والممالك وهو علم تقويم البلدان مفصلا بما ينطوي عليه من وصف الممالك سياسياً وجغرافياً بمصر والشام وفارس وغيرها . ومقالة في شروط المكاتبات باعتبار المراتب والولايات من الالقاب والكنى وقطع الورق وأشكالها وما تفتح به المكاتبات وتختم به وأمثلة عديدة يطول ذكرها . ومقالة في المكاتبات ومقدماتها ومصطلحاتها الدائرة بين كتاب الاسلام من الصدر الاول الى زمن المؤلف . ومقالة في الولايات وطبقاتها وما بلغ من التفاوت بينها في الرتب . والبيعات ومعناها وأنواعها ومعنى العهد وغير ذلك . ومقالة في الوصايا الدينية والمسامحات والاصطلاحات وتحويل السنين والتذاكر . وأخرى في الايمان وما يتعلق منها بالخلفاء والملوك . ومقالة في عقد الصلح والنصوص الواردة على ذلك وأخرى في فنون من الكتابة يتداولها الكتاب ويتنافسون فيها . والخاتمة في أمور تتعلق بديوان الانشاء غير الكتابة كالبريد وتاريخه في الجاهلية والاسلام وحمام الرسائل وابراجه والمناور والحراقات . وبالجملة فان صبح الاعشى خزانة علم وأدب لامثيل لها

Digitized by Birzeit University Library

التاريخ

في زمن بني أمية

لم يكن عند العرب الجاهلية من التاريخ الا أخبار متفرقة ليست من التاريخ في شيء . فلما ظهر الاسلام واشتغل المسلمون بالفتح والحرب حتى استتب لهم الامر ونزعوا الى الجهاد تدرجوا في وضع التاريخ مثل تدرجهم في سائر العلوم الاسلامية . وهو قسمان (١) تاريخ المسلمين وأعمالهم وتراجم رجالهم وهذه قد استخرجها العرب من أعمالهم . (٢) تاريخ الامم الاخرى . فهذه بدأوا بتعرفها ونقلها من زمن بني أمية لان الدهاة من الخلفاء الامويين كانوا من أرغب الناس في معرفة أخبار مشاهير الامم الاخرى

فمعاوية بن أبي سفيان كان يجلس لاصحاب الاخبار في كل ليلة بعد العشاء الى ثلث الليل فيقصون عليه أخبار العرب وأيامها والعجم وملوكها وسياستها في رعيتها وسائر ملوك الامم وحروبها ومكائدها . ثم ينام ثلث الليل ويقوم فيأتيه غلمان مرتبون وعندهم كتب قد وكلوا بحفظها وقراءتها فيقرأون عليه ما في تلك الكتب من سير الملوك وأخبار الحروب ومكايدها وأنواع السياسات والغالب في اعتقادنا ان تلك الكتب في اليونانية أو اللاتينية وفيها أخبار أبطال اليونان والرومان كالاسكندر ويوليوس قيصر وهنيبال وان الغلمان كانوا يفسرونها له بالعربية

وسماع أخبار العظماء يستنهض الهمم الى الاقتداء بهم ولذلك كان أكثر القواد العظام الراغبين في العلى من العرب وغير العرب يستتلون اخبار من سبقهم من مشاهير القواد والساسة للعبرة

أما تدوين التاريخ في اللغة العربية فبدأ بزمن بني أمية مع رغبة المسلمين عن التدوين في ذلك العصر لاسباب بيناها في الجزء الثالث من تاريخ التمدن الاسلامي ولكنهم اختصوا عدم التدوين في الفقة والتفسير فلم يدوّن الا في القرن الثاني . وأما ما تقدم ذكره عن تفسير ابن عباس فانه مروي عنه سماعاً

ويظهر انهم بدأوا بتدوين التاريخ الاجنبي قبل تدوين حروبهم وفتوحهم اذ لم يكن المراد بالتدوين خدمة التاريخ وانما فعلوه خدمة لاغراض الخلفاء في الاطلاع على أحوال الامم الاخرى . وأول من فعل ذلك عبيد بن شرية ألف كتاب الملوك

Digitized by Birzeit University Library

وأخبار الماضين لمعاوية بن ابي سفيان ذكره صاحب الفهرست ولا وجود له الآن. وكان الامويون يسمون ابحاث هذا العلم « علم أخبار الماضين » . وذكر ابن النديم كتباً في مواضيع مختلفة الفها أبو مخنف الازدي من أصحاب علي فيها تراجم المشاهير ونحوهم وكتاباً الفه عوانة بن الحكم الكلبي في التاريخ وآخر في سيرة معاوية وبني أمية في القرن الثاني للهجرة ولم يصل الينا شيء من هذه الكتب ولا غيرها من كتب الادب والتاريخ أوغيره مما كتب في زمن بني أمية

ومن العلوم التاريخية التي ولدت في العصر الاموى علم الانساب وقد علمت ان الانساب من العلوم الجاهلية فاحتاج اليها المسلمون في صدرالاسلام لاثبات انسابهم وعليها يتوقف مقدار العطاء او منزلته من الدولة أو المنصب فجعلوها علماً . وأول من احتاج الى ذلك زياد بن أبيه الداهية المشهور الذي ستلحقه معاوية بنسبه ليستعين به على أعدائه فعمل في نسبه كتابا دفعه الى ابنه ـ ذكر ذلك ابن النديم أيضاً ولم نقف عليه ولا على خبره . وذكر أيضاً من أقدم النسابين في الاسلام دغفل والحجر بن الحارث والبكري ولسان الحمرة ولم يذكر لهم كتباً

وبالاجمال ان التاريخ ولد في زمن بني أمية ولم ينضج الافي العصر العباسي . وفي كل حال فان العرب من أسبق الامم الى تدوين التاريخ بعد أن تمدنوا . لان الرمان لم يؤلفوا فيه الا بعد تأسيس دولتهم بسبعة قرون وأول مؤرخيهم يوليوس قيصر أي بعد استقرار الدولة . واليونان بدأ التاريخ عندهم بمواضيع خصوصية ولم يدونوا التاريخ العام الا في زمن هيرودوتس أي بعد انشاء دولتهم ببضعة قرون

في العصر العباسي الاول

بدأ التاريخ يتكون في العصر الاموى كما تقدم لكنهم لم يشتغلوا الا فيما دعتهم اليه دولتهم وأغراضها من الاطراء بمشاهيرهم أو تحقيق الانساب لاجل العطاء ونحوه . ولم يصل الينا منه شيء لذهاب ذلك في أثناء الفتن أو لتعمد العباسيين محو آثار عدوتهم اللدودة أو لاهمال الناس تلك الكتب مراعاة لرأى العباسيين

على أن التاريخ بمعناه الحقيقي لم يتم تكونه ولا في العصر العباسي الاول الذي

Digitized by Birzeit University Library

نحن في صدده . وانما تمهد فيه السبيل لتأليف التواريخ العامة أو الخاصة . ثم ظهر التاريخ في العصر الذي يليه بعد نقل العلم والادب عن غير العرب واستقرار الاحوال السياسية والاجتماعية . فاهل المائة الاولى من العصر العباسي كان اشتغالهم على سبيل التمهيد مثل اشتغالهم في الادب والتفسير والحديث . وفي كتب الادب كثير من مواد التاريخ عن العرب وبلادهم

على انهم لما أخذوا في جمع القرآن وتفسيره وجمع الاحاديث احتاجوا الى تحقيق الاماكن التي كتبت بها الآيات أو قيلت فيها الاحاديث فعمدوا الى جمع السيرة النبوية لانها شاملة لكل ذلك . ولما اشتغل المسلمون بضرب الخراج اختلفوا في البلاد هل فتحت عنوة أو صلحاً أو أماناً فاضطروا الى تحقيق ذلك وتدوين أخبار الفتوح

في العصر العباسي الثاني

يمتاز هذا العصر بكتابة التاريخ العام الشامل لاخبار القدماء والمحدثين مما لم يتعرض له أهل العصر الماضي . وانما عمد أهل هذا العصر الى التأليف فيه بعد أن اطلعوا على ما نقل من نوعه الى العربية من كتب الفرس وبعد اتساع معارف القوم على أثر ترجمة كتب العلم القديمة عن أهم الامم . وقد تقررت أحكام الشرع فلم تبق حاجة الى الخوض في الفتوح وأسبابها فاقتصروا على تلخيص أخبارها وتبويبها وتحقيقها وضبطها . وضعفت العصبية العربية لتساط الاتراك وغيرهم واستقرت الانساب . فلم تبق حاجة الى الخوض في النسب وعلومه . وشاعت عصبية الوطن بعد ذهاب عصبية النسب على اثر المنافسات بين البصرة والكوفة وبغداد والشام فاتجهت الافكار الى تأليف الكتب الخاصة في أحوال المدن وأحوال الامم

وهناك ضرب من التاريخ تخالف عن علم الادب أو تفرع عنه نعنى أخبار العرب وايامهم واشعارهم وشعرائهم وسائر أحوالهم . فهذه كانت داخلة في علم الادب لعلاقتها باللغة والشعر . فلما اتسعت معارف الناس وتولدت العلوم اللسانية بالتفرع عن الادب كما تقدم كان من جملة فروعه ما تخالف عن الاخبار التي كانوا يأتون بها لاثبات معنى كلمة أو تعبير شعر أو نحو ذلك . وتوسعوا فيه فصار تاريخاً لكنه قاصر على

Digitized by Birzeit University Library

أخبار العرب وبلادهم . وكتاب هذا التاريخ يجوز ادخالهم في جملة علماء الادب كالاصمعي وأبي عبيدة وانما جعلناهم في جملة المؤرخين لبيان عمل ناموس الارتقاء في التفرع والتنوع

فالمؤرخون في هذا العصر ينقسمون الى أربعة أقسام : (١) مؤرخو الفتوح (٢) أخبار العرب وأحوالهم وشعراؤهم والانساب والطبقات وغيرها (٣) تاريخ البلدان والامم أي تاريخ كل بلد أو أمة على حدة ـ أو التاريخ الخاص (٤) التاريخ العام

في العصر العباسي الثالث

اتخذ التاريخ في هذا العصر وجهاً آخر فتكاثرت فيه التواريخ الخاصة للمدن الاسلامية أو الامم أو الاشخاص . وذلك طبيعي بعد استبحار العمران وظهور الدول المتنافسة في الشهرة والسيادة وفي ترقية المملكة الاسلامية . واكثرهم يقربون الكتاب ويغرونهم على تدوين محامدهم . كما فعل عضد الدولة بابي اسحق الصابي وكما فعل محمود الغزنوي بالعتبي

وقد دعا الى تدوين تواريخ الدول المستقلة ما انتهى في ذلك العصر من الانقلابات السياسية . وتاريخ الامة أو الدولة يدوّن غالباً في أواخر ايامها أو بعد انقضائها وأما تراجم الافراد فيغلب تدوينها في حياة أصحابها بايعاز منهم . ونظراً لتوالي التقلبات على مصر في القرنين الثالث والرابع بتنقلها من العباسيين الى الطولونيين فالاخشيديين فالفاطميين ظهر فيها عدة كتب في التواريخ الخاصة ضاع اكثرها وسنذكر مابقي منها

وفي هذا العصر تولد ضرب من التاريخ سموه « علم الاوائل » ومنه تعرف اوائل الوقائع والحوادث بحسب المواطن . وأول من ألّف فيه تأليفاً مستقلا ابو هلال العسكري

أما التاريخ العام فقد خالط بعضه في هذا العصر صبغة الرحلة لكثرة ماكان من توالي الرحلات فيه مع وصف الاماكن الجغرافية . فالمؤرخ يصف ماسمعه ورآه من الغرائب . وأكثرهم افاضة في ذلك المسعودي وكان هو نفسه من أهل الاسفار وكذلك ابو زيد البلخي وقد ألف في التاريخ والجغرافيا

Digitized by Birzeit University Library

ويقال على الاجمال ان النقد التاريخي لم يتضح في تواريخ هـذا العصر لأن أكثرها كتب ولا سيما التواريخ الخاصة تحت سيطرة الملوك والامراء لارضائهم . وقد يمتنعون عن الانتقاد تحاشياً من التعرض للاحزاب الدينية الـما كان بين أهل السنة والشيعة وهم مع ذلك يتحاشونه . ولعل التلاعب بعـد ذلك في النسخ أفسد ما دوّنوه

فى العصر العباسى الرابع

تفرعت المملكة الاسلامية في هذا العصر وتعدّد ملوكها وخلفاؤها وسلاطينها وأمراؤها . ولكل منهم ديوان وأعوان وأعمال وفتوح فهو يتطلب تاريخاً لنفسه أو لدولته أو مملكته أو أسرته . فلا عجب اذا تعدد المؤرخون في هـذا العصر وقد استقر التاريخ ونضجت مواده ورسخت أصوله وتبارى العظماء في التفاخر بما يدوّن من أعمالهم فقربوا رجال التاريخ وأوعزوا اليهم أن يدوّنوا مآثرهم . ولذلك كثرت التراجم الافرادية . وتكاثر عمران المدن الاسلامية وخيف عليها فعني جماعة آخرون بتدوين تاريخها وخططها . واشتغل آخرون بجمع شتات التراجم في معاجم تاريخية لزيادة الحرص عليها . غير تواريخ الدول والتواريخ العامة . فكتب التاريخ تقسم فى هذا العصر باعتبار ما تقدم الى السير وتواريخ الدول وتراجم المشاهير وتواريخ المدن والبلاد والتواريخ العامة

فى العصر المغولى

ان التاريخ من أدل آداب اللغة على حالة الامة لانه يدوّن أعمالها ويتكيف على ما تقتضيه أحوالها . فاذا كان تشتت المملكة الاسلامية وكثرة أصحاب السيادة فيها من الملوك والامراء بعث على الاكثار من تدوين السير الافرادية لأولئك العظماء فاكتساح تلك المملكة ودخول كثير منها في حوزة المغول وذهاب الدول التي كانت تأخذ بناصر العلم والعلماء بعث على جمع تلك السير وأمثالها في كتب عامة للتراجم من كل الطبقات مرتبة على أحرف الهجاء وهي المعاجم التاريخية مع إعمال الفكرة والترجيح بين الروايات . وزادت الرغبـة في تدوين التاريخ العام للاعتبار بأحوال الدول بالنسبة بعضها الى بعض . فنبغ في هـذا العصر طائفة من المؤرخين لا يشق لهم غبـار لا تزال كتبهم بين أيدينا وعليها معولنـا في

Digitized by Birzeit University Library

تحقيق الحوادث . ونظراً لذهاب معظم الاصول التي نقلوا عنها أصبحت هي المرجع الوحيد في التاريخ

ففي هذا العصر ظهر ابن خلكان صاحب وفيات الاعيان وابن أبي اصيبعة صاحب طبقات الاطباء وصلاح الدين الصفدي صاحب الوافي في الوفيات وأبو الفداء صاحب التاريخ المشهور . وشمس الدين الذهبي صاحب تاريخ الاسلام وابن شاكر الكتبي صاحب فوات الوفيات وابن الطقطقي صاحب الآداب السلطانية . وابن خلدون والعسقلاني والمقريزي السيوطي وغيرهم من اساطين التاريخ . ونظراً لذهاب الدالة والوساطة بذهاب الدولة المسيطرة على الآداب العربية واحتكاك الافكار بتوالي الاحن مع كثرة الاختلاط دخل التاريخ شيء من الانتقاد والفلسفة ظهر ناضجاً في مقدمة ابن خلدون

النقد التاريخي

نعني بالنقد التاريخي النظر في التاريخ بعين النقد وبيان ما قد يعتوره من المغالط أو الاوهام . وهو آخر ما التفت اليه ادباء العرب من ضروب النقد . فانهم بدأوا بنقد الشعر ثم الانشاء واللغة وقد تقدم الكلام عنها . ونحن الآن في صدد الكلام على النقد التاريخي

كان العرب في صدر دولتهم من أبعد الناس عن نقد التاريخ . وانما كان همهم تحقيق الحوادث بالاسناد أو الرواية . فاذا جاءتهم الرواية مسندة الى الثقات قبلوها ولم يكلفوا انفسهم النظر فيها وتدبرها وانتقادها ـ ولذلك اسباب أهمها :

الاسناد

ان الاشتغال بالتاريخ عند المسلمين كان الغرض منه أولا خدمة الحديث والتفسير لانهم لما اشتغلوا في تفسير القرآن وجمع الاحاديث احتاجوا الى تحقيق الاماكن والاحوال التي كتبت بها الآيات أو قيلت فيها الاحاديث فعمدوا الى جمع السيرة النبوية ودونوها . واضطروا لتحقيق وسائل الحديث والفقة والنحو والادب الى البحث في أسانيدها والتفريق بين ضعيفها ومتينها . فجرّهم ذلك الى النظر في الرواة وتراجمهم وسائر احوالهم . وقسموا رواة كل فن الى طبقات . فتألف من ذلك تراجم العلماء والادباء والفقهاء والنحاة وغيرهم مما يعبرون عنه بالطبقات كطبقات الشعراء وطبقات المفسرين أو النحاة أو الفقهاء أو الحفاظ أو النسابين أو غيرهم . وكان ذلك من أهم أسس علم التاريخ . واضطروا لنحو هذا

Digitized by Birzeit University Library

السبب في صدر الاسلام أن يبحثوا في البلاد المفتوحة لتحقيق أسباب الفتح عنوة أو صلحاً فجرّهم ذلك إلى تعرُّف البلاد وعلة فتحها

واتخذوا في تحقيق ذلك كله نفس الطريقة التي توخوها في تحقيق الاحاديث — نعني الاسناد من راوٍ إلى راوٍ . ولذلك رأيت تواريخ القرون الاسلاميـة الاولى لا تخلو من الاسناد. والحادث الذي لا يزيد نصه على سطر واحد قد يستغرق اسناده بضعة أسطر . وقـد يقتضي تحقيقه إيراد عدة روايات لـكل منها أسانيد متعددة . فربما استغرق تحقيق الحادث المشار اليه صفحتين أو اكثر . وهم على الغالب يوردون الروايات بأسانيدها ولو كانت متناقضـة ولا يبدون فيها رأياً وإنما يكتفون بايرادها للقارىء على اختلاف رواياتها

تلك هي طريقـة الطبري في تاريخه والبلاذري في فتوحه والاغاني في رواياته واكثر الذين دونوا الحوادث التاريخية في القرون الاسلامية الاولى . ثم أخـذوا يجردونها من الاسانيد شيئاً فشيئاً . لـكنهم لم يتعرضوا لنقدها إلا بعد حين

مجاراة المؤرخ لولاة الامر

نعني اضطرار المؤرخ إلى مجاراة صاحب الامر بما يريده . لانه إنما يكتب لارضائه ولا رزق له بدونه . واكثر المؤرخين كتبوا بايعاز من الخليفة أو السلطان أو الامير وليس لهم يومئذ ما لـكتاب هذا الزمان من وسائل الطبع والنشر والتعويل في الرزق على القراء من الجمهور . فالمؤرخ في تلك الاعصر لا مندوحة له عن مسايرة أميره وكتابة ما يوافق أغراضه وأمياله والاغضاء عما لا يرضيه . وقد يجاري أغراضه فيصور الحقائق على خلاف ما هي . فالمؤرخ في دولة العباسيين لا يمكنه الثناء على بني أمية وذكر محامدهم وآثارهم . وإذا كان الامير من أهل السنة مثلاً وكان متعصباً على سواها لا يسع مؤرخه انتقاد أئمتها والثناء على العلويين ولا يسع السنيين ولا الشيعيين ذكر محامد المعتزلة أو الزنادقة . ولذلك ضاع كثير من أخبـار هاتين الطائفتين ولم يصلنا من تراجم رجالها إلا النذر اليسير . ولهذا السبب أيضاً ضاع كثير من أخبـار بني أمية لان التاريخ لم يتم نضجه في أيامهم . فما كان مدوناً تحت عنايتهم محاه مؤرخو العباسيين أو شوّهوه أو بدّلوه

ولذلك لا تجد في التواريخ التي كتبت تحت رعاية هـذه الدولة ما يحفل به من محامد الأمويين أو الشيعة أو المعتزلة ولا عيوب العباسيين . وإنما تجد ذلك متفرقاً عرضاً في كتب الادب أو الرحلة أو غيرها مما لم تصل اليه نقمة ولاة الأمر . أو في

Digitized by Birzeit University Library

كتب الفرق الاخرى المخالفة لهم ـ كل فرقة تذكر عيوب سواها وتخفي عيوب نفسها . فاذا عرضت لك حقيقة تاريخية عن احدى هـذه الفرق وأشكل عليك تعليلها ابحث عنها في كتب الفرق الاخرى فانك في الغالب تجدها مطولة واضحة . وكثيراً ما وقف ذلك عقبة في أبحاثنا التاريخيـة فتوخينا المقابلة بين الاقوال المختلفة فانكشفت لنا الحقيقة . لانك لا تجد عيوب الخلفاء العباسيين الا في كتب الشيعة أو في بعض كتب الادب اذا كان كتابها بعيدين عن بغداد أو هم في غنى عن خلفائها كصاحب الاغاني والمسعودي أو من كتب بعد ذهاب دولتهم وهو على غير رأيهم كالفخري

وكثيراً ما يغضي المؤرخ عن عيوب وجيه أو وزير له عليه يدٌ فلا يذكره بغير الثناء عليه أو هو يعدد فضائله ويغضي عن سيئاته . وتبقى هذه السيئات متناقلة على الألسنة حتى يدوّنها من يأتي بعد ذهاب دولة ذلك الوزير أو بعد تقلب الاحوال وهو حي كترجمة الصاحب بن عباد في يتيمة الدهر وفي معجم الادباء . ولولا ضيق المقام لاتينا بالامثلة الكثيرة

تنزيه بعض العظماء عن الخطأ

ومما يزيد التاريخ تشويشاً من هذا القبيل رغبة بعض الكتاب في تنزيه الخلفاء ونحوهم عن الخطأ . فاذا وقع لهم كتاب فيه طعن بأحدهم أنكروه وتواصوا بازالته . وقد لا يكون من ذلك الكتاب الا نسخ قليلة يسهل عليهم اعدامها . واذا لم يستطيعوا ذلك اكتفوا بنزع المطاعن من النسخ التي بين أيديهم . وزعموا أن ما يوجد في سواها دخل عليها من وضع الوراقين أو النساخين . وكثيراً ما اتهم النساخون بذلك ـ وقد تكون التهمة في محلها كما قد تكون في غير محلها ولكنهم يتذرعون بها الى نزع ما يطعن في نزاهة من يريدون تنزيهه من كبرائهم وذويهم . وقد فعلوا ذلك في بعض ما نشر من الكتب بالطبع في القرن الماضي فحذفوا منها قطعاً تراءى للناشر انها تسيء بعض الاقوام . ولا تزال هذه القطع موجودة في نسخ خطية أخرى . وقد يطبع الكتاب الطبعة الاولى كاملاً فيحذفون منه شيئاً في الطبعة الثانية لاعتبار ديني أو سياسي

وقد جرى ذلك في نشر كتاب تاريخ مختصر الدول لابي الفرج الملطي بين طبعتيه في أوكسونيا وبيروت . فاذا تيسر وقوع التبديل اليوم في كتاب طبع

Digitized by Birzeit University Library

ونشر فكيف قبل ظهور الطباعة والامير صاحب الامر يفعل ما يشاء ؟ أما اذا لم يتيسر لهم نزع المطاعن فانهم يسيئون الظن بالمؤرخ ويتهمونه بالكذب أو الخيانة أو العصبية

الوصف والتصوير

وزد على ذلك ان أولئك المؤرخين كان أكثر معولهم في تعريف أبطال التاريخ على الاوصاف المجردة من اطراء أو اعجاب . وينـدر أن يشيروا الى وصف المظاهر الطبيعية أو الصناعية أو الابنية أو غيرها من المرئيات ولا كانوا يصورون المواقع ولا الرجال . فترتب على ذلك نقص هام في التاريخ العربي لخلو كتبه من الخرائط والرسوم أو الصور المنقولة عن الطبيعة ولا سيما في إبان التمدن الاسلامي — إلا ما وضعه بعض أصحاب التقاويم أو الجغرافية من الخرائط وأكثرها ضاع . ولكنك تجد كتب المتأخرين في العصر المغولي وما بعده تشتمل على بعض الرسوم الموضحة للفنون الحربية

فهذا النقص وأمثاله من بواعث الابهام والغموض والمناقضة تبعث على أعمال الفكرة لاستخراج الاسباب وتحقيق الوقائع . لكن كتاب العرب لم يتعرضوا لشيء من ذلك الا بعـد زوال الدول المسيطرة ونضج المبادىء الانتقادية في نفوسهم . ولا يبعد ان يكون بعض الكتاب المتقدمين في العصر العاسي كتب انتقاداً لم يصلنا . لكن المشهور أن القوم صرفوا قرائحهم الانتقادية الى الابحاث الكلامية أو الفقهية أو الشعرية مما لا يسيء الخليفة ولا الامير . بخلاف الانتقاد التاريخي فانه لا يخلو من اساءة

مقدمة الفخري

ومن أقدم الذين تصدوا للنظر في التاريخ نظر الانتقاد والتدبر أو نشروا شيئاً يسيء صاحب الامر أبو الفرج الاصبهاني في كتاب الاغاني وابن مسكويه في كتاب تجارب الامم والمسعودي في مروج الذهب . ولا تجد في هذه الكتب شيئاً كثيراً مجموعاً في باب ولكنك تراه يتجلى في بعض المواضع . وهو أكثر وضوحاً في الآداب السلطانية للفخري المتوفي سنة ٧٠١ والرجل كتب بعد ذهاب الدولة العباسية وكان شيعياً وهو عاقل نقاد فصدر كتابه بمقدمة انتقادية استرسل فيها بتقرير الحقائق التاريخية بلا ملاحظة ولا مراعاة لا يبالي أن ينحى بالطعن عنـد

Digitized by Birzeit University Library

الحاجة . وجاء ذكر الرشيد في عرض كلامه وأورد البيت الذي قال فيه أبو نواس وهو :

قد كنت خفتك ثم أمنني من أن أخافك خوفك الله

فعقب على ذلك بقوله « لم يكن الرشيد يخاف الله وأفعاله بأعيان علي (عم) وهم أولاد بنت نبيه لغير جرم تدل على عدم خوفه من الله تعالى لكن أبا نواس جرى في ذلك على عادة الشعراء » فمثل هذا التصريح لم يجر عليه مؤرخ تحت رعاية العباسيين . وفي مقدمة الفخري هذه انتقادات على مصنفي الكتب لتوخيهم الفصاحة والبلاغة حباً بالظهور والمباهاة لا حباً بافادة القراء وأتى بالامثلة على ذلك . وقبح عادة القوم يومئذ في تحريض الشبان على حفظ المقامات لما تحويه من حوادث الحيل التي تصغر الهمم لانها مبنية على السؤال والاستجداء والتحيل القبيح . فان نفعت من جانب اللغة أضرت من جانب الاخلاق . وهي انتقادات راقية جديرة بالاعتبار حتى في هذا العصر

فلسفة التاريخ

ويدخل في الانتقاد التاريخي تدبر الحوادث التاريخية واستخراج الاحكام العامة منها وهي فلسفة التاريخ . وهذه قليلة عند مؤرخي العرب قد تجد نتفاً منها في خلال كتب السياسة أو الحكمة أو نحوها عرضاً في سبيل النصح أو العبرة أو نحو ذلك . وأول من أطال في هذا الباب أبو بكر الطرطوشي المتوفى سنة ٥٢٠ في كتابه « سراج الملوك » فانه وضع للسياسة قواعد وللحكومة شروطاً مبنية على تدبر الحوادث التاريخية لكنه لم يجعل ذلك علماً ولا بناه على الادلة المعقولة ولا توسع به حتى يصح أن ينسب اليه . وهكذا يقال في سائر من نحا نحوه من أصحاب كتب السياسة أو كتب الاخلاق والآداب أو في مقدمات كتب التاريخ كما فعل الفخري وغيره

وانما يرجع الفضل في استنباط هذا العلم الى ابن خلدون . فانه وضع في فلسفة التاريخ علماً سماه « طبيعة العمران في الخليقة » فصله في مقدمة تاريخه تفصيلاً لم يسبقه أحد الى مثله . واليك تصريحه بذلك أيضاً في صدر مقدمته قال : « ونحن ألهمنا الله الى ذلك إلهاماً وأعثرنا على علم جعلنا بين بكره [1] وجهينة خبره .

(١) البكر هو البكرة أو الغدوة . والبكر جمع بكور وهو المطر في أول الوسمي والثمرة والنخلة التي تدرك أولا

فان كنت قد استوفيت مسائله وميزت عن سائر الصنائع أنظاره وأنحاءه فتوفيق من الله وهداية . وإن فاتني شيء في إحصائه واشتهت بغيره مسائله فللناظر المحقق إصلاحه . ولي الفضل لأني نهجت له السبيل وأوضحت له الطريق والله يهدي بنوره من يشاء »

في العصر العثماني

أصاب التاريخ في هذا العصر ما أصاب سائر الآداب من الضعف والركاكة ويمتاز فيه بنبوغ أحسن كتابه في الروملي والاناضول

نخبة من أشهر المؤرخين

نقتصر هنا على بضعة فقط من أشهر المؤرخين واليك تراجمهم حسب سني وفاتهم

ابن جرير الطبري

توفي سنة ٣١٠ هـ

هو أبو جعفر محمد بن جرير الطبري علامة وقته وامام عصره . ولد في آمل بطبرستان سنة ٢٢٤ هـ ورحل في طلب العلم فجاء بغداد ثم شخص الى مصر والشام والعراق حتى استوعب العلوم . ثم استقر في بغداد يقرىء الحديث والفقه حتى مات سنة ٣١٠ هـ ودفن هناك . كان على مذهب الامام الشافعي ثم اختار لنفسه مذهباً في الفقه اتبعه فيه جماعة من العلماء وضعوا فيه الكتب. منهم علي بن عبد العزيز الدولابي ومحمد بن احمد بن أبي الثلج وابن العراد وأبو الحسن احمد بن يحيى المنجم وأبو بكر بن كامل وغيرهم . وكل منهم ألف كتباً في بسط مذهب ابن جرير الطبري ودافع عنه ورد على مخالفيه

واشتهر الطبري بقوة عارضته وفصاحة لهجته وبصبره على العمل . حتى قالوا انه قضى أربعين سنة يكتب كل يوم ٤٠ صفحة . ولا يخلو ذلك من مبالغة لكنه يشير الى كثرة عمله فان كتابيه اللذين اشتهر بهما نعني التاريخ والتفسير ذكروا ان كلاً منهما كان في أول الامر ٣٠٠٠٠٠ ورقة أي ٦٠٠٠٠ صفحة ثم أشار عليه تلامذته باختصارهما فصارا الى ما هما عليه . وقد ألف التفسير قبل التاريخ . وكل منهما مرجع الكتاب في موضوعه لانه استوفى الكلام فيهما . وكان ثقة يحكم

Digitized by Birzeit University Library

بقوله ويرجع الى رأيه لسعة علمه في القرآن وعلومه وبأخبار الناس وأيامهم . وكان حر الفكر صريح القول اذا اعتقد أمراً جاهر به لا يخشى في الحق لومة لائم . فكثر أخصامه من العامة ومن يتزلفون اليهم أو يرتزقون بمراضاتهم ولا سيما الحنابلة لأنه ألف كتاباً ذكر فيه اختلاف الفقهاء ولم يذكر فيه ابن حنبل . فقيل له في ذلك فقال « لم يكن فقيهاً وانما كان محدثاً » فعظم ذلك على الحنابلة وكانوا لا يحصون عداً في بغداد فنقموا عليه واتهموه بالالحاد وشاركهم اكثر العامة ـ ولو سئلوا عن معنى الالحاد ما عرفوه وهو لا يهمه ذلك لزهده وقناعته بما كان يرد عليه من قرية خلفها أبوه في طبرستان . فلما توفي في شوال سنة ٣١٠ هـ دفن ليلاً في داره لأن العامة اجتمعت ومنعت دفنه نهاراً . وألف كتباً ذكر منها صاحب الفهرست بضعة عشر مؤلفاً هذا ما بقي منها :

١ كتاب أخبار الرسل والملوك : ويعرف بتاريخ الطبري وهو تاريخ عام يبدأ بالخليقة وينتهي سنة ٣٠٢ هـ. وقد اتبع في أخباره الاسناد الى رواتها بالتسلسل لزيادة التحقيق على عادتهم في ذلك العهد . وهو عمدة المؤرخين ومرجعهم في التحقيق حتى الآن

٢ التفسير الكبير

٣ تهذيب الآثار في الحديث : لم يتمه

٤ اختلاف الفقهاء : يبحث فيما اختلف فيه الفقهاء الاربعة في بعض الاحكام كالبيع والاعتاق والايجار والزرع والكفالة وما يتفرع عن ذلك

المسعودي

توفي سنة ٣٤٦ هـ .

نشأ في بغداد وجاء مصر ورحل في طلب العلم الى أقصى البلاد فطاف فارس وكرمان سنة ٣٠٩ حتى استقر في اصطخر . وفي السنة التالية قصد الهند الى ماتان والمنصورة ثم عطف الى كنبايا فصيمور فسرنديب (سيلان) ومن هناك ركب البحر الى بلاد الصين وطاف البحر الهندي الى مدغسكر وعاد الى عمان . ورحل رحلة أخرى سنة ٣١٤ الى ما وراء أذربيجان وجرجان ثم الى الشام وفلسطين

Digitized by Birzeit University Library

وفي سنة ٣٣٢ جاء الى أنطاكية والثغور الشامية الى دمشق واستقر أخيراً بمصر ونزل الفسطاط سنة ٣٤٥ وتوفي في السنة التالية ولم يفتر في أثناء سفره عن الاستقصاء والبحث واكتساب العلوم على اختلاف مواضيعها فجمع من الحقائق التاريخية والجغرافية ما لم يسبقه اليه أحد وألف كثيراً من الكتب في مواضيع شتى أهمها في التاريخ . وأشهر كتبه :

كتاب مروج الذهب ومعادن الجوهر وقد طبع في جزئين وصف في الاول منهما الخليقة وقصص الانبياء مختصراً ثم وصف البحار والارضين وما فيهما من العجائب . ويدخل في ذلك تواريخ الامم القديمة من الفرس والسريان واليونان والرومان والافرنج والعرب القدماء وأديانهم وعاداتهم ومذاهبهم والتقاويم القديمة والبيوت المعظمة وغيرها . ثم عطف على تاريخ الرسالة الاسلامية من ظهور النبي الى مقتل عثمان . وذكر في المجلد الثاني تاريخ الاسلام من خلافة علي الى أيام المطيع لله العباسي (الذي توفي سنة ٣٦٣) وفي خلال هذا الكتاب فوائد كثيرة لا تجدها في سواه

ابن النديم

توفي نحو سنة ٣٨٥ هـ .

هو أبو الفرج محمد بن اسحق بن يعقوب النديم الوراق البغدادي صاحب الفضل الاكبر على تاريخ آداب اللغة لأنه أول من دوّنها منذ نحو ألف سنة في « الفهرست » ولولا هذا الكتاب لضاع أخبار كثير من آداب هذا اللسان . فهو أول من ألف في آداب اللغة . واليك وصف كتابه :

كتاب الفهرست : بدأ فيه بوصف لغات الامم من العرب والعجم وخطوطها وصوّر أمثلة منها . ثم ذكر كتب الشرائع المنزلة على مذاهب المسلمين والقرآن وعلومه . ثم انتقل الى العلوم فذكر النحويين واللغويين وتاريخ النحو وأصحابه في البصرة والكوفة وأسماء كتبهم فأصحاب الاخبار والآداب والسير وكتبهم فالشعر والشعراء فالكلام والمتكلمين فالفقه والفقهاء والحديث والمحدثين . فالفلسفة والعلوم القديمة وأصحابها فالاسمار والخرافات والعزائم والسحر والشعوذة . فالمذاهب والاعتقادات وأخيراً الكيمياء وأصحابها وفي كل باب تفاصيل في تاريخ كل مؤلف وأسماء كتبه

Digitized by Birzeit University Library

والفهرست ذخيرة أدب لا تثمن لانه حوى من أحوال آداب اللغة العربية في القرون الاولى ما لم يتعرض له غيره ولا غنى عنه في درس هذا التاريخ

عز الدين بن الاثير

توفي سنة ٦٣٠ هـ .

هو المؤرخ الشهير صاحب « الكامل » واسمه أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري ويلقب عز الدين . وُلد في الجزيرة ونشأ بها مع أخويه ضياء الدين اللغوي المتقدم ذكره ومجد الدين المحدث الآتي ذكره . ثم انتقل والدهم بهم الى الموصل فسكن عز الدين الموصل وأخذ بها العلم عن جلة العلماء وزار بغداد مراراً حاجاً ورسولا من صاحب الموصل لبعض المهام وأخذ عن علمائها . ثم رحل الى الشام والقدس ثم عاد الى الموصل ولزم بيته وانقطع الى العلم والتأليف وكان بيته مجمع الفضلاء من أهل الموصل والواردين عليها . وكان اماماً في الحديث والتاريخ خبيراً بأنساب العرب وأيامهم ووقائعهم . وأشهر مؤلفاته :

الكامل في التاريخ : ويعرف بتاريخ ابن الاثير وهو أشهر كتب التاريخ المتداولة بين أيدينا ومن أوثق المصادر التاريخية الاسلامية وأوضحها وأوعاها بدأ فيه بالخليقة وانتهى الى آخر سنة ٦٢٨ هـ . جعله ١٢ جزءاً كبيراً : الاول في التاريخ القديم من الخليقة الى ظهور الاسلام وفيه فذلكة حسنة عن تواريخ الفرس والروم ولا سيما العرب الجاهلية فانه أتى على وقائعهم وأيامهم يوماً يوماً أو واقعة واقعة وهو من أوعى الكتب لهذه الحقبة من تاريخ الجاهلية . والجزء الثاني يبدأ بتاريخ الاسلام من نسب النبي فظهور الاسلام فالخلفاء الراشدين ومن بعدهم . ويتسلل هذا التاريخ حسب السنين الى آخر الجزء الثاني عشر . وفي هذا الجزء تفصيل ما عاصر المؤلف من اكتساح جنكيزخان بلاد الاسلام . والكتاب كله مرتب على السنين ـ تاريخ كل سنة على حدة مع التفريق فيها بين الحوادث حسب الاماكن . وقد جمع فيه خلاصة الكتب التاريخية التي تقدمته . واقتبس تاريخ الطبري كله تقريباً بعد حذف الاسانيد وتحداه في ترتيبه . ويكفي أن تتصفح هذا التاريخ لتتبين سعة اطلاع ابن الأثير وتحريه الحقيقة . على انه تجنب النظر والانتقاد فسار على خطوات معظم المؤرخين المسلمين

Digitized by Birzeit University Library

ابن خلكان

توفي سنة ٦٨١ هـ .

هو قاضي القضاة شمس الدين أبو العباس أحمد بن ابراهيم بن أبي بكر بن خلكان الاربلي أحد الصدور العظام من بيت كبير في العراق ينتسب الى البرامكة . وُلد سنة ٦٠٨ في أربل وخرج منها سنة ٦٢٦ ودخل حلب أقام فيها سنتين وتنقل في غيرها حتى استقر في دمشق سنة ٦٣٣ وتولى قضاء الشام ودرّس في عدة مدارس ورحل الى الاسكندرية ومصر وأقام فيها سنة ٦٣٧ ثم عاد الى الشام يدرّس في المدرسة الامينية بدمشق وتوفي وهو ابن ٧٣ سنة . وكان له نظم حسن ومحاضرات في غاية الجودة وانما اشتهر بكتابه :

وفيات الاعيان وأنباء أبناء الزمان مما ثبت بالنقل أو السماع أو أثبته العيان : هو معجم تاريخي قال في مقدمته انه كان مولعاً بالاطلاع على أخبار المتقدمين فجمع منها شيئاً كثيراً وتعب في تحقيق وفياتهم ومواليدهم فنقل عمن سبقه وأخذ من أفواه الأئمة المعاصرين . قضى في ذلك عدة سنين فاجتمع عنده تراجم كثيرة فرتبها على الابجدية لتسهل مراجعتها . ولم يذكر من الصحابة ولا التابعين إلا جماعة قليلة دعت الحاجة الى ذكرهم . وكذلك الخلفاء لم يذكر أحداً منهم اكتفاء بالمصنفات الكثيرة في هذا الباب . وترجم ما خلا ذلك من العلماء والملوك والامراء والوزراء والشعراء وكل من له شهرة بين الناس يقع السؤال عنه . وقد بذل العناية في تحقيق نسب كل واحد وسنة ولادته وسنة وفاته . وهذا من مميزات كتابه . ويمتاز أيضاً بتقييده الاعلام بالحركات وتعريف الامكنة والاشخاص مما يفتقر اليه طالب التاريخ . فرغ من تأليفه سنة ٦٧٢

لم يخلف ابن خلكان غير هذا الكتاب لكنه يساوي مئات من الكتب وهو ذخيرة علم وأدب وتاريخ ولغة . جمع فيه زبدة ما ألفه العلماء قبله في تراجم الرجال وأضاف اليه ما عرفه هو من معاصريه وحقق ودقق . وتجد في خلاله كثيراً من دلائل العناية في الضبط والروية . يزيد عدد التراجم فيه على ثمانمائة ترجمة . وانما ينتقد عليه انه رتب الاعلام على أسماء أصحابها وان لم يشتهروا بها كما فعل أكثر أصحاب المعاجم التاريخية في ذلك العصر. فهم يترجمون ابن سينا مثلاً بباب الحاء لان اسمه الحسين . وصلاح الدين الايوبي بباب الياء لان اسمه يوسف ونظراً لاهمية هذا الكتاب فقد اهتم به الافرنج وغيرهم ونقلوه الى لغاتهم

Digitized by Birzeit University Library

ابو الفداء

توفي سنة ٧٣٢ هـ .

هو السلطان الملك المؤيد صاحب حماه اسماعيل بن علي بن محمود بن المنصور محمد بن المظفر تقي الدين عمر بن نور الدين شاهنشاه بن نجم الدين أيوب . كان أميراً على دمشق وخدم الملك الناصر وهو في الكرك وبالغ في ذلك فوعده بحماه ووفى له بوعده وجعله سلطاناً عليها يفعل فيها ما يشاء بلا مراقبة من مصر ولا غيرها . ولما زاره أبو الفداء في القاهرة أركبه بشعار الملك وأبهة السلطنة ومشى الامراء والناس في خدمته وبالغ في اكرامه . وكان أبو الفداء يتوجه كل سنة إلى مصر بهدايا من الخيل والرقيق والجواهر والناصر يبالغ في رفع قدره ويأمر أمراءه أن يكاتبوه بأجل الالقاب على اصطلاح تلك الايام . وكان محباً للعلم وقد تمكن من الفقه والطب والفلسفة . وكان يقرب أهل العلم ويرتب لهم الجواري والارزاق . وألف كتباً نفيسة هي من أفضل مراجع التاريخ والجغرافية حتى الآن أهمها :

١ المختصر في أخبار البشر : تاريخ عام في قسمين الاول في الجاهلية والثاني في الاسلام إلى سنة ٧٢٩ وكلاهما في أربعة أجزاء . يبدأ الجزء الاول بمقدمات مفيدة في مقابلة التواريخ (الروزنامة) المعروفة في عصره قابل فيها بين مافي التوراة العبرانية والسامرية واليونانية . ووضع لذلك جدولا لطيفاً . ثم أتى على تواريخ الانبياء والفرس القدماء والعرب الجاهلية والامم القديمة . وأفاض في العرب الجاهلية وأحيائهم وقبائلهم البائدة والباقية وملوكهم ودولهم وكلامه في ذلك من أفضل ما كتب في هذا الموضوع يلي ذلك ظهور الاسلام فالخلفاء الراشدون فالامويون والعباسيون إلى خلافة المنصور والجزء الثاني في تاريخ دولة الامويين في الاندلس وما عاصرها من الدول الاسلامية إلى سنة ٥٢٣ . والثالث ينتهي سنة ٦٦٣ والرابع ٧٢٩ وقد جمعه من نيف وعشرين كتاباً أهمها الكامل لابن الاثير وقد تحداه في ترتيبه على السنين . ويمتاز عنه بما تضمنه من الاخبار الادبية والعلمية والاجتماعية مما لم يتصد له ذاك إلا قليلا

ولهذا الكتاب منزلة رفيعة عند علماء أوربا وهو من أقدم كتب التاريخ الاسلامي التي اهتموا بنشرها وترجمها

٢ تقويم البلدان : هو جغرافية عامة ذكر في أوله انه طالع الكتب المؤلفة

Digitized by Birzeit University Library

في هذا الموضوع في العربية من ابن حوقل إلى الادريسي وياقوت وغيرهم . فوجد في كتبهم ما يحتاج إلى تصحيح ولا سيما الاسماء والانساب فطالع ما كتبه العرب في تصحيح الانساب والاسماء كالانساب للسمعاني والمشترك لياقوت . وقرأ كتباً أخرى عن الاطوال والعروض وغيرها وجمع ما تفرق فيها كلها في هذا الكتاب . وأضاف اليها أشياء لم يصل علمها لاحد قبله وبذل جهده في التحقيق وجعله في شكل الجداول مثل تقويم الابدان لابن جزلة . وقدم ما يجب معرفته من ذكر الارض والاقاليم ثم ذكر البلاد . وعددها ٦٢٣ بلداً — مرتبة على الاقاليم . وقد اهتم به الافرنج وغيرهم ونقلوه إلى لغاتهم

لسان الدين بن الخطيب

توفي سنة ٧٧٦ هـ.

هو أشهر مؤرخي الاندلس في العصر المغولي . واسمه أبو عبد الله محمد بن عبدالله بن سعيد بن عبد الله بن الخطيب ويلقب لسان الدين السلماني اللوشي . أصله من أسرة شامية نزحت إلى الاندلس فأقامت في لوشة على مرحلة من غرناطة ثم في قرطبة وطليطلة واستقرت أخيراً في غرناطة . وفيها وُلد لسان الدين سنة ٧١٣ وكان أبوه وزيراً في غرناطة ومات في النكبة العامة سنة ٧٤١ وأخذت أمواله . لكن لسان الدين ارتقى بعلمه وذكائه حتى صار وزيراً لابي الحجاج يوسف سلطان غرناطة (٧٣٣ — ٧٥٥) وصار اليه النفوذ الاعظم . وظل في هذا المنصب في سلطنة ابنه محمد الخامس وتبعه إلى أفريقيا . ثم عاد محمد إلى غرناطة واسترجع ملكه سنة ٧٦٣ وظل لسان الدين في أفريقيا مع أهل السلطان وأولاده . ثم رجع إلى غرناطة وعاد إلى منصبه في الوزارة وقد استفحل نفوذه فكثر حساده وتآمروا عليه في حديث طويل لكنهم فازوا أخيراً . فألقي في السجن وتوفي فيه سنة ٧٧٦ بفاس وكان عالماً في التاريخ والفلسفة والرياضيات والطب والفقه وألف فيها كلها وهاك أهم ما وصلنا اليه من آثاره التاريخية :

١ — الاحاطة في تاريخ غرناطة : هو معجم تاريخي لمشاهير غرناطة في ثلاثة مجلدات مرتبة على حروف الهجاء . في صدره فذلكة جغرافية خطط فيها ولاية غرناطة وما يتبعها وذكر عادات أهلها ومعائشهم وأزيائهم وجندهم وسلاحهم وكثيراً من أحوالهم الاجتماعية لعهده . ثم أتى على التراجم وقسم ترجمة كل رجل

Digitized by Birzeit University Library

الى أبواب في تاريخ حياته ومناقبه وسائر أحواله على ما تقتضيه ترجمته . وختم الكتاب بترجمة نفسه

٢ — الاعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الاسلام وما يتعلق بذلك من الكلام : يدخل فيه تاريخ النبي وأكثر تاريخ الأمويين والعباسيين ودول المشرق والمماليك الخ . .

ابن خلدون

توفي سنة ٨٠٨ هـ .

هو أشهر من أن يعرف . لكننا لا بد لنا من بيان مزيته على سواه في التاريخ لأنه سلك فيه مسلكا جديداً . وله شأن خاص بمقدمته .

ترجمة حاله

هو أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن خلدون ولي الدين التونسي الحضرمي لاشبيلي المالكي أصله من أسرة أشبيلية بالاندلس . انتقل أجداده من أشبيلية الى تونس في أواسط القرن السابع للهجرة عند غلبة الجلالقة . ويرجعون بأنسابهم الى وائل من عرب اليمن نزح جدهم الأعلى خلدون الى الاندلس في القرن الثالث للهجرة . ولد المؤرخ في تونس سنة ٧٣٢ وتفقه بالعلوم المعروفة في عصره ثم غادر تونس فراراً من الطاعون الى هوارة ونزل على صاحبها ابن عبدون فأعانه على السفر الى المغرب . وتنقل في بلاد كثيرة وهو لا يزال في مقتبل الشباب ثم استقدمه السلطان ابو عنان المريني صاحب تلمسان الى فاس سنة ٧٥٥ وقربه واستكتبه ورقاه . فحسده أقرانه وسعوا فيه بتهمة المؤامرة فاعتقله وما زال معتقلا حتى مات السلطان سنة ٧٥٩ فأطلقه الوزير ابن عمر وخلع عليه واحتفظ به . واتفق أن السلطان أبا سالم المريني أقبل من الاندلس يطلب مكة فاستعان بابن خلدون لما بينه وبين شيوخ بني مرين من المحبة ففاز ودخل فاس وابن خلدون ركابه في سنة ٧٦٠ فجعله كاتب سره فأجاد وبرع . ولكن الحظيب بن مرزوق غلب على هوى السلطان وسعى فيه . فانقبض ابن خلدون وغيره من رجال الدولة فتغيروا على السلطان وانتقضوا عليه فمات . وعاد النفوذ الى ابن خلدون بواسطة الوزير عمر بن عبد الله وأراد السفر الى الاندلس فمنعه . ثم قبل التوسط فسافر الى الاندلس سنة ٧٦٤ والسلطان يومئذ أبو عبد الله من بني الاحمر في غرناطة

Digitized by Birzeit University Library

فقصده فاهتز السلطان لقدومه وهيأ له منزلا في أعلى قصوره وبالغ في اكرامه . ثم رحل سنة ٧٦٥ الى قشتالة ولقي صاحبها وتوسط في عقد الصلح بينه وبين ملوك العدوة بهدية فاخرة . فرغبه صاحب قشتاله في المقام عنده فأبى فأركبه بغلة فارهة بلجام ذهب . فلما رجع الى غرناطة أهداها الى صاحبها فأقطعه بلداً وأنزله على الرحب والسعة

ثم اشتاق الى أهله فرحل الى بجاية فلقيه سلطانها أبو عبد الله وتهافت عليه أهل البلد يقبلون يديه وقلده السلطان أعمال دولته فخدمه بقلمه وعلمه ونفوذه . لكن أبا العباس صاحب قسنطينة تغلب على ابي عبد الله صاحب بجاية وملك بلده واستبقى ابن خلدون وأكرمه . ثم كثرت السعايات فيه فاستأذن في الانصراف وذهب الى العرب . ثم كتب اليه أبو حمو صاحب تلمسان يستقدمه ليتولى الحجابة والعلامة . فاعتذر لأنه رغب في العلم عن السياسة . وأراد الخروج الى الاندلس فاستأذن أبا حمو في ذلك فأذن له وحمله رسالة الى ابن الاحمر . لكنه عجز عن ركوب البحر وبلغ السلطان عبد العزيز المريني صاحب المغرب الاقصى خبره وأن معه وديعة الى سلطان الاندلس فاستقدمه . ولم يجد الخبر صحيحاً فأكرمه واستبقاه عنده واستعانه على بجاية في حديث طويل لا محل له هنا

وبالجملة فان الحال استقر أخيراً بابن خلدون في تلمسان مع أهله وولده ونزل بهم في قلعة بني سلامة من بلاد بني توجين . فأقام بها أربع سنين وهناك شرع بتأليف تاريخه فأكمل المقدمة وكتب بعض التاريخ ثم رأى العودة الى تونس مسقط رأسه فاستأذن فأذن له فوصلها سنة ٧٨٠ وأكرمه سلطانها واختصه بأسراره وأخذ يناصره وحرضه على اتمام تأليفه . فكتب ما تيسر له وأحس بالسعايات عليه فاستأذن بالسفر الى الاسكندرية . فجاءها سنة ٧٨٤ وانتقل منها الى القاهرة وجلس للتدريس في الازهر . واتصل ببرقوق صاحب مصر وأكرمه وولاه قضاء المالكية سنة ٧٨٦ فقام بالمنصب حق القيام . واشتهر أمره وكثر المعجبون به وتكاثر حساده فوشوا به وأشاعوا عنه الأراجيف . وكان قد بعث يستقدم أهله وولده من تونس ليقيموا معه في القاهرة فغرقوا جميعاً في أثناء الطريق . فعظم الامر عليه فاستقال من منصبه وانقطع للتدريس والتأليف . وفي سنة ٧٨٩ خرج من القاهرة للحج ورجع في السنة التالية الى مصر وعاد الى العمل فأتم كتابه فيها سنة ٧٩٧ — ومصر ملجأ أهل العلم والادب من قديم

Digitized by Birzeit University Library

الزمان . وما زال مقيماً فيها حتى وافاه الاجل سنة ٨٠٨ هـ

مؤلفاته

١ تاريخ ابن خلدون : اشتهر ابن خلدون بكتاب واحد بل بجزء واحد من ذلك الكتاب نعني مقدمة تاريخه . اما التاريخ فاسمه « العبر وديوان المبتدا والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاشرهم من ذوي السلطان الاكبر » وهو اسم طويل لكنه يعرف بتاريخ ابن خلدون ـ وهو ثلاثة كتب في سبعة مجلدات :

الكتاب الاول في العمران وما يعرض فيه من العوارض الذاتية من الملك والسلطان والكسب والمعاش والصنائع والعلوم وما لذلك من العلل والاسباب . وهو المشهور بمقدمة ابن خلدون . وبها وحدها نال ابن خلدون القدح المعلى . لانه أتى فيها بابحاث جديدة من قبيل ما يسميه أهل هذا الزمان بعلوم الاجتماع والاقتصاد السياسي وفلسفة التاريخ . وقد تصدى لذلك وأجاد فيه وأهل أوربا في غفلتهم ولم يكتب غيره من العرب في هذا الباب إلا نتفاً متفرقة تقدم بيانها . فتوسع هو في ذلك بما استخرجه من الاسباب والعلل بمقابلة الحوادث ودرس المسائل والبحث عن عللها مما طالعه أو كابده بنفسه. ولا شك أن توالي اغترابه واحتكاكه بالامم المختلفة والدول المتباينة أعانه على ذلك . فضلاً عما اطلع عليه من التواريخ الاسلامية وغيرها . ويشبه ذلك من بعض الوجوه ما فعله مكيافيلي بعده فوضع كتاب الامير وضمنه قواعد الدهاء في السياسة بناء على ماخبره بنفسه من التقلبات وما عرفه من تواريخ اليونان والرومان وغيرهم . لكن مقدمة ابن خلدون أوسع كثيراً وتشتمل على عدة علوم عمرانية اجتماعية فهي تدخل في نحو ٦٠٠ صفحة قسمها الى ستة فصول كل فصل علم من العلوم الهامة كما يظهر مما يلي :

الفصل الاول منها في قسط العمران من الارض وما فيها من الاقاليم . وتأثير الهواء في ألوان البشر وأخلاقهم . واختلاف أحوال العمران من الخصب والجوع وما ينشأ عن ذلك من الآثار في أبدان البشر وأخلاقهم . نحو ما يفعل علماء النشوء والارتقاء اليوم

الفصل الثاني في العمران البدوي والامم الوحشية والقبائل . وما يعرض في

Digitized by Birzeit University Library

ذلك من الابحاث في طبيعة البداوة والحضارة والفرق بينهما من حيث الانساب والعصبية والرئاسة والحسب والملك والسياسة وغير ذلك . وهو من قبيل القواعد العامة لنظام الاجتماع كما يفعل علماء الاجتماع المعاصرون (السوسيولوجيا)

والثالث في الدول العامة والملك والخلافة والمراتب السلطانية . علل فيه أسباب السيادة وتشييد الدول وكيف تحفظ الامارة وشروط السلطة والخلافة وطبائع الملك ومعنى البيعة وولاية العهد ومراتب السلطان ودواوين الدولة وجندها وأساطيلها وشاراتها وقواعد الجند والحرب وأسباب ثبوت الدولة وسقوطها . وهو من قبيل علم السياسة العملية

والرابع في البلدان والامصار وسائر العمران . في المدن والهياكل ونسبتها الى الدول وما تجب مراعاته في وضعها من حيث البر والبحر وفي بناء المساجد والبيوت ونسبتها الى الملة الاسلامية . وهو من قبيل الهندسة الحربية

والخامس في المعاش ووجوهه من الكسب والصنائع . وفيه مسائل في الرزق والكسب وانه قيمة الاعمال البشرية . وفي المعاش وأصنافه ومذاهبه ونسبة ذلك الى طبيعة العمران . وفيه أبحاث مستفيضة في أبواب الرزق من التجارة والصناعة على اختلاف ضروبها وأنواعها والخدمة ووصف أمهات الصنائع في أيامه كالفلاحة والبناء والحياكة والخياطة والتوليد والطب والوراقة والغناء وغيرها وهو من الابحاث المعاشية التي يسميها أهل هذا الزمان « الاقتصاد السياسي »

السادس في العلوم وأصنافها والتعليم وطرقه وسائر وجوهه . وفيه أبحاث في التعليم ونسبته الى الحضارة والكلام في كل علم على حدة وتاريخه وشروطه من علوم القرآن والحديث والفقه فالعلوم اللسانية والطبيعية والطبية فالادب والشعر والتاريخ . وفي الالهيات وعلومها . وهو من قبيل تاريخ آداب اللغة العربية

فمقدمة ابن خلدون خزانة علوم اجتماعية وسياسية واقتصادية وأدبية ـ فضلاً عن أسلوبها اللغوي فانه خاص بها . وعبارتها متناسقة مترابطة كأنها سلاسل الذهب ولذلك كان لهذه المقدمة وقع عظيم عند أهل التفكير من الافرنج أيضاً فنقلت الى لغاتهم

أما التاريخ نفسه فانه يشتمل على الكتابين الثاني والثالث في ستة مجلدات . يشتمل الكتاب الثاني على أخبار العرب وأجيالهم ودولهم منذ الخليقة الى عهده مع الالماع الى من عاصرهم من الامم ودولهم كالنبط والسريان والفرس والقبط

Digitized by Birzeit University Library

واليونان وغيرهم . والكتاب الثالث يشتمل على أخبار البربر والامة الثانية من أهل المغرب . وذكر أوليتهم وأخبارهم وما كان لهم بديار المغرب من الدول . ويمتاز تاريخ ابن خلدون عما تقدمه من كتب التاريخ بما تضمنه من المقدمات الفلسفية في صدور اكثر الفصول عند الانتقال من دولة الى دولة . فانه يصدر ذلك غالباً بالاسباب والعلل على قدر الامكان . وهو أوسع تاريخ للبربر ودولهم وللعرب الجاهلية . وقد ظلمه بعض الناقدين في الحط من قدره ونسبوا اليه التعقيد والغموض . والسبب في ذلك أن الطبعة التي بين أيدينا سقيمة وفيها خطأ مطبعي كثير فضلاً عن النقص في أوراقها . وقد اهتم المستشرقون بهذا التاريخ كما اهتموا بمقدمته ونشروا ما يهمهم منه

٢ التعريف بابن خلدون : هو ترجمة ابن خلدون ونسبه وتاريخ أسلافه في نسق المذكرات الخصوصية (Mémoires) شرح فيها ما عاناه في حياته ويتخلل ذلك مراسلات وقصائد نظمها في بعض الاحوال وكثير مما أصابه من النوائب . ومنها رحلته الى الاندلس وما كان له فيها من الشؤون ثم عودته الى المغرب وما جرى له فيه . ويجد المطالع فيها كثيراً من الفوائد الاجتماعية والسياسية . ثم مجيئه الى القاهرة وما تولاه فيها من الدروس والخوانق أو المناصب . تنتهي حوادثها سنة ٨٠٧ أي قبل وفاته بسنة

وفي ذيل تاريخه المطبوع فصل طويل عنوانه « التعريف بابن خلدون » هو هذا الكتاب ببعض الاختصار وينتهي سنة ٧٩٧ من ترجمة حاله

المقّري

توفي سنة ١٠٤١ هـ

هو أبو العباس احمد بن محمد بن احمد المقّري التلمساني المالكي الاشعري . ولد في تلمسان في أواخر القرن العاشر وسمي المقّري بتشديد القاف نسبة الى قرية بهذا الاسم نسب اليها آباؤه . وتعلم في فاس ومراكش ثم نزل القاهرة سنة ١٠٢٨ وتزوج فيها من السادات الوفائية ورحل الى القدس وحج خمس مرات . وأقام في المدينة وأملى الحديث وعاد الى القاهرة سنة ١٠٣٩ وأقام في المدرسة الجقمقية وتوفي بمصر فجأة . ودفن في مقابر المجاورين وهاك أشهر مؤلفاته :

١ نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن

Digitized by Birzeit University Library

الخطيب : جعله قسمين كبيرين في ٤ مجلدات كبيرة . القسم الاول مؤلف من الجزئين الاول والثاني ويشتمل على رحلة المؤلف ووصف جزيرة الاندلس وما تحتويه من المحاسن وفتح المسلمين لها ومن توالى عليها من الامراء أو الخلفاء الى ملوك الطوائف . ووصف قرطبة ومحاسنها وتراجم من رحل من الاندلسيين الى بلاد المشرق وأمثلة من أشعارهم وأقوالهم ويزيد عددهم على ٣٤٠ شاعراً وأديباً . ثم تراجم الوافدين على الاندلس من أهل المشرق وفيهم جماعة من النساء . وأورد ما اتصف به أهل الاندلس من توقد الاذهان وطلب العلم وتفضيل الاندلس على سواها . ومذاهب الاندلسيين وسائر أحوالهم الى خروجها من أيدي المسلمين . والقسم الثاني مؤلف من الجزئين الثالث والرابع فيهما ترجمة مطولة للسان الدين ابن الخطيب وأقواله وأشعاره ومشائخه وغير ذلك . وعلى الجملة فان نفح الطيب أصدق صورة لحال الاندلس الاجتماعية والادبية على اختلاف أعصرها

٢ فتح المتعال في وصف النعال : نعال النبي

٣ حسن التنا في العفو عمن جنى : في الادب

٤ ايضاء الدجنة في عقائد أهل السنة : في التوحيد

٥ أزهار الرياض في أخبار عياض

وله كتب أغضينا عنها

Digitized by Birzeit University Library

الجغرافية

أسباب وضع الجغرافية عند العرب

نشأ علم الجغرافية في العصر العباسي الثاني بعد نقل علوم القدماء إلى العربية وفي جملتها كتاب بطليموس وعليه معولهم في تقويم البلدان . على ان المسلمين بدأوا بوضع الجغرافيا قبل اطلاعهم على ذلك الكتاب لاسباب غير التي دعت اليونان إلى وضعها وهي :

أولا : الحج لان المسلمين على اختلاف بلادهم يحجون إلى مكة والحج فريضة على كل مسلم . والقدوم الى مكة يفتقر الى معرفة الطرق والمنازل

ثانياً : كان المسلمون يرحلون في طلب العلم الى سائر الامصار الاسلامية والرحلة تستلزم معرفة الاماكن والمناطق

ثالثاً . أبحاثهم في تحقيق أسباب الفتح لضرب الخراج والجزية واجتباء المقاطعات وهذه أيضاً تفتقر الى تعرف البلاد وطرقها . فاضطر العرب الى التأليف في البلدان قبل هذا العصر . وأول من فعل ذلك رواة الأدب وأصحاب الاخبار

فلما ترجمت الجغرافية الى العربية واطلع العرب عليها أخذوا في تأليف الكتب على مثالها وتوسعوا في ذلك وزادوا عليه ما عرفوه من قبل . ولم يكتفوا بالنقل والسماع ولكنهم ركبوا البحار وجابوا الاقطار شرقاً وغرباً وشمالا وجنوباً وكتبوا ما شاهدوه أو تحققوه وصححوا كثيراً من مغالط بطليموس . على ان علم الجغرافية عند العرب لم ينضج الا في القرن الرابع للهجرة فتهافت الناس على التأليف فيه

ولكن علماء القرن الثالث (أو العصر العباسي الثاني) مهدوا السبيل للتأليف فيه من عند أنفسهم لكثرة أسفارهم في سبيل الرحلة أو لاشتغالهم في احصاء خراج المملكة وفي تعيين طرق البريد مما يقتضي معرفة الأماكن وابعادها وجهاتها وبعد ذلك من قبيل الجغرافية

وبين ما ألفوه في هذا الموضوع ما هو عام شامل للمملكة الاسلامية وغيرها

Digitized by Birzeit University Library

ونسميه « الجغرافية العامة » ومنه ما يختص ببقعة من الأرض وندعوه «الجغرافية الخاصة »

وقد تحداهم في ذلك أهل العصر العباسي الثالث ومن جاء بعدهم فظلوا يبنون كتبهم الجغرافية على الرحلات . على ان ذلك أبان فضل العرب في اكتشاف أماكن دخلوها وبلاد ومسالك لم يسبقهم أحد الى وصفها على أثر الفتوح أو الاسفار التجارية في أواسط آسيا وافريقيا وفي البحر الهندي وبحر فارس وغيرها فاكتشفوا كثيراً من جزائر المحيط وجزائر الاتلانتيكي وعرفوا أصقاع الارض اكثر من سائر الامم التي تقدمتهم . وقبل التقدم الى ذكر بعض من مشاهير الجغرافيين نذكر اشتغالهم برسم الخرائط

الخرائط عند العرب

رسم الخرائط من الفنون القديمة . وجدوا أمثلة منها في أنقاض بابل وآشور ومصر

أما العرب فبدأوا برسم الخرائط في صدر الدولة العباسية بعد ترجمة كتب الفلك والجغرافية . وكانوا يجعلون أساس رسومهم قياس العرض والطول . وأول من رسم منهم خريطة الارض على هذا الاساس محمد بن موسى المعروف بالخوارزمي في زمن المأمون . فانه عين مواقع المدن والبحور بالدرجات الجغرافية المبنية على علم الفلك كما فعل بطليموس القلوذي . فلما أخذوا في الرحلة أغضوا عن تلك المقاييس وصاروا يرسمون الخرائط بلا قياس كما فعل أبو زيد البلخي في أوائل القرن الرابع للهجرة وابن حوقل والاصطخري والمقدسي في أواسطه . فانهم كانوا يرون مشقة في تعيين الاماكن بالاقيسة فاكتفوا بتعيين مواقع البلاد بالنظر الى الجهات الاربع (الشرق والغرب والشمال والجنوب) بلا تقدير الابعاد بينها . ولم تكن عندهم قاعدة لتعيين الجهات المذكورة في الخارطة كما يفعلون اليوم فان الخرائط عندنا مقيدة في تعيين جهاتها أن يكون دائماً أعلاها شمالاً وأسفلها جنوباً ويمينها شرقاً وشمالها غرباً . أما هم فالغالب عندهم أن يجعلوا الجهات في زوايا الخارطة . على انهم أخذوا بعد ذلك في تعيين الابعاد بين الاماكن وأقدم من عينها منهم الشريف الادريسي

Digitized by Birzeit University Library

نخبة من أشهر الجغرافيين

الاصطخري

في أواسط القرن الرابع للهجرة

هو أبو اسحق الفارسي من أهل اصطخر ويعرف أيضاً بالكرخي له كتابان :

١ كتاب الاقاليم : يشتمل على حدود الممالك وصور أقاليم الارض ومدنها وبحارها وأنهارها والمسافات بينها مفصلا . فيبدأ ببلاد العرب فبحر فارس وديار المغرب والاندلس ومسافاتها ومصر وأقسامها وبلادها وأرض الشام وبيت المقدس والمسافات بينها . وصفة بحر الروم وأرض الجزيرة والعراق ومسافاتها وأنهارها . وخورستان وبلاد فارس ومسافاتها وبلاد كرمان والسند وأرمينية وأذربيجان والجبال وطبرستان أو الديلم وبحر الخزر وخراسان وسجستان وأفغانستان وما وراء النهر ومسافاتها . وقد وضح ذلك كله بالخرائط ويسميها « الصور » وجملتها ١٩ صورة كبيرة

٢ كتاب مسالك الممالك : وهو كثير الشبه بكتاب الاقاليم لكنه خال من الخرائط وفي صدره مقدمة في تأليف الكتاب وتقسيمه في بضع صفحات ويكاد يكون باقيه نفس كتاب الاقاليم

المقدسي

توفي بعد سنة ٣٧٥ هـ

هو أبو عبد الله محمد بن البشاري المعروف بالمقدسي . ولد في بيت المقدس وساح في أكثر بلاد الاسلام شرقاً وغرباً الى السند والهند والاندلس . وقد عوّل في كثير مما كتبه على اختباره الشخصي مما شاهده بعينه . وذكر عادات الاقوام الذين وصفهم وأخلاقهم وأحوال بلادهم كما شاهدها . واستفاد أيضاً من سابقيه فألف سنة ٣٧٥ هـ . كتاباً سماه :

أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم : وهو أفضل الجغرافيات العامة في ذلك العصر . صدره بمقدمة في تاريخ علم الجغرافية عند العرب الى أيامه بانتقاد . ثم

Digitized by Birzeit University Library

ذكر ميزة كتابه وما قاساه في سبيل تأليفه وجمع حقائقه فقال : « وما تم لي جمعه إلا بعد جولاني في البلدان ودخولي أقاليم الاسلام ولقائي العلماء وخدمتي الملوك ومجالستي القضاة ودرسي على الفقهاء واختلافي الى الادباء والقراء وكتبة الحديث ومخالطة الزهاد والمتصوفين وحضور مجالس القصاص والمذكرين . مع لزوم التجارة في كل بلد والمعاشرة مع كل أحد والتفطن في هذه الاسباب بفهم قوي حتى عرفتها ومساحة الاقاليم بالفراسخ حتى أتقنتها ودوراني على التخوم حتى حررتها وتنقلي الى الاجناد حتى عرفتها وتفتيشي عن المذاهب حتى علمتها وتفطني في الالسن والالوان حتى رتبتها وتدبري في الكور حتى فصلتها وبحثي عن الاخرجة حتى أحصيتها » الخ

وقد أوضح كتابه بالخرائط الملونة بدليل قوله بعد ذكر تقسيم الكتاب الى أقاليم « ورسمنا حدودها وخططها وحررنا طرقها المعروفة بالحمرة وجعلنا رمالها الذهبية بالصفرة وبحارها الملحة بالخضرة وأنهارها المعروفة بالزرقة وجبالها المشهورة بالغبرة ليقرب الوصف الى الافهام ويقف عليه الخاص والعام » . لكن هذه الخرائط لا توجد في الطبعة التي بين أيدينا

الشريف الادريسي

ألف سنة ٥٤٨ هـ

هو أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن ادريس الصقلي من سلالة العلويين . ولد في سبتة سنة ٤٩٣ هـ وتثقف في قرطبة وطاف البلاد ونزل على روجر الثاني صاحب صقلية فأجله وقرّبه لسعة علمه فألف له كتاباً في الجغرافية سماه : « نزهة المشتاق في اختراق الآفاق » . ويسمى أيضاً كتاب روجر . وقد جاء في مقدمته عن سبب تأليفه ما نصه ببعض اختصار قال :

« ان الملك المعظم رجار المعتز بالله المقتدر بقدرته ملك صقلية وايطالية وانكردة وقلورية . . . . (وبعد ان ذكر عدله وهمته وتوسعه في العلوم الرياضية وغيرها وقوته على الاستنباط) قال : فلما اتسع سلطانه أراد أن يعرف كيفية بلاده ويعلم أشكالها وحدودها ومساكنها براً وبحراً الخ . . . فطلب الكتب التي ألفت بالجغرافية والاقاليم (وعدد أسماء الكتب التي تقدمت) ثم قال : فلم يجد ذلك مشروحاً فيها مفصلاً . فأحضر لديه العارفين بهذا الشأن فباحثهم فلم يجد عندهم

Digitized by Birzeit University Library

أكثر مما في الكتب . فبعث الى سائر بلاده فاحضر العارفين فيها فسألهم عنها وباحثهم فيها فما اتفق عليه فيه رأيهم وصح عنده نقلهم أبقاه . وما اختلفوا فيه أرجاه أقام في ذلك ١٥ سنة . فلما تم كل شيء أمر أن يفرغ له من الفضة الخالصة دائرة عظيمة الجرم ضخمة الجسم في وزن ٤٠٠ رطل بالرومي في كل رطل منها مائة درهم و١٢ درهماً . ثم أمر الفعلة ان ينقشوا عليها صور الاقاليم السبعة ببلادها وأطوالها وأقطارها وسبلها وريفها وخلجانها وبحارها ومجاريها ونوابع أنهارها وغامرها وعامرها وما بين كل بلد وغيره من الطرقات المطروقة والاميال المحدودة والمسافات والمراسي المعروفة ولا يغادروا فيه شيئاً . ثم أمر ان يؤلفوا كتاباً مطابقاً لما في أشكالها وصورها . ويزيد عليها في وصف أحوال البلاد والارضين في خلقها وبنائها وأماكنها وبحارها وجبالها ومسافاتها وعملها وأجناس نباتها والاستعمالات التي تستعمل بها والصناعات التي تتقن بها . والتجارات التي تجلب منها والعجائب التي تذكر عنها . مع ذكر أحوال أهلها وهيئاتهم ومللهم ومذاهبهم وزيهم وملابسهم ولغاتهم وان يسمى بنزهة المشتاق في اختراق الآفاق . وكان ذلك في العشر الاول من شهر ديسمبر الموافق شوال من سنة خمسمائة وثمان وأربعين . فامتثل (الشريف الادريسي) فيه بالامر ورسم الرسم فبدأ بصورة الارض المسماة جغرافيا الخ »

ثم أخذ في وصف أشكال الارض وطبيعتها واستدارتها وأطوالها وغير ذلك مجملاً ثم فصله تفصيلاً في كتابه المشار اليه . وكانت جغرافية الادريسي هذه معول أهل أوربا في تقويم البلدان أجيالاً ولا سيما عن بلاد الشرق . وقد رسموا خرائطها وتناقلوها وترجموها الى ألسنتهم . ويؤخذ من خريطة محفوظة في متحف سان مرتين بفرنسا ان الادريسي كان على بينة من حقيقة منابع النيل فصوّرها بحيرات عند خط الاستواء كالتي اكتشفها أهل هذا التمدن في القرن الماضي — نعني فكتوريا نيانزا والبرت نيانزا رسمها الادريسي قبلهم بمئات من السنين

ابن جبير

في أواخر القرن السادس

هو أبو الحسن محمد بن أحمد بن جبير بن سعيد الكناني الاندلسي البلنسي . كان من أهل المنزلة العالية في الغرب بالعلم والادب والشعر . رحل في أواخر

Digitized by Birzeit University Library

القرن السادس للهجرة ثلاث رحلات الاولى تبدأ بشوال سنة ٥٧٨ يوم خرج من غرناطة وتنتهي بالمحرم سنة ٥٨١ اذ عاد اليها . وقد زار في هذه الرحلة مصر والشام والحجاز والعراق وصقلية وتفقد آثارها ومساجدها ودواوينها ودرس أحوالها وذكر ما شاهده أو كابده في أسفاره ووصف حال مصر في زمن السلطان صلاح الدين الايوبي والمسجد الاقصى والجامع الاموي والساعة العجيبة التي كانت فيه وانتقد كثيراً من الاحوال . والثانية رحلها بعد فتح بيت المقدس على يد صلاح الدين تبدأ سنة ٥٨٥ وتنتهي سنة ٥٨٧ . والثالثة من سبتة الى مكة وبيت المقدس . ثم تحول الى مصر والاسكندرية فأقام يحدث الى ان لحق بربه في أواخر القرن السادس . وقد طبعت رحلته الاولى غير مرة

ياقوت الحموي

توفي سنة ٦٢٦ هـ

هو أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الجنس الحموي المولد البغدادي الدار ويلقب شهاب الدين . وهو أشهر جغرافيي العرب وأوعاهم مادة وأبقاهم أثراً وأوسعهم فضلاً وأكثرهم نفعاً . أصله من بلاد الروم أسر صغيراً وحمل من بلاده فابتاعه تاجر في بغداد اسمه عسكر الحموي وجعله في الكتاب لينتفع به في ضبط تجارته . ولم يكن عسكر يحسن الخط . ولما كبر ياقوت قرأ شيئاً من النحو واللغة وشغله مولاه بالاسفار في متاجره ثم أعتقه وأبعده عنه سنة ٥٩٦ هـ فاشتغل بالنسخ بالاجرة فاستفاد بالمطالعة وعاد الى مولاه فعطف عليه وسفره في متاجره . ولما عاد وجد سيده قد مات فأخذ من التركة ما كفاه للاتجار . وكان متعصباً على علي ابن أبي طالب وتوجه الى دمشق سنة ٦١٣ وناظر بعض المتعصبين لعلي فثار عليه الناس ففرّ فطلبه الوالي فلم يظفر به فوصل حلب خائفاً يترقب . ثم انتقل الى اربل فخراسان وأقام بها يتنقل في بلادها وتوطن مرو ثم نسا فخوارزم . فاتفق وهو هناك خروج التتر سنة ٦١٦ بقيادة جنكيز خان . فانهزم بنفسه ليس معه شيء حتى أتى الموصل وقد تقطعت به الاسباب وأعوزه الطعام واللباس . ثم انتقل الى سنجار فحلب وأقام بظاهرها حتى مات . ولياقوت هذا ملكة في التأليف يندر وجودها فهو يتوخى جمع الحقائق وتنسيقها وتبويبها بحيث تسهل الاستفادة منها كما يظهر من مؤلفاته الآتي ذكرها وهي :

Digitized by Birzeit University Library

١ معجم البلدان : هو معجم جغرافي كبير باسماء البلاد . بل هو خزانة علم وأدب وتاريخ وجغرافية لانه اذا ذكر بلداً أورد شيئاً من تاريخه ومن اشتهر فيه أو نسب اليه من الادباء أو الشعراء أو الفقهاء أو غيرهم من أهل العلم . في صدره مقدمة في الجغرافية على الاجمال موضحة بالرسوم وفصل في تفسير الالفاظ الاصطلاحية التي وردت في ذلك الكتاب ثم أسماء البلدان مرتبة على حروف الهجاء

٢ المشترك وضعاً والمفترق صقعاً : ذكر فيه البلاد المتشابهة بالاسماء المختلفة بالمواقع

٣ معجم الادباء : أو ارشاد الاريب الى معرفة الاديب . هو معجم تاريخي يشبه معجمه الجغرافي لكنه اكبر منه وأوسع . ترجم فيه النحويين واللغويين والنسابين والشعراء والاخباريين والمؤرخين والوراقين والكتاب وأصحاب الرسائل وأرباب الخطوط وكل من ألف في الادب

٤ المقتضب من كتاب جمهرة النسب : في نسب العرب

القزويني

توفي سنة ٦٨٢ هـ

هو زكريا بن محمد بن محمود القزويني . يرجع بنسبه الى أنس بن مالك الامام المشهور وُلد في قزوين في أوائل القرن السابع . ورحل الى دمشق وهو شاب وتعرف الى ابن العربي . وتولى قضاء واسط والحلة في زمن المستعصم العباسي . فسقطت بغداد في حوزة المغول وهو في ذلك المنصب . وتوفي سنة ٦٨٢ وقد خلف مؤلفات أهمها :

١ عجائب المخلوقات : في الفلك والجغرافية الطبيعية عند العرب . وهو من أوفى الكتب العربية في هذا الموضوع قسم فيه المخلوقات الى العلويات والسفليات . يعني بالعلويات السماء وما فيها وهو علم الفلك فوصف الكواكب والابراج وحركاتها وما ترتب على ذلك من فصول السنة والشهور والايام على ما هو معروف في عصره . والسفليات الارض وما عليها وهو من قبيل التاريخ الطبيعي أو الجغرافية الطبيعية فذكر أصل الارض وطبيعتها وكرة الهواء وأصول الرياح وأنواعها . وكرة الماء وما فيها من البحور والجزر والحيوانات العجيبة . ثم كرة الارض يعني اليبس وما عليها من جماد ونبات وحيوان ورتّب كلا من الحيوانات والنباتات على حروف

Digitized by Birzeit University Library

المعجم كما فعل الدميري في علم الحيوان
٢ آثار البلاد وأخبار العباد : في التاريخ

ابن بطوطة

نحو سنة ٧٧٩ هـ

هو أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي المعروف بابن بطوطة . وهو أشهر رحالات ذلك العصر . وُلد في طنجة سنة ٧٠٣ وخرج من بلده سنة ٧٢٥ للحج ثم أخذ في الرحلة . فبدأ بالحرمين فالشام فالعراق ففارس فما بين النهرين فآسيا الصغرى الى قبجاق فجنوب روسيا والاستانة فآسيا الصغرى فبخارا فأفغانستان الى دهلي . فأقام هناك سنتين قاضياً . وأنفذه السلطان تغلق في بعثة الى الصين فوصل الى ملبدافيا أقام فيها سنة ونصف سنة . ثم رحل الى سيلان والصين وعاد الى بلده سنة ٧٥٠ ورحل في السنة التالية الى غرناطة . ثم الى السودان سنة ٧٥٢ فدخل ملي وتمبكتو وتوفي سنة ٧٧٩ في مراكش . وقد دوّن أسفاره هذه في رحلة سماها : تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار . وتعرف برحلة ابن بطوطة

وقد اهتم الافرنج بهذه الرحلة كثيراً من قبيل اهتمامهم بالشرق والسفر اليه عند أول نهضتهم فعوّلوا عليها وانتقدوها وعلقوا عليها ونقلوها

Digitized by Birzeit University Library

العلوم الدخيلة

نريد بها العلوم القديمة التي كانت شائعة عند ظهور الاسلام في الممالك التي عرفها المسلمون . وهي عبارة عن خلاصة أبحاث رجال العلم والفلسفة والادب في ممالك التمدن القديم على اختلاف الامم والدول والاماكن والاطوار في القرون المتوالية من أقدم أزمنة التاريخ الى أيامهم وفيها زبدة علوم الاشوريين والبابليين والفينيقيين والمصريين والهنود والفرس واليونان والرومان — ولا يراد بذلك أن العرب اخذوا علم كل امة عن أهله رأساً ولكنهم جاءوا والعلوم قد تحلبت بتوالي الادهار وتفاعل العناصر واجتمع معظمها لليونان فبوبوها ورقوها وظهرت النصرانية فأثرت فيها . وبقي بعضها في بقايا الدول القديمة كالفرس والكلدان والهنود وغيرهم ممن دانوا للمسلمين وانتظموا في خدمتهم فاخذوا من هؤلاء جميعاً . ولذلك كان من جملة أفضال التمدن الاسلامي على العلم انه جمع شتات تلك العلوم من اليونانية والفارسية والهندية والكلدانية الى العربية وزاد فيها ورقاها

في العصر الاموي

لم تكن علوم العرب الطبيعية والرياضية او علوم ما وراء الطبيعة الا مبادىء بسيطة جداً او تقاليد أخذوها بالوراثة عن أمم سبقتهم او حصلوها بالاختبار

وانما بدأ نقل العلوم الى اللغة العربية في العصر الاموي ولكن لم يبق مما نقل شيء الى الآن . وأول من فعل ذلك خالد بن يزيد المتوفى سنة ٨٥ هـ حفيد معاوية الاكبر ويسمونه الحكيم . وكان طامعاً في الخلافة بعد وفاة أخيه معاوية الثاني فغلبه على ذلك مروان بن الحكم وانتقلت به الخلافة من بيت ابي سفيان الى بيت مروان . فلما يئس خالد من الخلافة وهو ذو مطامع وذكاء انصرف ذهنه الى اكتساب العلى بالعلم وكانت صناعة الكيمياء رائجة يومئذ في مدرسة الاسكندرية فاستقدم جماعة . منهم راهب رومي اسمه مريانوس طلب اليه ان يعلمه صناعة الكيمياء فلما تعلمها امر بنقلها الى اللغة العربية فنقلها له رجل اسمه اسطفان القديم وهذا اول نقل في الاسلام من لغة الى لغة

Digitized by Birzeit University Library

ومما يحسن ايراده لبيان امتياز اصحاب التمدن الاسلامي على سواهم من الامم الفاتحة من هذا القبيل ان القوط او قبائل الجرمان سطوا على مملكة الروم من الشمال كما سطا عليها العرب من الجنوب وكلاهما اهل بادية وحرب . امتلك القوط ايطاليا في القرن الخامس فتركوا اهلها الروم على ما كانوا عليه من آدابهم وعلومهم وظلوا هم على بداوتهم وحبهم الحرب واستخدموا الوطنيين في تدبير حكومتهم — كما فعل العرب في اوائل دولتهم . لكن القوط لما تحضروا حملوا علماء الرومان على التأليف فالفوا لهم الكتب باللاتينية وليس بالقوطية . فذهبت هذه اللغة وبقيت لغة الروم بما صارت اليه من الفروع . أما العرب فانهم حالما استتبت لهم السيادة جعلوا الدواوين في العربية وحملوا رعاياهم على مكاتبتهم بالعربية . ولما ارادوا نشر العلم كلفوا رعاياهم نقل تلك العلوم الى العربية فذهبت لغات الامم التي كانت تحت سلطانهم وبقيت العربية

في العصر العباسي الاول

اهم ما نقل من العلوم الى اللغة العربية كان في العصر العباسي الاول . اما الخلفاء الذين اهتموا بذلك النقل فهم المنصور كان اكثر اهتمامه بالنجوم والطب . والمهدي قلما اشتغل بذلك . وكذلك الرشيد لم ينقل في أيامه الا كتاب المجسطي . ثم المأمون وهو الذي اهتم بنقل كتب الفلسفه والمنطق على الخصوص وسائر العلوم على العموم

أما نقلة العلم في العصر العباسي الاول فهم من اهل العراق والشام وفارس والهند رغبهم الخلفاء في ذلك بالبذل الكثير وجعلوا لبعضهم رواتب وجواري وبالغوا في اكرامهم ومحاسنتهم . واكثرهم من السريان النساطرة لانهم أقدر على الترجمة من اليونانية واكثر اطلاعاً على كتب الفلسفة والعلم اليوناني : أشهرهم آل بختيشوع سلالة جورجيس بن بختيشوع السرياني النسطوري طبيب المنصور وآل حنين سلالة حنين بن اسحق العبادي شيخ المترجمين أحد نصارى الحيرة وله تاريخ طويل . وحبيش الاعسم الدمشقي ابن أخت حنين . وقسطا بن لوقا البعلبكي من نصارى الشام . وآل ماسرجويه اليهودي السرياني وآل الكرخي . وآل ثابت الحراني من الصابئة والحجاج بن مطر وابن ناعمة الحمصي ويوحنا بن

Digitized by Birzeit University Library

ماسويه واسطفان بن باسيل وموسي بن خالد وسرجيس الراسي ويوحنا بن بختيشوع من غير آل بختيشوع المتقدم ذكرهم . والبطريق ويحي بن البطريق وأبو عثمان الدمشقي وأبو بشر متى بن يونس ويحيى بن عدي . هؤلاء أشهر نقلة العلم من اليوناني أو السرياني الى العربي وبعضهم تجاوز العصر العباسي الاول

وأما النقلة من الالسنة الاخرى فمنهم من نقل من الفارسية الى العربية كابن المقفع وآل نوبخت كبيرهم بونخت ولابنه الفضل بن نوبخت نقل من الفارسي الى العربي في النجوم وغيرها . ومنهم موسى ويوسف ابنا خالد وكانا يخدمان داود بن عبد الله بن حميد بن قحطبة وينقلان له من الفارسية الى العربية . وعلي بن زياد التميمي ويكني بأبي الحسن نقل من الفارسي الى العربي كتاب زيج الشهريار . والحسن ابن سهل وكان من المنجمين . والبلاذري احمد بن يحيى . وجبلة بن سالم كاتب هشام . واسحق بن يزيد نقل سيرة الفرس المعروفة باختيار نامه . ومنهم بن الجهم البرمكي وهشام بن القاسم وموسى بن عيسى الكردي وعمر بن الفرخان وغيرهم

ومن الذين نقلوا عن اللغة السنسكريتية (الهندية) منكة الهندي كان في جملة اسحق بن سليمان بن علي الهاشمي ينقل من اللغة الهندية الى العربية . وابن دهن الهندي وكان اليه مارستان البرامكة نقل من الهندي الى العربي

ومن الذي نقلوا عن اللغة النبطية (الكلدانية) الى العربية ابن وحشية نقل كتباً كثيرة أهمها كتاب الفلاحة النبطية

وهناك طبقة من النقلة اشتغلوا بنقل العلم من عند أنفسهم أشهرهم بنو شاكر أو بنو موسى لانهم أولاد موسى بن شاكر وهم محمد واحمد والحسن وعرف أولادهم بعدهم ببني المنجم . كان موسى يصحب والمأمون يرعى حقه في أولاده هؤلاء . واشتغلوا في الهندسة والنجوم والطبيعيات والميكانيكيات وغيرها . واتعبوا أنفسهم في جمع الكتب القديمة من بلاد الروم وأحضروا النقلة بالبذل لنقلها وممن بذلوا المال في نقل العلم غير الخلفاء محمد بن عبد الملك الزيات وعلي بن يحيى المعروف بابن المنجم ومحمد بن موسى بن عبد الملك وابراهيم بن محمد بن موسى الكاتب وغيرهم

الكتب التي نقلت

أما الكتب التي نقلت في ذلك العصر فعددها بضع مئات اكثرها من اليونانية منها ٨ في الفلسفة والادب لافلاطون و ١٩ كتاباً في الفلسفة والمنطق والادب

Digitized by Birzeit University Library

لارسطو وعشرة في الطب لابقراط و ٤٨ في الطب لجالينوس . وبضعة وعشرون كتاباً في الرياضيات والنجوم لاوقليدس وأرخميدس وابلونيوس ومنالاوس وبطليموس وابرخس وذيوفنطس وغيرهم

وأما منقولات اللغات الاخرى فمنها نحو عشرين كتاباً نقلت عن الفارسية في التاريخ والادب . ونحو ٣٠ كتاباً من اللغة السنسكريتية واكثرها في الرياضيات والطب والنجوم والادب . ونحو عشرين كتاباً عن اللغة السريانية أو النبطية اكثرها في السحر والطلسمات إلا كتاب الفلاحة النبطية في الزراعة . وهناك بضعة كتب نقلت عن اللاتينية والعبرانية

* * *

وجملة القول أن المسلمين نقلوا الى لسانهم معظم ما كان معروفا من العلم والفلسفة والطب والنجوم والرياضيات والادبيات عند سائر الامم المتمدنة في ذلك العهد . ولم يغادروا لساناً من ألسن الامم المعروفة إذ ذاك لم ينقلوا منه شيئاً وان كان اكثر نقلهم عن اليونانية والفارسية والهندية . فاخذوا من كل أمة احسن ما عندها فكان اعتمادهم في الفلسفة والطب والهندسة والموسيقى والمنطق والنجوم على اليونان . وفي النجوم والسير والآداب والحكم والتاريخ والموسيقى على الفرس . وفي الطب (الهندي) والعقاقير والحساب والنجوم والموسيقى والاقاصيص على الهنود . وفي الفلاحة والزراعة والتنجيم والسحر والطلاسم على الانباط او الكلدان . وفي الكيمياء والتشريح على المصريين . فكأنهم ورثوا أهم علوم الاشوريين والبابليين والمصريين والفرس والهنود واليونان وقد مزجوا ذلك كله وعجنوه واستخرجوا منه علوم التمدن الاسلامي (الدخيلة)

ومما نلاحظه من أمر ذلك النقل ان العرب مع كثرة ما نقلوه عن اليونان لم يتعرضوا لشيء من كتبهم التاريخية او الادبية او الشعر مع انهم نقلوا ما يقابلها عند الفرس والهنود فقد نقلوا جملة صالحة من تواريخ الفرس وأخبار ملوكهم وترجموا الشاهنامة . ولكنهم لم ينقلوا تاريخ هيرودوتس ولا جغرافية استرابون ولا الياذة هوميروس ولا اوذيسته . والسبب في ذلك ان اكثر ما بعث المسلمين على النقل رغبتهم في الفلسفة والطب والنجوم والمنطق . واما التواريخ والآداب فقد كان التراجمة ينقلونها غالباً من عند انفسهم حباً في اظهار مآثر اسلافهم أو جيرانهم فالمترجمون الفرس نقلوا شيئاً من تواريخ الفرس وآدابهم وكذلك فعل

Digitized by Birzeit University Library

التراجمة السريان بآداب اجدادهم وكذلك التراجمة الهنود . فلو كان في أولئك المترجمين واحد أو غير واحد من اليونان لنقلوا كثيراً من تواريخ امتهم واشعارها ولا ريب أن من جملة ما منعهم من نقل الالياذة الى العربية ذكر الآلهة والاصنام فيها . ولكن في الشاهنامة ايضاً كثيراً من ذلك فلم يمنعهم من نقلها لكن الترجمة ضاعت

ويلاحظ ايضاً أن العرب نقلوا من علوم تلك الامم في قرن وبعض القرن مالم يستطع الرومان نقل بعضه في عدة قرون وذلك شأن المسلمين في اكثر اسباب تمدنهم العجيب

ولا يستخف بما اقتضاه ذلك النقل عن اشهر أمم الارض في ذلك العصر من التأثير في الاداب الاجتماعية والآراء العمومية . وخصوصاً ما نقل عن الفارسية لان معظمه في الأدب والتاريخ . كما اثر في آدابنا الاجتماعية ما نقلناه في نهضتنا هذه عن الافرنج فضلا عن دخول الفرس في كل باب من ابواب الدولة . فدخل الآداب العربية والافكار العربية كثير من آداب الفرس الساسانيين وافكارهم اقتبسها العرب من الكتب التي نقلت عنهم ولم يبق منها الا الف ليلة وليلة وكليلة ودمنة ونتف متفرقة في بعض الكتب

وعلى هذه المنقولات بنى المسلمون ما ألفوه في هذه العلوم في اثناء تمدنهم غير ما اختبروه واضافوه اليها من عند انفسهم . واكثر منقولاتهم ومؤلفاتهم ضاعت ولم يبق منها الا بعضها وعلى هذا البعض كان معول الاوربيين في نهضتهم الاخيرة لانشاء تمدنهم الحديث بما نقلوه منها الى ألسنتهم

الباقي من المنقولات الى الآن

اما الباقي من الترجمات المتقدم ذكرها الى الآن فلا يتجاوز بضع عشرات مشتتة في مكاتب أوربا — اليك بعضها على سبيل المثال :

كتاب المجسطي لبطليموس ترجمة الحجاج بن يوسف بن مطر

كتاب السياسة في تدبير الرياسة ترجمة يوحنا بن البطريق

ولقسطا بن لوقا البعلبكي عدة آثار من نقله وتأليفه منها رسائل في الطب والاخبار

ولحنين بن اسحق بقايا حسنة من منقولاته اشهرها المدخل في الطب

Digitized by Birzeit University Library

ومسائل في الطب للمتعلمين واجتماعات الفلاسفة في بيوت الحكماء . وكتاب النواميس وغيرها

ولابنه اسحق بن حنين كتاب في منطق أرسطو

وليعقوب بن اسحق الكندي فيلسوف العرب بقايا من مؤلفاته سيأتي ذكرها في ترجمته في الدور العباسي الثاني

وسنأتي على مشاهير النابغين في العلوم الدخيلة فيما يلي من هذا الكتاب ولا سيما الذين اشتغلوا بغيرها وانما أجملنا الكلام هنا ومجاوزنا في اجماله العصر العباسي الاول رغبة في الاختصار

في العصر العباسي الثاني

الفلسفة والرياضيات

قد رأيت ان المشتغلين في نقل العلم بالعصر العباسي الاول كان أكثرهم من غير المسلمين . فلما صارت تلك العلوم في العربية اشتغل بها المسلمون ونبغ منهم الفلاسفة والاطباء والرياضيون وغيرهم . وأقدم من اشتهر من الفلاسفة المسلمين في هذا العصر وأكبرهم وأسبقهم يعقوب بن اسحق الكندي يليه الفارابي :

يعقوب الكندي

في أواسط القرن الثالث

هو أبو يوسف يعقوب بن اسحق الكندي ويتصل نسبه بملوك كندة فهو عربي بحت ولذلك سموه فيلسوف العرب . وكان معاصراً للمأمون والمعتصم الى المتوكل وله عندهم منزلة سامية . وقد برع في الطب والفلسفة والحساب والمنطق والالحان والهندسة وطبائع الاعداد وعلم النجوم — نبغ وليس في المسلمين فيلسوف غيره . وحذا في تآليفه حذو أرسطو وله ترجمات عديدة نقلها لنفسه . وكان يعد من حذاق التراجمة ولم يذكر بينهم لانه لم يرتزق بالترجمة . وقد ألف الكندي في معظم العلوم الدخيلة كتباً كثيرة ذكرها صاحب الفهرست وإليك عددها باعتبار العلوم:

Digitized by Birzeit University Library

في الفلسفة	٢٢ كتاباً	في الطبيعيات الخ	٣٣ كتاباً
« الحساب	١١ «	« الكريات	٨ كتب
« النجوم	١٩ «	« المنطق	٩ «
« الهندسة	٢٣ «	« الموسيقى	٧ «
« الفلكيات	١٦ «	« الاحكام	١٠ «
« الطب	٢٢ «	« النفس	٥ «
« الجدل	١٧ «	« الابعاد	٨ «
« السياسة	١٢ «	« تقدمة المعرفة	٥ «
« الاحداث	١٤ «	المجموع كله	٢٤١ كتاباً

ويؤخذ من مراجعة أسماء هذه الكتب ان الرجل كان كثير التضلع من العلوم حتى انتقد أصحابها . وأكثر هذه الكتب ضاع ولم يبق منها الا : ١ كتاب في الاهيات أرسطو ٢ رسالة في الموسيقى ٣ رسالة في معرفة قوى الادوية المركبة ٤ في المد والجزر ٥ علة اللون اللازوردي الذي يرى في الجو في جهة السماء ٦ ذات الشعبتين (آلة فلكية) ٧ اختيارات الايام ٨ مقالة تحاويل السنين . وغيرها

أبو نصر الفارابي

توفي سنة ٣٣٩ هـ .

ويلي الكندي أبو نصر الفارابي واسمه محمد بن طرخان . أصله من فاراب لكنه فارسي المنتسب نشأ في الشام واشتغل فيها . وكان فيلسوفاً كاملا درس كل ما درسه الكندي من العلوم وفاقه في كثير منها وخصوصاً في المنطق . وتعمق في الفلسفة والتحليل وأنحاء التعاليم وأفاد وجوه الانتفاع بها . وألف كتباً في مواضيع لم يسبقه أحد اليها ككتابه في احصاء العلوم الآتي ذكره وكتاب « السياسة المدنية » وهو من قبيل الاقتصاد السياسي الذي يزعم أهل التمدن الحديث انه من مخترعاتهم وقد كتب فيه الفارابي منذ ألف سنة . ثم كتب فيه غيرهما . وبرع الفارابي خصوصاً في فن الموسيقى حتى أصبح لا يضاهيه فيه أحد واخترع القانون . وأصلح ما بقي من الترجمات غير مصلح ولخصها — أوعز اليه بذلك منصور بن نوح الساماني فأجاب وسمى كتابه « التعليم الثاني » ولذلك سموه « المعلم الثاني »

Digitized by Birzeit University Library

ومن مؤلفاته الباقية الى الآن نحو ١٢ كتاباً في المنطق متفرقة في مكاتب أوربا بعضها منقول الى اللاتينية أو العبرانية . وثمانية مؤلفات في السياسة والادب منها :

١ كتاب مبادىء آراء أهل المدينة الفاضلة

٢ كتاب احصاء العلوم والتعريف بأغراضها وهو من قبيل موسوعات العلم لانه يشتمل على عدة علوم

٣ كتاب السياسة المدنية

وله ٩ كتب في الرياضيات والنجوم والكيمياء والموسيقى متفرقة في مكاتب أوربا والاستانة مع ترجماتها العبرانية أو اللاتينية

و ٩ كتب أخرى في مواضيع مختلفة . ومثلها على أرسطو في أبحاث مفيدة

الطب والاطباء

ونبغ في هذا العصر أيضاً طائفة من الاطباء المسلمين وغيرهم هاك أشهرهم حسب سني الوفاة :

ابن ماسويه

توفي سنة ٢٤٣ هـ .

هو أبو زكريا يوحنا بن ماسويه كان أبوه صيدلياً في مارستان جندي سابور وتثقف في بغداد بعناية جبرائيل بن بختيشوع وترقى في زمن المأمون والواثق . وله مترجمات حسنة ومؤلفات لم يبق منها الا : ١ كتاب نوادر الطب وله ترجمة لاتينية وشروح ٢ جواهر الطب ٣ كتاب ماء الشعير ٤ الادوية السهلة . وغيرها

أبو بكر الرازي

توفي سنة ٣٢٠ هـ .

هو أشهر من نبغ من الاطباء في هذا العصر على الاطلاق واسمه أبو بكر محمد ابن زكريا الرازي ويسميه الافرنج Razès كان في صغره يضرب على العود وتلقى العلم على كبر وأفلح واشتهر حتى تولى رياسة أطباء مارستان بغداد . وظهرت مواهبه بما كان يعقده من مجالس العلم أو يؤلفه من الكتب وجمع في مؤلفاته كل

Digitized by Birzeit University Library

ما كان معروفاً من العلوم الطبية في عصره ومن امثالهم « ان الطب كان معدوماً فأحياه جالينوس وكان متفرقاً فجمعه الرازي وكان ناقصاً فكمله ابن سينا »

وكان الرازي يجلس في مجلسه ودونه التلاميذ دونهم تلاميذهم ودونهم تلاميذ آخرون . فكان يجيء الرجل فيصف ما يجد لاول من يلقاه فان كان عندهم علم والا تعداهم الى غيرهم فان اصابوا والا تكلم الرازي . وكان كبير الرأس مسفطه جليل الطلعة يتهيب الناس مجلسه لولا رطوبة كانت في عينيه . وكان كريماً متفضلاً رؤوفاً بالمرضى دقيق الملاحظة صحيح النظر ويروون عن ذكائه واصابته نوادر كثيرة لا محل لها هنا

وكان اكثر مقام الرازي في الري وغيرها من بلاد العجم وخدم بصناعته الاكابر من ملوكها وامرائها وصنف بعض كتبه لهم ككتاب المنصوري ألفه للامير منصور من آل سامان وكتاب الملوكي لعلي ابن صاحب طبرستان

وكان الرازي مولعاً بالعلوم الحكمية وله فيها مصنفات نفيسة وخصوصاً علم الكيمياء ومايتعلق بها وله اكتشافات كيمياوية اهمها زيت الزاج (الحامض الكبريتيك) والكحول استحضر الاول باستقطار كبريتات الحديد واسمها في العربية الزاج الاخضر فلما استقطرها خرج منها سائل سماه زيت الزاج . ولا تزال طريقة الرازي من طرق استحضار هذا الحامض الى اليوم . اما الكحول فاستحضره باستقطار مواد نشوية وسكرية مختمرة . وألف الرازي في الكيمياء كتباً كثيرة ولم يكن يعتقد ما يعتقده اهل زمانه من امكان تحويل المعادن الى ذهب وانما كان يؤلف في هذا الفن على اعتقاد اهله التماساً للمال . لكن ذلك ألحق به الاذى لان منصور الساماني المذكور طالبه باستخراج الذهب على الصفة التي ذكرها في كتابه فلم يستطع فغضب عليه وأمر ان يضرب بالكتاب على رأسه حتى يتقطع ثم جهزه وسيره الى بغداد . فكان ذلك الضرب سبباً في نزول الماء على عينيه . وجاءه قداح يقدحهما وهي عملية الكتركتا الآن فسأله الرازي « كم طبقة للعين » فقال « لا أعلم » فقال « لا يقدح عيني من لا يعلم ذلك » ثم قال « قد نظرت الدنيا حتى مللت منها فلا حاجة بي الى عينين »

توفي سنة ٣٢٠ وقيل ٣١٠ وقيل ٣٦٤ هـ

وخلف الرازي اكثر من مئتي مؤلف لا يزال باقياً منها الى الآن بضعة وعشرون مؤلفاً يطول بنا وصفها وانما نذكر اهمها وهي :

Digitized by Birzeit University Library

١ كتاب الحاوي : وهو أجل كتبه واعظمها في صناعة الطب جمع فيه ما وجده متفرقاً من ذكر الامراض ومداواتها في كتب الطب للمتقدمين ومن اتى بعدهم الى زمانه ونسب كل قول الى قائله

٢ كتاب الطب المنصوري . وقد نقل الى اللاتينية

في العصر العباسي الثالث

علمت من كلامنا عن هذه العلوم في العصر العباسي الأول انها تتألف من فروع كثيرة ترجع الى اربعة : الطب والفلسفة والنجوم والرياضيات . وكان المشتغلون في نقلها اكثرهم من غير المسلمين ثم اشتغل بها المسلمون في العصر العباسي الثاني وذكرنا من نبغ فيها . وزاد اشتغالهم بها في هذا العصر ونبغ فيها علماء لا يشق لهم غبار فنذكر اصحاب كل فرع على حدة وان كان اكثرهم اشتغلوا بعلمين فأكثر من تلك العلوم . فنضع كلا منهم في العلم الذي غلب عليه

الطب

يدخل في الطب فروعه الطبيعية كالكيمياء والصيدلة والنبات لكننا سنفرد لها فصلا خاصاً . أما الطب فقد اشتغل المسلمون فيه وخدموه وتكاثر الاطباء على الخصوص في هذا العصر وامامهم ابن سينا . ويستدل من بعض القرائن انهم كانوا كثيرين . فقد احصوا أطباء بغداد وحدها في زمن المقتدر بالله في أول القرن الرابع للهجرة فبلغ عددهم ٨٦٠ طبيباً امتحنوا لنيل الاذن في التطبيب سوى من استغنى عن الامتحان لشهرته وسوى من كان في خدمة الخليفة . فلا يمكن ان يكون مجموع ذلك كله اقل من الف طبيب متعاصرين في مدينة واحدة . وبلغ عدد أطباء النصارى فقط في خدمة المتوكل بأواسط القرن الثالث للهجرة ٥٦ طبيباً . وكان سيف الدولة اذا جلس على المائدة حضر معه ٢٤ طبيباً . ومنهم من يأخذ رزقين لتعاطيه علمين . ومن يأخذ ثلاثة أرزاق لتعاطيه ثلاثة علوم

وكان للاطباء عندهم نظام وعليهم رئيس يمتحنهم ويجيز من يرى فيه الكفاءة للتطبيب . واشهر هؤلاء الرؤساء سنان بن ثابت في بغداد ومهذب الدين الدخوار في مصر . وفعلوا نحو ذلك في الصيادلة وكانوا كثاراً . وتفشى الغش في الادوية حتى اضطر أولي الامر الى امتحانهم واعطاء الاجازات او المنشورات الى الذين

Digitized by Birzeit University Library

يحسنون الصناعة ونفى الآخرين . وأول من فعل ذلك الأفشين في بغداد ووكل زكريا بن الطيفوري به في حديث يطول ذكره . وكان من الاطباء أو الصيادلة من هو خاص بالجند يرافقه في أسفاره ومنهم من هو خاص بالخلفاء والأمراء ولهؤلاء رواتب خاصة ويعرفون بالمرتزقين . ومنهم من يطبون العامة وهم غير مرتزقين وأشهر الاطباء ابن سينا

ابن سينا

توفي سنة ٤٢٨ هـ .

هو الشيخ الفيلسوف الطبيب ارسطو الاسلام وأبقراطه . واسمه ابو علي الحسين بن عبد الله ويلقب بالشيخ الرئيس ويسميه الافرنج (Avicenna) كان أبوه من بلخ في شمال افغانستان وسكن مملكة بخارا في زمن نوح بن منصور من الدولة السامانية وتولى التصرف بقرية من قراها اسمها خرميثن . وفيها ولد له ابنه الحسين سنة ٣٧٠ هـ وكان من صغره نادرة عصره في الذكاء والفطنة ثم انتقل والده به الى مدينة بخارا وهي يومئذ حافلة بالعلماء . وحفظ القرآن وأخذ يقرأ الفقه قبل أن يتجاوز العاشرة ولم يدرك السادسة عشرة حتى تعلم المنطق والهندسة والطبيعة والفلسفة والطب ثم تفرغ للتوسع بهذه العلوم . وكان يحيي الليل في الدرس والبحث

واتفق أن نوحاً المذكور مرض فذكر له ابن سينا فاستقدمه فبرىء على يده فقربه اليه . وكان عند نوح مكتبة نادرة المثال فاستأذن في دخولها فأذن له فدرسها درساً ثم احترقت بعد أن وعى زبدتها . وأخذ في التأليف وهو في الحادية والعشرين من عمره . وارتفعت منزلته وتولى بعض مناصب الدولة . وتنقل في بلاد خراسان وهو موضع الاعجاب ومصدر الاستفادة بالتطبيب والتأليف . ولم يتمكن من اللغة العربية كما ينبغي الا بعد حين . ومرت به طوارىء مختلفة وقاسى ما يقاسيه طالب العلى من العذاب والملوك مناظروه أو مريدوه . وكان قوي القوى كلها جسداً وعقلاً لكن شهواته البدنية كانت غالبة عليه . فأثرت على مزاجه حتى أماتته بهمذان سنة ٤٢٨ هـ وهو في الثامنة والخمسين من عمره

وكان من المتفردين بسعة العلم وقوة العقل وقد ألف في كل فن من العلم والادب وتزيد مؤلفاته على مائة وكان لها تأثير كبير في نهضة أوربا الاخيرة لانهم

Digitized by Birzeit University Library

نقلوا أهمها الى لغة العلم عندهم يومئذ (اللاتينية)

اما في الاصل العربي فكثير من مؤلفاته لا يزال باقياً . ومن كتبه الطبية :

١ القانون في ١٤ جزءاً وهو من أهم كتبه . حوى أهم ما عرف من علوم الطب وخصائص العقاقير والتشريح وغيرها . وعليه وعلى كتاب الحاوي لابي بكر الرازي كان اكثر معول العالم الطبي في التمدن الاسلامي وفي نهضة اوربا قبيل التمدن الحديث ٢ الشفاء وهو ١٨ جزءاً بعضها في الطب والبعض الآخر في العلوم الاخرى ٣ الالفية في الطب ٤ منظومة في الطب

ومن كتبه الفلسفية : ١ الاشارات : ولها شرح للطوسي ٢ النجاة : ثلاثة مجلدات ٣ رسائل في الانصاف والمسائل العشرين والمباحثات والجوهر الذي لا يتحرك وتقسيم العلوم الفلسفية وحد الجسم وشرح كتاب النفس لارسطو وما بعد الطبيعة

ومن كتبه في الفقه والتوحيد : ١ القصيدة العينية في النفس ٢ كتاب المبدأ والمعاد ٣ الالهيات ٤ الجمانة الالهية

وفي المنطق : ١ كتاب الاشارة ٢ كتاب الشرقيين ٣ رسالة العروس . غير ثمانية مؤلفات في المنطق

وفي العلوم الطبيعية والرياضية خمسة عشر مؤلفاً اكثرها موجود في مكاتب اوربا ولا محل هنا لتفصيل ذلك . وله مؤلفات في الآداب السياسية والموسيقى وفي اللغة العربية وعلومها ضاع معظمها

ولابن سينا آراء خصوصية في العلم الطبيعي وقد أوضح كثيراً من غوامضه وكذلك الالهيات مما يستغرق شرحه صفحات عديدة

الصيدلة والكيمياء والنبات

وللمسلمين فضل كبير على الصيدلة والكيمياء والنبات وهي من فروع الطب بدأوا بذلك في صدر الدولة العباسية وسنلخص تاريخها عندهم وان تجاوزنا هذا العصر لجمع الموضوع في باب واحد . وقد عني الافرنج بعد نهضتهم الاخيرة في درس تاريخ فن الصيدلة فتحققوا ان العرب هم واضعو اسس هذا الفن وهم اول من اشتغل في تحضير الادوية او العقاقير فضلا عما استنبطوه من الادوية الجديدة .

Digitized by Birzeit University Library

وانهم اول من ألف الاقرباذين على الصورة التي وصلت الينا وظل العرب في النهضة العباسية يعتمدون في المارستان ودكاكين الصيادلة على اقرباذين ألفه سابور بن سهل المتوفي سنة ٢٥٥ هـ حتى ظهر اقرباذين امين الدولة ابن التلميذ المتوفي في بغداد سنة ٥٦٠ هـ . وهم اول من انشأ حوانيت الصيدلة على هذه الصورة . ومن اقرب الشواهد على ذلك اسماء العقاقير التي اخذها الافرنج عن العرب وما تزال عندهم باسمائها العربية او الفارسية او الهندية كما اخذوها عن العربية

على ان تقدمهم في الصيدلة تابع لتقدمهم في الكيمياء والنبات ولا خلاف في ان العرب هم الذين اسسوا الكيمياء الحديثة بتجاربهم ومستحضراتهم — واول من اشتغل في نقلها الى العربية خالد بن يزيد نقلها عن مدرسة الاسكندرية وعنه اخذ جعفر الصادق المتوفي سنة ١٤٠ هـ وبعده جابر بن حيان ثم الكندى فابو بكر الرازي وغيرهم فاكتشفوا كثيراً من المركبات الكيمياوية التي بنيت عليها الكيمياء الحديثة . وقد ذكر محققو الافرنج ان العرب هم الذين استحضروا ماء الفضة (الحامض النتريك) وزيت الزاج (الحامض الكبريتيك) وماء الذهب (الحامض النيتروهيدروكلوريك) واكتشفوا البوتاسا وروح النشادر وملحه وحجر جهنم (نترات الفضة) والسلماني (كلوريد الزئبق) والراسب الاحمر (اكسيد الزئبق) وملح الطرطير وملح البارود (نترات البوتاسا) والزاج الاخضر (كبريتات الحديد) والكحول والقلي والزرنيخ والبورق . وغير ذلك من المركبات والمكتشفات التي لم يصل الينا خبرها . على اننا نستدل على وجود بعض المركبات الكيمياوية في ايامهم مما لم نسمع له بمثيل في تاريخ الكيمياء قبل اواخر القرن الماضي — فقد اشار ابن الاثير الى ادوية استخدمها العرب في واقعة الزنج سنة ٢٦٩ هـ اذا طلي بها الخشب امتنع احتراقه ولم يذكر ما هي . ومما يعد من قبيل الكيمياء ايضاً البارود فقد ترجح لنا بالبحث انهم هم الذين ركبوه . وهم اول من وصف التقطير والترشيح والتصعيد والتبلور والتذويب وقد الفوا في ابطال الكيمياء القديمة — اول من الف ذلك منهم حكيمهم وفيلسوفهم يعقوب الكندي فى اواسط القرن الثالث للهجرة

واما النبات فللعرب القدح المعلى في درسه والتأليف فيه وقد اخذوا هذا العلم في النهضة العباسية عن مؤلفات ديسقوريدس وجالينوس ومن كتب الهند . نقل كتاب ديسقوريدس في ايام المتوكل نقله اصطفان بن باسيل من اليونانية الى العربية

Digitized by Birzeit University Library

فالعقاقير التي لم يعرف لها اسماء في العربية تركها على لفظها اليوناني اتكالا على ان يبعث الله بعده من يعرف ذلك ويفسره . وحمل هذا الكتاب الى الاندلس على هذه الصورة فانتفع به الناس الى ايام الناصر صاحب الاندلس في اوائل القرن الرابع للهجرة . فكاتبه ملك القسطنطينية سنة ٣٣٧ هـ وهاداه بكتب من جملتها كتاب ديسقوريدس باليونانية مصوّر الحشائش بالتصوير الرومي العجيب . ولم يكن في الاندلس من يحسن اليونانية فبعث الناصر الى الملك يطلب اليه رجلا يعرف اليونانية واللاتينية لينقله الى اللاتينية وعارفو هذه اللغة في الاندلس كثيرون . فبعث اليه راهباً اسمه نقولا وصل قرطبة سنة ٣٤٠ هـ فتعاونوا على استخراج ما فات ديسقوريدس ذكره من اسماء العقاقير والادوية وجعله ذيلا على ذلك الكتاب

ابن البيطار

حتى اذا نبغ ابن البيطار المالقي النباتي في أواسط القرن السابع للهجرة فتناول الكتاب المذكور فدرسه وتفهمه ثم سافر الى بلاد اليونان والى اقصى بلاد الروم والتي جماعة يعانون هذا الفن وأخذ عنهم معرفة نبات كثير عاينه في مواضعه . واجتمع ايضاً في المغرب وغيره بكثير من علماء النبات وعاين منابته بنفسه . وذهب الى الشام ودرس نباتاتها وجاء الديار المصرية في خدمة الملك الكامل الايوبي وكان يعتمد عليه في الادوية المفردة والحشائش حتى جعله رئيسا على العشابين واصحاب البسطات . وبعد طول ذلك الاختبار ألف كتاباً في النبات هو فريد في بابه وكان عليه معول اهل اوربا في نهضتهم الاخيرة في علم النبات . ومؤلفاته الباقية :

١ كتاب المغني في الادوية المفردة : ألفه للملك الصالح الايوبي
٢ جامع مفردات الادوية والاغذية
٣ ميزان الطبيب

رشيد الدين بن الصوري

ومن المبرزين في علم النبات رشيد الدين بن الصوري المتوفي سنة ٦٣٩ هـ صاحب كتاب الادوية المفردة وكان كثير البحث والتدقيق يخرج لدرس الحشائش في منابتها ويستصحب مصوراً معه الاصباغ والليق على اختلافها وتنوعها ويتوجه الى المواضع التي بها النبات في لبنان وسوريا فيشاهد النبات ويحققه ويريه للمصور

Digitized by Birzeit University Library

فيعتبر لونه ومقدار ورقه وأعضائه وأصوله ويصور بحسبها بالدقة . وذلك غاية ما يفعله الباحثون في هذا العلم اليوم

الفلسفة

وجمعية اخوان الصفا

كان للفلسفة شأن آخر في هـذا العصر واشتغل فيها اكثر الذين عنوا بعلوم القدماء ولاسيما الاطباء وفي مقدمتهم ابن سينا الشيخ الرئيس . وكان الفلاسفة في هـذا العصر متهمين بالكفر وكان الانتساب الى الفلسفة مرادفاً للانتساب الى التعطيل وشاعت النقمة على المأمون لانه كان السبب في نقل الفلسفة الى اللغة العربية حتى قال ابن تيمية بعد ذلك « ما أظن الله يغفل عن المأمون ولا بد أن يعاقبه بما أدخله على هذه الامة»

فاضطر أصحابها الى التستر فالفوا الجمعيات السرية لهذا الغرض وأشهرها جمعية « اخوان الصفا » تألفت في بغداد بأواسط القرن الرابع للهجرة ذكروا من أعضائها خمسة هم : أبو سليمان محمد بن معشر البستي ويعرف بالمقدسي وأبو الحسن علي بن هارون الزنجاني وأبو أحمد المهرجاني والعوفي وزيد بن رفاعة . وكانوا يجتمعون سراً ويتباحثون في الفلسفة على أنواعها حتى صار لهم فيها مذهب خاص هو خلاصة ابحاث الفلاسفة المسلمين بعد اطلاعهم على آراء اليونان والفرس والهند وتعديلها على ما يقتضيه الاسلام . وأساس مذهبهم أن الشريعة الاسلامية تدنست بالجهالات واختلطت بالضلالات ولا سبيل الى غسلها وتطهيرهـا الا بالفلسفة لانها حاوية للحكمة لاعتقادية والمصلحة الاجتهادية وانه متى انتظمت الفلسفة اليونانية والشريعة العربية فقد حصل الكمال

رسائل اخوان الصفا

وقـد دونوا فلسفتهم هـذه في خمسين رسالة سموها رسائل اخوان الصفا وكتموا اسماءهم . وهي تمثل الفلسفة الاسلامية على ما كانت عليه في ابان نضجها وتشمل النظر في مبادىء الموجودات وأصول الكائنات الى نضد العالم فالهيولي والصورة . وماهية الطبيعة والارض والسماء ووجه الارض وتغيراته والكون والفساد والاثار العلوية والسماء والعالم وعلم النجوم وتكوين المعادن وعلم النبات

Digitized by Birzeit University Library

وأوصاف الحيوانات ومسقط النطفة وكيفية رباط الناس بها . وتركيب الجسد والحاس والمحسوس والعقل والمعقول والصنائع العلمية والعملية والعدد وخواصه والهندسة والموسيقى والمنطق وفروعه واختلاف الاخلاق وطبيعة العدد . وأن العالم انسان كبير والانسان عالم صغير والاكوار والادوار وماهية العشق والبعث والنشور واجناس الحركات والعلل والمعلولات والحدود والرسوم . وبالجملة فقد ضمنوها كل علم طبيعي أو رياضي أو فلسفي أو إلهي أو عقلي

ويظهر من امعان النظر فيها أن أصحابها كتبوها بعد البحث الدقيق والنظر الطويل . وفي جملة ذلك آراء لم يتصل أهل هذا الزمان الى أحسن منها . وفيها بحث من قبيل النشوء والارتقاء . وفي ذيل الكتاب فصل في كيفية عشرة اخوان الصفا وتعاونهم بصدق المودة والشفقة وان الغرض منها التعاضد في الدين . وذكروا شروط قبول الاخوان فيها وغير ذلك

وكان المعتزلة ومن جرى مجراهم يتناقلون هذه الرسائل ويتدارسونها ويحملونها معهم سراً الى بلاد الاسلام . ولم تمض مائة سنة على كتابتها حتى دخلت الاندلس على يد أبي الحكم عمرو بن عبد الرحمن الكرماني . وهو من أهل قرطبة رحل الى المشرق للتبحر في العلم على جاري عادة الاندلسيين . فلما عاد الى بلاده حمل معه الرسائل المذكورة وهو أول من أدخلها الاندلس فما لبثت أن انتشرت هناك حتى تناولها أصحاب العقول الباحثة وأخذوا في درسها وتدبرها

ولم تظهر ثمار الطب والفلسفة وفروعهما في الاندلس الا في العصر الآتي فنبغ الزهراوي وابن جزلة وابن رشد وغيرهم

النجوم

كان للمسلمين حظ وافر من علم النجوم وفضل كبير عليه يكفيك أنهم جمعوا فيه مذاهب اليونان والهند والفرس والكلدان والعرب الجاهلية شأنهم في أكثر العلوم الدخيلة . وقد اشتهر في العصرين الماضيين جماعة لم يخلفوا آثاراً وصلت الينا وان كان لهم فضل كبير على هذا العلم اشهرهم بنو شاكر وأبو معشر البلخي المتوفى سنة ٢٧٢ وحنين بن اسحق سنة ٢٨٨ واحمد بن كثير الفرغاني وسهل ابن بشر ومحمد بن عيسى الماهاني ومحمد بن جابر الحراني المعروف بالبتاني

Digitized by Birzeit University Library

المتوفي سنة ٣١٧ وكان أوحد عصره في فنه وقد استعان الافرنج بكتبه في نهضتهم الاخيرة . أما في العصر الثالث الذي نحن في صدده فأكثر فلكيي المسلمين آثاراً البيروني وقد بقي منها شيء كثير

وأول ما يستلفت انتباهنا من هذا القبيل ان العرب (أو المسلمين) قالوا بابطال صناعة التنجيم المبنية على الوهم ولعلهم أول من فعل ذلك وان كانوا لم يستطيعوا ابطالها ولكنهم مالوا بعلم النجوم نحو الحقائق المبنية على المشاهدة والاختبار كما فعلوا بعلم الكيمياء . وكانوا كثيري العناية بعلم الفلك يرصدون الافلاك ويؤلفون الازياج ويقيسون العروض ويراقبون السيارات ويرتحلون في طلب ذلك العلم الى الهند وفارس ويتبحرون في كتب الاوائل ويتممون ما نقص منها أو يجمعون بين مذاهبها

أبو الريحان البيروني

المتوفي سنة ٤٣٠ هـ.

هو أشهر علماء النجوم والرياضيات من المسلمين في العصر الثالث . واسمه محمد ابن أحمد البيروني نسبة الى بيرون بلد في السند . سافر في بلاد الهند أربعين سنة اطلع فيها على علوم الهنود فضلاً عن مطالعة الكتب العلمية المنقولة أو المؤلفة في هذه الفنون وأقام مدة في خوارزم . وأكثر اشتغاله في النجوم والرياضيات والتاريخ وخلف مؤلفات نفيسة اليك ما بقي منها مما وصل خبره الينا :

١ الآثار الباقية عن القرون الخالية : ألفه للامير شمس المعالي وهو يبحث في التواريخ التي كانت تستعملها الامم في زمانه والاختلاف الواقع في الاصول التي هي مبادئها والفروع التي هي شهورها وسنوها والاسباب الداعية لذلك . وفي الاعياد المشهورة والايام المذكورة للاوقات والاعمال وغيرها مما يعمل به بعض الامم دون البعض الآخر . فهو من قبيل التوقيت أو ما يسميه الافرنج علم الكرونولوجيا . ويدخل فيه النظر في ما هو اليوم والشهر والسنة على اختلاف الاصطلاح عند الامم القديمة وتاريخ ذلك عند الاشوريين واليونانيين الى الاسلام وما بعده الى أيامه . وما أصاب التقاويم في أثناء ذلك الزمن من التعديل والتبديل . وجداول للاشهر الفارسية القديمة على اختلاف الاعصر والبلاد . ومثل ذلك عند العبرانيين وعند العرب في الجاهلية والاسلام وعند الروم والهند والترك بالتفاصيل والمقابلة .

Digitized by Birzeit University Library

وفي استخراج التواريخ بعضها من بعض وتواريخ الملوك ومدد حكمهم على اختلاف الاقاويل من آدم فما بعده من رجال التوراة ويلحق ذلك جداول عن ملوك أشور وبابل والكلدان والقبط واليونان والرومان قبل النصرانية وبعدها وملوك الفرس قبل الاسلام على اختلاف طبقاتهم وبازاء كل ملك مدة حكمه الى يزدجرد الذي توفي بعد الاسلام . وفصول في مواليد السنين وكيفيتها وكبائسها عند اليهود وغيرهم وتواريخ المتنبئين وأممهم من أهل الاوثان أو أهل البدع في الاسلام وأعياد الفرس . ومذاهب أهل خوارزم وحساب قبط مصر في السنين والكبس والاعياد عندهم وعند الملكية . وأعياد النصارى وأحوالهم على اختلاف الطوائف ومثل ذلك عن المجوس والصابئة وما كانت العرب تستعمله من هذا القبيل في أيام الجاهلية وما فعله الاسلام فيها . وغير ذلك مما لا تقف عليه في كتاب آخر

٢ تاريخ الهند : وهو من الكتب النادرة في هذا الموضوع بالعربية

٣ التفهيم لاوائل صناعة التنجيم : هو مختصر في الهندسة والفلك والنجامة

٤ القانون المسعودي : في الهيئة والنجوم قدمه للسلطان مسعود بن محمود الغزنوي ومنه اسمه

٥ رسالة في الاسطرلاب

٦ استيعاب الوجوه الممكنة في صنعة الاسطرلاب

٧ استخراج الاوتاد في الدائرة بخواص الخط المنحني فيها : هي مسائل هندسية وله فيها طرق خصوصية

٨ رسالة في راسيكات الهند : في التناسب

٩ مبحث في مبادىء العلوم . ألفه بالفارسية

١٠ رسالة في سير سهمي السعادة والغيب

١١ كتاب الجماهر في معرفة الجواهر . ألفه للملك المعظم أبي الفتح مودود

ونبغ غير واحد من علماء الفلك في هذا العصر كالبوزجاني المتوفى سنة ٣٨١ وابن رستم الكوهي والمنجم القمي وأبو الحسين الصوفي وابن اللبان الحيلي وعبد الاعلى الصدفي وغيرهم يضيق المقام عن ذكرهم

Digitized by Birzeit University Library

الرياضيات

نريد بالرياضيات هنا الحساب والجبر والهندسة وكان للعرب فيها شأن عظيم. ومن أكبر مآثرهم فيها نقلهم الحساب الهندي والارقام الهندية من الهند الى سائر أقطار العالم. فالعرب يسمونها ارقاماً هندية لانهم نقلوها عن الهند والافرنج يسمونها عربية لانهم أخذوها عن العرب وأول من تناول تلك الارقام من الهنود أبو جعفر محمد بن موسى الخوارزمي

وأما الجبر فللعرب فضل كبير في وضعه أو تأليفه. ولما أخذ العرب في نقل العلوم اليونانية نقلوا كتابين في الجبر أحدهما لديوفانتوس والآخر لا برخس وقد وجد الباحثون بعد نهضة التمدن الحديث ان ما كتبه هذان ليس من الجبر في شيء أو هي أصول ضعيفة لا يعتد بها. وهم يعتقدون ان الجبر من موضوعات العرب. والحقيقة على ما نرى ان العرب بعد ان اطلعوا على حساب الهنود اضافوه الى ما نقلوه عن اليونان وبنوا على ذلك علم الجبر. ومن اشهر كتب المسلمين في الجبر كتاب الجبر والمقابلة للخوارزمي. فالظاهر ان الخوارزمي جمع بين ما عثر عليه من الاصول الجبرية عند اليونان والهنود والفرس فاستخرج منه الجبر العربي كما جمع في زيجه بين آراء الهند والفرس واليونان. وقد عني العرب بشرح كتاب الخوارزمي مراراً. وألف ايضاً في الجبر ابو كامل شجاع بن اسلم وابو الوفاء البوزجاني واكثر مؤلفاته في الحساب وابو حنيفة الدينوري المتوفي سنة ٢٨١ هـ وابو العباس السرخسي المتوفي سنة ٢٨٦ هـ وغيرهم. ولما نهض الافرنج في تمدنهم الحديث اخذوا الجبر عن العرب

ومما احدثه المسلمون في الهندسة انهم طبقوها على المنطق وقد فعل ذلك ابن الهيثم المصري في اوائل القرن الخامس للهجرة فانه ألف كتاباً جمع فيه الاصول الهندسية والعددية من اقليدس وابلنيوس ونوع فيها الاصول وقسمها وبرهن عليها ببراهين نظمها من الامور التعليمية والحسية والمنطقية حتى انتظم ذلك مع انتقاص توالي اقليدس وابلنيوس. وادخل في الجبر والحساب اساليب جديدة في استخراج المسائل الحسابية من جهتي التحليل الهندسي والتقدير العددي وعدل في اوضاع الجبريين وألفاظهم

وبنو موسى بن شاكر اشتغلوا في استخراج مسائل هندسية لم يستخرجها

Digitized by Birzeit University Library

أحد من الاولين كقسمة الزاوية الى ثلاثة أقسام متساوية

واشتغل العرب في أعوص المسائل المشكلة في الهندسة كقسمة الدائرة الى سبعة أقسام ووضعوا فيها الرسائل والكتب

الفنون الجميلة

في العرب استعداد فطري للموسيقى لحساسة نفوسهم وشدة تأثرهم . وكانت لهم في جاهليتهم ألحان توافق خشونتهم فلما ظهر الاسلام واختلطوا بالروم والفرس اقتبسوا عنهم الموسيقى . وقد ذكرنا تاريخ نشوء الموسيقى العربية صفحة ١٣٤ ج ٢ من الكتاب المطوّل فايراجع هناك . وقد ارتقت بعد ذلك ونبغ فيها كثيرون وان لم يخلفوا كتباً مستقلة في هذا الفن ولكن ورد كثير من قواعده في كتاب الاغاني وأمثاله . وكان لهم شأن في اختراع الآلات الموسيقية وتحسين الآلات التي أخذوها عن سواهم

ومن مخترعاتهم الموسيقية القانون والمشهور انه من اختراع الفارابي الفيلسوف فقد ذكروا انه اصطنع آلة مؤلفة من عيدان يركبها ويضرب عليها وتختلف أنغامها باختلاف تركيبها ولكنها في كل حال غريبة في بابها

ذكروا ان الفارابي حضر مجلس غناء لسيف الدولة ولم يكن أحد من الحضور يعرفه فعاب المغنين فسأله سيف الدولة هل يحسن الغناء ففتح خريطة كانت معه واستخرج تلك الآلة وركبها ثم لعب بها فضحك منها كل من كان في المجلس . ثم فكها وركبها تركيباً آخر وضرب عليها فبكى كل من كان في المجلس ثم فكها وغير تركيبها وضرب ضرباً آخر فنام كل من في المجلس حتى البواب فتركهم نياماً وخرج

زرياب وابن فرناس

وزاد المسلمون في العود وتراً خامساً زاده زرياب بالاندلس ـ كان للعود أربعة أوتار على الصنعة القديمة التي قوبلت بها الطبائع الاربع فزاد عليها وتراً خامساً أحمر متوسط ولوّن الاوتار وطبقها على الطبائع . وهو الذي اخترع مضراب العود من قوادم النسر وكانوا قبله يضربون بالخشب

وعباس بن فرناس في الاندلس اصطنع الآلة المعروفة بالمثقال يعرف بها الاوقات على غير رسم ومثال

Digitized by Birzeit University Library

في العصر العباسي الرابع

نضجت العلوم الدخيلة في العصر العباسي الثالث وظهرت ثمارها في الشطر الشرقي من المملكة الاسلامية . فظهر ابن سينا وغيره وانتقلت هذه العلوم الى الاندلس ومنها رسائل اخوان الصفا كما تقدم . فاهتم أهل الاندلس فيها واشتغلوا في علومها على اختلاف مواضيعها فلم يتوسط العصر العباسي الرابع حتى نبغ فيها طائفة كبيرة من الفلاسفة والاطباء ملأت شهرتهم الخافقين

الفلسفة في الاندلس

دخلت الفلسفة الاندلس في القرن الثالث وأخذ الاندلسيون بشيء منها وأحبوها واستغرقوا في درسها وقاسوا في سبيلها اضطهاد أصحاب السلطة مسايرة للعامة في اضطهادهم الفلاسفة . فما من ملك الا نقم على أصحاب الفلسفة واتهمهم بالكفر . ومن أشهر الحوادث من هذا القبيل نقمة المنصور بن أبي عامر صاحب الاندلس في أواخر القرن السادس للهجرة عليهم فانه اضطهد الفلاسفة ونفاهم من بلاده ومن جملتهم ابن رشد والذهبي وعزم ألا يترك شيئاً من كتب المنطق والحكمة في بلاده وشدد النكير على المشتغلين بها حتى اطلقوا على المشتغل بالفلسفة لقب « زنديق » وقيدت عليه أنفاسه فان زل في شبهة رجم بالحجارة ـ وهاك أشهر فلاسفة الاندلس في هذا العصر حسب الوفاة :

ابن باجة

توفي سنة ٥٣٣ هـ

هو أبو بكر محمد بن يحيى بن الصائغ . ويسميه الافرنج Avenpace ويعرف بابن باجة كان مشهوراً بالادب والعربية فضلا عن الفلسفة والطب والموسيقى وكان يجيد اللعب على العود . الف كتباً عديدة في الفلسفة فاصابه ما أصاب غيره من الفلاسفة حتى كان لا يبيت الا وهو في خطر على حياته . وقد توفي شاباً في مدينة فاس وقرأ عليه كثيرون من جملتهم ابن رشد الآتي ذكره . له مؤلفات عديدة هاك ما وصلنا خبره منها :

١ مجموعة في الفلسفة والطب والطبيعيات

٢ رسالة الوداع مترجمة الى العبرانية وغيرها

Digitized by Birzeit University Library

ابن الطفيل

توفي سنة ٥٨١ هـ

هو أبو بكر محمد بن عبد الملك بن الطفيل من تلاميذ ابن باجة المتقدم ذكره . كان متمكناً من الحكمة حريصاً على الجمع بين الشريعة والفلسفة . له مؤلفات عديدة وصلنا منها .

١ كتاب أسرار الحكمة المشرقية

٢ رسالة حي بن يقظان : شبه رواية فلسفية وهي مشهورة

ابن رشد

توفي سنة ٥٩٥ هـ

هو أبو الوليد محمد بن احمد بن محمد بن رشد ويسميه الافرنج Averroes ولد سنة ٥٢٠ في قرطبة وأخذ عن ابن باجة وغيره وتفقه بالعلوم الاسلامية فضلا عن الفلسفة والطب . وله فيهما مؤلفات عديدة اشهرها كتاب الكليات في الطب . لكن اكثر شهرته في الفلسفة . واكثر مؤلفاته فيها ترجمت الى اللاتينية لما نهض الافرنج في القرون الاخيرة واشتغلوا بالفلسفة . فنسبوها اليه وشرحوها ولخصوها وانتقدوها وقرظوها وهاك . ما وصلنا خبره منها :

١ فصل المقال في ما بين الشريعة والحكمة من الاتصال

٢ الكشف عن مناهج الادلة في عقائد الملة وتعريف ما وقع منها بحسب التأويل من الشبه والبدع المضلة

٣ المسائل في المنطق

٤ تهافت التهافت . رد به على الغزالي

٥ الكليات في الطب والثرابيوتيا

٦ فلسفة أرسطو

٧ تلخيص كتب أرسطو الاربعة

٨ المقدمات الممهدات في بيان ما اقتضته المدونة

٩ بداية المجتهد ونهاية المقتصد

Digitized by Birzeit University Library

الطب والاطباء

اشتهر من أطباء هذا العصر طائفة حسنة في الاندلس وغيرها هاك أشهرهم :

ابن رضوان

توفي سنة ٤٥٣ هـ (وقيل سنة ٤٦٠ هـ)

هو أبو الحسن علي بن رضوان وُلد في الجيزة قرب مصر ونشأ في القاهرة . وكان في أول أمره منجماً يقعد على الطريق ثم مال الى الطب حتى اشتهر وألف . وكان مقامه في دار بقصر الشمع عرفت باسمه . وسنذكر مناظرته مع ابن بطلان في ترجمة هذا . وله نظر في الطب مبني على التجربة . وقد وصلتنا من مؤلفاته :

١ كفاية الطبيب فيما صح لديه من التجاريب
٢ كتاب الاصول في الطب
٣ دفع مضار الابدان بأرض مصر

وله رسائل وكتب كثيرة في مكاتب أوربا

ابن بطلان

توفي سنة ٤٥٥ هـ (وقيل سنة ٤٤٤ هـ)

هو أبو الحسن المختار طبيب نصراني من أهل بغداد . كانت بينه وبين معاصره ابن رضوان المصري المتقدم ذكره مراسلات ومكاتبات ومناظرات حادة . لا يؤلف أحدهما كتاباً الا حمل الآخر عليه وانتقده وسفه رأيه . فسافر ابن بطلان الى مصر لمشاهدة مناظره فوصل الفسطاط سنة ٤٤١ في زمن المستنصر بالله الفاطمي . فأقام ثلاث سنين جرى في أثنائها بينهما وقائع ومناظرات ونوادر ضمنها كتاباً ألفه عند خروجه من مصر . ويرى ابن أبي أصيبعة في التفاضل بينهما ان ابن بطلان كان أعذب ألفاظاً وأكثر ظرفاً وأميز في الادب وما يتعلق به . وان ابن رضوان كان أثبت قدماً في الطب والعلم والفلسفة وما يتبعها . وسافر ابن بطلان من مصر الى الاسكندرية ومنها الى انطاكية ومات فيها . وهاك أشهر مؤلفاته :

١ كتاب تقويم الصحة
٢ دعوة الاطباء
٣ الامراض العارضة

Digitized by Birzeit University Library

ابن زهر الاشبيلي

توفي سنة ٥٥٧ هـ

بنو زهر كثيرون توارثوا الطبابة وهذا منهم . وهو أبو مروان عبد الملك ابن أبي العلاء بن زهر . كان أبوه أبو العلاء طبيباً وتفرغ هو للطب واشتهر بكتبه : ١ التيسير في المداواة والتدبير ٢ كتاب الجامع في الاشربة والمعجونات ٣ كتاب الاغذية

ومن مشاهير أطباء هذا العصر : ابن ميمون القرطبي توفي سنة ٦٠١ وابن هبل سنة ٦١٠ ونجيب الدين السمرقندي سنة ٦١٩ وغيرهم

في العصر المغولي

ظهر في هذا العصر طائفة من علماء الرياضيات والفلسفة والطب والنجوم وغيرها من العلوم الدخيلة . لكن أكثرهم بنوا على تآليف من تقدمهم

ولو أردنا ان نعدد أسماء من اشتهر بالعلوم في هذا العصر من فلسفية وطبيعية ورياضية وحربية وسياسية لضاق بنا المقام فليراجع ذلك من أراد في الكتاب المطول . على أنه لا يسعنا الا ان نذكر هنا كتاب الدميري (المتوفى في القاهرة سنة ٨٠٨ هـ) في الحيوان المسمى :

﴿ حياة الحيوان الكبرى ﴾ وهو معجم في علم الحيوان مرتب على أسماء الحيوانات . وقد توسع في وصف كل حيوان وأصل اسمه وما جاء من الحديث أو الاشعار أو الامثال بشأنه وخصائصه الطبية وتفسيره في الاحلام . واذا عرض في أثناء الكلام أسماء بعض المشاهير أتى بأخبارهم أو تراجمهم . وبين الحقائق التاريخية التي حواها هذا الكتاب ما يعسر الوقوف عليه في سواه . وفيه تراجم نخبة من الشعراء والادباء والعلماء والفلاسفة ـ وأخبار عدة من خلفاء بني أمية والراشدين وغيرهم . وله مختصر اسمه « حياة الحيوان الوسطى »

وقد اختصره كثيرون منهم الدماميني وسمى مختصره « عين الحياة » . ومختصر لابن قاضي شهبة . ومختصر للسيوطي اسمه « ديوان الحيوان » . ومختصر لمحمد بن عبد القادر الدميري اسمه « حاوي الحسان »

Digitized by Birzeit University Library

الفنون الجميلة

الموسيقى

أهم الفنون الجميلة الشعر والموسيقى والتصوير . وقد أفضنا في وصف الشعر في أبوابه . وتكلمنا عن الموسيقى ولم يحدث فيها بعد ذلك ما يستحق الذكر . لان الذين ألفوا في الموسيقى العربية بعد ذلك نسجوا على منوال المتقدمين وقلّ من تخصص لهذا النوع من الفنون الجميلة من وجهته العلمية وألف فيه كما فعل صاحب الاغاني وغيره . وانما اصبح التأليف فيه ينطوي تحت المواضيع الاخرى ولا سيما في الموسوعات الشاملة لعلوم مختلفة

وقد وقفنا في دار الكتب المصرية على كتاب اسمه « حاوي الفنون وسلوة المحزون » لابي الحسن محمد بن الحسن المعروف بابن الطحان في ٢٢٢ صفحة خط قديم يشتمل على ثمانين باباً في الموسيقى وما قيل فيها قديماً من وضع الالحان وضروب الغناء وتاريخ المغنين في الجاهلية والاسلام . ومن أول من غنى في الاسلام من الرجال والنساء وأول من دوّن الغناء وضروب التلحين . وأنواع الحلوق ومعالجتها حتى تصح أصواتها طبياً وجراحياً . وفي تقدير الالحان وترتيبها حسب درجاتها وأشكالها من التغريد فالترخيم فالترجيع ونحو ذلك . وذكر المغنين والمغنيات في الدولة الاموية والعباسية والاخشيدية والعلوية . والمغنين من أولاد الخلفاء والطنبوريين والطنبوريات والرخصة في الغناء وغير ذلك . وهو عظيم الاهمية لولا سقم هذه النسخة ونقصها

وكتاب اسمه « كشف الهموم والكرب في شرح آلة الطرب » ألفه صاحبه لسيف الدين أبي بكر بن المقرمنكلي بغا الفخري شرح فيه آلات الطرب وكيفية صنعها وما أباح الشرع منها

التصوير

التصوير قديم في آداب الامم سابق للكتابة . وكانت الكتابة في أصل نشأتها صوراً ثم تدرجت في الارتقاء حتى صارت حروفاً هجائية . وظل الناس بعد تكونها يستخدمون الصور لتمثيل عاداتهم ومعتقداتهم ينقشون ذلك على أبنيتهم أو

Digitized by Birzeit University Library

يصورونه بالالوان . وفي وادي النيل ألوف من هذه الامثلة لان المصريين القدماء من أكثر الناس تصويراً لعاداتهم وحوادثهم وكذلك اليونان والرومان والفرس وغيرهم . وما من أمة عظيمة لم تخلف آثاراً مصورة تعبر بها عن أحوالها الاجتماعية أو الدينية أو السياسية ـ حتى العرب الجاهلية فان في آثارهم باليمن نقوشاً تدل على بعض عاداتهم ومعتقداتهم

أما بعد الاسلام فأصبح العرب من أبعد الامم عن التصوير لانه كان مكروهاً عند المسلمين ويعده بعضهم محرماً أو هو على الاقل غير مستحب . وقد اختلف الأئمة في درجة تحريمه فقالت طائفة بتحريم النحت وصنع التماثيل فقط وتحليل الصور أو الرسوم وذهب آخرون الى تحريمه على الاطلاق . وفي كل حال كان التصوير من الفنون المهملة في الاسلام رغم ما كان يحيط بالمسلمين من أسباب الترغيب فيه عند الفرس والروم والهند وغيرهم

على انهم لم يكونوا يستنكفون من اقتناء الاثاث المزركش وعليه الرسوم من صنع تلك الامم . وقد اقتنوا الرياش وعليه صور الناس والبهائم . ومن جملة ذلك أبسطة عليها صور وقائع اسلامية ـ ذكر المسعودي أنه كان في دار الخلافة العباسية في أيام المنتصر المتوفى سنة ٢٤٨ هـ بساط عليه صور ملوك في جملتهم يزيد ابن الوليد بن عبد الملك وشيرويه بن ابرويز . وناهيك ببساط أم المستعين وما عليه من الصور المرصعة . غير ما كانوا يستخدمون من الآنية المصورة كالاقداح عليها الصور الملونة تمثل الوقائع أو العادات فكان المسلمون يقتنون الاثاث والرياش عليها صور الآدميين اذا صورها سواهم

أما اشتغال المسلمين أنفسهم بالتصوير فكان المظنون أنهم لم يحفلوا به مطلقاً . ثم تبين بتفقد الآثار ومراجعة المخطوطات القديمة انهم اشتغلوا فيه بعض الشيء . ولذلك تاريخ لا بأس من ايراده بالاختصار

يقسم التصوير من حيث ما نحن فيه الى عدة أقسام أهمها اثنان : ١ التصوير على الاحجار وغيرها من الآثار البنائية ٢ التصوير في الكتب ونحوها . فلنتكلم عن كل منهما على حدة :

أولاً ـ التصوير على الآثار

فالتصوير على الآثار البنائية إما أن يكون نحتاً ويدخل فيه التماثيل وسائر المنحوتات والنقوش على الجدران . أو أن يكون رسماً بالالوان . فالمسلمون لم

Digitized by Birzeit University Library

يظهر حتى الآن انهم نحتوا تمثالا ولا نقشوا صوراً آدمية مجسمة على جدران قصورهم أو مساجدهم تمثل أناساً ـ الا ما رواه الدكتور هرسفيلد الآتي ذكره عن الصور البارزة في آثار سامرّا ونحن في ريب من أمرها . لكنهم اصطنعوا تماثيل بعض الحيوانات أو الفرسان في إبان حضارتهم في بغداد وقرطبة وطليطلة وغرناطة وأشبيلية قلدوا بها الفرس والروم على سبيل الزينة . كذلك فعل المقتدر بالله العباسي في أول القرن الرابع للهجرة بداره التي عرفت بدار الشجرة لشجرة كان على أغصانها الذهبية تماثيل الطيور وبجانبها الفرسان على أفراسهم . وكان الامين قبله قد اصطنع السفن على أشكال الحيوانات ولم ير في ذلك بأساً . وهكذا فعل الخليفة الناصر في الزهراء بما أقامه في قصورها من تماثيل الذهب الاحمر يمثل بها بعض أنواع الحيوان ولا سيما الاسود والغزلان والثعابين والطيور على اختلاف أشكالها . وقس على ذلك قصر أشبيلية وقصور الحمراء في غرناطة وقصور بني طولان في القطائع وأبنية الفاطميين بالقاهرة . وقد جاء في أخبار الفاطميين ما يؤخذ منه انهم كانوا يتخذون تماثيل الافيال ونحوها من العنبر أو الذهب على سبيل التبسط بالرخاء والتفاخر بالثروة

أما التصوير على الابنية بالالوان فقد كان المظنون ان المسلمين لم يتعاطوه في إبان تمدنهم حتى اطلعنا على تنقيب الدكتور هرسفيلد في سامرّا ولا سيما الجامع الاعظم الذي بناه المتوكل على الله . فقد ذكر هذا الدكتور أنه وجد على جدرانه نقوشاً مطبوعة وتصاوير ملوّنة وفسيفساء . وانه وجد في جملة تنقيبه غرفاً وردهات زينت جدرانها بتصاوير شرقية محفوظة أحسن حفظ . وفيها صور بارزة بالجص بينها صور أناس على أبدع مثال والراجح ان هذه الرسوم من صنع القرن الثالث للهجرة عند بناء سامرّا لان هذه المدينة أهملت في زمن المعتضد بالله المتوفى سنة ٢٨٩ هـ وخربت من ذلك الحين وغشيها التراب حتى أخذ أهل هذا العصر بالتنقيب عن أطلالها

وفي أخبار الفاطميين كثير من الابسطة والستائر المطرزة بينها سطور من الحرير منسوجة بالذهب فيها صور الدول وملوكها والمشاهير فيها . وعلى صورة كل واحد اسمه ومدة أيامه وشرح حاله . فان قيل انها ستائر مجلوبة من الخارج لم يأمر الفاطميون برسمها أو انها لم ترسم في خلافتهم ففي أخبارهم ان الآمر بأحكام الله لما بنى المنظرة على بركة الحبش جعل فيها دكة من خشب مدهونة فيها طاقات تشرف

Digitized by Birzeit University Library

على خضرة البركة صور فيها كل شاعر وبلده واستدعى من كل واحد منهم قطعة من الشعر في المدح كتبها عند رأس ذلك الشاعر . وبجانب صورة كل شاعر رف لطيف مذهب . فلما دخل الآمر وقرأ الاشعار أمر أن يحط على كل رف صرة مختومة فيها خمسون ديناراً وان يدخل كل شاعر ويأخذ صرته

فالصور التي رآها هرسفيلد على أنقاض سامرًّا هي أقدم ما وقفوا عليه من آثار المسلمين في هذا الفن . يليها ما ذكرناه عن الفاطميين ـ غير ما ذكروه عن بساط المنتصر وبساط أم المستعين ونحوهما مما لا سبيل لنا الى نشره . وأقدم ما وقفنا عليه من الصور الآدمية على الابنية صورة مجلس قضاة وجدوه مصوراً على جدران قصر الحمراء في غرناطة . ويظن انه من صنع القرن الثامن للهجرة

ثانياً ـ التصوير في الكتب

وهذا النوع من التصوير قليل أيضاً في مؤلفات المسلمين أو العرب للسبب الذي قدمناه . وهو يقسم الى أنواع باختلاف مواضيع الكتب : ١ الرسوم الجغرافية كالخرائط ونحوها ٢ الرسوم الطبية وفيها صور الاعضاء وتركيبها ٣ الرسوم الصناعية ويدخل فيها صور الآلات والادوات ٤ الصور الادبية والتاريخية التي تلحق بكتب الادب والتاريخ ٥ الصور الدينية . فلننظر في كل منها على حدة

١ ـ الصور الجغرافية

ونعني بها الخرائط وتخطيط البلاد وهي قديمة في الكتب العربية منذ أول تأليف الجغرافية في القرن الرابع للهجرة

ويدخل في هذا النوع من الصور تصوير الحركات الحربية في ميادين القتال أو ساحات السباق . مثل كتاب تعبئة الجيوش والانيق في المجانيق وغيرهما

٢ ـ الصور الطبية

وهي قديمة أيضاً وان لم يصلنا منها شيء قديم . لان العرب لما نقلوا الطب عن اليونان والفرس في العصر العباسي الاول يغلب انهم نقلوا معه صور بعض الاعضاء التشريحية أو الحشائش والنباتات الدوائية ليميزها بعضها عن بعض ـ كما فعل بعد ذلك رشيد الدين الصوري المتوفى سنة ٦٣٩ هـ بتصوير الحشائش في كتاب الادوية المفردة ولكننا لم نقف على شيء من هذه الصور بين الكتب المخطوطة التي وصلت الينا . وانما يمثل ذلك لذهننا مخطوط تركي اطلعنا عليه في الخزانة التيمورية

Digitized by Birzeit University Library

اسمه « كتاب الاقراباذين والمفردات الطبية » كتب في أوائل القرن الثاني عشر للهجرة فيه رسوم للعقاقير النباتية والاعشاب الدوائية في غاية الاتقان تمثل بها الطبيعة تمثيلا مدهشاً بالاصباغ على اختلاف ألوانها . ورسوم الآلات الكيماوية ومواعين صنع الادوية والاستقطار كالانابيق والانابيب والاباريق والحمامات والكوانين والاجران . والآلات الجراحية كالمبشترات والمباضع والسكاكين والمقصات والكلاليب وغيرها وقد لونت نصالها بما يشبه الفولاذ اللامع في اتقن ما يكون

اما الصور التشريحية فاقدم ما وصل الينا منها تشريح العين لحسين بن اسحق مرسومة في كتابه المسمى « تركيب العين وعللها وعلاجها على رأي ابقراط وجالينوس » وقفنا عليه في مجموعة خطية نفيسة في الخزانة التيمورية كتبت سنة ٥٩٢ هـ تشتمل على تسعة كتب في امراض العين من جملتها كتاب « تركيب العين » لحنين بن اسحق فيه بضع صور ملونة تمثل أشكال العين ورطوباتها وعضلاتها وحركاتها

٣ ــ الصور الميكانيكية

والصور الميكانيكية أحدث عهداً مما تقدم . لان العرب لم يهتموا بالميكانيكيات اهتماماً خاصاً الا بعد عصر النقل . لكن الكتب الميكانيكية المصورة كثيرة وتعرف بكتب الحيل . وفيها صور الآلات الرافعة أو المحركة على اختلاف أنواعها . وقد تقدم ذكر بضعة كتب من هذا القبيل بين الكتب الصناعية في العصر المغولي أهمها كتاب الساعات والعمل بها وكتاب الحيل وفيهما عشرات من صور الآلات بين ملونة وغير ملونة . وبينها آلات كثيرة التركيب تمثل مصنوعات مدهشة . وعلى كل حال فان هذه الكتب لم تكتب الا بعد انقضاء القرن السادس للهجرة . وقد نشر المستشرق الفرنساوي كارادي‌فو كتاباً عربياً في الميكانيكيات اسمه « الحيل الروحانية وميخانيقا الماء » عن نسخة مخطوطة في مكتبة باريس فيها كثير من الرسوم تمثل آلات مدهشة كالتنين الصناعي والطيور الصافرة . والكتاب منقول في الاصل عن فيلون البيزانطي

٤ ــ الصور الادبية والتاريخية

وهذه لا يظهر ان العرب التفتوا اليها قبل انقضاء القرن السادس المذكور ..

Digitized by Birzeit University Library

وأقدم الكتب الادبية العربية المصورة على ما نعلم مقامات الحريري – نعني النسخة الموجودة في المتحف البريطاني كتبت سنة ٦٥٤ هـ وفيها ٨١ صورة ملونة

ويضاهي هذه المقامات في القدم مخطوط عربي في مكتبة شلومبرجر من القرن السابع للهجرة (١٣ للميلاد) فيه عدة صور تاريخية

ولعل هذه الصور منقولة عن صور أقدم منها . لكننا نذكر أقدم ما بلغنا خبره . ويلي ذلك صور كثيرة في كتب مخطوطة بعد هذا التاريخ بينها صورة حصار بني النضير مرسومة في القرن الثامن للهجرة في كتاب مخطوط في المتحف البريطاني ويدخل في هذا الباب كتب الرحلة أو الاقاليم فان من يطالعها يتبادر الى ذهنه ان الرحالة لا بد له من تصوير بعض ما يصفه فيها . ولم نقف من ذلك في كتبهم الا على النادر

على ان هذا الفن انتقل نحو ذلك الزمن الى غير العرب من المسلمين ولا سيما الفرس والمغول . وكان الفرس أهل تصوير قبل الاسلام ثم شغلهم التنازع تحت سيادة العرب . فلما اجتمعت كلمتهم وصاروا دولة واحدة بعد فتوح المغول وجهوا عنايتهم الى هذا الفن فجمعوا بين ما كان عندهم وما شاهدوه من آثار الروم وما حمله المغول معهم من الشرق الاقصى – أخذوا في ذلك أولا تحت سيطرة المغول . ولما استقل الفرس بدولتهم الصفوية ازدادوا رغبة فيه وأتقنوه . وكثرت الكتب المصورة عند المسلمين غير العرب ولا سيما في زمن أكبر خان الشهير في القرن العاشر للهجرة . فأكثروا من تصوير المشاهد والاشخاص في الشاهنامة وتيمورنامة وكليات السعدي وظفرنامة اليزدي وتاريخ رشيد الدين وغيرها من كتب التاريخ والادب

٥ – الصور الدينية

والصور الدينية أبعد ما يكون عن أذهان المسلمين ولذلك لا تجد شيئاً منها في كتبهم الدينية على اختلاف مواضيعها ومن غرائب ما رأيناه من هذا القبيل ثماني صور خيالية منشورة في كتاب الميزان الكبرى بالفقه الشافعي لعبد الوهاب الشعراني وقد مثل فيه صوراً في ذهنه لعين الشريعة وفروعها والصراط لمن استقام في الدنيا ونحو ذلك

Digitized by Birzeit University Library

في العصر العثماني

قد رأيت ان العلوم الطبيعية والفلسفة بدأت بالنمو من العصر الاموي وانها تقدمت تقدماً باهراً في العصر العباسي الاول لما كان من انصراف الهمم الى نقلها من الامم الاخرى . ثم نضجت في العصر العباسي الثاني وما بعده الى نهاية العصر المغولي فظهر كبار العلماء من أبناء العربية على انها كانت قد أخذت بالرجوع رويداً رويداً بعد النهضة العباسية الكبرى فلما جاء العصر العثماني بلغت غاية الاضطراب وتحوّلت الطبيعيات والرياضيات منها الى خرافات وأوهام وقل المشتغلون بها أو المنقطعون لها ولم يزيدوا على ما وصلت اليه في إبان التمدن الاسلامي شيئاً سوى ما اقتضاه انحطاط الاخلاق والذل من الاوهام . فمن العبث أن نطيل في ذكرها هنا أو في تعداد أسماء الذين اشتغلوا بها وما على الذي يريد التوسع الا مراجعتها في الكتاب المطوّل أو في المراجع الخاصة

Digitized by Birzeit University Library

العلوم الاسلامية

في العصر العباسي الاول

الفقه

في هـذا العصر ضبط الفقه ودوّنت أحكامه بعد ان أفضت الخلافة الى بني العباس . وكان أئمة الفقه في المدينة فأراد المنصور تصغير أمر العرب واعظام أمر الفرس لانهم أنصارهم وأهل دولتهم فكان من جملة مساعيه في ذلك تحويل أنظار المسلمين عن الحرمين فبنى بناء سماه القبة الخضراء حجاً للناس وقطع الميرة عن المدينة وفقيه المدينة يومئذ الامام مالك الشهير فاستفتاه أهلها في أمر المنصور فأفتى بخلع بيعته فخلعوها وبايعوا محمد بن عبد الله من آل علي . وعظم أمر محمد هذا وحاربه المنصور ولم يتغلب عليه الا بعد العناء الشديد . فرجع أهل المدينة الى بيعة المنصور قهراً وظلّ مالك مع ذلك ينكر حق البيعة لبني العباس . فعلم أمير المدينة يومئذ وهو جعفر بن سليمان عم المنصور بذلك فغضب ودعا بمـالك وجرّده من ثيابه وضربه بالسياط وخلع كتفه

الرأي والقياس

وكانت علوم القرآن قد انتشرت في العراق وفارس ونبغ من أبنائها من درس الفقه والفتيا ولـكنهم ما زالوا عيالاً فيهما على أهل المدينة لانهم أوثق الناس بحفظ الحديث وقراءة القرآن . وكان الحديث قليلاً في العراق على الخصوص . والمسلمون غـير العرب هناك أكثرهم من الفرس وهم أهل تمدن وعلم فعمدوا الى استخدام القياس العقلي في استخراج أحكام الفقه من القرآن والحديث . فخالفوا بذلك أهل المدينة لانهم كانوا شديدي التمسك بالتقليد ـ فـكان من جملة مساعي المنصور في تصغير أمر المدينة وفقهائها وخصوصاً مالك بعد ان أفتى بخلع بيعته انه نصر فقهاء العراق القائلين بالقياس وكان كبيرهم يومئذ أبو حنيفة النعمان في الـكوفة فاستقدمه الى بغداد وأكرمه وعزز مذهبه . وكان أبو حنيفة لا يحب العرب ولا العربية حتى انه لم يكن يحسن الاعراب ولا يبالي به ولذلك كان الربيع حاجب المنصور

Digitized by Birzeit University Library

يقاومه لان الربيع ينتسب الى العرب وكان يكره الفرس وابنه الفضل هو الذي سعى في قتل البرامكة

فلما نصر المنصور أبا حنيفة وأصحابه وهم المعروفون بأهل الرأي والقياس ازداد مالك تمسكا برأيه وتبعه فقهاء الحجاز وهم أهل الحديث . وانقسم الفقهاء كافة الى قسمين أهل الحديث وأهل الرأي وزعيم الاول مالك وأنصاره من أهل الحجاز وأصحاب الشافعي وأصحاب سفيان الثوري وأصحاب أحمد بن حنبل وغيرهم من أهل التقليد وعرفوا بأصحاب الحديث لان عنايتهم مبذولة في تحصيل الاحاديث ونقل الاخبار وبناء الاحكام على النصوص ولا يرجعون الى القياس الجلي أو الخفي ما وجدوا خبراً أو أثراً . ويدلك على شدة تمسكهم بذلك قول الشافعي « اذا وجدتم لي مذهباً ووجدتم خبراً على خلاف مذهبي فاعلموا ان مذهبي ذلك الخبر »

وزعيم أصحاب الرأي أبو حنيفة النعمان وأصحابه فقهاء العراق ومنهم محمد بن الحسن الشيباني وأبو يوسف القاضي وزفر بن الهذيل المتوفى سنة ١٥٨ واللؤلؤي وابن سماعة المتوفى سنة ٢٣٣ هـ وأبو مطيع البلخي وعافية القاضي وغيرهم . وقد سموا أهل الرأي لان عنايتهم بتحصيل وجه من القياس والمعنى المستنبط من الاحكام وبناء الحوادث عليها وربما يقدمون القياس الجلي على آحاد الاخبار

وجاء بعد مالك من أصحاب مذهبه محمد بن ادريس المطلبي الشافعي فرحل الى العراق وخالط أصحاب أبي حنيفة وأخذ عنهم ومزج طريقة أهل الحجاز بطريقة أهل العراق واختص بمذهب خالف فيه مالكا في كثير من مذهبه . ثم جاء بعده أحمد بن حنبل وكان من علية المحدثين وقرأ أصحابه على أصحاب الامام أبي حنيفة مع وفور بضاعتهم من الحديث فاختصوا بمذهب آخر . ووقف التقليد في الامصار عند هؤلاء الاربعة وتولدت منهم مذاهب الاسلام الاربعة : الحنفي والمالكي والحنبلي والشافعي

واليك خلاصة تراجمهم حسب سنيّ وفاتهم مع ما خلفوه من الكتب :

﴿ الائمة الاربعة ﴾

أبو حنيفة النعمان

توفي سنة ١٥٠ هـ

هو النعمان بن ثابت مولى بني تيم الله من أهل الكوفة . ولد سنة ٨٠ هـ وكان

Digitized by Birzeit University Library

خزّازاً يبيع الخز وكان عالماً عاملاً زاهداً عابداً كثير الخشوع دائم التضرع فاتصل خبره بالخليفة أبي جعفر المنصور فبعث اليه فلما جاءه أراد أن يوليه القضاء فحلف انه لا يفعل وقال « لن أصلح الى قضاء » وكان حسن الوجه حسن المجلس شديد الكرم حسن المواساة لاخوانه . وكان ربعة في الرجال وقيل كان طويلاً تعلوه سمرة ومن أحسن الناس منطقاً وأحلاهم نغمة . وكان قويّ الحجة حتى قال عنه الامام مالك « انه رجل لو كلمته في هذه السارية ان يجعلها ذهباً لقام بحجته » وكان طلق اللسان جهوري الصوت اذا سألته عن الفقه تفجر وسال كالوادي وسمعت له دوياً وجهارة

وهو الذي بوّب الفقه وفرع له فروعاً وعمدته في ما قاله القياس . وكان بعيداً عن الغيبة لا يذكر أحداً بسوء ولو كان عدواً له . وكان واسع العلم في كل العلوم الاسلامية الى ذلك العهد الا انهم عابوه بالعربية . وكان مذهبه في النحو كوفياً لانه من أهل الكوفة وتوفي في السجن . وذكر المسعودي انه مات وهو ساجد في صلاته . ومن مؤلفاته الباقية :

١ الفقه الاكبر : وهو من قبيل اصول الدين وفيه دفاع ضد المرجئة . وله شروح ومختصرات

٢ مسند ابي حنيفة : جمعه تلامذته

٣ وصيته لاصحابه

٤ وصيته لابنه

٥ المخارج في الحيل : في الفقه رواها تلميذه ابو يوسف

مالك ابن أنس

توفي سنة ١٧٩ هـ

هو ابو عبد الله مالك ابن أنس الاصبحي إمام دار الهجرة وصاحب المذهب المالكي ولد سنة ٩٥ هـ اخذ الفقة عن ربيعة الرأي فقيه اهل المدينة المتوفى سنة ١٣٦ هـ بالهاشمية . وكان مالك بن أنس ورعاً تقياً اذا أراد أن يحدث توضأ وجلس على صدر فراشه وسرّح لحيته وتمكن في جلوسه بوقار وهيبة ثم حدث . وكان يأتي المسجد ويشهد الصلوات والجمعة والجنائز ويعود المرضى ويقضي الحقوق وهناك يجتمع اليه أصحابه ويأخذون عنه الفقه والفتوى وهم الذين نشروا مذهبه

مكتبة جامعة بيرزيت

Digitized by Birzeit University Library

وكتبوا فيه . وعنه اخذ الامام الشافعي . وكان مالك بن انس شديد البياض مع ميل الى الشقرة طويلا عظيم الهامة اصلع يلبس الثياب العدنية الحياد ويكره حلق الشارب ويعيبه وله من الكتب :

١ كتاب الموطأ : اساس المذهب المالكي وهو كالحديث رواه عنه ابو محمد الليثي
٢ رسالة في الوعظ : بشأن الرشيد ويحي البرمكي
٣ كتاب المسائل : عن لسان تلميذه ابن عبد الحكم

الامام الشافعي

توفي سنة ٢٠٤ هـ

هو الامام ابو عبد الله محمد بن ادريس الشافعي وينتهي نسبه الى هاشم بن عبد المطلب بن عبد مناف القرشي . ولد بغزة من بلاد الشام سنة ١٥٠ هـ وتوفي في مصر سنة ٢٠٤ هـ في زمن المأمون بن الرشيد . ودفن في القرافة بمصر ومقامه مشهور وبجواره الآن مدفن العائلة الملكية . قدم بغداد سنة ١٨٥ وبعد سنتين خرج الى مكة ثم عاد الى بغداد بعد سنة فأقام بها شهراً . ثم قدم مصر فاقام فيها وما زال بها الى ان توفاه الله . وكان الامام الشافعي كثير المناقب جم المفاخر حاز من العلوم الاسلامية اقصاها وادناها من العلم في الكتاب والسنة وكلام الصحابة وآثارهم واختلاف اقاويل العلماء وغير ذلك من معرفة كلام العرب واللغة والشعر حتى أقر له بالسبق الاصمعي الراوي الشهير واحمد بن حنبل الامام . وقال ابو عبيد « ما رأيت رجلا قط أكمل من الشافعي » وسأل عبد الله بن احمد بن حنبل والده عنه فقال « يابني كان الشافعي كالشمس للدنيا والعافية للبدن » وهو اول من تكلم باصول الفقه وهو الذي استنبطه . وقد ذكر له الفهرست نيفاً ومئة مؤلف لم يصل الينا منها الا :

١ كتاب الام : رواه عنه الربيع بن سليمان فانه يبدأ هكذا « اخبرنا ابو علي الحسين بن حبيب بن عبد الملك في دمشق سنة ٣٣٧ قال اخبرنا الربيع بن سليمان قال اخبرنا محمد بن ادريس الخ » وهو كتاب ضخم
٢ السنن المأثورة
٣ اصول الفقه
٤ مسند الشافعي بالحديث

Digitized by Birzeit University Library

الامام احمد بن حنبل

توفي سنة ٢٤١ هـ

هو الامام ابو عبد الله احمد بن حنبل يتصل نسبه بشيبان من ربيعة . ولد في بغداد سنة ١٦٤ هـ وكان من اصحاب الامام الشافعي وشهد الشافعي عند خروجه الى مصر بقوله « خرجت من بغداد وما خلفت بها اتقى ولا افقه من ابن حنبل » وظهر في ايامه القائلون بخلق القرآن فدعي للقول بقولهم فلم يجب فضرب وحبس وهو مصر على الامتناع . وكان حسن الوجه ربعة يخضب بالحناء خضباً ليس بالقاني . في لحيته شعيرات سود ودفن في بغداد بمقبرة باب حرب . وهو صاحب المذهب الحنبلي واهم مؤلفاته الباقية :

١ المسند : في الحديث رواه ابنه عبد الله وهو مرتب حسب الرواة فيقسم الى مساند اولها مسند ابي بكر فعمر فعثمان الى غيرهم من الصحابة

٢ كتاب السنة موصل المعتقد الى الجنة

٣ كتاب الزهد

الحديث

لم ينضج علم الحديث ويتم تكونه الا في آخر هذا العصر وفي العصر العباسي الثاني وكان في العصر الاول مختلطاً بالفقه وقد اشتغل الأئمة الاربعة المتقدم ذكرهم في الحديث في جملة اشتغالهم بالفقه واختلفوا في عدد الصحيح منه . فالامام ابو حنيفة زعيم اصحاب الرأي لم يصح عنده الا ١٧ حديثاً ومالك صح عنده ٣٠٠ حديث وروي ابن حنبل ٥٠٠ ٠٠٠ حديث او اكثر وقد دونوا ذلك في كتبهم . فابو حنيفة الف كتاباً في الحديث خاصة . واما مالك بن انس فقد دون الاحاديث في الموطأ وقد تقدم ذكره وكذلك الشافعي قد ذكرنا له السنن . وكان الامام ابن حنبل يحفظ نحو مليون حديث لكنه دون منها في مسنده نحو نصفها

واشتغل في الحديث بهذا العصر جماعة كبيرة في انحاء المملكة الاسلامية اكثرهم في المدينة ومصر وبغداد والكوفة والبصرة . هاك اشهرهم حسب سنيّ الوفاة ومكانها :

Digitized by Birzeit University Library

ابن جريج من الموالي	١٤٩	بغداد	الواقد مولى	٢٠٧	بغداد
الاوزاعي عربي	١٥٧	بيروت	ابن نافع الصنعاني مولى	٢١١	اليمن
سفيان الثوري عربي	١٦١	البصرة	عبدالله بن عبد الحكم	٢١٤	مصر
زياد البكائي «	١٨٣	الكوفة	عبدالله بن مسلمة عربي	٢٢١	البصرة
ابن عياش «	١٩٣	الكوفة	كاتب الواقدي	٢٣٠	بغداد
سفيان بن عيينة مولى	١٩٨	مكة	يحيى بن معين الحافظ	٢٣٣	المدينة
السمان فارسي	٢٠٣	البصرة			

في العصر العباسي الثاني

قد رأيت أن الفقه توطدت قواعده في العصر الماضي والعلوم الدخيلة لا تزال في أول نقلها ولم تتمكن من نفوس الناس . أما في هذا العصر فكانت قد انتشرت الفلسفة والطبيعيات والمنطق فغيرت كثيراً من الآراء وتولدت مذاهب في الفقه لم تكن من قبل وتفرع مذهب الاعتزال ونشأ علم الكلام أو التوحيد وإليك تاريخ ذلك

علم الكلام أو التوحيد

هو حادث بعد الفقه وسبب وضعه أنه ورد في القرآن وصف الاله بالتنزيه المطلق الظاهر الدلالة من غير تأويل . وقد فسرها صاحب الشريعة الاسلامية والصحابة والتابعون على ظاهرها . وورد في القرآن أيضاً آيات أخرى توهم التشبيه مرة في الذات ومرة في الصفات ورأى الاولون ذلك الخلاف فغلب في معتقدهم تفصيل التنزيه لكثرة أدلته ووضوح دلالته وتابعهم الاكثرون . غير أن جماعة اتبعوا ما تشابه من الآيات وتوغلوا في التشبيه في الذات فاعتقدوا في الله صفات الآدميين كاليد والقدم عملاً بظواهر وردت في بعض الآيات فوقعوا في التجسم الصريح وخالفوا التنزيه المطلق . وأخذوا يكتبون ويقولون أقوالاً كثيرة مخالفة لرأي الجمهور . فنهض أهل السنة وهم التابعون لأقوال الصحابة وجاءوا بالادلة العقلية على هذه العقائد دفعاً لتلك البدع وهو علم الكلام أو التوحيد . وفي أثناء ذلك نقلت كتب اليونان الى العربية فأحبها المسلمون

Digitized by Birzeit University Library

وعكفوا على مطالعتها فانتشرت فلسفة اليونان في الاسلام وأقبلت المعتزلة والقرامطة والجهمية وغيرهم عليها وأكثروا من النظر فيها فتوسعوا فيما أرادوه منها من تقوية الحجة والجدال فيما كانوا فيه . فازداد كل منهم تمسكا بمذهبه وعظمت الفتنة بسبب ذلك وانتشرت تلك المذاهب بين المسلمين انتشاراً عظيما وهي الى ذلك العهد مذاهب القدرية والجهمية والمعتزلة والكرامية والخوارج والرافضة والقرامطة والباطنية

وما زالت الحال كذلك الى أن ظهر أبو الحسن علي بن اسماعيل الأشعري فسلك طريقاً وسطاً بين النفي الذي هو مذهب الاعتزال وبين الاثبات الذي هو مذهب أهل التجسيم فمال اليه جماعة وعولوا على رأيه لما فيه من التسوية بين سائر الآراء ووافقه جماعة كبيرة من نخبة علماء تلك الاعصر وهم الاشعرية مما يطول بنا الكلام فيه

علماء الكلام

١ أقدم من ألف في علم الكلام الامام أبو حنيفة فان كتابه الفقه الاكبر يعد من هذا القبيل وقد تقدم ذكره في كلامنا عن مؤلفاته في الفقه

٢ أبو حذيفة واصل بن عطاء الغزال المتوفى سنة ١٨١ هـ وكان من الأئمة البلغاء المتكلمين وكان يلثغ بالراء لكنه كان لبراعته واقتداره يخلص كلامه من الراء فلا يفطن لذلك أحد

٣ أبو الهذيل محمد بن الهذيل العلاف المتوفى سنة ٢٣٥ هـ وكان شيخ البصريين في الاعتزال وكان حسن الجدال قوي الحجة كثير الاستعمال للادلة . ومما يروى عنه من هذا القبيل أنه لقي صالح بن عبد القدوس وقد مات له ولد وهو شديد الجزع عليه فقال له أبو الهذيل « لا أعرف لجزعك عليه وجهاً إذا كان الانسان عندك كالزرع » قال صالح « يا أبا الهذيل انما أجزع عليه لأنه لم يقرأ كتاب الشكوك » فقال له « كتاب الشكوك ما هو يا صالح ؟ . » قال « هو كتاب قد وضعته من قرأه يشك فيما كان حتى يتوهم انه لم يكن ويشك فيما لم يكن حتى يتوهم انه قد كان » فقال أبو الهذيل « فشك أنت في موت ابنك واعمل على إنه لم يمت وان كان قد مات وشك أيضاً في قراءته كتاب الشكوك وان كان لم يقرأه »

٤ أبو علي محمد بن الوهاب الجبائي : توفى سنة ٣٠٣ هـ وكان إمام المتكلمين

Digitized by Birzeit University Library

في عصره أخذ علم الكلام عن أبي يوسف يعقوب بن عبد الله الشحام البصري رئيس المعتزلة بالبصرة وله مقالات في مذاهب العلماء

٥ أبو حسن الاشعري : توفي ببغداد سنة ٣٣٣ هـ سمع زكريا الساجي وأبا خليفة الجمحي وسهل بن نوح ومحمد بن يعقوب المقري وعبد الرحمن بن خلف الضبي المصري . وروى عنهم في تفسيره كثيراً وتلمذ لزوج أمه أبي علي محمد بن عبد الوهاب الجبائي واقتدى برأيه في الاعتزال عدة سنين حتى صار من أئمة المعتزلة . ثم رجع عن القول بخلق القرآن وغيره من آراء المعتزلة وصعد يوم الجمعة بجامع البصرة كرسياً ونادى بأعلى صوته « من عرفني فقد عرفني ومن لم يعرفني أعرّفه بنفسي أنا فلان بن فلان كنت أقول بخلق القرآن وأن الله لا يرى بالابصار وأن أفعال الشر أنا أفعلها وأنا تائب مقلع معتقد الرد على المعتزلة مبين لفضائحهم ومعايبهم » وأخذ من حينئذ في الرد عليهم وسلك بعض طريق أبي محمد عبد الله ابن محمد بن سعيد بن كلاب القطان وبنى على قواعده وصنف خمسة وخمسين تصنيفاً منها كتاب اللمع وكتاب الموجز وكتاب ايضاح البرهان وكتاب التبيين على أصول الدين وكتاب الشرح والتفصيل وكتاب الابانة وكتاب تفسير القرآن يقال انه في سبعين مجلداً وغيرها وأكثرها ضاع . وكانت غلته من ضيعة وقفها بلال بن أبي بردة على عقبه وكانت نفقته في السنة سبعة عشر درهماً . وكانت فيه دعابة ومزح كثير . قال مسعود بن شيبة في كتاب التعليم كان حنفي المذهب معتزلي الكلام لانه كان ربيب أبي علي الجبائي وهو الذي رباه وعلمه الكلام . وذكر الخطيب انه كان يجلس أيام الجمعات في حلقة أبي اسحاق المروزي الفقيه في جامع المنصور وقال أبو بكر الصيرفي « كان المعتزلة قد رفعوا رؤوسهم حتى أظهر الله تعالى الاشعري فحجزهم في اقماع السماسم »

العقيدة الاشعرية

وجملة عقيدته « ان الله تعالى عالم بعلم قادر بقدرة حي بحياة مريد بارادة متكلم بكلام سميع بسمع بصير وان صفاته أزلية قائمة بذاته تعالى لا يقال هي هو ولا هي غيره ولا لا هي هو ولا غيره . وعلمه واحد يتعلق بجميع المعلومات وقدرته واحدة تتعلق بجميع ما يقبل الاختصاص وكلامه واحد هو أمر ونهي وخبر واستخبار ووعد ووعيد . وهذه الوجوه راجعة الى اعتبارات في كلامه لا الى نفس الكلام والالفاظ المنزلة على لسان الملائكة الى الانبياء دلالات على

Digitized by Birzeit University Library

الكلام الازلي فالمدلول وهو القرآن المقروء قديم أزلي والدلالة وهي العبارات وهي القراءة مخلوقة محدثة »

وهناك طائفة من المتكلمين أغضينا عن ذكرهم على أن بعضهم سيأتي ذكره في الابواب الاخرى

الحديث

في هذا العصر نضج علم الحديث ووضعت فيه الكتب الستة المشهورة وهي عمدة المحدثين وأصحابها ثقة حتى الآن . وهاك ترجمة أشهرهم

البخاري

توفي سنة ٢٦٥ هـ

هو أبو عبد الله محمد بن أبي الحسن اسماعيل البخاري ولد في بخارا سنة ١٩٤ هـ وتوفي في سنة ٢٥٦ هـ كان مغرماً في طلب الحديث فرحل لسماعه الى كثير من الامصار والمدن وشهد له معاصروه بعلم الرواية والدراية وهو صاحب كتاب « جامع الصحيح » المشهور بصحيح البخاري أول الكتب الستة في الحديث وأفضلها على المذهب المختار وفي شهرته غنى عن وصفه

وللبخاري كتاب خلق أفعال العباد

في العصر العباسي الثالث

تفرعت العلوم الاسلامية في أوائل الاسلام الى القراءة والتفسير والحديث . ثم ظهر الفقه وأخذت هذه العلوم تنمو بنمو التمدن . وقد علمت مما تقدم ان الفقه نضج ورسخت قواعده في العصر العباسي الاول والحديث في العصر الثاني . ونشأت في أثناء ذلك فروع أخرى من علوم القرآن أو العلوم الاسلامية الدينية على أثر انتشار الفلسفة وغيرها من علوم الاقدمين والعلوم الدخيلة ونشأت فروع أخرى في الاعصر الآتية

ومن يتدبر اشتغال المسلمين في العلوم الاسلامية يعجب لما استخدموه فيها من اعمال الفكرة ولا سيما الفقه فانه من ثمار عقولهم واجتهادهم لا دخل فيه لامة أخرى اذ لا علاقة له بالعلوم القديمة . ومن ينظر في قضاياه وأحكامه يعلم ما اقتضاه ذلك

Digitized by Birzeit University Library

من دقة النظر وقوة العقل مما لم يسبق له مثيل . أما الفلسفة أو المنطق مما نقلوه عن اليونان فقد ساعد في انشاء بعض فروعه والتوسع في البعض لآخر كعلم الكلام فقد كان للفلسفة والمنطق تأثير كبير في نموه

علم الكلام

ونبغ في هذا العصر غير واحد من علماء الكلام لبعضهم مؤلفات في مواضيع أخرى جاء ذكرهم في أبوابها كالشريف المرتضى بين الادباء . والبعض الآخر لم يخلفوا ما يستحق الذكر . وانما نذكر منهم في هذا الباب أشهر أنصار الاشعري وهو :

أبو بكر الباقلاني

هو القاضي أبو بكر محمد بن الطيب بن محمد الباقلاني المتوفى سنة ٤٠٣ هـ صاحب « اعجاز القرآن » وهو مشهور بين طلاب الادب والبلاغة . ومدار البحث فيه على اثبات اعجاز القرآن وانه معجزة نبوة النبي . وفيه فصول في نفي الشعر من القرآن وكيفية الوقوف على عَجْز القرآن . وطائفة حسنة من خطب النبي وكتبه ومن كلام الراشدين وغيرهم من بلغاء الصحابة والتابعين وغير ذلك

التصوف

هو من العلوم التي نشأت ونضجت في هذا العصر وخلاصة تاريخه « انه من العلوم الشرعية الحادثة وأصله العكوف على العبادة والانقطاع الى الله تعالى والاعراض عن زخرف الدنيا وزينتها والزهد فيها من لذة ومال وجاه والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة »

وقد اختلف علماء الاسلام في أصل كلمة التصوف أو الصوفية فقال جماعة باشتقاقها من الصفاء أو الصفة وقال آخرون غير ذلك . ويرى ابن خلدون ان اشتقاقها من الصوف أقرب الى الصواب لاختصاص أصحابه بلبس الصوف . وعندنا انها مشتقة من لفظة يونانية الاصل معناها الحكمة . فيكون الصوفية قد لقبوا به نسبة الى الحكمة لانهم كانوا يبحثون في ما يقولونه أو يكتبونه بحثاً فلسفياً

ومدار طريقتهم كلها « محاسبة النفس على الافعال والتروك وآداب خاصة بهم واصطلاحات في ألفاظ تدور بينهم يدلون بها على ما يريدونه من أساليب المجاهدة

Digitized by Birzeit University Library

ومحاسبة النفس عليها والكلام في الاذواق والمواجد العارضة في طريقها وكيفية الترقي من ذوق الى ذوق وشرح الاصطلاحات التي تدور بينهم » فلما دوّنت العلوم في الاسلام كتب الصوفية في طريقتهم على ذلك المنهج فمنهم من كتب في الورع ومحاسبة النفس على الاقتداء في الاخذ والترك ومنهم أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري المتوفى سنة ٤٦٥ هـ وكان عالماً في الفقه والتفسير والحديث والاصول والادب والشعر والكتابة فضلاً عن التصوف وقد ألف فيه كتابه المعروف بالرسالة القشيرية . وأبو حفص عمر بن محمد الملقب شهاب الدين السهروردي المتوفى سنة ٦٣٢ هـ ببغداد ألف في ذلك كتاب عوارف المعارف . وقد جمع حجة الاسلام الغزالي بين الامرين في كتاب الاحياء فدوّن فيه أحكام الورع والاقتداء ثم بين آداب القوم وسننهم وشرح اصطلاحاتهم في عباراتهم وصار علم التصوف علماً مدوّناً بعد أن كانت الطريقة عبادة فقط

الفقه

لم يزد الفقهاء بعد رسوخ قواعد الفقه على أيدي الأئمة الاربعة شيئاً غير التلخيص والشرح أو التعليق . وقد ظهر في أثناء هذا العصر جماعة من كبار الفقهاء ولكن أكثرهم اشتغلوا بعلوم أخرى . فدخلت ترجماتهم في أبواب تلك العلوم . ولو أردنا ترجمة كل من ظهر من الفقهاء في هذا العصر لخرجنا عن الاختصار الذي أردناه في هذا الباب . وانما نترجم الفقهاء الذين خلفوا كتباً تدخل في بعض الابواب الاخرى من آداب اللغة جرياً على الغرض المراد من هذا الكتاب . وأشهرهم في هذا العصر :

أبو الحسن الماوردي

توفي سنة ٤٥٠ هـ

هو أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي الفقيه الشافعي تعلم في البصرة وبغداد وتقدم في مناصب القضاء . وكان مفكراً حسن التأليف كما يظهر من كتبه التي وصلت الينا وهاك أهمها :

١ كتاب الاحكام السلطانية : يبحث في الامامة وشروطها والخلافة وأحكامها والوزارة وأقسامها وشروطها وامارة الجهاد وأقسامها والقضاء والشروط التي

Digitized by Birzeit University Library

يصح التقليد بها والنقابة حسب الانساب . وفصول في الولاية على الحج وولاية الصدقات وأحكام الفيء والغنيمة وأقسامها والجزية والخراج حسب الارضين واحكام الاقطاع وترتيب الدواوين وأنواعها . وما اختص ببيت المال وأحكام الحسبة وغير ذلك من القواعد الشرعية مما يتعب الباحث عنه في غير هذا الكتاب

٢ أدب الدنيا والدين : يبحث في الاخلاق والآداب ويشتمل على فصول في فضل العقل وذم الهوى والحث على العلم وأخلاق العلماء والآداب الدينية والدنيوية ويدخل تحتها ما يصلح به حال الانسان من المؤاخاة بالمودة وأدب النفس وما يتعلق به كحسن الخلق والحياء والحلم والصدق وأضدادها وآداب المواضعة . وفيه أبحاث في الكلام والصمت والصبر والجزع والمشورة وكتمان السر والمزاح والضحك . وهو من كتب الادب المعوَّل عليها في كثير من المدارس . وله عدة كتب أخرى

الفرائض

وتفرع من الفقه علم الفرائض وهو معرفة حقوق الورثة وأشكالها ومختلفاتها وضروب مواقعها وما يحتاج اليه ذلك من الحساب . فأفرد له العلماء باباً مخصوصاً وكتب فيه الفقهاء منهم كأبي حنيفة وغيره . ولكن بعضهم انقطع له بنوع خاص ومن هؤلاء في أوائل الدولة العباسية ابن شبرمة وابن أبي ليلى ويحيى بن أكثم ثم أبو المعالي ثم ألف فيه كثيرون يضيق المقام عن ذكرهم

التفسير والحديث

أما التفسير فما زال للعقل مجالٌ فيه فظهر جماعة كبيرة من المفسرين بعد الطبري في العصر الماضي . ومنهم في هذا العصر النقاش الموصلي المتوفى سنة ٣٥١ صاحب كتاب « شفاء الصدور » والحوفي المصري المتوفى سنة ٤٣٠ هـ صاحب كتاب « البرهان في تفسير القرآن » . وابن أبي طالب القيسي المتوفى سنة ٤٣٧ في قرطبة وله مؤلفات كثيرة ضاعت وغيرهم

في العصر العباسي الرابع

أخذنا على نفسنا ان نجمل هنا التوسع في علوم الادب والتاريخ والجغرافيا واللغة وغيرها مما تتداوله الايدي من المواضيع المختلفة . ونختصر في كتب الفقه

Digitized by Birzeit University Library

والحديث وغيرها من العلوم الدينية أو الشرعية لطولها وكثرتها فان الافاضة فيها تستغرق كتاباً مستقلا . وان نختصر أيضاً في العلوم الطبيعية القديمة لذهاب دولتها . لكن علماء الفقه والحديث وغيرهما من علوم الدين بينهم فطاحل كتبوا في أكثر المواضيع الهامة أو كان لهم شأن خاص في العلوم الاسلامية أو تأثير ممتاز في الآداب على الاجمال . فلا يصح اغفالهم . وهاك مشاهير الأئمة في الفقه والتصوف والشرع وغيرها في هذا العصر

ابن حزم الظاهري

توفي سنة ٤٥٦ هـ

هو أبو محمد علي بن أحمد يتصل نسبه بيزيد الفارسي من موالي بني أمية ويعرف بابن حزم . نشأ في قرطبة بالأندلس وكان من علمائها في الحديث والفقه يستنبط الاحكام من الكتاب والسنة وكان في أول أمره شافعياً ثم مال الى مذهب أهل الظاهر . وكان مشاركا في علوم كثيرة وبلغ من تفكيره انه رغب عن زخارف الدنيا وبعد ان أدرك الوزارة تخلى عنها واشتغل بالتأليف في الفقه والمنطق والتاريخ واللغة والادب . وكان له علم في كل فن حتى قيل ان مؤلفاته تشتمل على ٤٠٠ مجلد في نحو ٨٠٠٠٠٠ ورقة لايزال كثير منها باقياً أهمها :

كتاب الفصل في الملل والاهواء والنحل : هو عبارة عن تاريخ انتقادي للمذاهب البشرية . وفيه أبحاث فلسفية في أصل العالم على رأي الطبيعيين ومذاهب النصارى المعروفة في أيامه واليهود والصابئة والسامريين . ونظر في التوراة والانجيل وتحريفهما وأفاض في ذلك وفي الحواريين . وذكر فرق الاسلام ومذاهبها وآراءها وبحث في القرآن واعجازه وفي القدر والتعديل وفصول في الانبياء من آدم وفي القيامة . واختص شيعة الخوارج والمعتزلة والمرجئة بفصول ضافية . وبحث في أشياء أخرى

أبو حامد الغزالي

توفي سنة ٥٠٥ هـ

هو محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الغزالي . فقيه شافعي وُلد في طوس ونشأ فيها وتكاثر الفلاسفة في عصره وناهضوا رجال الدين فتصدى أبو حامد لردهم . وكان

Digitized by Birzeit University Library

بصيراً عاقلاً مع ميل الى التدين فاطلع على أقوال الفلاسفة وأمعن في ما يخالف ظاهره منها قواعد الدين فوقع في حيرة وتردد وعمد الى التحقيق بنفسه . قضى في ذلك أعواماً وهو يطالع ويفكر ويلقي دروسه في المدرسة النظامية . ثم انقطع عن التدريس سنة ٤٨٨ وسلك طريق الزهد . وقضى عشرة أعوام في الاسفار بين الحجاز والشام وبيت المقدس على طريقة الصوفية . وهو يطالع ويبحث ويناظر فتبين له ان الفلاسفة على ضلال وثبت عنده الدفاع عن الدين فحمل عليهم حملة صادقة بالمناظرة والتأليف . وكان يجادلهم ببراهينهم فسمي لذلك حجة الاسلام . وخلف ما يزيد على سبعين مؤلفاً أكثرها في الجدل والمناظرة يهمنا منها ما يأتي :

١ كتاب البسيط : في الفروع على نهاية المطلب لامام الحرمين

٢ الوسيط المحيط بأقطار البسيط : في الفقه الشافعي

٣ الوجيز : في الفروع

٤ تهافت الفلاسفة : رد فيه على الفلاسفة الطبيعيين

٥ مقاصد الفلاسفة : عرّف فيه مذاهبهم ومقاصدهم

٦ كتاب المنقذ من الضلال : ألفه في نيسابور . وهو مختصر في غاية العلوم وأسرارها والمذاهب وأغوارها

٧ احياء علوم الدين : في المواعظ

٨ فضائح الباطنية : يشتمل على تعاليم القرامطة والاسماعيلية وغيرهم من الطوائف الباطنية والبدع في الاسلام

الشهرستاني

توفي سنة ٥٤٨ هـ

هو أبو الفتح محمد بن أبي القاسم عبد الكريم بن أبي بكر أحمد الشهرستاني المتكلم على مذهب الاشعري . كان إماماً فقيهاً متكلماً له مؤلفات عديدة مفيدة وصلنا منها :

١ كتاب الملل والنحل : يبحث في المذاهب الدينية والفلسفية وتاريخها وخلاصة كل منها . ويدخل في ذلك الشيع الاسلامية وغير الاسلامية وهو جزيل الفائدة

Digitized by Birzeit University Library

٢ كتاب تاريخ الحكماء
٣ نهاية الاقدام في علم الكلام
٤ مصارعات الفلاسفة

ابن العربي

توفي سنة ٦٣٨ هـ

هو الشيخ محي الدين ابو بكر محمد بن علي الطائي الحاتمي الأندلسي صاحب التصانيف المشهورة في التصوف . وُلد بمرسية سنة ٥٦٠ هـ ونزح في طلب العلم الى بغداد ومكة ودمشق وبلاد الروم وكتب كثيراً . وانما ينتقدون عليه شطحه في الكلام وكثرة ألغازه حتى قال بعض مترجميه « كان محي الدين رجلا صالحاً عظيماً والذي نفهمه من كلامه حسن والمشكل علينا نكل أمره الى الله تعالى ولا كلفنا اتباعه ولا العمل بما قاله » بلغت مؤلفاته نحو ٢٠٠ كتاب اكثرها في التصوف وبعضها في الجفر وأسرار الحروف فنكتفي باشهرها وأهمها للقاريء :

١ الفتوحات المكية . في معرفة الاسرار الملكية : في عدة مجلدات
٢ فصوص الحكم في خصوص الكلم
٣ مفاتيح الغيب
٤ تاج التراجم : ورقات قليلة في التصوف
٥ الاصطلاحات الصوفية
٦ محاضرة الابرار ومسامرة الاخيار : هو خزانة علم وأدب
٧ ديوان

في العصر المغولي والعثماني

تفرعت هذه العلوم في هذين العصرين وتعدّدت وتكاثر علماؤها وأصبح من المتعذر أن تتفرغ في هذا المختصر لترجمة العلماء الذين اشتهروا في الحديث والفقه والتصوف والتفسير ولذلك نكتفي بما مرّ معنا من تراجم كبار الأئمة ونرجع طالب التوسع الى المطول فانه يجد هناك طائفة كبيرة من الذين نبغوا في العلوم الكلامية وأصبحوا المعوّل فيها . وقد ذكرنا فيه اسماء الكتب المشهورة في هذه العلوم حتى اذا أراد احد مراجعتها عرف كيف يهتدي اليها وكفاه ذلك مؤونة البحث والتنقيب عنها

Digitized by Birzeit University Library

الموسوعات والمجاميع

في العصر العباسي الرابع

بدأت الموسوعات بالظهور في العصر العباسي الثالث . ولكنها لم تنضج إلا بعد ذلك العصر . ويدخل في هذا الباب العلماء الذين لم يتخصصوا لفن من الفنون بل كتبوا في اكثر المواضيع وهم كثيرون . ومنهم في العصر العباسي الرابع طائفة حسنة اشهرهم اثنان : ابن الجوزي وفخر الدين الرازي

ابو الفرج بن الجوزي

توفي سنة ٥٩٧ هـ

هو ابو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد البكري الحنبلي الملقب جمال الدين جد سبط ابن الجوزي لامه . ويتصل نسبه بابي بكر الصديق . كان إمام وقته في الحديث والوعظ لانه ألف في فنون شتى . وُلد في واسط وتلقى العلم عن ٨٧ شيخاً . وكان إمام عصره قضى نحو خمسين سنة في الوعظ ومجلسه يغصُّ بالسامعين المستفيدين وهم يعدون بالألوف وبينهم الملوك والوزراء . وخلف مؤلفات يزيد عددها على مائة كتاب في القرآن والفقه والحديث والطب والتاريخ والسير والتراجم والجغرافية والوعظ والتصوف

فخر الدين الرازي

توفي سنة ٦٠٦ هـ

هو ابو عبد الله محمد بن عمر بن الحسين ويعرف بابن الخطيب الفقيه الشافعي . كان فريد عصره في علم الكلام والمعقولات وعلم الأوائل وغيرها وقد ألف في فنون عديدة وفي جملتها التفسير والفقه والكلام والطب واللغة . وكان واعظاً بليغاً يعظ في العربية والفارسية يحضر مجلسه في هرات أرباب المذاهب والمقالات ويسألونه وهو يجيب كل سائل وله طريقة في تآليفه لم يسبقه اليها احد وتوفي في هرات ودفن فيها

Digitized by Birzeit University Library

في العصر المغولي

تكاثرت الموسوعات والكتب الجامعة للمواضيع المتعددة في هذا العصر حتى يصح ان يسمى عصر الموسوعات والمجاميع . وأصحابها اكثرهم في مصر والشام مثل سائر العلماء والأدباء . ويدخل فيهم الأدباء الذين اشتغلوا في علوم كثيرة ولم يختصوا بفن واحد ـ هاك اشهرهم حسب سني الوفاة :

اولا ـ اصحاب الموسوعات في مصر والشام

النويري

توفي سنة ٧٣٢ هـ

هو ابو العباس شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب بن احمد البكري التيمي الكندي الشافعي أحد رجال الملك الناصر محمد بن قلاوون . تولى نظارة الجيش في طرابلس . واشتهر بموسوعة طار ذكرها في الآفاق نعني :

نهاية الأرب في فنون الادب : في نيف وثلاثين مجلداً قسمها إلى خمسة فنون وكل فن إلى خمسة ابواب . فالفن الاول في السماء والآثار العلوية والعوالم السفلية . ويدخل في ذلك السماء واجرامها والملائكة والسحاب وأسباب المطر والثلج والصواعق والنيازك والليالي والايام والفصول والمواسم والاعياد . وفي الارض والجبال والبحار والانهار والاقاليم وطبائعها وخصائصها واختلاف سكانها والمباني والمعاقل ونحوها . وهو يقابل ما يعرف اليوم بعلم الفلك والظواهر الجوية والجغرافية الطبيعية والتاريخ الطبيعي . والفن الثاني في الانسان وطبائعه وأعضائه وعواطفه وما نقل عنه من الامثال والعشق والانساب وأحوال العرب وعاداتهم الجاهلية والمدح والذم والمجون والفكاهات ونحوها . والملك وما يشترط فيه او يحتاج اليه وسياسة الرعية وذكر الوزراء والقواد والولاة وسائر المناصب . وهو يشبه ما يعرف الآن بعلم الانسان والطب وآداب السياسة والاجتماع . والفن الثالث في الحيوانات الأخرى وطبائعها من الأسود والوحوش والظباء والخيل والبغال والحمر والأبل والغنم والبقر وذوات السموم والطير والاسماك والصيد وآلاته وهو علم الحيوان بفروعه . والفن الرابع في النبات على اختلاف أشكاله وأقداره وأنواع الطيب وغيرها وهو علم النبات بفروعه . والفن الخامس في

Digitized by Birzeit University Library

التاريخ وهو أكبرها كلها يبدأ بالخلق فقصة ابراهيم ونمرود ولوط واسحق ويعقوب وموسى وفرعون ويوسف وسائر الانبياء الى عرب الجاهلية . فالملة الاسلامية من ظهور الاسلام الى الخلفاء الراشدين فالامويين فالعباسيين والعلويين ودول ملوك الاسلام . وهذا باب كبير يقسم الى ١٢ قسما مرتبة على الدول والامم وكل دول مرتبة حوادثها على السنين كما في ابن الاثير الى سنة ٧٣١

ابن فضل الله العمري

توفي سنة ٧٤٨ هـ

هو أبو العباس شهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله بن يحيى بن دعجان ابن خليفة . ويتصل نسبه بعمر بن الخطاب ولذلك عرف بالعمري . وُلد في دمشق سنة ٧٠٠ وتعلم فيها وفي القاهرة والاسكندرية والحجاز . وتولى القضاء وغيره في القاهرة ثم رحل الى بلده وتوفي بدمشق سنة ٧٤٨ وكان إماماً في الادب والتاريخ والانشاء وله مشاركة بسائر العلوم على اختلاف مواضيعها . واشتهر بقوة الحافظة وذكاء القريحة وسلامة الذوق وبلاغة الاسلوب . وكانت له معرفة خصوصية بتواريخ المغول وملوك الهند والاتراك والممالك والمسالك وخطوط الاقاليم وطبائعها وعلم الهيئة . ومع انه لم يعمر طويلا فقد ألف كتباً هامة في مواضيع شتى أهمها :

مسالك الابصار في ممالك الامصار : هو موسوعة في بضعة وعشرين مجلداً من الكتب الهامة في الادب والتاريخ والجغرافية والتاريخ الطبيعي وغيرها . وهو من حيث مواضيعه يشبه نهاية الارب مع بعض التعديل . يقسم الى قسمين الاول في الارض أي الجغرافية وما يلحقها . والثاني في سكان الارض ويقسم هذا الى ما يتعلق بالحيوان الناطق وغير الناطق . فبحث في الاجزاء الاولى منه في التاريخ الطبيعي والجغرافية وما يتبع ذلك من مسالك الممالك والرياح وعجائب البر والبحر ومواقع مشاهير البلاد وخصوصاً مملكة مصر والشام والحجاز وترتيبها ونظامها . واختص منازل العرب بالكلام كما كانت في زمانه . وأفاض في وصف سكان الارض وقسمهم الى سكان الغرب وسكان الشرق وترجم رجالهم في شكل التفاضل بين البلدين فاتى على تراجم الاطباء والعلماء والفقهاء وسائر رجال العلم والسياسة والادارة فيهما وهو باب كبير . ثم نظر في غير الناطق والجماد وبحث في

Digitized by Birzeit University Library

العلوم الطبيعية كالمعادن والحيوان والنبات . وتوسع في وصف الطيور وسائر الحيوان . وقسم التاريخ حسب الامم والبلدان على اختلاف الازمان والاصقاع الى سنة ٧٤٤ ودقق في تواريخ المغول والهنود والاتراك والاكراد فضلاً عن الامم الاخرى

جلال الدين السيوطي

توفي سنة ٩١١ هـ

هو آخر من ظهر في هذا العصر بمصر من كبار العلماء . لكنه أعظمهم همة وأوسعهم علماً واكثرهم آثاراً . وهو جلال الدين عبد الرحمن بن الكمال بن أبي بدر بن محمد ويتصل نسبه بالشيخ همام الدين الخضيري السيوطي . وفي سلسلة نسبه طائفة من الوجهاء والرؤساء وأهل الثروة والفقهاء . ويقول ان جده الاعلى كان اعجمياً لعله ينسب الى الخضيرية محلة في بغداد . وُلد جلال الدين المذكور سنة ٨٤٩ وقد نشأ يتيماً وكان ذكيا قوي الحافظة فحفظ القرآن وهو في الثامنة من عمره ثم تفقه بعلوم عصره وتوسع فيها . وقد ترجم نفسه في كتابه « حسن المحاضرة » وذكر أسماء شيوخه في كل فن أو علم فبلغ عددهم ١٥٠ شيخاً . شرع في التأليف سنة ٨٦٦ وهو في السابعة عشرة من عمره . وما زال مثابراً على ذلك الى وفاته سنة ٩١١ هـ وقد رحل في طلب العلم وغيره الى الشام والحجاز واليمن والهند والمغرب والتكرور وتولى الافتاء سنة ٨٧١ وأملى الحديث سنة ٨٧٢ وقد تبحر بالدرجة الاولى في سبعة علوم : التفسير والحديث والفقه والنحو والمعاني والبيان والبديع على طريقة العرب . ويأتي بعد هذه في الدرجة الثانية : أصول الفقه والجدل والتصريف والانشاء والترسل والفرائض والقراءات والطب والحساب . وكان الحساب اعسر العلوم عليه وابعده عن ذهنه . وطلب المنطق ثم تركه لما سمع الافتاء بتحريمه . فضلا عن توسعه بالتاريخ والادب واللغة

بلغ عدد مؤلفاته أكثر من ٣٠٠ كتاب ورسالة ذكرها في ترجمته فاستغرق ذكرها سبع صفحات . منها ٣٣ مؤلفاً في التفسير ومتعلقاته و٩٥ في الحديث و٢١ في اللغة و٤٣ مؤلفاً في الاجزاء المفردة و٣٥ في العلوم العربية و٢١ في الاصول والبيان والتصوف و٥٠ كتاباً في التاريخ والادب وغير ذلك . ولا يزال أكثر مؤلفاته باقياً

Digitized by Birzeit University Library

النحو واللغة

البصريون والكوفيون

النحو باعتبار ما تقدم فرع من الادب لكنه ولد قبله لاحتياج المسلمين الى ضبط القراءة فوضعه أبو الاسود الدؤلي في العصر الاموي وقد نضج وصار علماً في أيام العباسيين على أيدى أدباء البصرة والكوفة . وأهل البصرة أسبق الى ذلك وهم الذين ضبطوا النحو وألفوا فيه . ومنهم أبو الاسود واضعه وابن أبي اسحق الحضرمي أول من علله وعيسى بن عمر الثقفي أول من ألف فيه وهارون بن موسى أول من ضبطه وسيبويه أول من أجاد في تأليفه . ثم قلدهم الكوفيون وخالفوهم ببعض قوانينه وقامت المناظرة بين البلدين وصار لكل منهم مذهب في النحو كما هو مشهور . وأهل البصرة أرسخ قدماً وأوسع علماً وأولى بالثقة . ولكن السياسة اقتضت ظهور الكوفيين بعد قيام الدولة العباسية فقدمهم خلفاؤها لانهم كانوا من أنصارهم . فكانوا يقربونهم دون نحوي البصرة ويختارون منهم أساتذة لاولادهم . فالكسائي والفراء والمفضل الضبي والشرقي بن القطامي كلهم من أهل الكوفة وقد علموا أبناء الخلفاء ولولا الغرض السياسي لم يكن لهم ذكر

فالبصريون أصحاب الفضل في وضع النحو وترقيته وتنسيقه بدأ بذلك أبو الاسود فوضع بعض قواعده وأخذ يلقيها ويعلمها لمن شاء من الادباء أو القراء . فكان أبرع تلامذته عنبسة بن معدان المهري فتكاثف الناس يطلبون النحو على يده فتفقه عليه جماعة كان أبرعهم ميمون الاقرن فجعل الناس يأخذون النحو عنه تلقيناً بلا تعليل ولا ضبط . ويقال أن أول من علله أي ذكر أسباب اعرابه عبد الله بن أبي اسحق الحضرمي المتوفى سنة ١١٧ هـ والغالب في اعتقادنا أن تعليل الاعراب لم ينضج الا بعد نقل كتب الفلسفة اليونانية الى العربية

أما ضبط قواعده فأول من أقدم عليه هرون بن موسى وهو يهودي من أهل البصرة أسلم واشتغل بالادب وضبط النحو لكنه لم يؤلف فيه . وأول من ألف فيه عيسى بن عمر الثقفي المتوفي سنة ١٤٩ هـ وكان فصيحاً يتقعر في كلامه

Digitized by Birzeit University Library

فيقال انه ألف كتابين أحدهما الجامع والآخر الاكمال ذكرهما الخليل في شعره ولم يرهما أحد

وقد عانى النحو وقواعده كل من ظهر في البصرة من الادباء في ذلك العصر لانه من علم الادب الا أن بعضهم كان يميل الى النحو أكثر من سواه وربما دخل في جملة ما يكتبه في الادب أو اللغة كما فعل الخليل بن أحمد واضع علم العروض فقد أتى على أشياء من قبيل النحو في كتاب العين . وهكذا يقال في أمثاله الذين اشتغلوا بفنون الادب كأبي عمرو بن العلاء . ومنهم من اختص بالنحو ونصب نفسه للافادة وان لم يؤلف فيه كيونس بن حبيب المتوفى سنة ١٨٣ وكان معاصراً لهؤلاء جميعاً وأخذ عن أبي عمرو بن العلاء وتمكن من النحو حتى صار له فيه مذاهب وأقيسة تفرد بها . وعقد لنفسه حلقة في البصرة يلقي فيها هذا العلم . وكان يقصده طلبة العربية وفصحاء الاعراب فكان يعلم النحو واللغة وهما لم يفترقا بعد . ولم يستقل النحو بنفسه استقلالاً تاماً حتى ألف فيه سيبويه كتابه المشهور

علم اللغة

نريد بعلم اللغة الاشتغال بألفاظ اللغة من حيث معانيها وأصولها واشتقاقها وهو ينتهي بتأليف المعاجم اللغوية ولم يتم نضجها الا في العصر العباسي الثالث . لكن السبيل تمهدت لها في هذا العصر وما يليه بما ألفه الادباء من الكتب في ألفاظ المواضيع الخاصة . وقد جاء ذكر بعضها في مؤلفات الاصمعي وغيرها من كتب الادب ككتاب الخيل وأسماء الوحوش وكتب الشاء وخلق الانسان . وقد يتبادر الى الاذهان من قراءة أسمائها انها كتب في علم الحيوان أو التشريح ولكنها كتب لغوية يحوي كل منها أسماء الحيوانات وأعضائها ومن الانسان أسماء أعضائه وأحواله . وكانت للعرب همة عالية في استقصاء ذلك في صدر دولتهم يتبارون في التنقيب عنه من أماكنه إما بالسفر الى البادية أو بالسؤال ممن يفد على البصرة والكوفة من فصحاء العرب

وكان الامويون يستحثون الادباء على ذلك بمناقشات يثيرونها بين أيديهم في هذه المواضيع كما فعل عبد الملك في مجلس من مجالسه ضم جماعة من خواصه ومسامريه فقال « أيكم يأتيني بحروف المعجم في بدنه وله عليّ ما يتمناه ؟ » فقام

Digitized by Birzeit University Library

اليه سويد بن غفلة فقال « انا لها يا امير المؤمنين » فقال « قل ما عندك » قال « انف . بطن . ترقوة . ثغر . جمجمة . حلق . خد دماغ . ذكر . رقبة . زند . ساق . شفة . صدر . ضلع . طحال . ظهر . عين . غيبة . فم . قفا . كف . لسان . منخر . نغنغ . هامة . وجه . يد . فهذه آخر حروف المعجم والسلام على امير المؤمنين »

فقام بعض اصحاب عبد الملك وقال « يا امير المؤمنين انا اقولها في جسد الانسان مرتين » فضحك عبد الملك وقال لسويد « اما سمعت ما قال » قال « نعم انا اقولها ثلاثاً » فقال له « لك ما تتمنى » فقال « انف . اسنان . اذن . بطن . بصر . بز . ترقوة . تمرة . تينة . ثغر . ثنايا . ثدي . جمجمة . جنب . جبهة . حلق . حنك . حاجب . خد . خصر . خاصرة . دبر . دماغ . دردر . ذكر . ذقن . ذراع . رقبة . رأس . ركبة . زند . زردمة . زغب . ساق . سرة . سبابة . شفة . شعر . شارب . صدر . صدغ . صلعة . ضلع . ضفيرة . ضرس . طحال . طرة . طرف . ظهر . ظفر . ظلم . عين . عنق . عاتق . غيبة . غلصمة . غنة . فم . فك . فؤاد . قلب . قدم . قفا . كف . كتف . كعب . لسان . لحية . لوح . مرفق . منكب . منخر . نغنوغ . ناب . نن . هامة . هيف . هيئة . وجه . وجنة . ورك . يمين . يسار . يا فوخ » ثم نهض مسرعاً وقبل الارض بين يدي عبد الملك . فقال « والله ما نزيد عليها اعطوه ما تمنى » ثم اجازه وانعم عليه وبالغ في الاحسان اليه

أوليات كتب اللغة

فهذا وامثاله بعث الناس على العناية بحفظ ألفاظ اللغة وحمل آخرين على التأليف فيها بشكل مجاميع كل مجموع في موضوع . فكتاب النخل والكرم مثلا لا يبحث في طبائع النخل والكرم ومعالجتهما او زراعتهما وانما هو يبحث في اسماء انواعهما واغصانهما وما يتعلق بهما من اسم او فعل . وهاك قطعة من اول هذا الكتاب على سبيل المثال :

« من صغار النخل الجثيث وهو اول ما يطلع من أمه وهو الودي والهراء والفسيل واذا كانت الفسيلة في الجذع ولم تكن مستأرضة فهو من خسيس النخل والعرب تسميها الراكب . فاذا قلعت الودية من أمها بكربها قيل ودية منعلة . فاذا غرسها حفر لها بئراً فغرسها ثم كبس حولها بترنوق المسيل والدمن فتلك البئر هي الفقير يقال : فقرنا للودية تفقيراً . والاشأ من صغار النخل

Digitized by Birzeit University Library

« ومن نعوت سعفها وكونها وقلبها يقال للفسيلة اذا أخرجت قلبها قد انسغت . ويقال للسعفات اللواتي يلين القلبة « العواهن » في لغة اهل الحجاز . اما أهل نجد فيسمونها « الخوافي » . واصول السعف الغلاظ الكرانيف الواحدة كرنافة . والعريضة التي تيبس فتصير مثل الكتف هي الكربة وشحمة النخلة هي الجمار فاذا صار للفسيلة جذع قيل قد قعدت وفي أرض بني فلان من القاعد كذا وكذا . والسعف هو الجريد عند اهل الحجاز واحدته جريدة وهو الخرص وجمعه خرصان والخلب الليف وحدته خلبة . . . »

وقس على ذلك كتب خلق الانسان والابل وغيرها . فكل منها يشتمل على أسماء وأفعال تجمعها صفة مشتركة بينها في المعنى فهي من قبيل المعاجم المعنوية التي تجمع مفردات اللغة فيها حسب معانيها تمييزاً لها عن المعجمات اللفظية التي تجتمع بها الالفاظ بحسب هجائها على ترتيب الابجدية . وأشهر المعجمات المعنوية فقه اللغة للثعالبي والمخصص لابن سيدة وهي أتم مما فعله الاصمعي وأترابه ولكنها تشبهها من حيث المراد بها . وعلى كتب الخيل والشاء والابل والشجر والكرم . وخلق الانسان وأشباهها من كتب النوادر والامثال والاضداد واللغات والفروق وغريب القرآن والحديث وكتب المياه والجبال ونحوها ـ عوّل واضعو المعجمات في ضبط الالفاظ ومعانيها فضلا عن تحريّهم المفردات عن فصحاء الاعراب

نخبة من اشهر النحاة واللغويين

الخليل بن احمد

توفي سنة ١٨٠ هـ

هو ابو عبد الرحمن الخليل بن احمد البصري الفراهيدي الازدي سيد اهل الادب في تصحيح القياس واستخراج مسائل النحو وتعليله . وكان من تلامذة ابي عمرو بن العلاء . وعنه اخذ سيبويه وعامة الحكاية في كتاب سيبويه عن الخليل وكلما قال سيبويه « سألته » او « قال » من غير ان يذكر قائله فهو يعني الخليل . وأخذ عنه ايضاً النضر بن شميل ومؤرج السدوسي وعلي بن نصر وغيرهم

وقد علمت انه أول من ضبط اللغة وهو ايضاً اول من استخرج علم العروض الى الوجود وحصر اقسامه في خمس دوائر يستخرج منها ١٥ بحراً . ثم زاد فيه

Digitized by Birzeit University Library

الاخفش بحراً سماه الخبب . وقد ضبط أوزان الشعر ووزنها على المقاطع والحركات . واستغرق في درس ذلك حتى كان يقضي الساعات في حجرته وهو يوقع أصابعه ويحركها ـ رووا ان ابنه دخل عليه مرة وهو في هذه الحال فظنه جن فقال له الخليل :

لو كنت تعلم ما أقول عذرتني أو كنت أجهل ما تقول عذلتكا
لكن جهلت مقالتي فعذلتني وعلمت انك جاهل فعذرتكا

وكان الخليل في فاقة وزهد لا يبالي بالدنيا وذكروا ان سليمان بن علي وجه اليه من الاهواز لتأديب ولده فأخرج الخليل الى رسول سليمان خبزاً يابساً وقال « كل فما عندي غيره وما دمت أجده فلا حاجة لي الى سليمان » فقال الرسول « فما أبلغه » فقال

أبلغ سليمان اني عنه في سعة وفي غنى غير اني لست ذا مال
شحاً بنفسي اني لا أرى أحداً يموت هزلاً ولا يبقى على حال
والفقر في النفس لا في المال تعرفه ومثل ذاك الغنى في النفس لا المال
فالرزق عن قدر لا العجز ينقصه ولا يزيدك فيه حول محتال

وأهم مؤلفاته كتاب العين :

كتاب العين

الخليل أسبق العرب الى تدوين اللغة وترتيب ألفاظها على حروف المعجم قبل الاصمعي وسيبويه وسواهما من الادباء والنحاة في كتاب سماه كتاب العين جمع فيه ما كان معروفاً في أيامه من ألفاظ اللغة وأحكامها وقواعدها وشروطها ورتب ذلك على أحرف الهجاء . لكنه رتب الحروف حسب مخارجها من الحلق فاللسان فالاسنان فالشفتين وبدأ بحرف العين وجعل حروف العلة في الآخر . وهاك ترتيبه ع ح ه خ غ ق ك ج ش ض ص س ر ط د ت ظ ذ ث ز ل ن ف ب م و ا ي فكأن الخليل حذا بذلك حذو الهنود في ترتيب حروف لغتهم السنسكريتية فانهم يبدأون بأحرف الحلق وينتهون بالاحرف الشفوية

وكان من عادة العرب ان يسموا الكتاب بأول لفظ من ألفاظه ككتاب الجيم للهروي وهو كتاب رتبه على حروف المعجم بدأ به بحرف الجيم وكتاب الجيم لابي عمرو الشيباني ومثلهما كتاب الغين وكتاب الميم . ويستفاد من ترتيب الحروف في كتاب العين ان الجيم كانت تلفظ كالكاف الفارسية

Digitized by Birzeit University Library

ومن ابحاث كتاب العين احصاء الفاظ اللغة في أيامه فقد نقل عنه السيوطي انه أحصى فيه عدد ابنية كلام العرب المستعمل والمهمل فبلغ ١٢٣٠٥٤١٢ كلمة . ولعله أراد ما يمكن تكوينه بتركيب أحرف الهجاء على كل شكل من الثنائي والثلاثي والرباعي والخماسي . ولم يذكر عدد الكلام المستعمل منها . على ان أبا بكر الزبيدي الذي اختصر كتاب العين وجه نظره الى هذه المسألة ودرسها فكانت نتيجة درسه ان عدد الالفاظ العربية ٤٠٠ ٦٦٩٩ لفظ لا يستعمل منها الا ٥٦٢٠ لفظاً والباقي مهمل وهو ٧٨٠ ٦٦٥٣ لفظاً . وقد قسمها من حيث عدد احرفها على هذه الصورة :

عدد الالفاظ		المستعمل منها	المهمل
٧٥٠	الثنائي	٤٨٩	٢٦١
١٩٦٥٠	الثلاثي	٤٢٦٩	١٥٣٨١
٣٣٤٠٠	الرباعي	٨٢٠	٣٠٢٥٨٠
٦٣٧٥٦٠٠	الخماسي	٤٢	٦٣٧٥٥٥٨
٦٦٩٩٤٠٠		٥٦٢٠	٦٦٩٣٧٨٠

ومن النظر الى هذا الجدول يتبين لك ان الزبيدي عنى بعدد ألفاظ اللغة ما عناه الخليل وان كان قد جعل عددها نصف ما قاله ذاك فانك تجد اكثرها مهملاً فهو يريد بالمهمل الالفاظ التي يمكن ان تتركب من الاحرف الهجائية كما تقدم لا التي تركبت واستخدمها الناس زماناً ثم اهملت لسبب من الاسباب

ولم يصل الينا من كتاب العين الا ما نقل عنه في كتب اللغة كالمزهر للسيوطي وكتاب النحو لسيبويه . ولم ينبغ نحوي ولا لغوي ولا أديب في عصر الخليل وما يليه الا استفاد من كتابه . ولكن الثقات الباحثين مختلفون في حقيقة نسبته اليه وفي صحة ما جاء فيه من الروايات والاقوال . من ذلك ما رواه ابن النديم في الفهرست عن ابن دريد قال « وقع في البصرة كتاب العين سنة ثماني وأربعين (ومائتين) قدم به وراق من خراسان وكان في ثمانية وأربعين جزءاً فباعه بخمسين ديناراً وكان قد سمع بهذا الكتاب انه في خراسان بخزائن الطاهرية حتى قدم به هذا الوراق . وقيل ان الخليل عمل كتاب العين وحج وخلف الكتاب بخراسان فوجه به الى العراق من خزائن الطاهرية . ولم يرو هذا الكتاب عن

Digitized by Birzeit University Library

الخليل ولا روي في شيء من الاخبار انه عمل هذا البتة . وقيل ان الليث من ولد نصر بن سيار صحب الخليل مدة يسيرة وان الخليل عمله وأخذ طريقته وعاجلت المنية الخليل فتممه الليث »

وذكر السيوطي آراء القوم في أصله وحجج القادحين ولكن الغالب في سبب تلك الحملة على الخليل انهم حسدوه لما أتاه من السبق الى ذلك العمل الجليل ـ وكل سباق محسود . فلا خلاف في فضله على الاطلاق وهب انه لم يتم الكتاب في حياته فله الفضل في تبويبه والشروع فيه

سيبويه

توفي سنة ١٨٣ هـ

هو من الموالي واسمه أبو بشر عمرو بن عثمان ولقب سيبويه بالفارسية ومعناه رائحة التفاح . نشأ في البصرة وطلب الآثار والفقه ثم طلب النحو وأخذه عن الخليل ويونس وعيسى بن عمر حتى برع فيه وألف كتابه الذي لم يسبقه أحد الى مثله ونسب فيه الى كل من أساتذته أقواله واعتمد على أبي زيد الانصاري وكان يسميه الثقة فكان لذلك وقع جميل عند أهل البصرة وصار كتابه تحفة يتسابق الفضلاء . الى مهاداتها . واشتهر حتى اصبح قائلهم اذا قال « قرأ فلان الكتاب » علم انه يعني كتاب سيبويه . وكان ابو العباس المبرد اذا اراد احد ان يقرأ عليه كتاب سيبويه . يقول له « هل ركبت البحر » تعظيما للكتاب واستصعاباً لما فيه . وقال ابو عثمان المازني « من اراد ان يعمل كتاباً كبيراً في النحو بعد كتاب سيبويه فليستح » واخذ العلم عنه جماعة من المشاهير اشهرهم ابو الحسن الاخفش وكان اكبر سناً منه وقطرب وكانت له معهما ومع سواهما مناظرات

وكان اهل الكوفة في اثناء ذلك قد هموا بالنحو فاخذوه عن اهل البصرة واشتغلوا فيه فنبغ معاذ الهراء المتوفى سنة ١٨٧ وابو جعفر الرواسي ابن اخي معاذ فوضع كتاباً في النحو وهو اول من فعل ذلك من الكوفيين والكتاب ضاع

الكسائي

توفي سنة ١٨٩ هـ

هو اشهر نحاة الكوفة واسمه علي بن حمزة مولى بني اسد واصله من فارس -

Digitized by Birzeit University Library

اخذ النحو عن ابي جعفر الرواسي ومعاذ الهراء المتقدم ذكرهما . وخرج الى البصرة ولقي الخليل بن احمد فاخذ عنه وعشق النحو . وهو من القراء السبعة . واستقدمه الخلفاء العباسيون الى بغداد ليعلم ابناءهم وقدمه البرامكة فارتفعت منزلته واخذ يعرض بسيبويه وكتابه حتى كانت مسألة الزنبور والنحلة . فتعصب الخليفة الامين لمعلمه الكسائي وجمع الرجلين فتناظرا في حضرته وشهد بدوي بصحة رأي سيبويه لكن الامين تعصب لمعلمه حتى اضطر سيبويه الى الفرار في حديث طويل . والف الكسائي عدة كتب في النحو والقراءات والادب والنوادر وغيرها لم يصلنا منها الارسالة في لحن العامة

ابو العباس المبرّد

توفي سنة ٢٨٥هـ

هو ابو العباس محمد بن يزيد بن عبد الاكبر الثمالي نسبة الى ثمالة قبيلة من الازد ويعرف بالمبرّد . ولد سنة ٢١٠ هـ في البصرة وانتقل الى بغداد وكان شيخ اهل النحو والعربية . واليه انتهى علمهما بعد طبقة عمر الجرمي وابى عثمان المازني . واخذ النحو عنهما وعن غيرهما

وكان قوي الذاكرة كثير الحفظ معاصراً لثعلب . وجرت بينهما منازعات ومعارضات . وبهما ختم تاريخ الادباء وكان المبرّد يحب الاجتماع بثعلب وهذا يكره ذلك لان المبرد كان حسن العبارة فصيح اللسان وثعلب مذهبه مذهب المعلمين فاذا اجتمعا في محفل حكم للمبرّد . وكان المبرّد كثير الاملاء يملي على الطلبة او على من يدوّنه — ومنها سميت الاملاء . وقد ذكر له صاحب الفهرست ٤٤ مؤلفاً في الادب واللغة والنحو والعروض والبلاغة والقرآن وغير ذلك وهاك ما وصلنا منها :

١ الكامل : هو كتاب في الادب وصفه المبرّد بقوله « هذا كتاب ألفناه يجمع ضروباً من الآداب بين منثور ومنظوم وشعر ومثل سائر وموعظة بالغة واختيار خطبة شريفة ورسالة بليغة . والنية ان يفسر كل ما يقع فيه من كلام غريب او معنى مغلق » فهو يعدُّ من كتب اللغة الممهدة للمعاجم . وفيه كثير من الفوائد التاريخية . اهمها فصل في الخوارج يحوي حقائق هامة من تاريخ بني امية

٢ كتاب المقتضب : عليه شرح لسعد الله الفارقي المتوفى سنة ٣٩١ هـ

Digitized by Birzeit University Library

٣ كتاب التعازي والمراثي
٤ رسالة في الجواب على سؤال وجهه اليه الواثق بشأن الشعر والنثر

ابن دريد

توفي سنة ٣٢١ هـ

هو أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الازدي . ولد في البصرة سنة ٢٢٣ ونشأ وتعلم فيها . وأخذ النحو عن السجستاني والرياشي وابن أخي الاصمعي . وانتقل عند ظهور الزنج الى عمان أقام فيها ١٢ سنة وعاد الى البصرة . ثم رحل الى نواحي فارس وصحب ابني ميكال وهما يومئذ على عمالة فارس وألف لهما كتاب الجمهرة الآتي ذكره . فقلداه الديوان وكانت تصدر كتب فارس عن رأيه ولا ينفذ أمر الا بعد توقيعه . ثم انتقل الى بغداد سنة ٣٠٨ هـ بعد عزل ابني ميكال عن فارس . فأجرى عليه الخليفة المقتدر خمسين ديناراً في الشهر الى وفاته سنة ٣٢١

وقد نبغ ابن دريد فى اللغة وكان من أكابرها مقدماً بها وبالانساب والاشعار . وكان شاعراً كثير الشعر وله المقصورة المشهورة التي مدح بها الشاه ابن ميكال ووالده مطلعها :

ما ظبية أشبه شيء بالمهى ترعى الخزامى بين أشجار النقا

عدد أبياتها ٢٢٩ بيتاً وفيها كثير من آداب العرب وأخبارهم وحكمهم وأمثالهم

وعارضه بها جماعة من الشعراء وشرحها كثيرون . وله قصائد أخرى وانما اخترنا وضعه بين علماء اللغة لان أكثر كتبه فيها حتى قالوا أنه قام مقام الخليل بن أحمد فيها وأورد أشياء منها لم توجد في كتب المتقدمين . وقد ذكر له صاحب الفهرست ١٩ مؤلفاً منها :

١ المقصورة : أو كتاب المقصور والممدود
٢ الجمهرة في اللغة : وهي أهم مؤلفاته بالنظر الى اللغة لانها معجم مرتب على أحرف الهجاء اتبع في ترتيبه ترتيب كتاب العين للخليل

Digitized by Birzeit University Library

ابن جني

توفي سنة ٣٩٢ هـ

هو أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي قرأ على أبي علي الفارسي . وكان أبوه مملوكا رومياً ولعلّ اسمه « جني » معرب عن لفظ يوناني مثل « جنايس » توفي ابن جني ببغداد وهو أعظم نحوي العصر العباسي الثالث وأكثرهم آثاراً . وكان شاعراً مطبوعاً وله منظومات حسنة لكن النحو غلب عليه وله فيه مؤلفات هامة فيها فلسفة ونقد ـ هاك أشهر مابقي منها :

١ الخصائص في اللغة : كتاب كبير عظيم الفائدة يبحث في أصول النحو على مذهب أصول الكلام والفقه . وهو بحث فلسفي في اللغة وأصولها واشتقاقها وأحكامها وما خذها وما يجوز القياس فيه

٢ سر الصناعة في النحو : هو كتاب ضخم في نحو ٦٠٠ صفحة يشتمل على أحكام حروف المعجم وأحوال كل حرف منها من حيث موقعه . وفيه أبحاث في الصوت ومخارج الحروف ولفظها والحركات وما هي واجناس الحروف وفروعها وما يناسب تقاربه منها في اللفظ ونحو ذلك من الابحاث الدقيقة

وله شرح المتنبي وهو مشهور وكثير غير ذلك

المعاجم اللغوية

ولدت المعاجم اللغوية في العصر العباسي الاول في كتاب العين للخليل المتوفى سنة ١٨٠ لكنها لم تنضج ويتم نموها الا في العصر الثالث فيحسن بنا أن نشبع الكلام فيها

المعاجم على العموم

أسبق الامم الى المعاجم اللغوية الصينيون فانهم وضعوا معجماً فيه ٤٠٠٠٠ كلمة في القرن الحادي عشر قبل الميلاد . مؤلفه اسمه باوتشي . وأقدم معجم لغوي في اللغة اللاتينية اسمه (Lingua Latina) ألفه (وارو) المتوفى سنة ٢٨ قبل الميلاد . ونحو ذلك الزمن أو بعيده ظهر أقدم معجم للغة هوميروس ألفه أبولونيوس الغراماطيقي الاسكندري في زمن أوغسطس . ثم ظهر معجم اللغة اليونانية كاملا سنة ١٧٧ للميلاد تأليف يوليوس بولكس . ثم يأتي العرب وهم

Digitized by Birzeit University Library

أسبق الامم الحديثة الى المعاجم اللغوية ـ وهاك تاريخها :

ماخذ المعاجم العربية

نريد بالمعاجم كتب اللغة التي تترتب فيها الالفاظ على حروف المعجم أو على المعاني المتشابهة أو المتقاربة وهي مأخوذة في الاصل عن السماع من أفواه العرب في أدوار مختلفة . وقد علمت مما تقدم انهم بدأوا بأخذ اللغة وآدابها الجاهلية من صدر الاسلام بالبصرة والكوفة من فصحاء ذكرنا بعضهم عند الكلام عن علم الادب

فكان الرواة كحماد والاصمعي وأبي عبيدة وغيرهم يروون ما يسمعونه أو يأخذونه عمن سمعه ويدوّنونه أو ينقلونه . ويدخل في ذلك أشعار العرب وأخبارهم وأمثالهم وألفاظهم وعلومهم وآدابهم . ودونوا ذلك أولا في كتب مستقلة كل موضوع على حدة ككتب الابل وأسماء الوحوش وخلق الانسان والخيل والشاة والنبات والشجر والنخل وغيرها للاصمعي وكتب اللبن والمطر لأبي زيد الانصاري ونحوها

ويلحق ذلك ما ألفوه من كتب النوادر في اللغة وهي تشتمل على النادر استعماله من الالفاظ ودلالاتها ككتب النوادر للكسائي وأبي زيد والشيباني والقالي . وكتب الغريب في اللغة كغريب أبي عبيد والشيباني وابن الاعرابي . وشروح الشعر فان فيها كثيراً من الالفاظ المشروحة مع بيان احوالها اللغوية . وسائر الكتب التي تبحث في اللغة واشتقاقها والفاظها . وكذلك كتب الاضداد والاشباه والنظائر ومن هذا القبيل كتاب الالفاظ الكتابية لعبد الرحمن بن عيسى الهمذاني المتوفى سنة ٣٢٧ هـ وكتاب البارع للقالي . وأبنية الافعال لابن القوطية

ومنها كتاب « ديوان الادب » لاسحق بن ابرهيم الفارابي المتوفى سنة ٣٥٠ خال الجوهري صاحب تاج اللغة . جعله على ستة كتب (١) في السالم (٢) في المضاعف (٣) المثال (٤) ذوات الثلاثة (٥) ذوات الاربعة (٦) كتاب الهمزة . وجعل كل كتاب من هذه الكتب شطرين اسماء وافعال وقدم الاسماء على الافعال واستشهد بالاشعار

فهذه الكتب وأمثالها كانت عوناً كبيراً في تأليف المعاجم . على أن الذين الفوا المعاجم رجعوا ايضاً في التحقيق الى سماع الالفاظ من العرب العاربة أو

Digitized by Birzeit University Library

ممن سمعها عنهم . وقد ذكرنا اسماء القبائل التي أخذت اللغة عنها واليك تاريخ المعاجم :

تاريخ المعاجم العربية

اول من رتب ألفاظ اللغة على الابجدية الخليل بن احمد في كتاب العين وقد تقدم ذكره في الكلام عن اللغة في العصر العباسي الاول تليه جمهرة ابن دريد المتوفى سنة ٣٢١ وقد ذكرناها بين كتب اللغة في العصر العباسي الثاني وعليه كان معول طلاب اللغة في ذلك العصر والذي يليه . وقد انتقدها ابن جني ونقطويه . فأقدم المعاجم كتاب العين فالجمهرة لابن دريد فالبارع للقالي وقد تقدم ذكرها . وتلاها التهذيب للازهري (٣٧٠ هـ) والمحيط للصاحب بن عباد (٣٨٥ هـ) والمجمل لابن فارس (٣٩٠ هـ) والصحاح للجوهري (٣٩٨ هـ) [١] والقاموس للفيروزابادي (٨١٧ هـ) [٢]

وهذه الكتب ولا سيما الاخيرين اشهر من أن تعرف وأصحابها من كبار العلماء في اللغة فلتراجع ترجمتهم في المطول

---

(١) العباب الزاخر واللباب الفاخر للصغاني المتوفى سنة ٦٥٠ هـ انظر وصفه في المطول في جزء ٣ وجه ٤٩

لسان العرب لجمال الدين بن مكرم المتوفى في سنة ٧١١ هـ وهو عشرون مجلداً انظر وصفه في المطول جزء ٣ وجه ١٤١

(٢) تاج العروس في شرح جواهر القاموس للسيد رضى الزبيدي المتوفى سنة ١٢٠٥ هـ انظر وصفه في المطول جزء ٣ وجه ٢٨٨ و ٢٨٩

Digitized by Birzeit University Library

النهضة الاخيرة

من سنة ١٧٩٨ (١٢١٣ هـ) الى الآن

فذلكة تاريخية

انحصر العالم العربي في القرن الثامن عشر في مصر والشام وجزيرة العرب والعراق العربي والمغرب والسودان وفيها نشأ اكثر رجال هذه النهضة . لكن تلك الشعلة المباركة بدأت بمصر والشام وامتدت منهما الى سائر الاطراف فيحسن بنا ان نبين كيف كانت حالهما قبل ذلك

مصر

كانت مصر (والشام أيضاً) في حوزة الدولة العثمانية . وقد استبد الامراء المماليك بمصر وتنازعوا على الاستئثار بأمورها ولم يتركوا لولاة الدولة نفوذاً فيها وأصبح همهم استدرار أموالها لا يبالون بما يقاسيه الشعب من العذاب أو الضنك أو الفقر ولا بما للدولة من حق السيادة عليها . فأخذوا يتنازعون على الاستقلال بها وانتشبت الحروب بينهم وكان أشدها بين علي بك الكبير ومحمد بك أبي الذهب . ودخل في ذلك الشيخ ظاهر العمر صاحب عكا واحمد باشا الجزار . وكانت روسيا في حرب مع العثمانيين فجاءت أساطيلها الى البحر المتوسط تستحث أمراءه على الخروج من طاعة الدولة وتساعدهم عليها

وانتهت السيادة بمصر في أواخر القرن الثامن عشر الى مراد بك وابرهيم بك وأصبحت مرسحاً للحروب والقلاقل والفتن

فلا غرو اذا اشتد الضنك وخات البلاد من الناس . فانقضى ذلك القرن وسكان مصر أقل من ثلاثة ملايين اكثرهم من العرب المسلمين . يليهم الاقباط ثم الاتراك وشرذمات من طوائف أخرى . والحاكم الرسمي الباشا يأتي من الاستانة فيقيم في القلعة لتأييد سيادة الدولة العثمانية فيخطب للسلطان ويضرب النقود

Digitized by Birzeit University Library

باسمه . لكن السيادة الفعلية للمماليك وهم أخلاط من الاتراك والشراكسة والكرج وجميع ثروة البلاد وادارتها في أيديهم . ولم يكن لهم عصبية لانهم لم يتوارثوا الملك الا نادراً وانما يغلب القوي الضعيف . والعرب هم المسلمون المتوطنون ومنهم جماعة العلماء والفقهاء وفي أيديهم . ادارة المعابد والتكايا . ومنهم طائفة كبيرة من أصحاب الانساب الشريفة وكثيرون من أرباب الثروة وذوي النفوذ أو المناصب . والاقباط يتولون الاعمال الحسابية أو الكتابية وجباية الخراج . وطوائف من الارمن والسوريين يتعاطون التجارة . والاجانب اكثرهم من الفرنساويين والايطاليان

أما الحالة الاجتماعية والادبية فانها تابعة للاحوال السياسية . وهل يرجى من أمة هذا حالها غير الجهل وضعف النفوس ؟ وقد زار مصر في أواخر القرن الثامن عشر فولني الفيلسوف الفرنساوي فدهش لما رآه فيها من الجهل والفساد وهذا قوله عنها : « الجهل عام في هذه البلاد مثل سائر تركيا وهو يتناول كل الطبقات ويتجلى في كل العوامل الادبية والطبيعية وفي الفنون الجميلة . حتى الصنائع اليدوية فانها في أبسط أحوالها . ويندر أن تجد في القاهرة من يصلح الساعة واذا وجد فهو أفرنجي . أما الصياغة فاصحابها فيها اكثر مما في أزمير وحلب لكنهم جهلاء . وإنما يتقنون المنسوجات الحريرية وان كانت أقل اتقاناً من صنع اوربا وأغلى ثمناً » أما العلم فوجود مدرسة الازهر فيها جعلها مرجع الطلاب في الشرق الاسلامي

سوريا

وما قيل عن مصر يقال عن سوريا لاشتراكهما في الاحوال السياسية . لكن نوراً ضئيلاً ظهر في سوريا من أواخر القرن السابع عشر على أثر قدوم الارساليات الدينية وانشاء الرهبنات الكاثوليكية كالرهبنة المخلصية والرهبنة الحنانوية البلدية والحلبية والرهبنات المارونية . ولكل من هذه الرهبنات اديار وكنائس ومدارس . وقد نبغ في القرنين الاخيرين قبل هذه النهضة طبقة من العلماء اكثرهم من رجال الاكليروس واكثر مؤلفاتهم في سبيل الدين مما لا يدخل في بحثنا هنا

على ان هذا وغيره من نوعه لم يكن كافياً لاضاءة ذلك الجو المظلم . ولذلك لما زار فولني سوريا في أواخر القرن الثامن عشر قال في وصفها : « ان الجهل سائد

Digitized by Birzeit University Library

في سوريا كما في مصر وسائر تركيا . وقد انتقد بعضهم هذه الحالة عبثاً ولم يأت الكلام عن انشاء الكليات ونشر التعليم والتهذيب بثمر . لان هذه الالفاظ لها عندهم معان غير ما نفهمه نحن منها . انقضى عصر الخلفاء وليس من العرب أو الاتراك الآن علماء في الرياضيات أو الفلك أو الموسيقى أو الطب . وينذر فيهم من يحسن الفصادة واذا احتاجوا الى الكي استخدموا له النار . واذا عثروا بمتطبب افرنجي عدوه من آلهة الطب . وأما علم النجوم فقد صار عندهم للتجامة واستطلاع الطوالع . وفي دير مار يوحنا (بالشوير) طائفة من الرهبان لهم اتصال برومية ولا يقولون جهلا عن سواهم . واذا قيل لهم ان الارض تدور عدوا قوله كفراً لانه يخالف الكتاب المقدس . . »

تلك كانت حال الشرق لما اقبل القرن التاسع عشر . وقبل دخوله بسنتين طرأ على الشرق طارىء تاريخي هام اهتزت له اعصابه وكان له تأثير شديد في نهضته ـ نعني دخول الفرنساويين مصر

الفرنساويون في مصر

من سنة ١٧٩٨ (١٢١٣ هـ) ـ ١٨٠١ (١٢١٦ هـ)

حمل بونابرت على مصر في أواخر القرن الثامن عشر وهذه حالها . فأقام جنده فيها ثلاث سنوات لم يهدأ في اثنائها بالهم ولم تستقر أقدامهم والحرب قائمة بينهم وبين المصريين أو العثمانيين . لكن ذلك النابغة العظيم أنى مع حملته بحملة علمية فيها طائفة من العلماء والصناع اغتنموا الفراغ من القلاقل وأخذوا في تأسيس المعاهد العلمية ونشر اسباب المدنية الافرنجية . فأنشأوا في القاهرة مدرستين لتعليم أبناء الفرنساويين المولودين بمصر وجريدتين فرنساويتين هما : (دكاد اجبسيان) و (كوريه ديجيبت) ومرسحاً للتمثيل ومجتمعاً علمياً مصرياً

غير ما أقاموه من المصانع والمعامل للورق والاقمشة وسائر حاجات البلاد . وبنوا أماكن للارصاد الفلكية والرياضيات والنقش والرسم والتصوير في حارة الناصرية حيث الدرب الجديد . ورمموا ما فيه من بيوت الامراء واستخدموها لتلك الغاية وجعلوا بيت حسن كاشف جركس في تلك الخطة مكتبة للمطالعة يحضرها من يريد المطالعة منهم في أوقات معينة من النهار . واذا دخلها أحد الوطنيين رحبوا به وأطلعوه على ما أراد من الكتب ولاسيما التي تدهش البسطاء

Digitized by Birzeit University Library

بما فيها من الرسوم البديعة وفي جملتها رسم للنبي ورسوم أخرى للخلفاء الراشدين وغيرهم من الأئمة والاماكن المهمة . وكان في مكتبتهم هذه كتب كثيرة عربية . وافردوا للاشتغال بكل علم داراً ولا سيما الكيمياء فانهم خصصوا معملا كبيراً للتقطير والتصعيد واصطناع الخلاصات وسائر الاعمال العقارية . وكانوا يجرون امام الاهالي بعض التجارب الكيماوية التي تدهش غير العارفين بنواميس الكيمياء . هذا مثال مما أراد بونابرت ادخاله من أسباب المدنية لكنه ذهب بذهاب الفرنساويين من مصر سنة ١٨٠١

وكانت آداب اللغة في أثناء ذلك قاصرة على العلوم الاسلامية التي تلقن في الازهر . واشهر من علمائها في ذلك الحين جماعة اختار بونابرت منهم بضعة عشر عالماً ألف منهم الديوان الخصوصي : الشيخ خليل البكري والشيخ عبد الله الشرقاوي والشيخ محمد المهدي والشيخ سليمان الفيومي وقد صوروهم وحملوا صورهم الى فرنسا

وبذل الفرنساويون جهدهم في تقريب المصريين وترغيبهم في أسباب مدنيتهم فكانوا يدعونهم الى غرفة المطالعة ويطلعونهم على ما فيها من الكتب النادرة والتصاوير المختلفة . وقد ذكر الجبرتي ماشاهده بنفسه من الصور الفلكية وغيرها . وفصل ما أدخله الفرنساويون من الادارات العلمية ولا سيما المواد الكيماوية وما أدهشه من ظواهرها

وأتى الفرنساويون معهم بمطبعة عربية كانوا يطبعون فيها منشوراتهم وأوامرهم وهي أول مطبعة عربية دخلت هذا القطر وتولى ادارتها المستشرق ما رسل

وجاء في ترجمة السيد اسماعيل الخشاب المتوفى سنة ١٣٢٠ هـ ان الفرنساويين أنشأوا ديواناً للقضاء بين المسلمين . وانهم كانوا يدونون ما يقع فيه كل يوم بيومه ويطبعون من ملخصه نسخاً يفرقونها في الجيش بالقاهرة وخارجها وفيها الحوادث الرسمية . وقد عينوا السيد اسماعيل المذكور لتدوين تلك الحوادث فالنشرة المذكورة كالجريدة العسكرية لنشر الاوامر الرسمية سموها (التنبيه) . فهي بهذا المعنى أول جريدة عربية رسمية لكنها عسكرية . وأما أول جريدة رسمية عربية عامة فهي الوقائع المصرية

Digitized by Birzeit University Library

الدولة المحمدية العلوية

من سنة ١٨٠٥ (١٢١٦ هـ) ولا تزال

انتاب مصر بعد خروج الفرنساويين منها سنة ١٨٠١ طوارىء مختلفة انتهت بجلوس محمد علي على عرش حكومتها سنة ١٨٠٥ وكان همه منصرفاً في أوائل ولايته الى المطامع السياسية بالحروب والفتوح . فأباد المماليك ثم دوّخ بلاد العرب وتغلب على الوهابيين باسم الدولة العثمانية . وفتح السودان وحارب المورة . ثم فتح الشام وأوشكت خيول ابنه ابراهيم أن تطأ الاستانة . فتصدت الدول لايقاف ذلك التيار العظيم خوفاً منه على راحة أوربا فحصروه في سوريا على أن تكون تابعة لمصر وأصبحت ولاية محمد علي تشتمل على مصر والشام والسودان وبعض بلاد العرب . ولصاحبها مطمع بما وراء ذلك . وحدثت أسباب مختلفة أوجبت رجوع الجنود المصرية من سوريا سنة ١٨٤٠ وحصر ولاية محمد علي بمصر والسودان على أن تكون الحكومة وراثية في ابنائه

وقد أخذ من أوائل ولايته باقتباس أسباب المدنية الحديثة لتنظيم الجند وتخريج الاطباء ورجال الادارة والصناعة والكتابة ونشر العلم والادب بانشاء المدارس المختلفة واحياء الآداب العربية بنشر الكتب أو ترجمتها أو تأليفها وارسال الارساليات الى أوربا . وقد استعان في ذلك برجال من الفرنساويين وبعض الاتراك . ولما صارت الولاية الى حفيده عباس الاول ثم ابنه سعيد توقفت أكثر تلك الاعمال . ثم جاء اسماعيل فعمل على اتمام ما كان جده محمد علي قد شرع فيه من أسباب هذه المدنية . فكثرت في أيامه المدارس والمطابع والجرائد وغيرها وتكاثر تقاطر الاجانب في عهده حتى قال عن مملكته « انها قطعة من أوربا رغم كونها في افريقية » وكان له مثل مطمع جده من حيث الاستقلال فلم يوفق اليه وانما نال حقوق الخديوية بأن ينحصر الملك في أبنائه . ولما استقر على هذه الحال بذل الجهد في نشر العلم

سوريا

أما سوريا فقد تقلب عليها في أثناء ذلك من حيث السياسة أحوال شتى . كانت في أوائل القرن التاسع عشر فريسة للولاة المستبدين كالجزار وعبد الله باشا أو

Digitized by Birzeit University Library

الامراء الطامعين في لبنان وغيرها . حتى حمل عليها ابراهيم باشا سنة ١٨٣٢ وأعانه الامير بشير الشهابي على ذلك ففتحها وطلب ما بعدها فاوقفته الدول هناك كما تقدم . فظلت سوريا تابعة لمصر تسع سنين . ثم رجعت الى سيادة الدولة وانسحبت الجنود المصرية . وتوالت القلاقل عليها لفساد الاحكام واضطراب الاحوال . فآل ذلك الى مذابح عديدة آخرها مذبحة سنة ١٨٦٠ في سوريا ولبنان . فهجر اللبنانيون أوطانهم ونزل جماعة منهم الى بيروت وغيرها وتوسطت الدول فوضعت نظام لبنان . ولم يكن ذلك كافياً لاستتباب الامن فعمد أهله الى المهاجرة وكانوا قد أخذوا بها من زمن الفرنساويين . لان مجيئهم الى الشرق حرك الهمم ودل القوم على ما هم فيه من الذل والضيق فأخذوا بالنزوح الى أوربا ومصر والاستانة وغيرها . وزادت المهاجرة بتوالي الاحن وأصبحت وجهتها في الثلث الاخير من القرن الماضي العالم الجديد في أميركا ثم مصر ولا سيما بعد الاحتلال الانجليزي وتمكن الفساد من الحكومة العثمانية . وكان أكثر المهاجرين من المسيحيين لسهولة اختلاطهم بالاجانب

ونزوح اللبنانيين وغيرهم من انحاء سوريا الى بيروت على أثر حوادث سنة ١٨٦٠ أحدث حركة اجتماعية فيها وزاد قدوم الاجانب اليها للتجارة والتبشير في ظل الامتيازات الاجنبية فتكاثروا بعد ذلك وأنشأوا المدارس على اختلاف أغراضها على أن نهضة أدبية اجتماعية كانت قد بدأت في سوريا في النصف الاول من القرن التاسع عشر وأسبابها : ١ افتتاح أبواب التجارة وتقاطر الاجانب الى بيروت ٢ انتشار مطبوعات بولاق والاستانة ومطابع الآداب الشرقية باوربا ٣ نبوغ طائفة من رجال الدولة العثمانية بالعلم والادب . وأكثرهم تثقفوا في أوربا وأحرزوا المناصب الرفيعة فكانوا يشدون ازر المشروعات الادبية ٤ انشاء المدارس على الطرز الحديث

أما سائر العالم العربي فالمغرب كانت الحروب فيه متواصلة بين الفرنساويين والعرب ولا سيما الامير عبد القادر الجزائري وآلت الحروب الى دخول الجزائر وتونس في حوزة الفرنساويين وضعف العنصر العربي هناك . ولم يكن حظ سائر العالم العربي أحسن من ذلك . الا مصر والشام فانهما كانتا مبعث نور العرفان والمدنية الى سائر تلك البلاد . هذه لمحة من تاريخ القرن الماضي من الوجهة السياسية وعلاقاتها بالاحوال الادبية والعلمية تمهيداً لما يأتي

Digitized by Birzeit University Library

مميزات هذه النهضة

تختلف هذا العصر عن سائر عصور آداب اللغة كما تختلف أحواله الاجتماعية والسياسية عن أحوالها . وأهمها تأثير مدنية اوربا عليه . لان الآداب العربية ما زالت من ظهور الاسلام ضمن دائرة المدنية الاسلامية . وان تكيفت مع أطوار تلك المدنية لكنها لم تخرج عن دائرتها وكانت تسمو نمواً داخلياً بما يدخل فيها من ثمار قرائح أبنائها . مع ما يقتضيه ناموس النشوء من التوسع والتفرع . أما في هذه النهضة فقد أتاها النمو من الخارج ـ نقل اليها كما نقلت سائر أسباب المدنية الحديثة . وهي تختلف في شكلها وأسلوبها عن مدنية المسلمين فانتقل أصحابها من طور الى طور كما انتقلوا في صدر الدولة العباسية عند ترجمة علوم القدماء الى العربية . لكن الدولة العربية كانت يومئذ في ابان تكونها ونشاطها فهضمت ما دخل عليها من علوم الامم الاخرى وصبغته بصبغتها العربية الاسلامية . أما في هذه النهضة فالدولة العربية في شيخوختها لم تقو حتى الآن على مقاومة تلك العوامل . فغلب تيار المدنية الحديثة على ابنائها فاضطروا الى السير معه رغم ما أدهشهم منه لاول عهدهم به و ستغربوه واستهجنوه لمخالفته ما تعودوه

فلهذه الاسباب كان الاختلاف بين هذه النهضة وما قبلها أكثر كثيراً مما بين العصر الماضي وما قبله ـ وهو ما عبرنا عنه بمميزات هذه النهضة وهاك أهمها :

١ انشاء المدارس الحديثة
٢ الطباعة
٣ الصحافة
٤ روح الحرية الشخصية
٥ الجمعيات الادبية والعلمية
٦ المكاتب العمومية
٧ المتاحف
٨ التمثيل
٩ اشتغال الافرنج بآداب اللغة العربية

ومن أراد التفاصيل المدققة عن كل من هذه المميزات فليراجع الجزء الرابع من تاريخ آداب اللغة العربية المطول

Digitized by Birzeit University Library

آداب اللغة العربية

في النهضة الاخيرة

تقسيم هذه النهضة من حيث ما نحن فيه الى ثلاثة أعصر :

١ العصر الاول من ولاية محمد على سنة ١٨٠٥ الى ولاية اسماعيل سنة ١٨٦٣

٢ العصر الثاني من ولاية اسماعيل الى الاحتلال الانكليزي سنه ١٨٨٢

٣ العصر الثالث من الاحتلال الانكليزي ولا يزال

ولكل من هذه الاعصر مميزات تظهر في آداب اللغة . وباكورة ما حدث في هذه النهضة نقل العلوم الحديثة من اللغات الاجنبية الى اللغات العربية وهي ما نعبر عنه بالعلوم الدخيلة . فنتقدم الكلام فيها ثم نعود الى العلوم الاخرى

العلوم الدخيلة أو المنقولة

هي العلوم التى نقلناها عن اللغات الافرنجية في هذه النهضة من كتب الطب والطبيعيات والرياضيات والعلوم الاجتماعية والاقتصادية والحقوقية وآداب الافرنج الشعرية والادبية وغيرها . وأهمها كلها الطب والطبيعيات والرياضيات . وأكثرها نقل للتعليم في المدارس الكبرى بمصر والشام . ومصر أسبق الى هذه المنقبة على يد محمد علي . وأكثر المشتغلين في ذلك من أبناء الارسالية الاولى وتلاميذ مدرسة الطب في النصف الاول من القرن التاسع عشر . واشترك معهم بعض المترجمين السوريين وغيرهم وأكثر منقولاتهم عن الفرنساوية والايطالية

ثم تناولت هذه المهمة الجامعة الاميركية في بيروت وهي أسبق سائر مدارس سوريا الى ذلك . وأكثر منقولاتها أو كلها عن الانكليزية والغالب أن يتصرفوا في النقل بين توسع وتلخيص واقتباس من كتب مختلفة وهو التأليف . ويندر فيها من نقل نقلا خالصاً

وكان عند العرب قبل هذه النهضة كثير من العلوم الطبية والطبيعية والرياضية وغيرها . لكن ما نقلوه في هذه النهضة يختلف عما كان عندهم — وان كان كثير من هذا المنقول أخذه الافرنج أصلا عن العرب لكنهم رقوه بالاكتشافات والاختراعات حتى صار يعرف بهم . كما فعل العرب قبلهم بما نقلوه عن اليونان

Digitized by Birzeit University Library

والفرس والهند من كتب الطب والفلسفة . فانهم رقوها وأضافوا اليها وصارت تنسب اليهم

وتقسم العلوم الدخيلة التي نقلت في هذه النهضة الى سبعة أقسام :

١ العلوم الطبيعية : ويدخل فيها الطب والطبيعيات والتاريخ الطبيعي والكيمياء

٢ العلوم الرياضية : كالحساب والهندسة والجبر ونضيف اليها الميكانيك والفلك

٣ العلوم الحربية : وهي عبارة عما نقل من الكتب لتنظيم الجند الجديد

٤ كتب الدين : نعني نقل التوراة في هذه النهضة

٥ العلوم القضائيه أو الحقوقيه : أي ما نقل منها عن مدنية أوربا

٦ العلوم الاقتصادية والاجتماعية الحديثة

٧ الادب والشعر : ما نقل منها عن الافرنج

وتقسم هذه الابواب السبعة الى قسمين يشترك كل منهما في أحوال متشابهة فالابواب الاربعة الاولى (الطبيعيات والرياضيات والحربيات والتوراة) تشترك في أنها سبقت سواها . وان اساسها وضع في النصف الاول من القرن الماضي على قواعد ثابتة . وان المشتغلين بنقلها جماعات رسمية كالحكومة أو الجمعيات أو المدارس الكبرى

والابواب الثلاثة التالية (العلوم القضائية ، والاقتصادية ، والادب والشعر) تشترك بانها من ثمار النصف الثاني من القرن المذكور اقتضتها طبيعة الاجتماع وقد اشتغل بنقلها غالباً الافراد . فنؤجل الكلام في هذه الابواب الثلاثة ونتقدم الى الكلام في الابواب الاربعة الاولى . أي العلوم الطبيعية والرياضية والحربية والدينية . ونقسم الكلام فيها الى ما نقل منها في مصر وما نقل في سوريا وقد اشتركت مصر وسوريا في نقل الطبيعيات والرياضيات وانفردت مصر بترجمة الحربيات وانفردت سوريا بترجمة الدينيات واليك البيان :

١ ـ في مصر

الفضل الاكبر في نقل هذه العلوم لمحمد علي رأس الاسرة الخديوية ومن احتذاه من الخديويين . على أن هذه المنقولات لم تنقل في وقت واحد بل تدرجوا في نقلها حسب الحاجة من عهد محمد علي الى الامس ـ احتاج محمد علي أولا الى

Digitized by Birzeit University Library

تنظيم الجند فأنشأ المدرسة الحربية . ورأى الحاجة الى حفظ صحة الجنـد وخيولهم فأنشأ المستشفى ثم المدرسـة الطبية والبيطرية سنة ١٨٢٦ لتخريج الاطباء . واحتاج الى من يبني الحصون ويدير معامل الاسلحة وغيرها من الفنون الحربيـة فبعث شباناً يتلقون هـذه العلوم في أوربا . واقتضت خطته السياسية تعزيز شأن العرب فأمر بنقل الطب والعلم الطبيعي والعسكري وسائر العلوم الحديثة الى اللغـة العربية بدلا من تعليمها في لغاتها الاصلية كما تفعل المدارس الآن

فشرع اولاً بنقل الطب وما يتفرع عنه من العلوم الطبيعية ونحوها . فاستقـدم الاطباء والافرنج . وأراد التعجيل في تخريج الاطباء من أهل البلاد وهم لا يعرفون اللغات الافرنجيـة فاتاهم بالمترجمين يتوسطون بين الاسـاتذة والتلاميذ في ترجمة العلوم تلقيناً ثم تدويناً ثم طبعاً

ولم يصبر محمد علي ريثما يتخرج التراجمة من الارساليات الاوربيـة أو في المدارس المصرية فاستخدم بعض النزالة من السوريين أو المغاربة أولا . ثم تخرج المترجمون في المدارس ولا سيما مدرسة الالسن الخاصة بهذا الغرض . على أن هذه العلوم كان يقوم بترجمتها أوتأليفها غالباً أساتذة هـذه العلوم أو معلموها . كل معـلم يترجم أو يؤلف في العلم الذي يعلمه في المدرسـة . وكان عملهم في زمن محمد علي أكثره ترجمة ثم صار في زمن اسماعيل أكثره تأليفاً . وهو في الاغلب مأخوذ عن كتب افرنجية تلخيصاً أو جمعاً

وكان الغالب في الترجمة أو التأليف أن يكون اقتراحاً من رئيس المدرسـة أو رئيس ديوان المدارس (ناظر المعارف) ثم تعرض الكتب على من ينظر فيها من أهل الاختصاص . فالكتب الطبية كانت تعرض على لجنة من أساتذة المدرسـة الطبية تعرف بارباب المشورة الطبية . وقد تكون الترجمـة باقتراح رئيس مدرسة الالسن أو غيره

وكان القلة في أول الامر من غير أرباب الفنون التي ينقلونها أو انهم غير متمكنين من اللغة العربية ومصطلحاتها العلمية فكان نقلهم لايؤمن الخطأ فيـه ـ وانما استخدمهم محمد علي للترجمة تعجيلا لمشروعه . فاحتاجوا الى من يقرأ الترجمات والاصل بين يدي مؤلفيها أو من يقوم مقامهم ويقابلونها وينقحونها وكان المؤلفون في أول الامر من اساتذة المدرسة الطبية ـ نعني كلوت بك ورفاقه الفرنساويين ـ تعرض مؤلفاتهم أولاعلى « أرباب المشورة الطبية » المتقدم ذكرها

Digitized by Birzeit University Library

فاذا أقرت على نفع كتاب امرت بنقله الى العربية . فيعهدون ذلك الى من يتولاه من المترجمين . فاذا نقل عهدوا بتنقيح عباراته الى مصحح عالم باللغة العربية يقف على طبعه . وقد يعينون للتنقيح او التصحيح اثنين احدهما يعرف اللغة المنقول الكتاب عنها والآخر عالم في اللغة العربية . فلا يخرج الكتاب الى المطبعة الا بعد ان يقتلوه تحقيقا وتنقيحاً على ما يبلغ اليه امكانهم . فكان المشتغلون في اخراج الكتب العلمية لمدرسة الطب او غيرها ست طبقات :

١ المؤلفون الافرنج : من اساتذة المدارس او غيرهم

٢ المترجمون : من غير الاطباء

٣ المترجمون من تلاميذ مدرسة الطب او غيرها . واكثرهم من الارسالية الاولى

٤ المؤلفون العرب : يؤلفون في العربية رأساً واكثرهم من المتخرجين في المدارس المصرية

٥ المحررون : أو الناظرون في صحة الترجمة وتطبيقها على الاصل مع ضبط المصطلحات العربية على المصطلحات الافرنجية . وهم من علماء اللغة الملمين بالعلوم الحديثة

٦ المصححون : من علماء الازهر

٢ ـ في سوريا

اذا قلنا مدارس سوريا هنا انما نريد الجامعة الاميركية في بيروت لانها اشتغلت وحدها في نقل العلوم العصرية الطبيعية والطبية والرياضية . ولم يكن لها عمل في النصف الاول من القرن التاسع عشر أو العصر الاول من النهضة الحديثة . وانما كان ذلك لمصر وحدها . ثم اشتركت بيروت في هذه الحركة في النصف الثاني من القرن المذكور . ولا سيما بعد أن تأسست الجامعة الاميركية وأخذ أساتذها في التعليم باللغة العربية فلم يروا بدأً من نقل الكتب لتلاميذهم عن مؤلفي الاميركان والانكليز وكانوا قد بدأوا بذلك في مدرسة عبية . واكثر الاساتذة عملاً في ذلك الدكتور كرنيليوس فانديك . ثم الدكتور يوحنا ورتبات والدكتور جورج بوسط . ومن المشتغلين في العلوم الدخيلة الدكتور بشاره زلزل المتوفى ١٩٠٥ وأسعد الشدودي المتوفى ١٩٠٦ ولكل منهما يد تذكر في ذلك . وهناك بقية صالحة من

Digitized by Birzeit University Library

نوابغ مدارس الطب على عهد التدريس في اللغة العربية وبعده بمصر والشام لهم مؤلفات مفيدة في الطبيعة وغيرها ولا يزالون أحياء (راجع مؤلفاتهم في الجزء الرابع من الكتاب المطول صفحة ٢٢٢)

ومما نقل الى العربية في هذا العصر التوراة واهمها ترجمتان : الترجمة الاميركية والترجمة اليسوعية . واليك كلمة في كل منهما

الترجمة الاميركية للتوراة

أخذ المرسلون الاميركان في سوريا يهتمون بنقل التوراة الى العربية ترجمة دقيقة . شرعوا بذلك سنة ١٨٣٧ ولم تكن معدات الطبع متوفرة لهم في ذلك الحين . فاخذوا يهتمون بصنع الحروف لهذا الغرض ـ فعل ذلك الدكتور عالي سميث وفرغ من اعداد الامهات سنة ١٨٤٣ فانحرفت صحته ولم يستأنف العمل والترجمة الا سنة ١٨٤٨ بمساعدة المعلم بطرس البستاني لانه كان ضليعاً في السريانية وتعلم العبرانية مع سميث . وكان البستاني يكتب المسودات ويدفعها الى سميث وهذا يقابلها على الاصل ثم تدفع الى المطبعة . وبعد جميعها يوزع من المجموع نسخ على بعض الثقات من علماء العربية لاجل تنقيح العبارة ثم تعود كلها الى الدكتور سميث فيقابلها ويعتمد على ما يراه ويأمر بالطبع

وتوفي الدكتور سميث سنة ١٨٥٧ ولم يطبع من التوراة الا سفر التكوين والخروج . وتحول هذا العمل بعد موته الى الدكتور فانديك وقد تولى ادارة المطبعة الاميركانية . فسار على خطوات سلفه من حيث التعويل على ثقات العرب في تنقيح العربية . وكثيراً ماكان يراجع ثقات المستشرقين باوربا ولا سيما فلايشر ورودیغر . وكانت المسودة تتوقف عن الطبع أحياناً بضعة أشهر لاستيفاء البحث والمراجعة

أما من ثقات العرب فكان معوله في التنقيح وقراءة المسودات على المعلم بطرس البستاني والشيخ ناصيف اليازجي والشيخ يوسف الاسير . وما زال مثابراً على هذا العمل الشاق حتى أتمه وصدرت التوراة كاملة . وهي المتداولة بين ايدي الناس وتعرف بالتوراة الاميركية نسبة الى المبشرين الاميركان . وكان معولهم في الترجمة على النسخة العبرانية في الاكثر

Digitized by Birzeit University Library

الترجمة اليسوعية

هي ترجمة الآباء اليسوعيين وتعرف بالتوراة اليسوعية . عمدوا الى ترجمتها لمنافسة الاميركان ومقاومة سعيهم في نشر مذهبهم . وكان معولهم في الترجمة على النسخ العبرانية واليونانية والسريانية والنسخة اللاتينية التي عليها معول الكنيسة الكاثوليكية . وقد اعتمدوا في تصحيح لغتها وضبط عبارتها واسلوبها على الشيخ ابراهيم اليازجي وبالغوا في اتقان طبعها واضافوا اليها بعض الرسوم والاشكال فجاءت في غاية الاتقان شكلاً وأسلوباً . ولكل من الترجمتين الاميركية واليسوعية حسنات وسيئات (اتينا بأمثلة منها في السنة الثانية من الهلال)

آداب اللغة

فرغنا من المقدمات التمهيدية في مميزات هذه النهضة وبسطنا الكلام في العلوم الدخيلة التي نقلت الى العربية في أثناء ذلك ـ الا بعض المنقولات القانونية أو الحقوقية والاقتصادية والاجتماعية والادبية سنعود اليها في أماكنها . فعلينا أن نبحث في كل باب من أبواب الآداب العربية على نحو ما توخيناه في الاجزاء الماضية . وهاك الابواب التي سننظر فيها

١ الشعر والادب	٥ الموسوعات
٢ اللغة وعلومها	٦ القضاء والادارة
٣ الانشاء	٧ العلوم الاقتصادية
٤ التاريخ والجغرافية	٨ العلوم الاجتماعية

وسنتكلم عن كل منها على حدة

الشعر والادب

أقبلت هذه النهضة والشعر كما كان في العصر الماضي . وانقضى العصر الاول منها ولم يتغير فيه شيء يذكر لان عوامل المدنية الحديثة لم تكن انتشرت بعد فلم تخلف في الاحوال الاجتماعية ما يؤثر على القرائح والعقول او يتناول أقلام الكتاب وهكذا يقال في الانشاء . على أن الشعر سبق الانشاء الى النهوض

ظل الشعر على ما كان عليه من حيث الخيال في العصر العثماني طول مدة

Digitized by Birzeit University Library

العصر الاول من هـذه النهضة (١٨٠٥ ـ ١٨٦٣) فلما دخل العصر الثاني كانت سوريا قد أصابتها النكبات سنة ١٨٦٠ وقبلها . وهاجر الناس من لبنان ودمشق الى بيروت وغيرها وجاء الافرنج وأخذوا في نشر مذاهبهم وتعاليمهم في مدارسهم . وسهل الخديوي اسماعيل على الافرنج وغيرهم النزوح الى وادي النيل والاقامة فيه ونشط أهل الادب وقربهم وأنعم عليهم . فتكاثر الشعراء والادباء ودخل الادب شيء من صبغة المدنية الحديثة والخيالات الشعرية التي نقلت بالمخالطة أو الاسفار أو مطالعة كتب الافرنج الشعرية . أو بما حدث في مصر والشام من ظواهر المدنية وأسباب الحضارة الحديثة

ورافق ذلك شيوع روح الحرية الشخصية بشيوع العلم الطبيعي وغيره فآل ذلك الى حل القيود المتوارثة في الاجتماع والافكار . وفي جملتها القيود الشعرية في أساليب النظم وطرق التصور الشعري . فأخذ بعض الشعراء يقلدون الاساليب الافرنجية من حيث الوصف ونحوه . وقد دق شعورهم بسبب التربية العلمية الحديثة . وادركوا من عواطف الانسان وقواه واكتشفوا من أسرار قلبه مالم يعرفه القدماء . وانتشرت روح الاقتصاد فأصبحوا لا يعملون عملاً ان لم يتبين لهم وجه العوض فيه . وكثر الاختلاط على أثر تسهيل أسباب النقل . فتحاكت الافكار بين العرب وغيرهم من أمم العالم المتمدن واضطروا بطبيعة العمران الى تعلم لغاتهم والاطلاع على آدابهم والاقتداء بهم . وتمكن ذلك على الخصوص في العصر الثالث من هـذه النهضة ـ نعني العصر الاخير الذي نحن فيه وصار للشعر صبغة خاصة به

وأصبح الشعراء على الاجمال يستنكفون من القيود التي كان سلفاؤهم مقيدين بها من حيث الاستهلال والتخلص والجناس والاساليب . وصاروا اذا اهتموا بمديح أو رثاء أو غزل أو حكمة بدأوا بها رأساً ـ وان كان كثيرون منهم لا يزالون يحتذون أساليب القدماء

الشعر العصري

فالنزوع الى روح العصر في النظم والنثر يراد به الخروج من القيود القديمة التي عبرنا عنها بالطريقة المدرسية . وقد نضجت في العصر العباسي الثالث وأخذت تتأصل في أذهان الشعراء والادباء وتتسع بمرور الاعصر حتى خرجت عن المعقول

Digitized by Birzeit University Library

وخالفت الذوق . وروح هذا العصر تقتضي النظر في الاشياء من حيث حقائقها والتعويل على الجواهر دون الاعراض أو اللب دون القشر

فالشعر والنثر الجوهر فيهما المعنى والعرض اللفظ . فالاديب أو الشاعر العصري اذا نظم أو نثر جعل همه الالتفات الى المعاني من حيث مطابقتها للواقع أو المعقول . ويستلزم ذلك طبعاً أن يكون لما ينظمه أو ينثره غرض معين أو حكمة أو تعليم أو عظة أو انتقاد عادة أو خلق أو سياسة أو غير ذلك نحو ما يفعل أدباء الافرنج . وتكون القصيدة أو المقالة ترمي الى غرض مترابط الاجزاء من أولها الى آخرها ـ خلافاً لما اشترطه بعض ادباء العرب من أن يكون كل بيت من القصيدة مستقلاً بمعناه

فاذا قلنا أن فلاناً ينزع في نظمه أو نثره الى الاساليب العصرية كان مرادنا انه يلتفت الى المعنى أكثر من التفاته الى اللفظ . وأنه يرمي فيما يكتبه أو ينظمه الى غرض معين يحوم حوله ويظهر في كل جزء من اجزاء قصيدته أو مقالته . وأنه يطرق المواضيع التي اقتضتها هذه المدنية من الآداب الاجتماعية الجديدة بالوصف أو النقد أو نحو ذلك . ووصف العواطف تشريحها . مع الجنوح الى الحقيقة وتصويرها بلا تطرف في المبالغة . ووصف المباني أو العادات او الاخلاق وتحبيذها أو انتقادها ويدخل في ذلك ما أصاب مركز المرأة من الارتقاء الاجتماعي في هذا العصر عما كانت عليه قبله

ويغلب النزوع الى الاساليب العصرية في المطلعين على الشعر الافرنجي والآداب الافرنجية . وربما اقتبسوا شيئاً من أساليبها أو معانيها . ولا يقلل ذلك شيئاً من شاعرية القوم . وفي مصر اليوم طبقة من الشعراء لا يشق لهم غبار ولم يكن في مصر أشعر منهم في دور من أدوارها . لكن الطريقة العصرية التي نحن في صددها لم يتم نضجها بعد

الشعر العامي

وتكاثر في النهضة الاخيرة بمصر والشام الشعر العامي على الاوزان العامية وبعضها قديم كالزجل والمواليا وغيرهما . وبعضها أحدث من ذلك فنقتصر هنا على ما حدث منه في سوريا ولا سيما لبنان

فالشعر العامي في سوريا نريد به ما ينظم في لغة العامة بلا ملاحظة الاعراب

Digitized by Birzeit University Library

أو اللغة . وأن يؤتى بالالفاظ كما ينطق بها أهل لبنان على الخصوص . وفي هذا الشعر بلاغة خاصة وخيال خاص

وللشعر العامي أوزان بعضها يشبه أوزان الشعر الفصيح وبعضها لا مثيل له في الاوزان المعروفة في هذا الشعر . فاوزان الشعر العامي الموجودة في الشعر الفصيح ثلاثة : الرجز والوافر والسريع جاء ذكرها في مقالة ظهرت في النشرة الاسبوعية في اكتوبر سنة ١٩٠٦ لعلها للاستاذ ابراهيم الحوراني الشاعر اللغوي محرر تلك الجريدة وهذا نصها

« وبحور الشعر الفصيح ستة عشر ولكني لم أجد في الشعر العامي المعروف عند العامة بالمعنى سوى ثلاثة أبحر وهي التي سمعتها في لبنان : الرجز والوافر والسريع . مثال الرجز :

خيبت مالك في الخزاين شو نفع الا الشهادة بحق أرباب الطمع
قالوا كثير الشد بيرخي الحبال وكتر شدك حبل تدبيرك قطع

ومثال الوافر :

صار القبر أقرب من خيالي وصار الصبر أبعد من منالك

ومثال السريع :

ريح الصبا بحياة غصن البان والورد والنسرين والريحان
من اين جبتي المسك بجيوبك تخمين مرّيتي على الخلان

ويدخل على هذه الابحر تغيرات لا تدخل في الفصيح لا يسع المقام بيانها

وأما أغانيهم التي يسمونها بالقرّاديات — وهو اسم خشن وقد رأى ذلك كثيرون من العامة فسموها بالعدّيات وبالقوّيلات — فبعضها لا ينطبق على وزن من أوزان الشعر المعروف ووزن بعضها المتدارك مع تغيرات أيضاً ومثاله :

من كتر أشواقي ليكن جيت راكب عاقطار النار

وبعضها على وزن مستفعلن مفعولن كقول بعضهم :

راح الشباب الغالي والشيب غير حالي

وحسب بعضهم هذا من المطالع والاكثرون على انه من « عدّيات الدبكة » وجاءت أغانيهم المعروفة عندهم بالموالات البغدادية والموالات المصرية والزلاغيط على بحر البسيط . فمن الموالات البغدادية المشهورة ما أوله :

ياساكن البان صبري من بعادك بان يبكي دماً كل ما غنى حمام البان

Digitized by Birzeit University Library

ومن الموالات المصرية ما نصه وهو بديع :

الحب للنفس كان بكل عصر وجيل مقياس حبك لغيرك كامل التعديل
ارجع الى النص في التوارة والانجيل واقرأ وحافظ على قول الذي حبك
أحبب قريبك كنفسك واترك التأويل

والزلاغيط كالموالات المصرية الا انها قلما جاءت غير مربعة ومنها ما يأتي وهو ما ينطق به لسان حال العروسين :

النفس مالي وحبي اليوم لي مالك ماعاد يانفس شي في الارض من مالك
قولي لمن رام يسلك في سبيل الذات اعرف بلاشك انك في الطريق هالك

ومن الزلاغيط ما وزنه مستفعلن فعلان ومثاله :

غنى حمام البان عا مايل الاغصان
لما تمايل قد عروسنا الزيان

وكثيراً ما تأتي الشطور الاربعة على روي واحد . واما بقية اغانيهم فتأتي على اوزان مختلفة من اوزان الشعر الفصيح وغيرها وايراد مثل لكل منها يشغل زماناً طويلا » اهـ

نقول : والذي نراه ان الاوزان العامية السورية التي ليس لها مماثل في الاوزان العربية الفصحى مأخوذة في الغالب عن اوزان الشعر السرياني

المنقولات الشعرية والادبية الى اللغة العربية

نقل العرب علوم اليونان في صدر الدولة العباسة ولكنهم لم يتصدوا الا لآدابهم الشعرية ونحوها . وقلما فعلوا ذلك في اثناء التمدن الاسلامي — فلم ينقلوا الياذة هوميروس ولا انيدة فرجيل ولا غيرهما من أشعار اليونان والرومان . اما الفرس فان شهنامة الفردوسي نقلها الفتح البنداري سنة ٦٧٩ هـ الى العربية وضاعت الترجمة . وكذلك كلستان السعدي شرحها بعضهم او عربها وضاعت ترجماتهم . ورباعيات الخيام اذا كانت قد نقلت فلم يصلنا منها شيء ويقال بالاجمال ان العرب لم يهتموا بنقل آداب القدماء الشعرية . ولعلهم فعلوا ذلك لاكتفائهم بشاعرية العرب

واما في النهضة الاخيرة فقد نقلوا طائفة من أهم تلك الآثار . واقدم من

Digitized by Birzeit University Library

فعل ذلك منهم جبرائيل مخلع المتوفى سنة ١٨٥١ نقل كلستان السعدي الى العربية في أواسط القرن الماضي . ونقل سليمان البستاني (وزير التجارة العثمانية سابقاً) الياذة هوميروس الى العربية نقلا دقيقاً وضعه في قالب شعري عربي وعلق عليه شرحاً تاريخياً ولغوياً . وصدره بمقدمة في الشعر تدخل في ٢٠٠ صفحة . ونقل بعضهم رباعيات عمر الخيام اما الشعر الاوربي الحديث فقد نقل منه شيء قليل ويعنى بعض الادباء الآن به تعزيزاً للروح الشعرية الحديثة

القصص الحديثة او الروايات

ومما نقل من الآداب الافرنجية فى هذا العصر القصص . وقد فعل نحو ذلك نقلة العصر العباسي فنقلوا عن الفرس قصصاً وحكايات ذكرناها فيما تقدم من هذا الكتاب . واما اهل هذه النهضة فقد اكثروا من نقل هذه الكتب عن الفرنسية والانجليزية والايطالية وهي تسمى في اصطلاح اهل هذا الزمان « روايات » . والروايات المنقولة الى العربية في هذه النهضة لا تعدّ ولا تحصى واكثرها يراد بها التسلية . ويندر ان يراد بها الفائدة الاجتماعية او التاريخية او غيرها . على انهم نقلوا بعض روايات او أشعار شكسبير وهيكو ودوماس وموليير وشاتوبريان ولا فونتين وراسين وكورنيل وفنيلون وغيرهم

وقد رحب قراء العربية العقلاء بهذه الروايات لتقوم مقام القصص التي كانت شائعة بين العامة لذلك العهد مما الفه العرب فى الاجيال الاسلامية الوسطى . نعني قصة على الزيبق وسيف ذي يزن والملك الظاهر وبني هلال والزير ونحوها . فضلا عن القصص القديمة كعنترة والف ليلة وليلة — فوجدوا الروايات المنقولة عن الافرنجية اقرب الى المعقول مما يلائم روح هذا العصر فاقبلوا عليها

ثم عمد الكتاب الى التأليف في هذا الفن من عند انفسهم تقليداً للافرنج . ومن أقدم المشتغلين في ذلك فرنسيس مراش . ثم سليم بطرس البستاني الف بضع روايات تاريخية نشرها في الجنان . ثم الف صاحب الهلال سلسلة روايات تاريخ الاسلام من اول ظهوره صدر منها ١٩ رواية غير رواياته الاخرى . واقدم آخرون على التأليف في هذا الفن . وهو على كونه مقتبساً من الافرنج فقد كان عند العرب من قبل كما قدمنا في غير هذا المكان

Digitized by Birzeit University Library

الشعراء والادباء

ظهر في هـذه النهضة مئات من الشعراء والادباء في مصر وسوريا والعراق وسائر العالم العربي . والغالب ان يكون نبوغهم في ظل امير يحب الادب او الشعر او يأتي باعمال تستنطق القرائح وتشحذ الاذهان — شأن الشعراء في كل الزمان . كما تكاثروا في زمن الرشيد وسيف الدولة وابن العميد والصاحب ابن عباد وغيرهم من الملوك واهل الوجاهة والمقام يضيق عن تعداد اسماء النابغين منهم فضلا عن تراجمهم فليراجعها من احب في الكتاب المطول

الموسيقى العصرية

حدث في هذه النهضة حركة فكرية موسيقية وأصاب الموسيقى تغير اقتضته الاحوال الاجتماعيـة . ونبغت طائفة من الموسيقاريين أو المغنين امامهم عبده الحمولي صاحب طريقة الغناء الحديثة بمصر . ولهذه الطريقة تاريخ خلاصته ان رجلاً من اهالي حلب اسمـه شاكر افتدي وفد الى القطر المصري في المائة الاولى بعد الالف للهجرة وكان فن الالحان فيه مجهولا . فنقل اليه جملة تواشيح وقدود وكانت هي البقية الباقية من التلاحين التي ورثها الحلبيون عن أهل الدوله العربية . فتلقاها عنه بعضهم وحفظوها . واشتد حرصهم عليها وصار الواقفون عليها يحرمون الناس من تلاقينها . لـكنها بقيت بينهم على بساطتها الاصلية . فـكانت قاصرة على أمهات المقامات وبعض الفروع المقاربة لها وكانت بالنسبة للغناء مثل حروف الهجاء بالنسبة للـكلام

وأقام المغنون في مصر على هذه الطريقة البسيطة لا يتصرفون فيها الا عصر عبده الحمولي فتلقاها منهم على أصلها وغنى بها مدة . ثم دفعته سجيته في الطرب وحسن ذوقه في الغناء الى أن يتصرف فيها مع المحافظة على الاصل وعدم الخروج عن دائرته . فأزال عنها بعض الجفوة . وما زال يرتقي في شهرته بحسن الغناء حتى ألحقه الخديوي اسماعيل باشا بمعيته . فسافر معه الى الاستانة مراراً وسمع هنـاك آلات الموسيقى التركية . وجلب اسماعيل باشا في عودته الى مصر جماعة من اكابر المغنين فيها فـكان عبده يحضر معهم دائماً في اشتغالهم بالغناء . فاستمالته ألحانهم وأخذ

Digitized by Birzeit University Library

ينتقي منها ما يلائم المزاج المصري ويناسب الطريقة العربية ورأى المجال واسعاً له في الموسيقى التركية اذ وجد فيها كثيراً من النغمات التي لم يكن للمصريين علم بها ولم تطرق آذانهم من قبل مثل النهاوند والحجازكار والعجم وغيرها . فنقلها الى الغناء المصري . ثم التفت الى بقية مصطلحات الغناء في الطبقات المختلفة من ذلك العصر مثل المنشدين المشهورين باولاد الليالي (الفقهاء) والعوالم (القيان) والمداحين (الضاربين بالدفوف) والتقط منهم ما استنسبه فاضافه مع المختار من الغناء التركي وخلطه بالطريقة القديمة فجعلها طريقة جديدة خاصة به . وظهر في مصر وفيها شيوخ المغنين فصار شيخاً عليهم . وقد دعاهم جعلهم بما صنعه الى استنكار طريقته في أول الامر ولكن ما لبث الناس أن ذاقوا حلاوتها وطلاوتها فعم استحسانها وذهب استنكارها وانتصر بحسنها عليهم وله فيها من التلاحين أشياء كثيرة

علوم اللغة

اكثر ما ظهر من علوم اللغة في العصر الاول من هذه النهضة لا يخرج عما كتب قبله . واكثره تلخيص أو شرح أو تعليق على كتب القدماء . وظلت الحال على ذلك في مصر الى عهد غير بعيد . أما في سوريا فحدثت في اللغة وعلومها حركة بين المسيحيين وكانو الى ذلك العهد قلما يشتغلون في اللغة وقلّ من الف منهم فيها واذا ألفوا فلا يلتفت الى تأليفهم ولا يوثق بأقوالهم . وكانت المدارس على اختلاف أديانها تعلم اللغة في الكتب القديمة كالاجروميةوابن عقيل والاشموني والصبان والحريري ونحوها

فلما ظهر اليازجي الكبير في أواسط القرن الماضي وقد تكاثرت المدارس النصرانية في بيروت ولا سيما الاميركان قربوا اليازجي وعولوا عليه في تصحيح مسودات ترجمة التوراة وغيرها فالف أرجوزته ومقاماته وأخذوا في تعليمها في مدارسهم . وقد لاقى اليازجي مشقة قبل رسوخ قدمه بين اللغويين . وهان على غير المسلمين بعده الاشتغال بعلوم اللغة وقد أعانهم على ذلك تعويل المدارس النصرانية على كتبهم

ثم ظهر احمد فارس الشدياق فنظر في اللغة نظراً تحليلياً ووضع كتابه « سر الليال في القلب والابدال » على نسق جديد سرد فيه الافعال والاسماء الاكثر تداولاً ورتبها بالنظر الى التلفظ بها لا يضاح تناسبها وتجانسها لفظاً ومعنى . والف

Digitized by Birzeit University Library

كتاب « الفاريق أو الساق على الساق » على أسلوب جديد في اللغة العربية

وبعد انتشار مذهب النشوء والارتقاء في سوريا أصاب علوم اللغة شيء منه فتولد علم الفلسفة اللغوية وظهر أول كتاب فيه سنة ١٨٨٦ في بيروت لمؤلف هذا الكتاب وهو بحث تحليلي في أصل اللغة وكيف تكونت بالتدريج . وظهر له بعد ذلك كتاب تاريخ اللغة العربية سنة ١٩٠٤ ومداره النظر في اللغة العربية باعتبار انها كائن حي قابل للارتقاء بالنمو والدثور . والف في الفلسفة اللغوية أيضاً جبر ضومط أستاذ اللغة العربية في المدرسة الكلية الاميركية فظهر له كتاب « الخواطر » في اشتقاق اللغة وصيغها بحث فيه بحثاً فلسفياً . وكذلك كتاب الخواطر الحسان في المعاني والبيان . وفلسفة البلاغة .

ثم تولد علم تاريخ آداب اللغة وقد تكلمنا عنه في مقدمة الجزء الاول من مطول هذا الكتاب

أما فيما خلا ذلك فالعلوم اللغوية قلما أصابها تغيير الا في بعض الكتب المدرسية من حيث ترتيب أبوابها لتسهيل تناولها على الطلاب

الانشاء

الاسلوب الانشائي العصري

ان كلامنا عن الشعر فيما تقدم ينطبق على الانشاء لانهما من باب واحد فكان تأثير هذه النهضة عليهما على شكل واحد . ولعل هذا التأثير ظهر في الانشاء اكثر من ظهوره في الشعر — نعني ان الكتاب أخذوا يعولون فيما يكتبونه على المعاني اكثر مما فعل الشعراء . وكان الانشاء في أواخر العصر العثماني قد أصبح المعول فيه على الالفاظ بين سجع واستعارة وتورية وجناس بحيث يتعذر عليك الوصول الى المعنى لما يتلبد حوله من الصور المبهمة . فلما أتتنا هذه المدنية بعلومها الطبيعية والرياضية المبنية على المشاهدة والاختبار وتعود الناس تقدير الوقت بتقريب المسافات وأخذت الحرية في الشيوع أصبح الادباء ينفرون من استعمال ما لا حقيقة له ويستنكفون من اضاعة الوقت في السجع البارد أو تكرار الالقاب والنعوت لمجرد التفخيم . وهان عليهم العدول الى الحقيقة بحيث يكون هم الكاتب موجهاً بالاكثر الى المعنى المراد ايضاحه

Digitized by Birzeit University Library

فاخذت هذه الروح تسري بين الكتاب من أواسط هـذا العصر لكنهم لم يتفقوا على أسلوب واحد يحتذونه . فهم مجمعون على ان الطريقة المدرسية المشوشة كما وصلت الينا لا تنفع لغموضها وطولها . فتركوها واختلفوا في الاسلوب الذي يعولون عليه في ما يلائم روح هـذا العصر . فرجعوا الى احتذاء أساليب القدماء فبعضهم احتذى أسلوب صدر الاسلام وآخرون قلدوا أساليب صدر الدولة العباسية ولا سيما أسلوب ابن المقفع — وهو الغالب على أقلامهم لسهولته ومتانته . على أن بعضهم يتوخى أسلوب ابن خلدون في مقدمته وآخرون يقلدون الجاحظ أو غيره

ذلك شأن الكتاب المنشئين الذين يهمهم تنميق العبارة ولا سيما في المواضيع الخطابية التي تحتاج الى تقريع أو تهديد أو ارهاب أو ترغيب . أما في المواضيع العمومية فقد نشأ في الانشاء أسلوب عصري بسيط لا يرى أصحابه حاجة الى تنميق العبارة والتأنق في التركيب وانما يجعلون همهم ايضاح المعنى وايصاله الى ذهن القارىء بسهولة . وفيه من يبالغ في اهمال الصناعة اللفظية ولو أخلّ بالاعراب واستعمل العامي من الالفاظ . وهـذا غلو يفسد اللغـة ويضيعها فيجب مع توخي السهولة في الانشاء المحافظة على قواعد اللغـة وروابطها

أساليب التأليف

وتطرق تغير هام الى أسلوب التأليف في هذه النهضة يلائم روح هـذا العصر اقتداء باصحاب هذه المدنية . واليك مميزات التأليف أو الانشاء في هذا العصر :

١ سلاسة العبارة وسهولتها بحيث لا يتكلف القارىء اعمال الفكرة في تفهمها

٢ تجنب الالفاظ المهجورة والعبارات المسجعة الا ما يجيء عفواً ولا يثقل على السمع

٣ تقصير العبارة وتجريدها من التنميق والحشو حتى يكون اللفظ على قدر المعنى

٤ ترتيب الموضوع ترتيباً منطقياً في حلقات متناسقة يأخذ بعضها برقاب بعض وتنطبق أوائلها على أواخرها

٥ تقسيم المواضيع الى أبواب وفصول . وتصدير كل باب أو فصل بلفظ أو عبارة تدل على موضوعه

٦ تذييل الكتب بفهارس أبجدية تسهل البحث عن فروع الموضوع

Digitized by Birzeit University Library

الاصلي . وقد يجعلون للكتاب الواحد عدة فهارس واحد للمواضيع وآخر للاعلام وآخر لغير ذلك

٧ تنويع أشكال الحروف على مقتضى أهمية الكلام . فيجعلون للمتن حرفاً وللشرح حرفاً وللرءوس حرفا

٨ تسمية الكتب باسم يدل على موضوعها كتسمية كتاب تاريخ مصر بتاريخ مصر وكتاب الكيمياء بالكيمياء وكتاب النحو بالنحو . وأبطلوا التسجيع في أسمائها

٩ يزينون المؤلفات بالرسوم ويضبطون الالفاظ بالحركات عند الاقتضاء

١٠ اذا أرادوا اسناد الكلام الى كتاب أو كاتب أشاروا الى ذلك في ذيل الصحيفة

١١ يفصلون الجمل بنقط أو علامات يدلون بها على أغراض الكاتب . كالوقف والتعجب والاستفهام أو نحو ذلك . وعلامات لحصر الجمل المعترضة أو تميز بعض الاحوال

هذه أهم مميزات التأليف في هذه النهضة وكان بعضها معروفا من قبل . على ان كثيرين من كتابنا لا يزالون يقلدون القدماء في طرقهم

التراكيب الاعجمية

وأسلوب الانشاء العصري المشار اليه تطرق اليه تراكيب أعجمية اقتبسها الكتّاب من اللغات التي ينقلون عنها او يطالعونها وهم لا يشعرون . لكن اساتذة اللغة ينكرونها وبلغاء الكتاب يتجنبون الوقوع فيها — وهاك امثلة منها :

١ فلان كلا هوتي يقدر ان يؤثر كثيراً

٢ رأيت صديقي فلاناً الذي اعطاني الكتاب (أي فاعطاني)

٣ رغما عن مساعيه الحميدة لم ينجح في عمله

٤ مستمداً العناية من الله أقف بينكم خطيباً

٥ لعب فلان دوراً مهماً في هذه المسألة

٦ المعاهدة المصادق عليها من الدولة الفلانية

٧ ان الامر الفلاني مضر بقدر وشرف ومالية فلان

٨ يوجد في بلاد الحجاز عدة جبال

Digitized by Birzeit University Library

٩ هذه المصيبة أعطته درساً نافعاً

غير ما دخل اللغة من الالفاظ الاعجمية أو العامية . وقد فصلنا ذلك في كتابنا تاريخ اللغة العربية

لغة الدواوين

وهناك اسلوب من الانشاء تطرق الى اللغة في هذه النهضة نعني اسلوب دواوين الحكومة المصرية المشهور بركاكته . ويرجع هذا الاسلوب في أصله الى العصر العثماني اذ بلغت مصر غاية الانحطاط في أحوالها الاجتماعية والسياسية والعلمية . فلم ينقض القرن الثامن عشر حتى أصبحت لغة الكتابة أشبه بلغة العامة مع ما يتخللها من الالفاظ الاعجمية . كما يظهر ذلك في انشاء المؤلفين من أهل تلك الفترة كالجبرتي ومعاصريه . ولما جاء الفرنسيون مصر كان في حملتهم جماعة من التراجمة يتوسطون بينهم وبين الاهلين ويترجمون لهم المنشورات والمراسلات . والظاهر ان هؤلاء التراجمة كان بعضهم من غير أبناء هذه اللغة فاذا ترجموا عبارة صاغوها في قالب أعجمي وما لم يجدوا له لفظاً عربياً تركوه على لفظه الافرنجي أو وضعوا له لفظاً عامياً

فلما أفضت الولاية الى محمد على رأس الاسرة الخديوية وأخذ في انشاء الدواوين ، لم يكن له غنى عمن يترجم بين حكومته وحكومات اوربا . فاستخدم التراجمة واللغة لا تزال في انحطاطها وركاكتها والذين يعرفون أساليبها ويحفظون اوضاعها قليلون . ولا سيما الذين استخدمهم لاعمال الحكومة أو ترجمة أوامرها . فدخل لغة الحكومة الفاظ وتراكيب خاصة بها . ولما استنار الناس على أثر نشر الصحافة ونبغ الكتاب والمنشئون في اواخر القرن الماضي انتظم جماعة منهم في مصالح الحكومة وأخذوا في تنقيح لغة الدواوين من تلك الشوائب ولا يزالون يفعلون ذلك

الانشاء الصحافي

وهناك ضرب من الانشاء اقتضته الحاجة الى تفهيم العامة — نعني انشاء الصحف وقد تقلب على أطوار شتى . ومن يطالع الصحف العربية ويقابل قديمها بحديثها ينبسط لديه تاريخ الانشاء الصحافي وتدرجه في الارتقاء : كان في أول أمره

Digitized by Birzeit University Library

كما تقدم من ركاكة الانشاء ثم أخذ يتدرج في أسلوبه والفاظه حتى صار الى ما هو عليه الآن

وللانشاء الصحافي تاريخ طويل يقال في اجماله ان اول من حسنه من رجال الصحافة الشيخ احمد فارس الشدياق في الجوائب والبستاني في الجنان . ولما زهت الصحافة في زمن اسماعيل خطا الانشاء خطوة هامة على يد « اديب اسحق » فانه اتخذ اسلوباً تحدّاه فيه الكتاب . ودخل الانشاء روح سياسية حماسية بسبب الحركة السياسية الوطنية في أواخر أيام اسماعيل وأوائل أيام توفيق . ولا سيما بعد نزول جمال الدين الافغاني وادي النيل والتفاف الكتاب حوله . وارتقى الانشاء خطوة أخري في العصر الاخير باتجاه الخواطر الى اللغة العربية والجامعة العربية . ونبغت طبقة بليغة من الكتاب الصحافيين المعاصرين . وصار الانشاء الصحافي على اجماله واضحاً مقسماً مبوباً خالياً من المقدمات والخاتمات بلا تسجيع ولا تورية أو تفخيم

التاريخ والجغرافيا

ظل علم التاريخ في معظم القرن الماضي نحو ما كان عليه قبله من حيث أسلوبه وكيفية التأليف فيه . الا ما نقل عن اللغات الافرنجية في أول هذه النهضة . لان اشتغال محمد علي في نقل العلوم كان يتناول أيضاً العلوم التاريخية والادبية على يد رفاعة بك وتلاميذه من متخرجي مدرسة الالسن . وأهم ما نقلوه من هذه الكتب جغرافية ملطبرن في عدة مجلدات . وقلائد المفاخر في غريب عوائد الاوائل والاواخر . وتاريخ الشام . وكتاب اسباب قيام دولة الرومان وانحطاطها نقله حسن الجبيلي وهو في فلسفة التاريخ ، وروح الشرائع لمونتسكيو ، وتاريخ شارلمان ، وتاريخ فرنسا العام ، وتاريخ شارلكان وغيرها

ثم أصحاب هذه النهضة يؤلفون من عند أنفسهم لكن أكثرهم كانوا ينقلون أو يجمعون أو يلخصون بلا نقد أو استنتاج الا نادراً . ودخل التاريخ في الربع الاخير من القرن الماضي في عصر جديد ، ولا سيما لدى المطلعين على أساليب الافرنج في تدوين تواريخهم فمالوا الى التنسيق والترتيب والتبويب وأخذوا ينشرون المقالات التاريخية الانتقادية في المجلات . ثم عمدوا الى تأليف الكتب بعد البحث والتحقيق والانتقاد بما يقتضيه ذلك من فلسفة التاريخ كما فعلنا في كتابنا تاريخ

Digitized by Birzeit University Library

التمدن الاسلامي وتاريخ العرب قبل الاسلام وغيرهما من كتبنا

الموسوعات

ونشأ جماعة من العلماء ممن القوا الموسوعات في كل باب واهمهم رفاعة بك الطهطاوي وبطرس البستاني صاحب القاموس المشهور ودائرة المعارف . وكلاهما من أهم أركان النهضة العلمية الحديثة

القضاء والادارة

ويدخل في ذلك الفقه والتفسير وسائر العلوم الشرعية . وينضم اليها ما يتعلق بالحكومة من الاعمال الادارية . فالفقه ما زال في أوائل هذه النهضة كما كان قبلها وانما دخل فيه ما نقل الى العربية من القوانين العثمانية والفرنسية المدنية ، مما لم يكن قبلا على أثر ادخال نظام المحاكم الجديد وما ألفه أهل القضاء والمحامون في ذلك وما صدر من المجلات القضائية وغير ذلك

تاريخ القضاء العثماني او المصري

للقضاء الاسلامي تاريخ طويل يقال بالاجمال انه ظل مقصوراً على المحاكم الشرعية الى أواسط القرن الماضي ، اذ أصدر السلطان عبد المجيد فرمان الاصلاح بعد حرب القرم سنة ١٨٥٦ وفي جملة ذلك عزم الحكومة العثمانية على انشاء محاكم نظامية مستقلة عن المحاكم الشرعية ـ وهو القضاء القانوني الحديث . وأخذت الدولة من ذلك الحين في وضع النظامات على النسق الاوربي . واصدار اللوائح والنظامات المتعلقة بالحقوق المدنية والسياسية وبجمع ذلك كله كتاب « الدستور » وقد ترجمه الي اللغة العربية نوفل نوفل وهو مطبوع . وفي جملته النظام القضائي وقوانينه وهو أقرب الى القوانين الفرنسية مما الى غيرها . ومصر في ذلك تابعة للقضاء العثماني

ثم صدرت القوانين النظامية العثمانية تباعاً من سنة ١٢٧٤ هـ ونقلت الى العربية . اولها قانون الجزاء فقانون التجارة البري والبحري فنظام ترتيب المحاكم وقانون المحاكمات الحقوقية والمحاكمات الجزائية وغير ذلك . . أما القانون المدني المشابه للقانون الفرنسي فلم تقدم الحكومة العثمانية عليه لاعتقادها ان في الشرع

Digitized by Birzeit University Library

الاسلامي ما يغني عن ذلك . ثم رأت ان تستخرج من القضاء الشرعي اصولا توافق المواد المدنية من قوانين اوربا فألفت لجنة علمية من اكابر رجال الدولة فوّضت اليها استخراج اهم الاحكام الشرعية الموافقة للعصر الحاضر . فتألفت من ذلك « المجلة » صدرت سنة ١٢٩٣ هـ وعليها المعول في المعاملات المدنية الحديثة وهي مؤلفة من ١٦ باباً

أما مصر فكانت تابعة للدولة العثمانية في كل ذلك . لكن محمد على تعجل مجاراة المدنية الحديثة في بعض الاحوال

وذكروا انه أنشأ مجلساً نظامياً سنة ١٢٣٧ هـ للفصل في الدعاوى التجارية بين الوطنيين والاجانب . احكامه الفرنسية لا تخالف الشرع الاسلامي . وكان ذلك اساساً للمحاكم المختلطة التي أنشأها اسماعيل بعد ذلك على انها تناولت فرمان الاصلاحات مثل سائر الولايات العثمانية في زمن سعيد باشا (سنة ١٢٧٢ هـ) وأنشأت مجالس نظامية عرفت بالمجالس المحلية الغيت بعد ذلك

وفي زمن اسماعيل صدر الفرمان المؤذن باستقلال مصر القضائي لانه فوض اليه وضع القوانين والنظامات الداخلية سنة ١٢٩٠ هـ فاخذ اسماعيل بتنظيم داوئر الحكومة والمحاكم ومجلس النظار ومجلس الشورى ومجلس النواب وغيرها . وتوالى التنظيم في زمن خلفائه ولا يزال . وعملت الحكومة على سن القوانين النظامية في زمن اسماعيل وكان أكثر تعويلها على القانون الفرنسي ووالت التعديل والتنقيح حتى بلغت ما هي عليه الآن

وقد نقل الى العربية لذلك كثير من العلوم القضائية الجديدة والبادىء في النقل مدرسة الالسن في أوائل زمن اسماعيل على يد رفاعة بك ورفاقه أو تلاميذه

العلوم الاقتصادية

عددنا هذه العلوم من الفنون الدخيلة على اللغة العربية في هذا العصر لانا نقلناها عنهم من جملة ما نقلناه من أسباب هذه المدنية ليس لان اللغة العربية كانت خلواً منها فقد كان عند العرب منها شيء كثير لكن على أسلوب آخر — وفي مقدمة ابن خلدون أمثلة من أكثر هذه العلوم

Digitized by Birzeit University Library

لكن ما نقلناه من هذه العلوم أخذناه كما وضعه الافرنج وهم قد بوّبوه ورتبوه وتوسعوا فيه ومحصوه — ولم نقدم على نقل هذه العلوم الا بعد أن نضج ما نقلناه من العلوم الطبيعية والرياضية والقضائية : لأن هذه العلوم كانت تمسُّ حاجاتنا المادية وكنا ننظر الى العلوم الاجتماعية والاقتصادية نظرنا الى العلوم الكمالية ثم رأيناها ضرورية لرقي هيئتنا الاجتماعية ومصالحنا الاقتصادية فعمدنا الى نقلها او تلخيصها

بدأ أدباء هذه النهضة ينقلون هذه العلوم تلخيصاً في الجرائد والمجلات ثم أخذوا في نقلها أو تأليفها في كتب مستقلة ولا نزال في أول هذه الحركة . واكثر ما نقل يختص بالاقتصاد السياسي وهو ما كان يسميه العرب « علم المعاش » لكن النقلة جاروا الافرنج في التسمية فعربوها عن اسمه عندهم Economie Politique فقالوا الاقتصاد السياسي ولكن التسمية العربية أقرب الى الحقيقة

ثم أخذوا ينقلون العلوم الاجتماعية الاخرى وبدأوا بنشر ذلك في المجلات والجرائد ثم أخذوا ينقلونها في الكتب ترجمة او تلخيصاً ويندر من وضع في ذلك تأليفاً من عند نفسه بناء على درسه وملاحظاته

وعلم الاجتماع واسع ، وله فروع كثيرة ، ونريد به هنا ما يتعلق بنظام الهيئة الاجتماعية من الابحاث الادبية والادارية ونحوها وما تزال المنقولات في هذا الفن الى العربية قليلة أهمها كتاب روح الاجتماع وكتاب تطور الامم لغستاف لابون وسر تقدم الانجليز لدمولان نقلها فتحي باشا زغلول وكتاب نشوء الاجتماع لبنيامين كد نقله محمد زكي صالح وكتاب الواجب نقله الدكتور طه حسين ومحمد رمضان

لكن هذا العلم وملحقاته ظهرت ثمارها في أذهان أدباء العرب قبل نقلها الى العربية نعني ان المتخرجين منهم في العلوم باوربا والذين رحلوا الى اوربا وشاهدوا ثمار مدنيتها وأرادوا تطبيقها على أحوال بلادهم قامت في نفوسهم ثورة اصلاحية في الاجتماع والسياسة وغيرهما فنبغ من هؤلاء جماعة نهضوا يلتمسون اصلاح نظامنا الاجتماعي أو السياسي بالوعظ أو الكتابة او التحريض أو غير ذلك . وأشهرهم جمال الدين الافغاني وخليل غانم والشيخ محمد عبده وقاسم امين ومصطفى كامل

مكتبة جامعة بيرزيت

Digitized by Birzeit University Library

Digitized by Birzeit University Library

PJ7510 Z38 1924
IRZEIT UNIVERSITY LIBRARY
A00821
A00821 C 1 V 2

Digitized by Birzeit University Library